جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

الغزو الفكري

IUSU1043

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2008

المحتويات

الـــــــــدرس الأول	:	الغزو الفكري: مفهومه، نشأته، وأهدافه	٧-٢٧
الـــــدرس الثـــاني	:	وسائل الغزو الفكري في العصر الحديث: الاستشراق (١)	٢٩-٦٦
الـــــدرس الثالـــث	:	الاستشراق (٢)	٦٧-١٠١
الـــــدرس الرابـــع	:	الاستشراق (٣)	١٠٣-١٤٠
الـــــدرس الخــامس	:	الاستشراق (٤)	١٤١-١٦٥
الـــــدرس الـــسادس	:	الاستشراق (٥)	١٦٧-٢٠٤
الـــــدرس الـــسابع	:	التنصير (١)	٢٠٥-٢٢٩
الـــــدرس الثـــامن	:	التنصير (٢)	٢٣١-٢٥١
الـــــدرس التاســـع	:	التنصير (٣)	٢٥٣-٢٨٢
الـــــدرس العاشـــر	:	الصهيونية (١)	٢٨٣-٣١١
الـدرس الحـادي عـشر	:	الصهيونية (٢)	٣١٣-٣٤٣
الـدرس الثـاني عـشر	:	الصهيونية (٣)	٣٤٥-٣٧٧
الـدرس الثالث عـشر	:	الصهيونية (٤)	٣٧٩-٣٩٩
الـدرس الرابـع عـشر	:	الماسونية (١)	٤٠١-٤٣٣
الـدرس الخـامس عـشر	:	الماسونية (٢)	٤٣٥-٤٦١
قائمة المراجع العامة			٤٦٣-٤٦٨

الغزو الفكري: مفهومه، نشأته، وأهدافه

عناصر الدرس

العنــــــــصر الأول :	مفهوم الغزو الفكري ونشأته	٩
العنــــــصر الثـــــاني :	ظهور الفِرَق وطريقة مواجهتها للإسلام	١٥
العنــــــصر الثالـــــث :	ظاهرة الوضع في الحديث وتصدي العلماء لها	١٩
العنــــــصر الرابـــــع :	أهداف الغزو الفكري	٢٣

مفهوم "الغزو الفكري" ونشأته

مفهوم الغزو الفكري، وبداية ظهور المصطلح:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

بسم الله نبدأ هذه المحاضرات المتعلقة بمادة "الغزو الفكري"، وإن شاء الله سوف تكون هذه المحاضرات عبارة عن سلسلة تتناول هذا الموضوع الخطير تناولًا تاريخيًّا وموضوعيًّا ونقديًّا في نفس الوقت، وهذا يتطلب منا أن نتكلم أولًا عن المفهوم اللغوي لكلمة: "الغزو الفكري".

من المتعارف عليه: أن الغزو يرتبط بالمفهوم العسكري، بالقوات المسلّحة. يرتبط بالصاروخ، المدفع، الطيارة، الدبابة. ويكون هدفه: احتلال الأرض، طرْد شعب من موطنه ليحتلَّ هذه الأرض شعبٌ آخَر. هذا هو مفهوم الغزو. لكننا لاحظنا في النصف الثاني من القرن العشرين ظهور مصطلح "الغزو الفكري"، بمعنى: أنَّ مواقف أعداء الإسلام تبدّلت وتغيّرت، وأرادت أن تبدأ أولًا بغزو العقول، غزو الفكر، لتحتل عقل الإنسان ليكون ذلك مقدمةً تمهيديةً لاحتلال أرضه بعد أن يكون المستعمِر أو الغازي قد جرّد عقله من جميع المفاهيم التي تتعلق بثقافته الأصلية، بِدِينه، بتراثه، وحلّ محلّها مفاهيمُ أخرى لثقافة أخرى. عملية إحلال وتبديل، أو كما يسميها البعض: عملية غسيل مخ، غسيل

العقول من جميع المواريث العقدية، والإسلامية، والحضارية، والثقافية، وإحلال مفاهيم أخرى محلّها أو بدلًا منها.

أدوات الغزو الفكري:

هذه المفاهيم هي مفاهيم استعمارية معادية للإسلام، ولذلك إذا كان الغزو العسكري يستخدم السِّلاح، يستخدم المدفع والطيارة والدبابة، فإنّ الغزو الفكري يستخدم الكلمة، يستخدم الفكرة، يستخدم المفاهيم العقلية أو المواريث العقلية؛ لأن خطر الكلمة في هذا اللون من المواجهة أخطر بكثير من خطر الدبابة والمدفع. لماذا؟ لأنّ الاستيلاء على العقول هو المقدّمة الطبيعية للاستيلاء على الشخص، على الإنسان. فإذا ما استطعنا أن نحتلّ عقلَ الإنسان فكرياً وثقافيًّا وحضاريًّا، يَسْهُل علينا بعد ذلك أن نوجّه أفعال الإنسان، وأن نوجِّه سلوك الإنسان نحو ما نريد. ولذلك فإن أعداء الإسلام قد سلكوا هذا المسلك ونهجوا هذا النهج نحو الاستيلاء على العقول، ليوجِّهوا الشعوب الإسلامية -وبخاصة المشتغلين بالكلمة والمشتغلين بالثقافة- نحو اعتقاد مفاهيم معيَّنة، وثقافة معيّنة، وحضارة معيّنة، وفوقيّة لجنس معيّن، ليواجهوا بها المفاهيم الإسلامية، والعقائد الإسلامية، والسلوك الإسلامي في شتّى أنحاء العالم الإسلامي.

وهذا الأمر يستدعي منا أن نتناول قضية الغزو الفكري تناولًا تاريخيًّا لنعرف متى بدأ؟ وكيف بدأ؟ وما هي أساليبه؟ وما هي أهدافه؟ طيلة هذه الأحقاب عبر تاريخ الإسلام كلّه؟

هذه المقدمة بيّنا خلالها مفهوم الغزو الفكري.

نشأة الغزو الفكري:

بداية المواجهة بين الإسلام وخصومه:

إذا طرحنا سؤالًا الآن: متى بدأ الغزو الفكري؟

إن هذا المصطلح بدأ متأخِّرًا، ربما في النصف الثاني من القرن العشرين؛ لكن المواجهة بين الإسلام وبين خصومه لم تكن قاصرة على ظهور هذا المصطلح، ولا متوقِّفة على ظهوره تاريخيًّا، وإنما تمتدّ هذه المواجهة لترتبط بتاريخ الإسلام كلّه منذ بدأ أيام الرسول ﷺ مواجهة الإسلام بحملات تندرج تحت هذا المفهوم: "الغزو الفكري". هذه الحملات تضمّنت أحيانًا التشكيك في نبوّة الرسول ﷺ. تضمّنت التشكيك في القرآن الكريم، وهل هو وحي سماوي؟ أم هو من عند الرسول ﷺ؟ هل هو إلهيّ المصدر؟ أم بشريّ المصدر؟ تضمّنت أيضًا التشكيك في السُّنّة النبوية. وتضمّنت التشكيك في جيل الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين-، وهم الذين حملوا لنا ونقلوا إلينا النص القرآني، ونصوص السُّنّة النبوية المطهّرة.

وكان الهدف من التشكيك في جيل الصحابة بالذات هو: محاولة التشكيك فيما نقلوه عن الرسول ﷺ، سواء كان كتابًا أو سُنّة نبوية مطهرة. فكأن قضية الغزو الفكري أو المواجهة الفكرية للإسلام، لم تقتصر على ظهور المصطلح في النصف الثاني من القرن العشرين، وإنما امتدت لتبدأ مع البدايات الأولى لتاريخ الإسلام.

نماذج التشكيك في صدر الإسلام:

وجدْنا البدايات الطبيعية للغزو الفكري تتمثّل في مواقف معيّنة، خاصّةً مع اليهود الذين واجهوا الرسول ﷺ في المدينة المنورة. ربّما في العهد المكي لم يظهر النفاق، وإنما كانت المواجهة صريحة وواضحة مع الرسول ﷺ؛ ومن هنا لا تُعتبر الفترة المكية بداية لوجود ما يسمى بالغزو الفكري. أنا استبعد الفترة المكية أن نطلق عليها، أو أن تنحصر أو تدخل تحت ما يسمى بـ"الغزو الفكري". إنما الفترة المدنية أو العهد المدني هو الذي شهد البدايات الأولى لظهور المواجهة الفكرية للرسول ﷺ وللإسلام ديناً وعقيدة وشريعة.

وكان من أوائل ما ظهر في هذا العهد المدني: بعض الأسئلة طُرحت على الرسول ﷺ لا بقصد العلم، ولكن بقصد التشكيك. سئل ﷺ من اليهود عن الروح ما هي؟ وسئل ﷺ عن الذات الإلهية من اليهود أيضاً. قالوا له: "صف لنا ربك! أمِن ذهبٍ هو؟ أم من فضّة؟".

ظهر النفاق في المدينة، وكانوا يجلسون بعضهم مع بعض، ويتآمرون حول لقاء الرسول ﷺ. هل يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؟ هل يجلسون معه في الصباح يستمعون منه القرآن، ثم يجلسون في آخر النهار يكفرون بما آمنوا به أوّل النهار؟ هذه كلّها مواقف واجَه بها اليهود الرسول ﷺ في العهد المدني.

لكن من الأمور التي يُمكن أن نحدِّد من خلالها المنطَلق التاريخي لهذه المواجهة الفكرية، نتلمّسها في موقف اليهود أيضًا على يد أحد رجال اليهود الذين ظهروا في عصر الخلفاء الراشدين وهو: عبد الله بن سبأ.

عبد الله بن سبأ هذا كان من يهود اليمن، وإن كان البعض يشكِّك في هذه الشخصية، ويرى أنها شخصية وهْمية؛ لكن التاريخ أثبت وجود هذه الشخصية، وأثبت آثارها السيئة في تاريخ الحضارة، وتاريخ الفكر الإسلامي كلِّهب

ظهر عبد الله بن سبأ وهو يحمل في ذهنه وفكره العداء للإسلام، وللقرآن الكريم، وللسُّنة النبوية المطهّرة. وبدأ يلتفّ حول الصراعات أو الخلافات التي نشأت في عصر الخلفاء الراشدين، ويستثمرها لصالحه، مثل: الخلاف الذي نشأ في عصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان > . استثمر هذا الخلاف ليؤسِّس على أثره أهمّ وأخطر فرقة تبنّت المواجهة الصريحة للإسلام من خلال استغلال عواطف المسلمين نحو آل بيت النبي ﷺ، ونحو الإمام علي > ، ونحو ولدَيْه الحسن والحسين، ونحو بنت الرسول ﷺ السيدة فاطمة الزهراء.

نسج عبد الله بن سبأ كثيرًا من الأساطير والآراء والأفكار المزيّفة، ونسبها إلى الإمام علي > ، ووصفه بصفات النبوّة، وأحيانًا بصفات الألوهية. وبدأ يلتفّ حوله مجموعة من يهود اليمن، وأطلقوا على أنفسهم اسم: "الشِّيعة" -أي: شيعة علي > . وبدأ يلتفّ حولهم بعض السُّذّج من المسلمين. وتولّى كِبْر هذه القضية وباء بإثمها عبد الله بن سبأ، أحيانًا يتناول النصوص القرآنية بتأويلات وتحريفات لا أصل لها لا في اللغة ولا في التنزيل الحكيم. وتأسّس ابتداءً من هذا الرجل ما يمكن أن نسمِّيَه أحيانًا: حزبًا سياسيًّا، أحيانًا: فرقة من فِرَق المتكلمين وهي: فرقة "الشِّيعة" التي خرج من بطنها أخطر فرقتيْن واجهتا الإسلام مواجهة فكرية: فرقة "الباطنيّة"، وفِرقة "القرامطة".

ولكن قبل أن أتكلمَ عن فرقتَي: الباطنية والقرامطة، من المهمّ: أن نبيِّن أيضًا أنّ اليهود لم يكونوا وحْدهم الموجودين في الساحة لمحاربة الإسلام محاربةً فكرية،

ولكن كان هناك أيضًا الطرف الآخر الذين نسمِّيهم: أهل الكتاب من النصارى. إذا كان اليهود تجسّدتْ مؤامراتهم في عبد الله بن سبأ، وما نشأ عنه من فِرَق مغالية محرِّفة للكتاب والسُّنة، فإنّ النصارى تبنَّوا أيضًا المواجهة الفكرية للإسلام من خلال التشكيك في أهمّ أصول الاعتقاد وهي: قضيّة القرآن الكريم، وقضيّة التوحيد. تبنَّى هذه القضية في العصر الأموي رجل من رجال الكنيسة القبطية كان يعمل في بلاط بني أميّة يُسمّى: يوحنّا الدمشقي.

هذا الرجل بعد أن انتشر الإسلام شرقًا وغربًا، وبسط سلطانه على كثير من أنحاء المعمورة أيقن تمامًا أنه لا سبيل إلى المواجهة المباشرة لمحاربة الإسلام، وإنما فضّل أو آثر أن يواجه الإسلام بإثارة كثير من الشكوك والشبهات حول العقيدة الإسلامية؛ فوضع رسالةً هي من أوائل ما وصل إلينا من أسلوب المواجهة الثقافية بين الإسلام وخصومه -خاصةً النصارى- في هذا اللون من المواجهة بالذات.

هذه الرسالة وضعها يوحنّا الدمشقي على شكل حوار بين مسلم ونصراني، وأخذ فيها بمنهج: إذا سألك مسلم عن كذا فأجبه بكذا وكذا، وإذا واجهك مسلم فاسأله عن كذا وكذا. وكان ممّا أثاره في هذه الرسالة: قضية خلْق القرآن. هذه المشكلة ظهرت من خلال محوريْن: هذا المحور الذي نتحدَّث عنه الآن، والمحور الثاني ربما أرجَعَه بعض المؤرخين إلى الجعد بن درهم، أو إلى غيره من اليهود الذين تكلّموا في الصفات الإلهية، وتناولوا من خلالها الحديث عن كلام الله، أو عن القرآن الكريم. لكن الذي يهمّنا هنا هو: مواجهة يوحنّا الدمشقي للقرآن الكريم بإثارة الشكوك حول كلام الله: هل هو قديم، أم حادث؟ تناول هذه القضية في شكل حوار بين مسلم ومسيحي.

تقول الرسالة على لسان نصراني :

عليك أن تسأل المسلم : أليس يؤمن بأنّ عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم؟ فيقول المسلم : بلى ؛ لأن القرآن الكريم يقول : إن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم. أليس يؤمن المسلم بأنّ القرآن كلام الله؟ فيقول المسلم : نعم القرآن كلام الله. إذا كنتم تؤمنون بأن عيسى كلمة الله ، ولا تقولون بأن عيسى إله ، وإنما تقولون : هو بشر ومخلوق وهو كلمة الله ؛ فيكون كلام الله مخلوقاً. ووضع هذه القضية في شكل قياس منطقي : عيسى كلمة الله وهو مخلوق ، والقرآن كلام الله ؛ إذاً يكون القرآن كلام الله مخلوقاً. وحاول أن يثير هذه الفتنة بين المسلمين. وقد أفلح إلى حد كبير في إثارة هذه القضية التي فرّقت كلمة المسلمين ، وامتُحن بسببها الإمام أحمد بن حنبل في العصر العباسي ، وما زال المسلمون يكتوون بنار هذه الفتنة إلى الآن.

إذاً قضية إثارة الشبهات والشكوك ، ومحاولة غزو المسلمين أو غزو الإسلام من الداخل ، بدأت منذ التاريخ المبكِّر ، كما وجدنا الآن في عصر الخلفاء الراشدين عبد الله بن سبأ ، وفي العصر الأموي يوحنّا الدمشقي.

ظهور الفِرَق، وطريقة مواجهتها للإسلام

ولو انتقلنا تاريخياً إلى بدايات العصر العباسي ، سوف نجد أنّ اليهودَ كانوا قد بدؤوا يكوِّنون ما يمكن أن يُسمَّى بالفِرَق. هذه الفِرَق حاولت أن تضع لأنفسها منهجًا لمواجهة الإسلام ، وكيفية مواجهته. كانت قد ظهرت طائفة الباطنية ، الذين ينتسبون إلى ميمون القدّاح ، وهذا الرجل من يهود سبأ ، أو من يهود اليمن جنوب الجزيرة العربية ، وانتسب إلى بيت الإمام جعفر الصادق ، وظهر على

الناس بمظهر أنه ابن الإمام جعفر الصادق. سَمَّى نفسه محمد بن جعفر الصادق أحيانًا، وأحيانًا كان يظهر على الناس بأنه خادم محمد بن جعفر الصادق. وهذا الرجل وضع منهجًا للدعوة إلى المذهب الباطنيِّ رسمه رسمًا محكمًا بحيث ينتقل الداعية من خلال هذا المنهج خطوة خطوة في دعوة الأفراد والجماعات إلى الفكر الباطني، وإلى المذهب الباطني. هذا المنهج دوّنه علماء الكلام من أهل السُّنة والجماعة في كُتبهم.

ومن المفيد أن أشير هنا إلى: أنّ هذا المنهج الذي وضَعه ميمون القدّاح نجد بعض ملامحه في منهج الماسونية العالمية الموجودة على الساحة الثقافية الآن، وربما طبقت الماسونية العالمية في القرن العشرين كثيرًا من خطوات هذا المنهج؛ وهذا يبيِّن لنا العلاقة التاريخية بين اليهود وبين الماسونية التي ظهرت خلال القرون المتأخّرة، والتي واجهت أهل الأديان عمومًا بإثارة كثير من الشكوك والشبهات.

ميمون القداح هذا ربّى أبا عبد الله الشِّيعي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر. ربّاه على عيْنه، ولقّنه المنهج الباطني، وأرسله هو وجماعة إلى شمال إفريقيا. ولقّنه الدروس المهمّة لنشر المذهب الباطني في شمال إفريقيا، وقال له عبارته الشهيرة: "اذهبْ إلى هذه البلاد؛ فإنها أرض بِكْر تنبت فيها أفكارنا كما تنبت بذور الحب في الأرض الخصبة". وفعلًا ذهب أبو عبد الله الشيعي إلى شمال إفريقيا، ومنها جاء إلى مصر، وأسّس الدولة الفاطمية التي يمكن أن نسمِّيها: دولة الفكر الإسماعيلي، أو الدولة الباطنية.

في هذه الأثناء هناك فرقة أخرى واجهت الإسلام بإثارة الكثير من الشكوك والشّبهات في القرن الثالث الهجري، هذه الفرقة تُسمّى: فرقة القرامطة. وهي وفرقة الباطنية مشربهما واحد، وهدفهما واحد. هؤلاء القرامطة طلعوا على

الناس بمجموعة من الأفكار التي توهم البعض بأنَّهم يبحثون عن مصلحة الفقراء، وعن حقوق الفقراء في مال الأغنياء؛ ولذلك البعض يسمّونهم: فرقة اجتماعية، أو فكر اجتماعي، لكنهم -في واقع الأمر- فرقة من الباطنية حاولت أن تكيد للإسلام، بدليل: أنها أبطلت التكاليف الشرعية -كما سوف نرى فيما بعد-.

فرقة القرامطة تنتسب إلى حمدان بن الأشعث القرمطي. واجه الخلافة العباسية مواجهة عسكرية، وطرح عليها فكرة إبطال الشعائر الدينية، ومن أوائلها: إبطال فريضة الحج. وتنفيذًا لهذه الأهداف، وتطبيقًا لمكائده للإسلام، جاء هو ومجموعة من أصحابه إلى البيت الحرام وسرقوا الحجر الأسود. وظل في حوزتهم عقْدَيْن من الزمان في شرق الجزيرة العربية في الأحساء. وجسّدوا أهدافهم وشُبُهاتهم وشكوكهم التي وجّهوها إلى الإسلام في بعض القصائد الشعرية التي راجت عند الدهماء من الناس في هذه المنطقة؛ حتى إنّ شاعرهم كان يقف على المنبر ويردِّد هذه الأبيات:

خُذي الدُّفّ يا هذه والْعَبي ❖ وغنِّي هذاريكِ ثم اطربي
تولّى نبيُّ بَني هاشمٍ ❖ وهذا نبيّ بَنِي يَعْربِ
فقد حطّ عنّا فروضَ الصلاةِ ❖ وحطّ الصيامَ ولم يُتْعِبِ
إذا الناسُ صلّوْا فلا تَنهضي ❖ وإن صَوّموا فكُلي واشربَي
ولا تمنعي نفسَكِ المُعرسين ❖ من الأقربين ومن أجْنَبي
فكيف تَحِلّي لهذا الغريبِ ❖ وصِرْتِ مُحرّمةً للأبِ
أليس الغراسُ لمن ربّهُ ❖ وسقاه في الزمنِ الأجدبِ

وفي رواية:

أليس الغـراسُ لمـــن ربّــهُ ❖ وسقــاه في الزمـــنِ المُجدِبِ

وفي نهاية القصيدة يقول:

وما الخمرُ إلا كمــاء السمــاءِ ❖ حـــلالا، فقُـــدِّسْتَ مِن مَــذْهبِ

هذا هو منهج القرامطة التي لخّصها وجسّدها شاعرهم في هذه الأبيات. وترتّب عليها: أن سرقوا الحجر الأسود من مكة ليبطلوا شعيرة الحج، وأعلنوا على الناس في هذه المرحلة القول بشيوعيّة المرأة تطبيقًا لمبدئهم القائل:

فكيف تَحِـلّي لهـــذا الغريبِ ❖ وصِــرْتِ مُحـــرّمــةً للأبِ

فقالوا بنكاح المحارم، وأبطلوا الصلاة، وأبطلوا الصيام، وأبطلوا الزكاة. وعمّت الفوضى بين هؤلاء الفِرَق. وكان من أخطر الفترات التي واجهت الفكر الإسلامي في هذه المرحلة. وللحقيقة، نجد أنّ خلفاء الدولة العباسية واجهوا هذه الفرقة بحَسمٍ وعزمٍ شديديْن، فاستعادوا الحجر الأسود، وأعادوه إلى الكعبة المشرفة.

لكن الذي أؤكد عليه في هذا السرد التاريخي: أنّ المواجهة الفكرية للإسلام لم تكن مرتبطةً أبداً بظهور مصطلح "الغزو الفكري"، وإنما هي مواجهة تاريخية بدأت مع ظهور الإسلام، وتعدّدت وتنوّعت مع انتشار الإسلام.

إذا انتقلنا تاريخيًّا مع ظاهرة المواجهة الفكرية للإسلام، نجد أنه ظهرت بعض الفِرَق في خضَمّ الخلاف القائم بين الباطنية والقرامطة من جانب، وبين أهل السُّنة والجماعة من جانب آخَر. بعض الفرَق التي غالت في كثيرٍ من العقائد، وحاولت أن تؤوِّل في ضوء عقائدها بعض نصوص القرآن الكريم، مما جعل أهل السنة والجماعة في هذه المرحلة بالذّات يواجهون هذه الظاهرة -ظاهرة الغزو الفكري- بمجموعة من الكتب العقائدية التي ينبغي أن يتنبّه المسلمون لها الآن؛ لأننا في

عصرنا الحاضر أحْوج ما نكون إلى بعثها من جديد، واحتضان هذه المؤلفات من جديد، وإعادة نشرها وإشاعتها بين الناس من جديد؛ لأنها تحمل معالم العقيدة الإسلامية الصحيحة المعتمدة في أصولها وفروعها على الكتاب والسُّنة.

ظاهرة الوضع في الحديث وتصدي العلماء لها

في هذه الفترة ظهرت قضية الوضع في الأحاديث النبوية، ونِسْبتها كذبًا وزورًا إلى الرسول ﷺ، وظهر أيضًا قضيّة الوضع والانتحال لكثير من الأقوال المنسوبة إلى آل بيت النبي ﷺ، وإلى الإمام علي بن أبي طالب، وإلى الإمامين الجليليْن العظيميْن: الحسن والحسين، استغلالًا لعاطفة المسلمين وحبِّهم لأهل البيت. ترتّب على هذا: أنّ أئمّة السُّنة والجماعة بدؤوا يواجهون هذه الحملات بوضع مؤلّفات كثيرة تحمل عناوين لها دلالة في غاية الأهمية.

سوف أتناول هذه المجموعة من الكتب الآن؛ لأنها تمثِّل الرصيد الثقافي والإسلامي لمواجهة هذه الحملات التشكيكية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري.

ظهرت مجموعة من الكتب تحمل اسم "السُّنة"، دلالةً على أنّ ما عدا هذا ليس من السُّنة. فظهر كتاب "السُّنة" للإمام أحمد بن حنبل، وظهر كتاب "السُّنة" للخلال، وظهر كتاب "السُّنة" للأثرم، والطلمنكي، وغيرهم وغيرهم، مجموعة كبيرة جدًّا من المؤلفات ظهرت تحت عنوان: "السنة"، لتُعْلم المسلمين: أن العقائد التي لا ترتكز على ما جاء في هذه الكتب ليست من السُّنة، وإنما هي ممّا أثاره

المشكِّكون والمحرِّفون لكتاب الله، والذين تولّوا قضية الوضع والدس على الرسول وعلى آل البيت.

المجموعة الأولى تحمل اسم: كتاب "السنة".

المجموعة الثانية تحمل عنوان: "الإبانة عن أصول الديانة".

فظهر كتاب "الإبانة" للإمام ابن بطة العكبري. وظهر كتاب "الإبانة" لأبي الحسن الأشعري. وظهر كتاب "الإبانة" لغيرهما، دلالةً على: أنّ العقائد الصحيحة هي المدوّنة تحت هذه العناوين، وما عداها لا ينبغي أن يَهتمّ به المسلمون لأنه مأخوذ من عقائد محرّفة.

كما ظهرت مجموعة أخرى تحمل عنوان: "الرّدّ"، على المشكِّكين. هؤلاء المشكِّكون كانوا جماعات متنوّعة، منهم: من أُطْلِق عليهم: "الجهميّة". فكتب في الرد على الجهمية، الذين تولّوا إثارة شبهات حول العقيدة الإسلامية، ظهر كتاب "الرد على الجهمية" للإمام أحمد بن حنبل، "الرد على الجهمية" لبشر بن سعيد المريسي، ولغيرهما كتب بهذا العنوان.

وظهرت كتب بعنوان: "الرد على الزنادقة"، "الرد على المعطِّلة".

وكلمة: "الرد" هذه تعني: المواجهة المباشرة، إبطال حُجّة بحُجّة، إبطال رأي برأي، إبطال فكرة بفكرة؛ ولذلك نجد أن الأفكار التي أثيرت في بدايات القرون الأولى للإسلام ظلّت هذه الأفكار معشّشة وموجودة في تراثنا الإسلامي تجد من يتناولها بين الحين والآخر، ويعمل على إثارتها بين الحين والآخر بقصد تفريق صفوف المسلمين، وخاصةً إثارة النعرات والعصبيات بين أصحاب الانتماءات

المذهبية، بين الفِرَق الإسلامية بالذات.

من هنا نستطيع أن نقول: إنّ المواجهة الفكرية استمرّت على طول التاريخ الإسلامي، لكنها كانت تتلوّن بألوان مختلفة حسب نوع الثقافة المثارة في العصر، وحسب القضايا المثارة في العصر، وحسب مستوى المفكِّرين الذين يتناولون هذه القضايا في كل عصر، وحسب احتكاكات الثقافة الإسلامية بغيرها من الثقافات المختلفة؛ لكن كل هذه الأفكار والشكوك والشبهات التي ثارت في القرون الثلاثة الأولى أو الأربعة الأولى للإسلام أو للهجرة النبوية يمكن أن نطلق عليها: غزْواً داخليًّا، أو مشكلات داخلية، أو قضايا داخلية أثارها بعض الذين دخلوا الإسلام، واعتنقوا الإسلام لا عن عقيدة راسخة، ولا عن إيمان صحيح، وإنما بقصد إثارة الشكوك والشبهات في داخل الإسلام من داخل النصوص الإسلامية. لكن في القرون المتأخِّرة، وخاصةً بعد الحروب الصليبية، وبعد احتكاك المسلمين بأوربا بالذات وبالغرب، ظهرت ملامح وعلامات وأمارات جديدة تمثِّل وتجسِّد موقف الغرب من الإسلام ومن المسلمين. وهذه العلامات أو الأمارات الجديدة أو المواقف الجديدة ترتّبت على فشل الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها من الاستيلاء على بيت المقدس، من غزو الإسلام في عقر داره. نتيجة فشل الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها، بدأ الغرب يفكِّر في كيفية النَّيْل من الإسلام ومن المسلمين عن طريق إثارة وتكرار الشُّبهات والشكوك التي أثارها اليهود والنصارى حول الإسلام في القرون الأولى للهجرة.

ظهرت ظاهرة الاستشراق، وظاهرة التبشير؛ ولن أتكلّم عن هاتين الظاهرتين تفصيلًا الآن، لكن الذي أودّ أن أؤكِّده هنا: أنّ القضايا التي أثارها المستشرقون

والشبهات التي تناولها المستشرقون لم تكن جديدة على الفكر الإسلامي، ولم تكن جديدة على تاريخ الثقافة الإسلامية. ولو تناولناها واحدةً تلوَ الأخرى سوف نجد أنّ كل الشكوك والشبهات التي تناولها المستشرقون تناولَها المشركون، وتناولها اليهود في صدر الإسلام، ووجدت في وقتها وفي حينها من يتولّى الرد عليها ويفنِّدها شبهةً شبهة.

لكن بظهور الاستشراق، وتجسيد أعمال المستشرقين في واقع العالم الإسلامي وفي الأرض الإسلامية، ظهرت ملامح جديدة وتوجهات جديدة لموقف الغرب من الإسلام عمومًا، ومن العقيدة الإسلامية، ومن القرآن الكريم. وتجسّدت هذه المواقف في موقف المستشرقين من الإسلام، في نشاط المبشِّرين في العالم الإسلامي، في موقف ساسة أوربا عمومًا، واعتناقهم واحتضانهم لآراء وأفكار المستشرقين، ومحاولة تطبيق منهج الاستشراق الذي يرسمه للسَّاسة في أوربا، على واقع العالم الإسلام، وعلى الأقطار الإسلامية بلدًا بلدًا وقطرًا قطرًا.

أهداف الغزو الفكري

وقبل أن نسترسل في الحديث عن مظاهر أو ظواهر الغزو الفكري في العالم الإسلامي، لا بد من إثارة سؤال: ما هي الأهداف الحقيقية من محاولة النّيْل من الإسلام، أو من الغزو الفكري لعقول المسلمين؟ ما هو الهدف الأساسي لهذه الظاهرة؟ ولماذا استبدلوا الغزو الفكري بالغزو العسكري؟

هنا نقطة على جانب كبير من الأهمية وهي: أن انتصار المسلمين في أوّل عهدهم بالإسلام، والفتوحات الإسلامية الواسعة التي لفتت نظر العالم كلّه، كيف

ينتشر الإسلام هذا الانتشار السريع في قرن واحد من الزمان ويغطّي سائر أنحاء المعمورة؟ هذا الانتشار السريع طرح على مفكّري أوربا ومنظّريها عديدًا من الأسئلة: ما هو السبب الحقيقي لانتشار الإسلام؟ وكيف ينتصر الإسلام بهذه السرعة، وينتصر المسلمون وهم آتون من الجزيرة العربية لا عهد لهم بفنون الحرب، ولا يملكون من العدد والعُدّة مثل ما يملك الغرب، ولم يكن سلاحهم أقوى من سلاح الغرب؟ ولكن انتصر الإسلام بهذه السرعة المذهلة. وبحثوا طويلًا حول إيجاد سبب أساسي لانتشار الإسلام بهذه السرعة، وانتصار المسلمين في كل المعارك التي خاضوها ضد أعدائهم، وربما وصلوا من ذلك إلى أن السبب الحقيقي وراء هذا الانتصار والانتشار السريع يرجع إلى أمرين:

سهولة الإسلام وسهولة العقيدة الإسلامية ويسرها؛ فالعقيدة الإسلامية سهلة وميسورة، وليس فيها من التعقيدات ما يملّ أو يكلّ من أجله العقول. ليس في العقيدة الإسلامية أمور معقّدة تصيب العقل بالكلل أو الملل، وليس في الإسلام أمور غامضة عسيرة على الفهم.

والأهم من هذا أيضاً: أنّ الذين اعتنقوا الإسلام كانوا صادقين في اعتناقهم للإسلام، كانوا مؤمنين به إيمانًا جازمًا، كانوا يفْدونه بأرواحهم وعقولهم، وكانوا يبذلون في سبيل نصرته الغالي والنفيس. جعلوا همّهم الأكبر هو: الإسلام، هو: انتشار الإسلام، وليس غُنمًا ماليًّا أو كسبًا ماديًّا، وإنّما جعلوا قضيّتهم هي: الإسلام، هذه العقيدة التي جعلت من أفراد المسلمين وقلّة عددهم يواجهون العالم كلّه.

بدأ المستشرقون أو أعداء الإسلام يخطّطون كيف ينالون من هذه العقيدة؟ كيف يهزمون المسلم داخليًّا في عقيدته؟ كيف يثيرون شبهات حول القرآن الكريم وحول

أصول الإسلام؟ لأن هذه الأمور: غزو العقيدة، وإثارة الشّبهات والشكوك حول القرآن وحول الإسلام هي المدخل الطبيعي لجعل المسلم يتهاون في عقيدته، يتهاون في إسلامه، يحاول التخلص من القضايا التي ثارت حولها الشبهات والشكوك. ومن هنا ركّزوا اهتمامهم على غزو العقيدة الإسلامية من داخل المؤمن، فإذا ما تخلّى المسلم عن عقيدته أصبح إنسانًا هشًّا تعصف به الرياح، سواء كانت رياحًا سياسية، أو رياحًا مذهبية، أو رياح أهواء شخصية. أمّا صاحب العقيدة فهو ثابت كالجبل، لا يلين أبدًا، لا يداهن، لا يساوم على عقيدته.

كما وجّهوا أيضًا سهامَهم نحو القرآن الكريم؛ فأثاروا الشبهات حول قضية الوحي، حول قضية بشرية القرآن، وأنه من عند محمد وليس من عند الله؛ بل أكثر من هذا: تناولوا شخص الرسول، وبيْت الرسول، وسلوك الرسول، بإثارة الشبهات حول الرسول ﷺ لينسحب هذا الشك ويؤثّر في عقائد المسلمين، وفي علاقة المسلم برسول الله ﷺ، ويبدأ من هذا نوعٌ من التساهل والتراجع عن العقيدة الإسلامية، وعن التمسك بأوامر الله ورسوله ﷺ.

ومن هنا يمكن أن نحدِّد أهداف هذه الحملات التشكيكية في الأمور الآتية:

الأمر الأوّل: هو العمل على هدم الإسلام في داخل المسلم، زعزعة العقيدة الإسلامية في قلب المؤمن، حتى يتناولها المسلم بشيء من الاستهانة، فلا يمارس العبادات ولا الشعائر الدينية، ولا يهتم بالسلوك الإسلامي؛ لأن السلوك الإسلامي هو تطبيق عملي لصحة العقيدة، للعقيدة الصحيحة لارتباط العمل بالإيمان. فإذا ما هدموا أركان الإسلام، فإذا ما هدموا العقيدة الإسلامية وصوّبوا إليها سهامهم وشكوكهم، ضعُف إيمان المسلم، واهتزّت عقيدته، وبدأ يظهر ذلك في سلوك

المسلم، وفي علاقة المسلم بالمسلم، وفي علاقة المسلم بدِينه وبربه وبمجتمعه؛ فتبدأ الأمراض الاجتماعية تطفو على السطح في الشعوب وفي المجتمعات الإسلامية، كأمراض النفاق، كأمراض الرياء، كشيوع الفواحش والمنكرات، كمحاولة التخلص من الطقوس والشعائر الدينية، كشيوع الانحلال في المجتمع المسلم. هذه الأمراض كلها لم تظهر في المجتمع إلا بعد أن زعزع وعمِل هؤلاء المواجهون للإسلام على زعزعة وإضعاف العقيدة الإسلامية في قلب المؤمن.

إذاً المهمّة الأولى: هي العمل على هدم الإسلام وزعزعة العقيدة في داخل قلب المؤمن، ليهتزَّ سلوك المؤمن؛ وبالتالي يهتز سلوك المجتمع كلّه. ولا شكَّ أنّ هذه المهمة قد أثَّرت في بعض المجتمعات، ووجدت من يتبنّى بعض الأفكار التي غزا الاستعمار المسلمين بها، وقد نتناولها بالتفصيل فيما بعد.

المهمّة الثانية: هي إثارة الفُرقة والشقاق، وتمزيق الصف الإسلامي. وأجهد المستشرقون -والأعداء عمومًا- أنفسَهم في إثارة الفتن بين المسلمين، ابتداءً من صدر الإسلام. ولعل مقتل الإمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ومقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، ومقتل علي بن أبي طالب { ، ولعل إثارة الفتنة بين بني أمية وبين الإمام علي، وواقعة كربلاء، والمواقع الحربية التي خاضها الإمام علي مع بني أمية في واقعة صفّين، وفتنة الخوارج، كل هذه أمور تجسِّد تفرقة وتجزئة وانشقاق الصف الإسلامي نتيجة إثارة الفتن في بدايات الدولة الإسلامية. وما زالت هذه الخلافات قائمة، وبعضها يعمل عمله من وراء الستور، أو من تحت السطح -كما يقولون- في إثارة الفتن، لتجزئة الوحدة الإسلامية، وتمزيق الصف الإسلامي.

المهمّة الثالثة: هي تشويه صورة الأمّة الإسلامية في أعين الآخرين، عن طريق تجسيد هذه الشكوك، وهذه الشبهات في كتابات بعض المحلّلين، ومحاولة وصف الأمّة الإسلامية من واقع هذه الشبهات: أنها أمّة لا تحبّ العلم، ولا تميل إلى العلم، ولا إلى المنهج العلمي، وتؤمن بالخرافات و... و... هذه المهمّة -وهي: تشويه صورة الأمّة الإسلامية- وجدت من يتبنّاها في القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة. وحاولوا أن يستغلّوا واقع المسلمين المعاصر والمتخلّف، ويجعلوا سبب تخلّف المسلمين في القرون المتأخِّرة هو تمسّكهم بالإسلام، هو تمسكهم بالقرآن، هو إيمانهم بالغيبيّات. ووصفوا الإسلام بواقع المسلمين المتخلّف. سحبوا تخلّف المسلمين على الإسلام كمبادئ وقواعد وعقائد، ولم يفطنوا إلى أن المبدأ في نفسه شيء، وتطبيق المبدأ على يد الإنسان شيء آخَر.

وهذه القضية ينبغي أن ينتبه الكتّاب والمثقّفون إلى خطورتها، وخطورة أثرها على الشباب. أن يُحكم على الإسلام من واقع تخلُّف المسلمين: لا! هذا ظلم! وهذا خطأ منهجيّ وخطأ علمي! فإن سبب تخلّف المسلمين -إذا أردنا الحقيقة والإنصاف- هو بسبب إهمالهم للأخذ بمبادئ القرآن الذي يدعو إلى العلم، ويدعو إلى العمل، ويجعل العلم وعمل العالِم في المعمل والتجربة كأنه يعمل في محراب العبادة لله سبحانه وتعالى.

قضية تشويه صورة المسلمين، استغلّ الأعداء فيها واقع المسلمين، وحاولوا أن يسحبوا هذا التخلف ويصفوا به الإسلام، ويصفوا به القرآن الكريم، ويجعلوا من أسبابه أو من أهم أسبابه: أنَّ المسلمين متمسِّكون بالقرآن، وأنّ تمسّكهم بالقرآن هو سبب هذا التخلف.

المهمّة الرابعة: هي محاولة خداع أنصاف المثقّفين في العالم الإسلامي، بإظهار أن

العالم الغربي، أو أنّ أوربا تقدّمت ؛ لأنها تخلّصت من سيطرة الأديان عليها، وأنّ سبب تخلّف المسلمين هو: تمسكهم بالإسلام. فجعلوا تقدم أوربا سببه الأساسي: ثورة أوربا، ومحاربتها للأديان، وتخلّف المسلمين سببه الأساسي هو: تمسّكهم بالإسلام. وهذا خطأ آخَر ينبغي أن يتنبّه له علماء المسلمين، ويرشدوا الشباب إلى خطورته ليعلموا أنّ أوربا لم تتقدّم، لأنها تخلّت عن المسيحية، وإنّما تقدّمت لأنها أخذت بالمنهج العلمي، وأخذت بالعلم، وطبّقت قوانين العلم، وأنّ المسلمين لم يتخلّفوا لتمسّكهم بالإسلام، بل لأنهم لم يأخذوا بالمنهج العلمي الذي دعاهم إليه القرآن الكريم، وأَمَرهم به القرآن الكريم. فقضية ربط التقدم والتأخّر بالدِّين قضية ظالمة، لكن أعداء الإسلام حاولوا أن يخدعوا الشعوب الإسلامية بربط التقدم الحضاري في أوربا بموقف أوربا من الأديان، ومحاربتها الأديان، وأن تخلُّف المسلمين هو بسبب تمسّكهم بالإسلام.

هذه أمور ينبغي أن نُنبِّه إليها الشباب ؛ لأنها على جانب كبير من الأهمية في توضيح صورة العلاقة بين الشرق والغرب، بين أوربا والإسلام. القضايا التي يثيرها الغرب ويدندن حولها، حول تشويه صورة الإسلام من جانب، وخداع المسلمين من جانب آخر، ينبغي أن ننتبه لها، ونبيِّن وجْه الحق فيها لخطورتها على التأثير في عقول الشباب.

وسائل الغزو الفكري في العصر الحديث:
الاستشراق (١)

عناصر الدرس

العنــــــــصر الأول	: ذكر أهم وسائل الغزو الفكري في العصر الحديث	٣١
العنـــصر الثـــاني	: مدرسة الاستشراق	٤٤
العنــصر الثالـــث	: تاريخ الاستشراق ونشأته	٤٩
العنــصر الرابـــع	: أسباب الاستشراق وعلاقته بالاستعمار	٥٣
العنــصر الخـــامس	: اهتمام جامعات أوربا بالدراسات الشرقية	٦٤

ذكر أهم وسائل الغزو الفكري في العصر الحديث

لعلّ غزو العقول يُعتبر هدفًا أساسيًّا للسيطرة على الإنسان لكي يحرِّكه الآخَر كما يُريد، ولكي يكون كالدُّمية في يد الآخَر. تفريغ الإنسان من عقيدته، تفريغ الإنسان من مضمونه الثَّقافي، من مضمونه الحضاري، محاولة السَّيطرة على عقله فكريًّا، وثقافيًّا، وحضاريًّا؛ هذا هو تجسيد للأهداف العامة لما نُسمِّيه: الغزو الفكري. فإذا كانت خطط الغزو الفكري تنوَّعت واختلفت حسب تنوّع المواجهة من بلد إلى آخَر، إلاّ أنّ الجامع أو القاسم المشترك الأعظم بين هذه الخطط يتجسّد في هذه القضية: تفريغ المؤمن من عقيدته، زعزعة العقيدة في قلب المؤمن. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، اتَّخذ الغزو الثقافي أو الغزو الفكري أساليب متنوعة اختلفت من بيئة إلى بيئة، ومن فرد إلى فرد؛ بل تختلف مع الفرد الواحد من لحظة إلى أخرى. يحاولون أن يستغلّوا الظروف أحسن استغلال، لتحقيق أغراضهم وأهدافهم في تحصيل الفائدة من الغزو الثقافي.

ولو تتبّعنا مظاهر هذه الأساليب في عصرنا الحاضر، سوف نجدُها تستغلّ معطيات العصر الحاضر، واستغلال وسائل العلم المتنوّعة لنشر هذه الأفكار المسمومة، وتحقيق هذه الأهداف بين صفوف المسلمين. وسوف أطرح على حضراتكم بعض الوسائل التي سلكها الآخَر أو أعداء الإسلام، كوسائل لنشر أفكارهم التي تعمل على زعزعة العقيدة في قلب المؤمن.

من هذه الوسائل:

أ- وجدْنا الاستعمار العسكري بعد أن استولى على كثيرٍ من الأقطار الإسلامية،

بدأ يعمل جاهدًا على فتح المدارس والمؤسّسات التعليمية والتربوية في شتّى أنحاء البلاد التي يستعمرها عسكريًّا، ويطرح في هذه المدارس مناهج دراسية، ومناهج تربوية تعمل في محوريْن اثنيْن، أو على محوريْن اثنيْن:

المحور الأول: تتناول الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بفروعه المختلفة، تتناول القرآن الكريم، والسُّنة النبوية المطهّرة، تتناول شخصيّات الصحابة بالتشويه والتشكيك وإثارة الشّبهات حول أشخاصهم وحول سلوكهم، لينشأ الطفل وهو فاقد الثقة في هذه الشخصيات، وفاقد الثقة في كلّ ما يسمعه أو يقرؤه عن الإسلام، ومن القرآن الكريم، ومن السُّنة النبوية المطهرة، وخاصة الرسول ﷺ. ولا نجد بلدًا عربيًّا أو إسلاميًّا استولى عليه الاستعمار الغربي عسكريًّا إلا وكان من أوائل ما بدأ تنفيذه في هذا البلد أو ذاك هو: فتح المدارس الأجنبية. فكان يستبعد اللغة العربية استبعادًا تامًّا، ويدرس مكانها اللغات الأجنبية. وحين يواجهه أهل هذا البلاد أو ذاك بشيء من الامتعاض أو النقد أو... أو... كان يحاول أن يرضيهم ببعض الكلمات المعسولة التي تحمل معها السم: أنتم بلاد متخلفون، ولا بد أن نقدّم لكم العلم الحديث بمنهج حديث، وبمنهج بلادنا. هذا محور: محور التشكيك.

أمّا المحور الآخَر: محور التمجيد في الحضارة الأوربية، التمجيد في الثقافة الأوربية، التمجيد في الإنسان الأوربي، في العقلية الأوربية، ومحاولة مقارنة واقع المسلمين بواقع أوربا، وربط تقدّم أوربا بدعوى أنها تخلّصت من المسيحية، وربط تخلّف المسلمين بدعوى أنهم متمسكون بالإسلام. تجد هذا مبثوثًا في مناهج -للأسف الشديد- في علوم لا علاقة لها بالثقافة الإسلامية إطلاقًا، كعلوم الكيمياء، والطبيعة والفيزياء، والرياضيات، والأخطر من هذا في مجموعة العلوم

الإنسانية، كالفلسفة مثلًا، كالتاريخ مثلًا، كعلم اللغة مثلًا، كعلوم الأدب، كعلوم الشعر، كعلوم المسرح، فنون المسرح. هذه المجموعة من العلوم يتناولون فيها أوربا كما لو كانت المثَل والقدوة، يتناولون فيها الإنسان الأوربي كما لو كان نبيّ العصر.

محوران مهمّان جدًّا كانت تعمل خلالهما المؤسسات التعليمية والتربوية في البلاد المستعمرة: محور هدْم يتمثّل في التشكيك في ماضي الأمّة، في ثقافتها، في حضارتها، في أديانها، ومحور بناء وهو: تمجيد الحضارة الأوربية، تمجيد الثقافة الأوربية، تمجيد الإنسان الأوربي، لينشأ الطفل ويجعل قِبلته وكعبته ليس الإسلام، وليست المدينة المنورة، وليس القرآن، وليس محمداً، وإنما يجعل كعبته وقِبلته هي: الإنسان الأوربي، هي: الحضارة الأوربية.

وهذه المدارس قد أثمرت وأثّرت تأثيرًا كبيرًا في أجيال القرن العشرين، خاصةً النصف الثاني من القرن العشرين؛ بحيث خرّجت هذه المدارس جيلًا مِن الذين حملوا الأقلام وتولّوا -نيابةً عن أوربا- العمل على تمجيدها وتمجيد حضارتها، والعمل على تشويه الإسلام وتشويه صورة الحضارة الإسلامية في نفوس الشباب. وكان هذا الجيل يتولّى عن أوربا، وعن مفكِّري أوربا، النهوض بهذه المشكلة، أو بهذه المسؤولية، والعمل على نفس المحورَيْن: بعضهم يستخدم قلَمه وفِكره وأدواته في تشويه صورة الإسلام وحاضر الإسلام وماضيه، والبعض الآخَر في تمجيد أوربا وتمجيد الحضارة الأوربية.

ويلحق بالمؤسسات التربوية -بالذات المدارس التي تتولّى تربية الشباب في سِن الطفولة- الجامعات التي تحمل اسم: الجامعة الأمريكية، في مصر، في الأردن، في بيروت، في السودان. في النصف الثاني من القرن العشرين، انتشرت هذه

الجامعات في بلاد كثيرة في العالم العربي، وكانت تحمل هذه المهمة، وتنهض بها بين شباب الجامعات؛ فيأتي التلميذ من إعدادي وثانوي إلى نفس الجامعة وهو مهيأ نفسيًّا لتقبُّل كل ما يطرح عليه من أفكار في هذا المستوى الجامعي.

ب- من الوسائل أيضًا: أنّ معظم البلاد الأوربية أرسلت كثيرًا من البعثات التي تحمل أسماء مختلفة ومتنوّعة إلى العالم الإسلامي. وهذه البعثات -أو إن شئت سمّها: إرساليات- منها من أتى إلى العالم الإسلامي تحت مسمّى: نشاط اجتماعي؛ فأسَّسوا دُورًا لليتامى، ودُورًا لكبار السِّن، ومؤسّسات اجتماعية تتولّى الإنفاق على الفقراء ماديًّا، ومعالجتهم صحيًّا. وتحت هذه الأسماء الاجتماعيَّة كانوا يتولّون تربية الأشخاص الذين يفِدون إليهم -ومعظمهم من الطبقات الفقيرة- يتولّون تربيتهم تربية مسيحية رافضة للإسلام، ومعتنقة لمبادئ وأفكار الحضارة الأوربية المعاصرة. هذه الإرساليات هي إرساليات تبشيرية، وسوف نتكلم عن التبشير بشيء من التفصيل فيما بعد، لكن من المهمّ -ونحن نعدِّد وسائل الغزو الثقافي والفكري للعالم الإسلامي- أن نضع أمامنا هذه المهام التي كانت تتولاها الإرساليات التي تأتي إلى العالَم الإسلامي تحت مسمّيات اجتماعية، وهي في حقيقتها إرساليات تبشيرية.

جـ- من الوسائل أيضًا: أنّ الاستعمار نصّب على كثير من الأقطار العربية والإسلامية حكّامًا غذّاهم بفكْره، وربَّاهم -أو ربَّى معظمهم- على عَيْنه؛ فاقتنعوا بفكرة الاستعمار عن أن تأخّر المسلمين مرتبط بتمسُّكهم بالإسلام، وتقدّم أوربا سببه تخلُّصهم من الأديان. وبدأ هؤلاء الحكام في كثير من البلاد الإسلامية يُرسلون بعثات من أبناء أوطانهم إلى العالم الأوربي، هي في حقيقتها تخرج تحت ما يسمّى ببعثات علمية تعليمية، لكن هذه البعثات حين تُرسل أو

تَصِل إلى هذه البلاد يتولّاها كثير من العلماء والمفكِّرين الأوربيِّين ليقوموا بما يُسمّى: عملية غسيل المخ، إحلال وتبديل، محاولة تخليص هؤلاء الشباب من ماضيهم، واعتناقهم الأفكار الجديدة التي تريدها أوربا، وتريد أن تنشرها بين شباب العالم العربي والعالم الإسلامي.

ولعلك تلاحظ معي: أنّ كثيرين من الذين أُرسلوا إلى البعثات في خارج الأقطار العربية -خاصةً البعثات الفرنسية على سبيل المثال- معظمهم يعود إلى بلده، ويتولى مناصب ثقافية بصفة خاصة، إما وزارات التربية والتعليم، إما وزارات الإعلام، إما وزارات الثقافة؛ لأن هذه الوزارات الثلاث مهمّتها بناء العقلية، وبناء الشخصية العربية والشخصية الإسلامية. ولك أن تقارن بين مناهج التعليم والمناهج الثقافية والبرامج الإعلامية في كثيرٍ من بلدان العالم العربي والإسلامي في النصف الأخير من القرن العشرين، والبرامج التي تثقّف بها وتثقّف عليها أبناء العالم الإسلامي في مطلع القرن العشرين والقرن التاسع عشر، لترى الفرق بين المحتوى الثقافي هنا والمحتوى الثقافي هناك.

د- من الوسائل أيضًا: نشرُ نوعيّات معيّنة من الكتب، وترجمة نوعيّات معيّنة من الكتب. أريد أن أفرّق لكم -أيها الشباب، ونحن نتحدث في هذه القضية- عن أمريْن مهمين جدًا. أودّ أن أنبِّه هنا إلى قضية مهمة جدًّا: أنّ الغرب له موقف من ترجمة الكتب العلمية، وأعني بالكتب العلمية: التي تتناول العلوم الطبيعية، أو العلوم الكونية، التي نعتبرها نحن بمنطقنا الإسلامي هي قاطرة التّقدم لأي أمّة، كعلم الفيزياء، والكيمياء، والطب، والهندسة، والجيولوجيا، وعلوم الفلك، التي هي مجموعة العلوم الكونية. هذه المجموعة من العلوم يضنّ الغرب بها علينا، ولا يسمح بترجمة هذه الكتب لأنه يعتبرها من الأسرار العلمية. بل إن بعض

البلاد تعتبرها أسرارًا عسكرية، وتضنّ بها على الأمم، أو على العالم الثالث، لكنها تسمح وتغذّي وتنفق بسخاء على ترجمة نوعيّات معيّنة من الكتب، نوعيات أخرى، نوعيّات تتعلق ببناء العقلية، ببناء الشخصية، مثل كتب الروايات الخليعة، كتب الأدب، كتب المذاهب العبثية في الفلسفة، كتب الشعر، كتب القصة، المذاهب الأدبية الحديثة؛ لأن هذه المجموعة من المؤلفات أو من الكتب تتعلق بوجدانيات الإنسان، بعقليته، ببنائه الداخلي، ومعظم هذه المؤلفات التي تُترجم من هذا النوع يتعارض مع القيم والمبادئ والسلوكيات الإسلامية؛ لأنها تحمل معها هدفًا من أهداف الغزو الثقافي أو الغزو الفكري. فهي تمجد جانبًا، وتعمل على هدم جانب آخَر. هذا النوع من الكتب مسموح به، أمّا الكتب العلمية التي نحن في أشدّ الحاجة إليها، ونطالب بها ونريد أن نتعلّمها عن الآخَر، هم يضنّون بها علينا.

هنا، لا ينبغي للشباب أن يربط بين الأمرين. إذا كنا نرفض ونعتبر أنّ ترجمة هذه النوعية من الكتب -وهي الكتب التي تمس البنية الإنسانية والوجدانيات الإنسانية والعاطفة الإنسانية- إذا كنا نتحفظ على ترجمتها، أو على ما يتعلق بالانحلال الخُلقي منها، فإننا في نفس الوقت نطالب وبشدّة ونلحّ بضرورة ترجمة الكتب العلمية؛ لأننا مطالبون بتعلّم العلم -وخاصةً العلوم الكونية- لأنّ الحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها كان أحق بها. فأريد أن يُفرِّق الشباب بين ما نتحفّظ عليه، ولماذا ونتحفّظ عليه؟ وبين ما نطلبه ونرجوه ونلحّ في الرجاء عليه، ولماذا نطلبه؟ نحن نطلب ترجمة العلم، وتعلّم العلم؛ لأنه لا شك أنّ الغرب متقدم علميًّا، كما كنا نحن متقدِّمين في الماضي.

لكن السؤال: لماذا لا يسمح الغرب بترجمة هذه النوعية من العلوم، ويسمح لنا

وينفق وبسخاء على ترجمة نوعية أخرى من الكتب والمؤلفات الأدبية التي تتعلق بالإنسان؟ لأن هذه النوعية فيها من الأفكار وفيها من الآراء والمعتقدات ما يحقّق هدف الآخَر، أو هدف العدوّ من النَّيْل من الإسلام؛ ولذلك نعتبر أنّ نشر هذه النوعية من الكتب تمثِّل وسيلةً من وسائل الغزو العقلي، الغزو الفكري، الغزو الثقافي للعقلية العربية والإسلامية.

هـ- من الوسائل التي يهتمّ بها الغرب أيضًا ويَسعى إلى السيطرة عليها: محاولة السيطرة على برامج التربية والتعليم في وزارات التعليم والتعليم العالي في البلاد العربية والإسلامية. ولعل هذا كان واضحًا أو أشدّ وضوحًا في الأيام الأخيرة، على سبيل المثال: الإنجليز حين احتلّوا مصر بالذات في النصف الأوّل من القرن العشرين وجدْنا مستشار التعليم في مصر يسمّى: (كرومر) -كان مستشاراً لوزارة الخارجية- كان من أوائل ما اهتمّوا به في مصر: تغيير مسار التعليم في مصر. فبعد أن كان التعليم يجمع بين علوم الدِّين والدنيا في الأزهر الشريف، قسموا التعليم قسميْن، فجعلوا تعليمًا مدنيًّا، وتعليمًا دينيًّا. وجعلوا التعليم المدني لا علاقة له بالتعليم الديني إطلاقًا؛ بحيث التلميذ الذي ينتمي إلى التعليم المدني يجهل تمامًا العلوم الشرعية، والطالب الذي ينتمي إلى الأزهر يجهل تمامًا العلوم المدنية؛ فحدثت فجوة. وأكثر من هذا: أتَوْا إلى برامج التربية والتعليم المدني وقلّصوا منها حصص اللغة العربية، وحصص التربية الإسلامية، وبدؤوا يرفعون سيف الحرب، أو يعلنون الحرب على اللغة العربية الفصحى، باعتبارها وعاء الثقافة العربية والإسلامية، وباعتبارها لغة القرآن الكريم. وما فعلوه في مصر فعلوه في الأردن، فعلوه في العراق، فعلوه في السودان: التعليم المدني، وتقليص حصص

اللغة العربية، وتقليص حصص العلوم الدينية.

ثم انتقلوا من هذا إلى محاولة العمل على تكثير حصص اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية كبديل عن اللغة العربية الفصحى، وبدؤوا يطرحون على المثقّفين في هذا العصر فكرة إحلال اللغة العامية في الأقطار العربية محلّ اللغة العربية الفصحى. وكانوا يقصدون من هذا: العمل على تفتيت عوامل الوحدة العربية؛ لأن أهم عوامل هذه الوحدة هو اللغة العربية الفصحى، بحيث إذا تكلّم العربي في المغرب العربي يفهمه العربي في العراق، وإذا تكلّم العربي في السودان يفهمه العربي في اليمن؛ لأن لغة الجميع واحدة، ولغة الجميع هي: لغة القرآن الكريم، أمّا إذا تكلّم كلّ قطر بلهجته المحلية فقد بدأ انفصام هذا العِقد، أو بدأت عوامل الوحدة بين الأمّة العربية تتقطع عراها، ومن أهمها -كما قلت-: اللغة العربية. فإذا تكلّم المغربي بلهجته لا يفهمه المصري، وإذا تكلّم اليمني بلهجته لا يفهمه السوداني، وإذا تكلم السوداني بلهجته لا يفهمه العربي في ليبيا. تفتيت بسبب العمل على شيوع اللهجات المحلية وإحلالها محلّ اللغة العربية الفصحى؛ ولذلك كانت سيطرة الاستعمار على المؤسّسات التعليمية والتربوية من وسائل غزو العقول العربية بأفكار الاستعمار الجديدة.

و- من وسائل الغزو الثقافي والفكري: تأسيس صحف ومجلات تنهض بهذه المهمّة: مهمّة غسيل العقول من رصيد ثقافي نشأ عليه الشباب وآمن به الشباب، وإحلال ثقافة وقِيَم وسلوكيات أخرى محلّ هذه الثقافة العربية الأصيلة؛ ولذلك أُسست مجلات وصحف في العالم العربي تنهض بهذه المهمّة. ومن أمثلتها -على سبيل المثال- في مصر: وجدْنا بعض الأُسَر الكاملة تهاجر من لبنان إلى مصر

لتؤسس صحفًا دورية ومجلات أسبوعية كان من أهمّ ما نهضت به هو: هذا اللون من الغزو لعقول العرب وعقول المسلمين. ومن أهمّها مؤسسة: دار الهلال، التي تولّت نشر كثير من الأفكار، بعضها يتعلّق بوضع المرأة في الثقافة العربية والإسلامية، بعضها يتعلق باللغة العربية الفصحى، بعضها يتعلّق بنشر القوميات في الأقاليم العربية، كالقومية الفرعونية في مصر، والقومية الطورانية هنا، والآشورية هناك، والبربرية هنا، والعربية هناك. فكرة القوميات تولت إشاعتها والعمل على ذيوعها بين أبناء الأمّة العربية هذه المجلات التي تأسست لتبنِّي والنهوض بهذه المسؤولية: مسؤولية تمزيق الصف العربي، عن طريق نشر هذه الأفكار والسموم بين عقول المفكرين العرب.

فمجلات كثيرة كمجلة "الهلال" تأسست في مطلع القرن العشرين، ونهضت بهذه المهمّة. ثم أسّست دور السينما لتنشر على الشباب وتذيع على الشباب أفكاراً انحلالية عن طريق ظهور المرأة عاريةً على شاشة السينما، دغدغة عواطف الشباب عن طريق لغة الجنس، وعراء المرأة أمامهم في كثير من الأفلام، عرض أفلام جنس، عرض أفلام انحلالية، عرض أفلام تهدم الثقافة العربية والإسلامية، عرض أفلام تمجِّد الحضارة الأوربية والإنسان الأوربي، كأن السينما باعتبارها عملا علميًّا تأسس في القرن العشرين، أو في أواخر القرن التاسع عشر استغلّه هؤلاء أسوأ استغلال لنشر هذه الأفكار المسمومة بين جمهور الشباب العربي.

وأضيف إلى ذلك -فيما بعد- استغلال التليفزيون، واستغلال الراديو، عن طريق نشر أفكار وآراء من خلال برامج أُعِدّت إعدادًا جيّدًا لخدمة هذه الأهداف

الاستعمارية في غزو عقول الشباب.

ز- من الوسائل أيضًا التي تبنَّت هذه المهمّة: العمل على تمجيد وإحياء الحضارات القديمة في العالم العربي. بعد أن أحيَوْا فكرة القوميّات، ألحقوا بها فكرة الحضارات القديمة، كتمجيد الحضارة الفرعونية في مصر على حساب الحضارة العربية والإسلامية، وتمجيد الحضارة الفينيقية على حساب الحضارة العربية والإسلامية، وتسليط الأضواء على أمور ربما كانت تمثِّل عوامل ازدهار في هذه الحضارات القديمة، ليجعلوا منها أعلامًا تلفت نظر الشباب، ومصدر إشعاع فكري وحضاري، تلفت نظر الشباب إلى هذه الحضارات القديمة، لينصرف الشباب عن الحضارة الإسلامية والحضارة العربية. ولعلَّ الكثير يقرأ ويشاهد ويسمع عمَّا أثير حول الحضارة الفرعونية القديمة، والحضارة الآشورية في بلاد الرافدين، والحضارة الفينيقية في بلاد الشام، ومحاولة دغدغة عواطف أصحاب هذه القوميات التي تنتمي إلى هذه الحضارات، لينصرفوا بالتالي عن الحضارة الإسلامية إلى تمجيد هذه الحضارات القديمة كنوع من أنواع تمجيد القوميات على حساب الانتماء العربي والانتماء الإسلامي.

ح- من الوسائل التي تبنّاها هؤلاء أيضًا في غسيل عقول الشباب: العمل على إلغاء المحاكم الشرعية في بعض البلاد العربية والإسلامية، وتأسيس ما يُسمّى: محاكم مختلطة، كما حدث في مصر، وكما حدث في السودان. ولعلّ من أحدَثِ ما واجهَنا به الاستعمار هو: ما يجري الآن على أرض العراق من إلغاء كلّ ما هو إسلامي وإحلال مكانه كل ما هو غربيّ. ترتّب على إلغاء المحاكم الشرعية: إلغاء القانون الإسلامي وإحلال القانون الوضعي محلّه، كالقانون الفرنسي الذي يُعمل

به في مصر، وفي غيرها من البلاد التي استعمرتْها فرنسا، والقانون الإنجليزي في البلاد التي احتلّتْها إنجلترا وأحلّت قانونها محلّ المحاكم الشرعية في هذه البلاد.

ط- كذلك حَرص هؤلاء على إضعاف سلطان الإسلام في نفوس المسلمين، واعتمد هذا الأسلوب على تناول علماء الإسلام، وعلماء اللغة العربية بأسلوب ساخر، أسلوب استهزاء وسخرية، من خلال أعمال أدبية معيّنة، من خلال مسرحيات يتناولون فيها مدرّس اللغة العربية، مدرّس العلوم الشرعية بأسلوب ساخر يهزؤون منه، ويبيّنون أن هذه الشخصية الكاريكاتورية شخصية تمثّل أضحوكة الرائي والمُشاهد، ولا تمثّل احترام المجتمع، ممّا أضعف بالتالي روح الانتماء للإسلام من جانب، وللّغة العربية من جانب آخَر. وهذا قد زرع وأسّس في نفوس الشباب شيئًا من الحساسية -أو من الكراهية إن شئت- لمدرِّس اللغة العربية أحيانًا، ولمدرِّس العلوم الإسلامية أحيانًا أخرى. وللأسف الشديد بعض الحكومات، أو بعض وزارات الثقافة في عالَمنا العربيّ والإسلامي كانت وراء هذه الأعمال الهابطة التي تناولت مدرِّس اللغة العربية ومدرِّس العلوم الإسلامية تناولًا ساخرًا نفرّت منه المجتمع، وجعلت مكانته في المجتمع مكانةً دون مستواه، ودون ما يليق به. وترتّب على هذا: إضعاف اللغة العربية في مؤسساتنا التعليمية، وإضعاف روح الانتماء الإسلامي عند الشباب وعند الطلاب.

ي- أيضًا استغلّ هؤلاء بعض أقلام -أو بعض أصحاب الأقلام إن شئت- في رسم صورة ساخرة لبعض القيَم الإسلامية من خلال بعض الروايات، وبعض الأعمال الأدبية، وبعض قصائد الشعر، طريق نشر ما يسمّى بحرية الإبداع، وحرية الفكر، وحرية التناول. فبعضهم تناول الذات الإلهية بأسلوب ساخر في أعمال أدبية،

وبعضهم تناول شخصية الرسول ﷺ بأسلوب ساخر في أعمال أدبية، وبعضهم تناول بعض نساء النبي ﷺ ونال من شخصياتهن، وبعضهم تناول بعض القيم الإسلامية من خلال هذه الأعمال الأدبية الهابطة. وأيضًا مما ينبغي أن أشير إليه: أن بعض المؤسسات الثقافية في بعض البلاد العربية طبعت هذه الأعمال الهابطة بأموال دافعي الضرائب -وهم من المسلمين-، وكان إذا حاورتهم حول أن هذه الأعمال لا ينبغي أن تُطبع بأموال المسلمين لتحارب عقائد المسلمين، ثاروا في وجهك أنّ هذا إبداع، وينبغي أن نشجّع الإبداع. هذه أمور كلها نالوا بها من عقلية المسلم وعقيدة المسلم.

ك - أيضًا من الوسائل التي تناولوا بها إثارة الشكوك: التركيز على بعض مواقف تاريخية معيّنة في تاريخ المسلمين، وبعض شخصيات معيّنة من خلفاء المسلمين، وبعض قضايا معيّنة جعلوا منها قضايا عامّة وأحكامًا عامّة على الإسلام، وعلى تاريخ المسلمين، وعلى خلفاء المسلمين. ولا شك أن هناك بعض الهنات أو المآخذ؛ لأن مَن منّا يَسلَم من العيوب؟ فكانوا يتناولون شخصية الخليفة، أو الواقعة المعيّنة، أو العصر المعيّن، ويسلِّطوا الأضواء على نقاط الضعف في هذا العصر، أو عند هذه الشخصية، ليخرجوا منها بحُكم عامّ ليس على الشخص ولا على العصر، وإنما على الإسلام ككلّ. وهذا أدى ببعضهم إلى أن ينادي بإعادة قراءة التاريخ من هذا المنطلق: منطلق إثارة الشبهات وإثارة الشكوك.

هذه الأمور كلها قام بها الآخَر في مواجهة الإسلام، إلى أن جاء النصف الأول من القرن العشرين وتمالأت أوربا على إسقاط الخلافة الإسلامية، في سنة: ١٩٢٤م. وفي هذه الفترة بالذات، أثاروا كثيرًا من القضايا التي تتعلّق بوضع المرأة في الإسلام، بزواج الرسول ﷺ بأكثر من امرأة. تناولوا محاربة اللغة العربية، ودعَوْا إلى إحلال العامِّية محلّ الفصحى. وكان الاستعمار يمهِّد لميلاد دولة لقيطة

على المسرح العالمي في أعزّ بقعة في العالم العربي والعالم الإسلامي، وهي: أرض فلسطين. ألهى الاستعمار العالم الإسلامي -والمفكِّرين بالذات- بالانشغال بهذه الأمور التي أثارها، والشكوك التي رفع أعلامها في وجْه الإسلام وأصوله ومصادره، إلى أن انشغل العلماء المسلمون ومفكِّرو الإسلام بهذه القضايا، وتفرّغ الاستعمار لتأسيس وميلاد هذه الدولة اللقيطة، بوعد (بلفور) سنة ١٩١٧م، وأثناء الحرب العالمية الأولى، وفي الحرب العالمية الثانية تمخّضت عن ميلاد هذه الدولة سنة ١٩٤٨م. ميلاد هذه الدولة لم يكن ليتمّ لولا أنّ جسد الأمّة الإسلامية كان قد تهرّأ نتيجة إثارة هذه الشكوك، وإثارة الفرقة، وإثارة الخلاف بين الشعوب الإسلامية وحكّامها من جانب، وبين صفوف علماء المسلمين من جانب آخَر بسبب إثارة النّعرات عن طريق القوميات هنا وهناك، وعن طريق إثارة الحضارات القديمة هنا وهناك، ممّا ألهى المسلمين عن الانشغال بعظائم الأمور، وشغلوا أنفسهم بهذه الشبهات وهذه القضايا التي أثارها المستعمرون.

هذه بعض الوسائل الجزئية التي تمثِّل معالم المنهج الذي قام به الغزاة أو المستعمرون في غزو عقلية العالم العربي والعالم الإسلامي. وكلّ عقد جديد، أو كلّ مرحلة زمنية معيّنة يصاحبها أو يظهر فيها أسلوب جديد، ومنهج جديد، ليتناول به المستعمِر عقلية المسلمين وفكر المسلمين بشيء مناسب لهذا العصر أو ذاك.

هذا باختصار مفهوم الغزو الفكري، نشأة الغزو الفكري، تاريخ الغزو الفكري. أمّا القضايا الأساسية للغزو الفكري، فسوف نتناولها بالتفصيل قضية قضية. ومن أوائلها ومِن أهمّها وأخطَرها هي: قضية الاستشراق والتبشير الذي سوف نتناوله تفصيلا -إن شاء الله تعالى-.

مدرسة الاستشراق

نبدأ الآن حديثنا عن أهمّ فصيل أو فرع، أو أهمّ مدرسة منظّمة تنظيمًا علميًّا دقيقًا أُسِّست منذ ما يقرب من سبعة أو ثمانية قرون، وبالتحديد بعد الحروب الصليبية مباشرةً، وأخذت على عاتقها المواجهة المباشرة والمنظّمة للإسلام؛ هذه المدرسة هي: مدرسة الاستشراق.

أ- معنى الاستشراق:

كلمة "الاستشراق": نحن معنا في اللغة العربية أنّ "الألِف" و"السِّين" و"التاء" إذا دخلت على فعل أفادت: معنى الطلب. عندما أقول: "غَفَرَ"، هذا فعل ماض. إذا أدخلنا عليها "الألِف" و"السين" و"التاء" فنقول: "استغفر" تفيد هنا معنى الطلب، يعني: طلب المغفرة من الله.

معنا كلمة: "شرق" إذا أضفنا إليها "الألِف" و"السين" و"التاء" وقلنا: "استشرق" معناها: طلب علوم الشّرق. إذاً كلمة: "استشرق" التي أُخِذ منها لفظ: "الاستشراق" معناها: طلب علوم الشّرق، محاولة التعرف على ما في الشرق من حضارة وثقافة، ودِين ومجتمعات بشريّة. ومنه أُخِذ لفظ: "المستشرِق".

والمستشرقون هم: الذين يقومون بالتعرف، أو بطلب معرفة ما في الشرق من حضارة، من ثقافة، من أديان، من تاريخ، من أدب، من لغة، من اجتماعات بشرية... فكأنّ هذه

الظاهرة -ظاهرة الاستشراق- تعني: التعرف على ما في الشرق، على كلّ ما في الشرق، من تاريخ، وحضارة، ولغة، ودين، وثقافة، واجتماع بشري.

ورُبَّما أنَّ تقسيم العالم إلى شرق وغرب مرتبط بظهور هذا المصطلح؛ لأنه قبل ظهور هذا المصطلح كان العالم يُعرف بأنه الرومان أو عالم الروم، والفُرس، والعرب، والهنود، والصينيون. أمّا تقسيم العالَم إلى شرق وغرب فهذا تقسيم استعماري، وربما ارتبط بظهور أو بظاهرة الاستشراق. من هنا نستطيع أن نقول: إنَّ الاستشراق هو: محاولة العلماء والمفكِّرين الأوربيِّين أو الغربيِّين، التعرف على ما في الشَّرق من حضارة، وتاريخ، ودين، ولغة، وأوضاع اجتماعية.

والذين استعملوا هذا التعبير: "استشراق"، والذين أطلقوه، والذين وظّفوه ليسوا العرب، وإنما هم الغربيّون أنفسهم. فإذا حاول أحدهم أن يتعلّم اللغة العربية، أو يتعلّم الدين الإسلامي، أو التاريخ العربي، أو الأدب العربي يُطلق عليه في أوربا: أنه مستشرق.

ب- نشأته:

وهذه الظاهرة نشأت تاريخيًّا، أو ارتبط ظهورها تاريخيًّا بالحروب الصليبية؛ لأن الحروب الصليبية التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على جيوش أوربا قاطبةً، وخلَّص بيت المقدس من أطماعهم بعد أن احتلّوه سبعين عامًا، هزيمة أوربا أمام صلاح الدين طرحت على مفكِّري أوربا العديد من الأسئلة: كيف ينتصر صلاح الدين على أوربا وعلى أكثر من جيش أوربي وهو أقل منهم عدداً وعُدّة؟ ما هي العوامل الكامنة في الجندي المسلم حتى ينتصر على جيوش أوربا؟ ما ثقافته؟ ما

عقيدته؟ ما دِينه؟ ما حضارته؟ ما هي العوامل التي بَنَتْ هذه الشخصية حتى ينتصر على جيش أوربا وهو أكثر منه عددًا وعُدّة؟

هذه التساؤلات كلّها طُرحت على العقلية الأوربية، وبدؤوا يدرسون أو يتناولون الحضارة الإسلامية، والدِّين الإسلامي، واللغة العربية، والتاريخ العربي والإسلامي -يتناولونه درسًا وفحصًا وتمحيصًا ونقدًا. ومن هنا وجدنا أن المستشرقين وزّعوا أنفسهم أو تخصّصوا في كثير من فروع الثقافة الإسلامية؛ بحيث لم نجد فرعًا من فروع ثقافتنا إلا وفيه أكثر من مستشرق متخصّص في دراسة هذا الفرع.

فهناك مستشرقون تخصّصوا في التصوّف الإسلامي، وفي التفسير -تفسير القرآن-، وفي الأحاديث النبوية. وهناك مستشرقون تخصّصوا في الأدب والشعر، وآخَرون تخصّصوا في اللغة، وفي علم الاجتماع، وفي التاريخ، وفي الجغرافيا العربية، وفي الحضارة ككلّ. على سبيل الإجمال: لم يتركوا فرعًا من فروع الثقافة العربية والإسلامية إلا وخصّصوا فيه فريقًا من المستشرقين الذين تفرغوا لدراسة هذا الفرع.

قد يتساءل المرء: لماذا هذا الاهتمام بالثقافة العربية والإسلامية من المستشرقين؟ ولعلّ فيما قلناه من ارتباط ظاهرة الاستشراق بهزيمة أوربا في الحروب الصليبية ما يجيب على هذا السؤال؛ لأن السبب الأساسي هو: البحث عن العوامل الداخلية التي جعلت الجندي المسلم ينتصر على الجندي الأوربي في حرب غير متكافئة. الجندي الأوربي أو الجيش الأوربي كان أكثر من الجيش الإسلامي عددًا وعُدّة، ومع ذلك انتصر عليهم صلاح الدين. كان هذا هدفًا أساسيًّا: دراسة مكوّنات النفسية الإسلامية، مكوّنات

الوجدان العربي، العقيدة التي جعلت من المسلم يدفع بنفسه أمام جيوش أوربا ذودًا عن المسجد الأقصى، وعن حياض الإسلام والمسلمين.

هذا هو تعريف "الاستشراق"، وهذا هو تاريخ نشأة الاستشراق، وسبب ارتباط ظاهرة الاستشراق بالحروب الصليبية.

جـ- مدارس الاستشراق:

ننتقل من هذا إلى القول بأن الاستشراق مدارس: هناك استشراق يهودي، واستشراق مسيحي. وهناك مستشرقون لا دين لهم لكنهم اهتموا أيضًا بالحضارة العربية والدين الإسلامي، وبدؤوا يتخصّصون -كما قلنا سابقًا- في فروع الثقافة العربية والإسلامية. لكن سوف أركز في حديثي عن الاستشراق على الجانب المهمّ المتصل بمصادر الثقافة الإسلامية وهو: موقف المستشرقين من القرآن الكريم، ومن السُّنة النبوية المطهرة، ومن النبي محمد ﷺ.

د- أسباب الاستشراق:

ولعل من المفيد: أن أشير هنا إلى أن بعض المفكِّرين حين درس ظاهرة الاستشراق حاول أن يلفت النظر إلى أنّ ظاهرة الاستشراق لها أسباب تفسّر هذه الظاهرة، وبعضها أسباب غير دينية، أو أسباب لا تتعلق بدراسة الإسلام للنيْل منه، وإنما لمحاولة التعرف على العالم الإسلامي لمجرّد العلْم به. بعضهم قال: إنّ وراء الاستشراق أسباباً علمية: محاولة التعرف على الشرق لمجرد العلّم بما في الشرق، وليس لمجرد النيْل من الإسلام، أو النيْل من اللغة العربية. هذه أسباب علمية.

وبعضهم قال: إن هناك أسباباً اقتصادية: كانت أوربا تعيش في فقر مدقع، وحاول مفكرو أوربا -أو بعض مفكري أوربا- أن يدرسوا الشرق، ليقفوا على خيرات الشرق وما فيه من خيرات كثيرة، ليمهّدوا لغزو الشرق غزوًا عسكريًّا، لمحاولة السيطرة على خيرات هذه البلاد. وهذا السبب له نصيبه من الوجاهة أيضًا؛ لأننا لو استقرأنا البلاد التي احتلتها أوربا احتلالًا عسكريًّا بجيوش عسكرية، نجد أنّ هذا الغزو العسكري أو الاحتلال العسكري كان مسبوقًا بجيوش من المستشرقين الذين سبقوا الغزو العسكري، وأقاموا في هذه البلاد ودرسوا ظروفها الاجتماعية، وأحوالها الثقافية، وأديانها، وحضارتها، وتاريخها، ونفسية أبنائها، وما هي المداخل النفسية للسيطرة على هذه الشعوب. فعَلوا ذلك مع الهند، وفعلوا ذلك مع مصر، وفعلوا ذلك مع السودان والعراق. سُبقت الجيوش العسكرية بجيوش من المستشرقين، لتمهّد لهم، وترسم لهم الخطط، وتبيِّن لهم الوقت والظرف المناسب للاحتلال العسكري بعد أن يكونوا قد درسوا نفسية هذه الشعوب، وعرفوا بدايته وآخرته.

البعض يرى أيضًا: أن للاستشراق أسبابًا سياسية؛ لأن الاستعمار الأوربي هناك عصر يسمّى عصر الاستعمار، عصر الاستعمار العسكري هذا مهّد له المستعمرون العسكريُّون باستعمار آخَر، يجوز أن نسمِّيه: الاستعمار العقلي، ويجوز أن نسميه استعمارًا فكريًّا، أو غزوًا فكريًّا. المهم: أن البعض يربط الغزو العسكري لبعض البلاد العربية والإسلامية، يربط بينه وبين الغزو الفكري أو ظهور الاستشراق، ويجعل جيوش المستشرقين سابقة على جيوش الغزاة العسكريين. ويستدلون على هذا بموقف نابليون بونابرت حين غزا الشرق في

الحملة الفرنسية على مصر أو على الشرق، فكانت مسبوقة بجيش من المستشرقين مهد لبونابرت، وبيّن له كيف يحتلّ مصر بأقلّ قدر من الخسائر البشرية.

تاريخ الاستشراق، ونشأته

لعلّ بعض الباحثين يحاول أن يحدِّد لنا شخصيات معيّنة، ويعتبرها أوّل مَن مارس ظاهرة الاستشراق، بينما يحاول البعض الآخَر أن يدرس هذه الظاهرة دراسة عامة دون تحديد لأسماء معيّنة، أي: يعتبرها أوّل من مارس الاستشراق. ونحن نميل إلى الرأي الثاني؛ لأن تحديد اسم معيّن لمفكِّر معيّن ونعتبره أوّل من مارس الاستشراق يحتاج إلى شيء من الجرأة التاريخية التي نحن في غنًى عنها. والأسلوب العلمي يقتضي منّا: أن ندرس هذه الظاهرة، ونضع مجموعة عوامل أو مجموعة احتمالات لِمَن يكون أوّلَ من مارس هذه الظاهرة؛ لأنه إلى هذه اللحظة لا نعرف بالضبط مَن هو أوّل مفكِّرٍ أو مستشرقٍ عُني بالدراسات الشرقية، ولا في أيِّ سنة بدأت هذه الظاهرة بالضبط.

ولكن الذي اتفق عليه جمهور المؤرخين لظاهرة الاستشراق، وللمؤرخين للحضارة الإسلامية عمومًا: أنّ ظاهرة الاستشراق بدأت على يد الرهبان الغربيِّين الذين تعلّموا اللغة العربية في بلاد الأندلس، بعد أن انتقل العلْم العربي من موطنه الأصلي، وتُرجم من لغته العربية الأصلية إلى بلاد أوربا عبر محاور معروفة لنا تاريخيًّا كان مِن أهمِّها بلاد الأندلس، وصقلية، ومباشرة الجنود الأوربيِّين ومعايشتهم لبعض البلاد الإسلامية إبّان الحملات الصليبية في العصور الوسطى. مِن خلال هذه المنافذ الثلاثة تخصّص بعض الرهبان في دراسة اللغة العربية، وعرفوها جيدًا، وبدؤوا من خلال تعلّمهم ينقلون بعض المصادر العربية إلى اللغات اللاتينية المختلفة. وأخذوا أيضًا يشجِّعون على دراسة اللغة العربية.

وكانوا يسمّونها: "لغة المسلمين" أو "لغة الفاتحين"، ويشجّعون الشباب على تعلّمها وانتشارها بين الشباب، لتكون هذه اللغة مقدّمة طبيعية للتعرف على علوم الشرق، وعلى ثقافة الشرق، وعلى حضارة الشرق.

ومن أوائل الرهبان الذين نهضوا بهذه المهمّة -أقول: "من أوائل" ولا أقول: "أوّل"، وفَرْق كبير بين التعبيرَيْن- من أوائل الرهبان الذين اهتموا بهذه القضية: الراهب الفرنسي الذي عُيِّن بابا لكنيسة روما سنة ٩٩٩م. بعد أن تعلّم اللغة العربية في الأندلس وعاد إلى بلاده، بدأ يمارس نشاطه في التعرف على علوم الشرق. وعاصَره في نفس الفترة تقريبًا الراهب المشهور (بطرس المحترم) أو (بطرس الناسك). وكان منهم أيضًا الراهب (جيرار دكريمون). هؤلاء الرهبان الثلاثة تعتبرهم كتب التأريخ لظاهرة الاستشراق أوائلَ مفكِّري أوربا الذين مارسوا ظاهرة الاستشراق بعد تعلّمهم للّغة العربية.

عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم ونشروا ثقافة العرب، ونشروا وترجموا أهمّ مؤلفات الفكر العربي التي وقفوا عليها. وبدؤوا بعد ذلك يعملون بجد ونشاط على انتشار اللغة العربية، والعلوم العربية في الجامعات التي أسّسوها في بلادهم. فأُنشئت كراسيّ للغة العربية، وكراسيّ للدراسات الشرقية في معظم جامعات أوربا بلا استثناء؛ بل إنّ في هذه الفترة تخصّص بعضُهم في ترجمة القرآن الكريم. ولعلّ أوّل ترجمة للقرآن الكريم تعود إلى هذه الفترة: أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، ممّا يدل على أنّ هذه الظاهرة بدأت بنشاط وبهمّة وبتشجيع من هؤلاء الرهبان لشباب أوربا في جامعاتها المختلفة على تعلّم علوم الشرق.

بل أكثر من هذا، أن الأدْيرة والكنائس خصّصت أماكن كثيرة في أبنيتها لتعلّم اللغة العربية، والتعرف على علوم الشرق. وأخذت هذه الأديرة تدرس مؤلّفات العرب

المترجَمة إلى اللاتينية ؛ لأن لغة العرب كانت في هذه اللحظة هي لغة العلْم. واستمرت الجامعات الغربية التي أُسِّسَت فيها كراسيّ وأقسام للغة العربية، تعتمد على كتب العرب، وعلى مؤلّفات العرب كمصادر أصلية للعلم بأنواعه المختلفة في هذه الفترة. ولا نكون مبالِغين: أن اللغة العربية ظلّت لغة العلم الكونيّ حتى نهاية القرن الثالث عشر؛ حتى إنّ مفكّراً أوربياً كبيراً مثل: (روجر بيكون) كان يقول: "مَن لم يتعلّم اللغة العربية، لا نثق في معلوماته"، أو هكذا قال.

ولم ينقطع من هذا التاريخ -أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر- نشاط الأوربيين في ممارسة ظاهرة الاستشراق؛ فقاموا بترجمة القرآن كما قلنا، وترجموا أمّهات الكتب العربية. وامتد ذلك إلى القرن الثامن عشر، وهو البداية الطبيعية لما يُسمّى بعصر الاستعمار الغربي. في هذا العصر بدأ الغرب يستعمر أو يحاول أن ينتقل من قضية الاستعمار العقلي والغزو الفكري إلى المرحلة التالية التي نحن نعتبرها نتيجة طبيعية للغزو العقلي أو الغزو الفكري للبلاد الإسلامية. بدأ في استعمار هذه البلاد استعمارًا عسكريًّا.

فإذاً في هذه المرحلة وجَدْنا عددًا كبيرًا من علماء الغرب يتخّصصون في فروع دقيقة جدًّا من فروع الثقافة الإسلامية. منهم مَن تخصَّص في دراسة القرآن الكريم وعلومه كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، وبدأ من خلال دراساته يضع يده على بعض الآيات القرآنية التي تدخل تحت ما يُسمَّى بـ"المتشابهات"، ويثير حولها كثيرًا من اللغَط، وكثيرًا من الشُّبهات، وكثيرًا من الشكوك. وبعضُهم تخصّص في علوم السُّنة، وبدأ أيضًا يصوِّب سهامه إلى بعض الأحاديث المكذوبة على الرسول ﷺ. وأكثر من هذا، وجدنا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر: أن ظاهرة الاستشراق تطوّرت وبدأت تدخل مرحلة من مراحل التنظيم والعمل الذي ترعاه الحكومات وتتبنّاه الدّول بشكل أساسي؛ فعُقدت مؤتمرات كثيرة جدًا للمستشرقين لمراجعة أعمالهم في السنوات الماضية، ووَضْع خطط وما يمكن أن

يُسمّى بأوراق عمل للمراحل التالية. فعُقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣م. وابتداءً من هذا التاريخ بدأت مؤتمرات المستشرقين تتوالى عامًا بعد عام في أماكن مختلفة في أوربا ؛ بل تخطّت جغرافيًّا دول أوربا ، وانعقد بعضها في الشرق في دولة إسرائيل ، أو في أرض فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل مؤتمر سنة ١٩٣٥م و ١٩٣٦م كان يعرف بمؤتمر المستشرقين أو مؤتمر المبشِّرين.

وفي هذه اللحظة أو في هذه النقطة بالذات ، أودُّ أن أشير إلى : أنّ أهداف الاستشراق التقَتْ مع أهداف التبشير ، وربما مع أهداف الاستعمار العسكري. هنا نقطة مهمة جدًّا : أهداف الاستشراق ، وأهداف التبشير ، وأهداف الاستعمار العسكري ، التقت كلّها تحت مظلة عمل المستشرقين ونشاط المستشرقين. ولذلك وجدنا : أن السفارات الأوربية في معظم البلاد العربية والإسلامية نجد أن كثيرًا من الموظفين القائمين بمهام دبلوماسية في هذه السفارات هم في الحقيقة مستشرقون يُجيدون لغة البلد التي يعملون بها ، ويعرفون ثقافتها ونشاطها وعقائدها وظروفها الاجتماعية والحضارية والسياسية. وهؤلاء يتولّون وضْع أوراق العمل لأصحاب القرار السياسي المتصلّة بهذه المنطقة الجغرافية من العالم. فكأنّ مهمّة المستشرق جمعت بين أمريْن : بين مهمّته كعالِم في ظاهرة الاستشراق ، ومهمّته كرجل دولة يرسم الخطط لأصحاب القرار السياسي بناءً على معرفته العلمية بالمنطقة الجغرافية التي يعيش فيها.

هذه لمحات موجزة عن تاريخ ظاهرة الاستشراق.

مما ينبغي الإشارة إليه أيضًا : أن هناك معاهد كثيرة جدًّا أُسست في الغرب لدراسة الاستشراق. وهناك جمعيات كثيرة جدًّا من المستشرقين تعاونت مع هذه المؤسسات الدراسية في دراسة العالَم الشرقي كلّه قديمه وحديثه. بل وأيضًا ، هناك

مَن تخصّص في رسم خرائط جغرافية سياسيًّا وثقافيًّا لأصحاب القرار السياسي مستقبليًّا لمنطقة الشرق الأوسط بالذات، وللشرق كلّه بصفة عامة.

أسباب الاستشراق وعلاقته بالاستعمار

هذه أيضًا نقطة تحتاج إلى شيء من التوضيح. تكلّمنا بشيء من الإيجاز عن أسباب ظاهرة الاستشراق. هذه الأسباب بعضها يرجع إلى أسباب سياسية، وبعضها يرجع إلى أسباب اقتصادية، وبعضها إلى أسباب استعمارية، وبعضها يرجع إلى أسباب دينية؛ لكن من المهمّ هنا: أن نبيِّن أهمّ هذه الأسباب، وأيُّها كان أكثر فاعلية وأكثر أثرًا في ظاهرة الاستشراق ونشاط هذه الظاهرة. أنا أركِّز على الأسباب الدينية باعتبارها أهمّ أسباب ظاهرة الاستشراق في الماضي وفي الحاضر، وستظل أهمّ هذه الأسباب في المستقبل أيضًا.

حقيقة، لا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى سبب واحد أو إلى عامل اجتماعي واحد، لكن من أهمّ هذه الأسباب: السبب الدِّيني. نحن لا ننكر الأسباب الأخرى، ولكن كان للسبب الديني أثر واضح في نشاط هؤلاء المستشرقين، وفي تنشيط هذه الحركة على ممرّ العصور. لماذا؟

نحن نجد أنّ أبرز أسماء المفكرين الذين مارسوا ظاهرة الاستشراق، وعاشوها علمًا وعملًا، وأفْنَوا حياتهم من أجْلها وفي سبيلها، كانوا رهبانًا في الكنائس. أيضًا كان أوّل من مارس هذه الظاهرة تاريخيًّا هم: رهبان يعملون في الكنائس. فكان للسبب الدِّيني ما يمكن أن أسمِّيه سيطرة كاملة على بقية الأسباب الأخرى. ربما ظهرت الأسباب الأخرى متأخِّرة، لكن سبب نشأة هذه الظاهرة وسبب

استمراريّتها -بل أكثر من هذا- سبب اهتمام الدول الأوربية بتنمية هذه الظاهرة هو: سبب دينيّ، وسوف نبيِّن ذلك بالوثائق الرسمية فيما يلي.

لقد سلك المستشرقون وسائل شتّى لتحقيق هذا الهدف الديني، وكان من أخطر هذه الوسائل هو: التركيز على إثارة القضايا الخلافية في الفكر الإسلامي، والعمل على إحياء الآراء الشاذة للفِرَق المغالية، ليشغل المسلمون أنفسهم بها عن التفكير في عظائم الأمور. فعمدوا إلى إثارة الخلافات المذهبية بين الشِّيعة والسُّنة أحيانًا، وبين الصوفية وأهل السُّنة أحيانًا أخرى. بل أكثر من هذا: إن بعضهم قد تخصّص في التركيز على القضايا الخلافية فقط. ولعلّ أكبر من مارس هذه القضية: (هنري كوربان) الذي تخصّص في الدراسات الشيعيّة. نشَر الكثير من مخطوطاتها، ألّف الكثير من الكتب التي تتّصل بقضايا الصراع بين غلاة الشِّيعة وبين بقيّة الفِرَق الإسلامية. بعضهم تخصص في تاريخ الباطنية وكتب عنها كتابات كثيرة جدًّا، وركّز على القضايا الخلافية بين الباطنية وبين عقائد الإسلام. وبعضهم كتب عن القرامطة، وتخصّص في شرح وتوضيح وتفصيل دقائق عقائد القرامطة، واعتبرها حركة اجتماعية. وبعضهم تخصّص في الدراسات الصوفية، وركّز بالذات على الشخصيات الشاذة في تاريخ الفكر الصوفي. وبعضهم تخصّص في دراسة الحلاج. وبعضهم تخصّص في دراسة ابن عربي. وبعضهم كتب عن ابن الفارض. ويا ليتهم كتبوا عن الجوانب المضيئة في هذه الشخصيات، ولكنهم ركّزوا على الجوانب الشاذة في فكرهم، كقضيّة الحلول والاتّحاد، قضية وحدة الوجود. وبعضهم تخصّص أيضًا في تاريخ الفلسفة الإسلامية، واعتبر الفلسفة الإسلامية صورة مشوّهة للفكر اليوناني. هذه كلّها أمور تؤكِّد لنا: أنّ السبب وراء ظاهرة الاستشراق يَكمن في العامل الدِّينيّ، وفي نفس الوقت لا نُلغي العوامل الأخرى.

هذا الهدف الديني إذا كنّا نتكلّم عنه بشيء من الاستنتاج، فإنّ المستشرقين أنفسهم قد صرّحوا به في أكثر من موقع قديمًا وحديثًا. والذي يهمّنا بالدرجة الأولى الآن: أن نطرح على حضراتكم بعض الوثائق الرسمية التي كتَبها شخصيّات استشراقية كبيرة لها سمعتها العلمية، وكان يشغل منصبًا دبلوماسيًّا في دولته، لأبيِّن لكم: أنّ الدول الغربية أفادت من الدراسات الاستشراقية، وأفادت من المستشرقين كأفراد، ليجمع المستشرق في عمله الوظيفي بين أمريْن: بين مهمّته كعالِم، ومهمّته كرجل دولة يرسم لدولته الخطط لتتعامل بأسلوبٍ سهل وميسور وعلميّ مع الدولة التي يعيش فيها.

هذه الشخصية التي اخترتُها لكم هي: شخصية فرنسية كانت تعمل في وزارة الخارجية الفرنسية في مطلع القرن العشرين، وهو: (هانوتو). هذا المفكر كان يعمل في وزارة الخارجية الفرنسية، ووضع خطابًا أو كتَب مقالًا صرّح فيه بما نُشير إليه الآن أنّ عمَلَه كمستشرق هو عمل دينيّ بالدرجة الأولى، وليس عملًا دبلوماسيًّا. وبعد أن طرحنا هذه الوثيقة على كثير من المفكّرين، أعتقد أنه لم يَعُد هناك مبرِّر للقول بأنّ الاستشراق ظاهرة علمية موضوعية، تكتب بموضوعية عن التاريخ الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية. لا! هذا الكلام أصبح لا معنى له بعد أن صرّح المستشرقون أنفسُهم: أنّ هدفهم دينيّ، وأنّ هدفهم هو: القضاء على التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

ماذا قال (هانوتو) في مقالِه الذي نُشر في مطلع القرن العشرين؟

لقد احتلّت فرنسا الجزائر كما هو معروف، وفي هذه الفترة في بداية احتلال فرنسا للجزائر، كتب هانوتو مقالًا تحت عنوان: "المسألة الإسلامية". وكانت هذه العبارة بالخط الكبير جدًّا في المجلة التي نَشر فيها (هانوتو) هذا المقال. هذا المقال أيضًا من المهمّ أن نَعْلم

أنه ترجم إلى اللغة العربية في جريدة "المؤيّد" المصرية. وتولى الرّد عليه في مطلع القرن العشرين مفكرّان كبيران جدًّا، هما: جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده.

يقول (هانوتو) في هذا المقال: "إنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلّا وقد اجتاز الإسلام فيه حدودَه مُنتشرًا في جميع الآفاق. فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زُمَرًا وأفواجًا، جماعات وأفرادًا، وهو الدِّين الوحيد الذي تَفُوق شدةُ الميل إليه والتديّن به كلّ ميلٍ إلى اعتناق دِين آخَر. إنّ هذا الدِّين قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا عيْنِها. فلقد صارت فرنسا في كل مكان في صلة مباشرة مع الإسلام؛ بل صارت في صدر الإسلام وكبِده. ليس الإسلام في داخلنا فقط؛ بل هو خارج عنّا أيضًا، قريب منّا في مراكش، قريب منّا في طرابلس الغرب، قريب منّا في مصر. وهو شائع ومنتشر في بلاد آسيا كلّها، ولا يزال الهلال الإسلامي يمتدّ طرفاه من جهةٍ بمدينة القسطنطينية في تركيا، ومن جهةٍ أخرى في فاس في بلاد المغرب الأقصى معانقةً بذلك الغرب كلّه ومنه بلاد فرنسا".

عليك أن تتخيّل معي هذا التصور. (هانوتو) يقول لساسَة فرنسا: "إن الهلال الإسلامي يمتد من الأستانة في بلاد الشرق إلى فاس في بلاد المغرب العربي، ويحتضن هذا الهلال بين دفّتيْه دوَل أوربا كلها ومنها دولة فرنسا". بل كان يشير هذا الرجل إلى البحر الأبيض المتوسط، ويُسمِّيه: "البحيرة الإسلامية"، إثارةً لحفائظ أو لحفيظة أوربا كلِّها ضد الإسلام.

يقول (هانوتو) أيضًا: "إن هذا الدين قائم في الأستانة، حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصاله هناك من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطريْن". ثم يعلن (هانوتو) صراحةً: "إنه لا بد من العمل على تفكيك تلك الرابطة التي تجمع بين المسلمين

شرقًا والمسلمين غربًا على سطح المعمورة، فتجعل منهم أمّةً واحدة. هذه الرابطة هي: رابطة الدين، هي: رابطة الإسلام، هي: العقيدة التي يَدين بها المسلم. هي العقيدة التي يضحِّي المسلم بروحه ونفسه ومالِه من أجْلها. لا بد من العمل على إضعاف هذه الروح السائدة التي تحرّك المسلمين مِن سُباتهم". ثم يشير (هانوتو) إلى قضيّة خطيرة جداً، إلى رمز وحدة المسلمين في شعيرة الحج.

نحن نعلم: أنّ مكة -حرسها الله- تمثِّل رمزًا لمسلمي العالَم كله شرقِه وغرْبه، خاصةً في شعيرة الحج، حيث يلتفّ المسلمون حول الكعبة المشرّفة يطوفون حولها تأديةً لشعيرة الحج والعمرة، لا فَرق بين مسلم صينيّ ومسلم مصريّ، لا فرق بين غني وفقير. في هذه المنطقة تذوب الفوارق بين الطبقات، والفوارق بين العناصر والأجناس، والفوارق بين اللغات، لينصهر الكل في بوتقة واحدة مهلِّلين مكبِّرين موحِّدين: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

(هانوتو) يشير إلى قضية خطيرة جدًّا تتعلق بالبيت الحرام وبمكة وبالكعبة وبشعيرة الحج، يقول (هانوتو): "إن المسلمين متى اقتربوا من الكعبة، متى اقتربوا من البيت الحرام، متى اقتربوا من ماء زمزم المقدّس، متى اقتربوا من الحجر الأسود، وحقّقوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثّتهم على ترْك بلادهم في أقصى مُدن العالم شرْقه وغرْبه للفوز بجوار الخالق في بيت الله الحرام، اشتعلت جذوة الحميّة الدينيّة في قلوبهم. إن رابطة الإخاء التي تجمع بين أفراد المسلمين في شعيرة الحج كفِيلَة بأن تجعل المسلم في شرق الأرض وغرْبه يهبّ لنصرة المسلم في أيّ مكان كان. هذا العامل ينبغي أن يكون عاملًا مؤرقًا لفرنسا كلِّها في المستعمرات التي تخضع لها".

هذا كلام (هانوتو)، وهذه إشارة (هانوتو) إلى وضع مكة، ووضْع الكعبة، ووضْع الحجر الأسود بالنسبة للتخطيط الاستعماري، وبالنسبة لأوراق العمل التي يرسمها المستشرقون لأصحاب القرار السياسي في أوربا المعاصرة.

ما زال الخطاب موجودًا. ومن هنا يقول (هانوتو): "فإن العمل على إضعاف هذه الرابطة بين المسلمين كانت ولا زالت تمثِّل هدفًا ينبغي أن يَضعَه أصحاب القرار السياسي في أجِنْدَتهم اليومية، ولا يغمضوا أعينهم عنها". هذا ما كتبه (هانوتو) في مطلع القرن العشرين.

وهذه القضية نفسها قد صرّح بها وكتب عنها المستشرق الفرنسي (كيمون) في كتاب أسماه "أنثولوجيا الإسلام". كتب عن الإسلام، وعن الرسول ﷺ، يصرِّح بمثل ما صرّح به (هانوتو) وأكثر من ذلك، حيث وصف الرسول ﷺ بصفات يخجل القلم عن تسطيرها. وركّز بصفة عامة على العوامل التي توحِّد المسلمين، وكيف يوجِّهون سهامهم إليها لكي ينحلّ هذا العقد -عقد الوحدة- بين المسلمين.

أعتقد بعد هذه الوثيقة، وبعد ظهورها وترجمتها إلى اللغة العربية، نقول ونصرِّح مطمئنِّين جدًّا إلى أنّ الأسباب الدينية وظاهرة العداء للإسلام وللمسلمين، كانت أهمّ الأسباب وأهمّ الدوافع وراء ظاهرة الاستشراق قديمًا. وأعتقد أنها ستظل إلى وقت ليس بالقريب تمثّل هاجسًا مهمًا جدًّا في موقف المستشرقين من الإسلام والمسلمين.

إذا أضفنا إلى هذا السبب: أنّ أوّل من اشتغل بعلوم الشرق بحثًا ودراسةً كان راهبًا وقسيسًا، ثم عمل بعد ذلك بابا لروما فيما بعد. كما أن معظم المشتغلين بعلوم الشرق من رجال الكهنوت المسيحي واليهودي. لا يمكن أن نتصوّر هؤلاء مجرَّدين من عواطفهم الدينية أبدًا؛ بل إنهم كانوا مدفوعين إلى هذا اللون من

الدراسة بدافع الانتصار لدِينهم. إنّ هذه النوايا التي عبّرت عنها نصوص (هانوتو) و(كيمون) تجعلنا نثِق في صدْق سيطرة السبب الديني، وهيمنته على الأسباب الأخرى، وفي نفس الوقت لا نستبعد أن تكون هناك أسباب اقتصادية كما يقول البعض، وأسباب عسكرية كما يقول البعض. ولذلك تنوّعت الدراسات الإسلامية عند المستشرقين. وإذا كان السبب الدِّينيّ هو أهمّ هذه الأسباب كما رأينا، فأنا لا أستبعد أن يكون وراء ظاهرة الاستشراق أسبابٌ استعماريةٌ؛ لأن الاستعمار الذي ظهر في القرن الثامن عشر قد استغل الدراسات الاستشراقية استغلالًا سيئًا، وأفاد من الدراسات التي كتبها المستشرقون حول العالم الإسلامي شرْقه وغرْبه.

ولعلَّ مما يجعل الأسباب الاستعماريَّة لظاهرة الاستشراق لها شيء من الوجاهة: أنَّ أوربا كلّها لم تغفل يومًا ما عن أنَّ صلاح الدين قد هزَمَهم في بيت المقدس، وظلَّ الأمل يراود أوربا طيلة هذه العصور المتتالية على تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين. ومَن يقرأ تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب بعد الحروب الصليبية، يوقن تمامًا أنّ أوربا ومفكِّري أوربا لم تغمض أعينهم إطلاقًا عن الشرق. وسوف أحيل المستمع الكريم إلى كتاب مهمّ جدًّا كتبه أمير البيان العربي شكيب أرسلان تحت عنوان "التعصب والتسامح بين أوربا والإسلام".

في هذا الكتاب، بيّن شكيب أرسلان: أن أوربا قد وضعت مائة مشروع لتقسيم العالم الإسلامي، وللسيطرة على خيرات العالم الإسلامي، وللسطو على الحضارة الإسلامية. مائة مشروع. تعاون في وضع هذه المشاريع كلّها مفكرو أوربا بلا استثناء، ابتداء من فرنسا وأسبانيا، مرورًا بألمانيا وإيطاليا وبلجيكا. معظم المفكّرين الذين عاشوا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر جمع هذا المفكّر

موقفهم من العالم الإسلامي، ومن التاريخ الإسلامي، ومن العالم الإسلامي جغرافيًّا في كتاب، وبيّن في هذا الكتاب المشروعات الاستعمارية التي انطلقت منها أوربا إلى القضاء على الخلافة العثمانية، وبالتالي توزيع تركة الخلافة العثمانية على دول أوربا فيما بعد.

ففي عصر الاستعمار، أفاد المستعمرون بلا شك من الدراسات الاستشراقية التي كتبها المستشرقون عن العالم الإسلامي. وكان من الوسائل التي سلكها الغرب لتحقيق هدفهم الاستعماري: وهي تلك الدراسات، وخاصةً ما كتبه (جولد تسيهر)، و(مارجليوث)، و(ماكدونالد)، و(سبينوزا)، و(نكلسون)، و(شاخت)، و(جيب)، وغيرهم وغيرهم...

هذا الدّوْر الذي قام به المستشرقون قد مهّد السبيل للاستعمار لكي يحتلّ بلاد المسلمين بأيسر السُّبل؛ فلم يكد ينتهي القرن التاسع عشر إلّا ووجدنا بلاد أوربا بلا استثناء قد احتَلّت معظم البلاد الإسلامية، والبلاد العربية بصفة خاصة. فوضعت فرنسا يدها على سوريا ولبنان ومعظم دول شمال إفريقيا الإسلامية. فاحتلت المغرب، واحتلت الجزائر، واحتلت تونس. كما وضعت إنجلترا يدها على معظم بلاد العرب التي توجد في آسيا وأفريقيا أيضًا. فاحتلت مصر، واحتلت السودان، كما احتلت العراق والأردن وفلسطين. ووضعت يدها على كثير من الإمارات العربية أو الولايات العربية الموجودة في دول الخليج العربي واليمن. وبدأ الاستعمار من هذا التاريخ يتعامل مع المنطقة بأسلوب جديد؛ حيث عمل على إضعاف روح المقاومة في نفوس المسلمين، ليجعل منهم شعوبًا قابلةً للفكر الاستعماري، وللثقافة الاستعمارية، وللحضارة الاستعمارية، وللعقيدة التي جاء الاستعمار ليبشّر بها في بلادنا. وهذا أخطر ما أصيب به العالم

الإسلامي في القرن التاسع عشر، بحيث وجدنا العالم الإسلامي كلّه دخل القرن العشرين وهو محتلّ سياسيًّا، وعسكريًّا، وثقافيًّا.

ومن هنا لا نستبعد أبدًا أن يكون للاستشراق أسبابًا استعمارية مهّدت للاستعمار العسكري لهذه البلاد ولهذه المنطقة كلها. وابتداءً من القرن العشرين وجدْنا بذور الشك والتشكيك في ماضي هذه الأمّة، وفي تراثها وفي حضارتها، ليُفقِد المسلمَ ثقته في نفسه أولًا، ويفقد ثقته في ماضيه وفي حضارته وفي انتمائه؛ وبالتالي يبدأ يجدّد أو يتعامل مع الواقع الجديد، فيثق في الاستعمار أو يتعامل مع الاستعمار على أنه المخلِّص، وأنه الوسيلة الوحيدة للتحضر، وما إلى ذلك من الدعاوى التي يثيرها المستشرقون تحت دعاوى التنوير والتقدمية، والمنهج العلمي والأسلوب العلمي وما إلى ذلك... ولذلك وجدْنا الاستعمار وضَع مفاهيم جديدة للمنطقة تتعامل بها في مناهج التربية والتعليم، وفي الخطط الثقافية لوزارات الثقافة والإعلام. وكان مِن أخطر ما أثاره في المنطقة هي: النزعة القبلية أو النزعة القومية التي تبنّاها رجل تربَّى في أحضان الاستعمار، ونهَل من مَواردهم، ورضَع لبانهم، وأتى إلى المنطقة لينفّذ خططًا استعمارية مرسومةً له في نوادي أوربا كلها، وهو: مصطفى كمال أتاتورك الذي قوّض الخلافة العثمانية التي كانت رمزًا لوحدة المسلمين. وبعد أن انفكّت عُرى هذه الدولة بدأت الدول الاستعمارية تتلقّف الأقاليم التي كانت خاضعةً لها إقليمًا إقليمًا كما بيّنّا في الإشارات السابقة.

من هنا نستطيع أن نؤكِّد على: أن العامل الدِّيني والعامل الاستعماري كانا من أهم العوامل وراء ظاهرة الاستشراق.

نقطة أخرى أنتقل إليها وهي: أن أعمال المستشرقين كانت تسير بشكل منظّم ومدروس وفقًا لخطَط معيّنة. من أهمّ المدارس التي ينبغي أن ننوّه بها: أن

الاستشراق لم يكن قاصرًا على مستشرق نصراني أو يهودي أو ملحد. لا ! بل إن ظاهرة الاستشراق جمعت بين صفوفها وبين مَن اهتمّوا بها : أصحاب الديانات المختلفة ، بل من لا دين له من الملحدين. ولذلك نجد أن هناك ما يمكن أن نسمِّيه بالمدرسة النصرانية الاستشراقية بفرعيها : المدرسة الكاثوليكية والمدرسة البروتستانتية الفنتيكية. وهذان الفرعان يلتقيان في الأعمال والأهداف وإن اختلفا في بعض الآراء والمذاهب ؛ بحيث نجد أن المدرسة الكاثوليكية كانت كتاباتها واهتماماتها موجّهة إلى نصوص العقيدة في القرآن الكريم ، وفي السُّنة النبوية المطهرة ، وفي شخصية الرسول ﷺ. هذه المدرسة الكاثوليكية كما وجهت اهتماماتها أيضًا إلى العوامل الخارجية الموجودة في التراث الإسلامي. نحن نعلم أنّ الحضارات الإنسانية كالأواني المستطرقة يأخذ اللاحق عن السابق ؛ وهذا شيء مشروع في جميع الحضارات. فلم تكن الحضارة الإسلامية بدعًا في ذلك. نجد أنّ هذه المدرسة ركّزت على الجوانب أو العوامل الخارجية المؤثِّرة في مسار الحضارة الإسلامية.

أما المدرسة البروتستانتية ، فنجد أنّ معظم المنتمين إليها كانوا يجمعون بين فكر صهيوني يهودي ، وبين انتماء ماسوني عالمي ، وبين الأخذ بأسباب العمل الاستشراقي العلمي. فوجدنا من بين هؤلاء المنتمين إلى المدرسة البروتستانتية مَن يغذي فكرة أنّ فلسطين أو أرض فلسطين هي أرض الميعاد. ويغذِّي فكرة أنّ إسرائيل تاريخيًّا كان لها وجود في هذه المنطقة ، ويغذِّي فكرة أنّ العرب دخلاء على منطقة أو على أرض فلسطين ، ويحاول أن يستدل على ذلك بآراء ونصوص يخترعها ويَكذبها على التاريخ الإسلامي من هنا وهناك. ويستغل أسطورة موجودة في التوراة تحت ما يُسمّى بالنبوءة بعودة المسيح # إلى أرض الميعاد ،

ليحكم العالم في الألفية الثالثة التي نحن نعيشها الآن. ولكي ينزل السيد المسيح إلى الأرض ويحكم العالم من أرض فلسطين أو من أورشليم القدس، لا بدّ أن تقوم دولة إسرائيل.

وهذا يُفسّر لنا -أيها المستمع الكريم-: مبدأ التعاطف الذي لا مبرّر له بين السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى، وبين دولة إسرائيل. وقد عبّر عن هذا بعض ساستهم في كثير من المواقف، حيث قالوا: إنّ بيننا وبين دولة إسرائيل تراثًا مشتركًا. هذه الفئة من المستشرقين البروتستانت بالذات أسّسوا ما يسمَّى بالجمعية الصهيونية الصليبية، الصهيونية الصليبية في القرن التاسع عشر. لاحظ الكلمتين: "صهيونية": هذا مصطلح يهودي، و"صليبية": هذا مصطلح مسيحي، وفّقوا بين الاثنين ليقولوا: إنّ هدف هذه المدرسة بما فيها من انتماء لليهودية وانتماء للمسيحية هدَفها واحد وهو: العمل على نصرة دولة إسرائيل، لينزل السيد المسيح في أورشليم القدس، ليحكم العالم من هذه المنطقة في الألفية الثالثة. هذه المدرسة النصرانية.

هناك ما يمكن أن نسمّيه بالمدرسة اليهودية، وهذه المدرسة لها أهداف خاصة تحاول من القرن السابع عشر إلى الآن. تؤسّس فكرة الصهيونية العالمية، تستخدم المنهج الماسوني العالمي في إثارة القلاقل بين الشعوب بعضها البعض، وبين الحكومات وشعوبها، وتعمل على إثارة القلاقل في المناطق التي تريد أن ترسّخ فيها أقدامها تاريخيًّا. ولعل من أشهر مفكِّري هذه المدرسة أو المستشرقين المنتمين إلى المدرسة اليهودية: (مارجليوث) وموقفه من القرآن الكريم -وقد نتعرض لهذه القضية فيما بعد-، وسبينوزا وموقفه من الكتب المقدسة... إلى آخره.

وبين هاتيْن المدرستيْن اللتيْن تنتميان إلى الديانتيْن السماويتيْن: اليهودية والنصرانية، هناك مستشرقون ينتمون إلى المدرسة الإلحادية العامة التي تُنكر جميع الأديان، وتشكك في جميع الأديان، وتشكك في الوحي السماوي، وفي قضية النبوّة، وتعتبر أن الأديان -أو ظاهرة الأديان عمومًا كما تسميها- ظاهرة اجتماعية تاريخية، وأنّ الكتب المقدسة ظهرت على الأرض نتيجة ظروف اجتماعية معيّنة، وينبغي أن يتخلّص العالَم من هذه الكتب المقدسة، ويعيش بعقله وعلْمه بعيدًا عمّا يُسمّى بالمقدّس، وينادون بأنه لا مقدّس إلّا العقل والعلم.

هناك أيضًا مفكّرون ينتمون إلى المدرسة الإلحادية الشيوعية، التي تتبنّى الفكر الماركسي، وتحاول أن تعمل على إشاعته. ومن فضل الله: أن هذه المدرسة قد انتهت بانتهاء المذهب الشيوعي من على وجه الأرض، بانحلال أو تفكّك روسيا المعاصرة؛ وبالتالي نشاط هذه المدرسة كاد يضمحلّ تمامًا بسقوط روسيا وسقوط أعلامها من على خارطة العالم الجغرافية.

اهتمام جامعات أوربا بالدراسات الشرقية

ننتقل إلى نشاطات المستشرقين، وأهمّ الأنشطة التي مارسوها ويمارسونها في حياتهم العلمية الآن. من المهمّ أن نعلم أنّ جمهور المستشرقين يحاولون الانتماء إلى مؤسسات علمية، حتى إذا ما كتبوا أو تكلّموا في ندوات أو مؤتمرات يكون لكلامهم صبغة علمية تؤثّر في المستمع؛ ولذلك نجد أنهم ينتمون أو معظمهم ينتمي إلى العمل في الجامعات الأوربية. وبعضهم أسس جامعات ومراكز ومؤسسات تربوية، ليعمل في رئاستها، وليكون هو المسؤول عن وضع المناهج والخطط التربوية لهذه المؤسسات.

فكان نشاطهم يتمثّل في كراسي الدراسات الإسلامية والعربية والشرقية بوجهٍ عام في الجامعات الغربية التي أُسّست لهذا الغرض، وينطلقون من هذه الجامعات للتأثير في أبناء الشعوب الإسلامية فكريًا وسلوكيًّا ونفسيًّا. وجدنا ذلك في الجامعات التي تأسّست فيها كراسي لهذا الغرض في إنجلترا، في إيطاليا بروما، في فرنسا، في أسبانيا، في بلجيكا، في هولندا، تقريبًا لم تَخْلُ دولة أوربية من تأسيس مركز أو قسم في جامعة لهذا الغرض، يرأسه ويعمل فيه مستشرقون يُرَبُّون أجيالًا وأجيالًا تحت أعينهم لنشر النشاط الاستشراقي في العالم.

هناك جمعيات علمية أيضًا في بلاد العالم الإسلامي خرّجت أجيالًا كثيرة تأثّرت إلى حدٍّ كبير بأقوال وكتابات المستشرقين. هذه الجمعيات كان يؤسِّسها ويسيطر عليها فكر استشراقي، ورجال مستشرقون. ولعلّ من أهمِّ ما نشير إليه هنا: المدارس اليسوعية التي تأسّست بعد ظاهرة الاستعمار العسكري في العالم العربي. أسسوا مدارس يسوعية في لبنان، وفي مصر، وفي المغرب. تقريبًا لم تَخْلُ دولة عربية من مدرسة فرنسية، ومدرسة يسوعية، بل جامعة في مصر، في الخرطوم، في لبنان، في الأردن تعمل تحت غطاء سياسي لكن هي في حقيقتها جامعات استشراقية، يعمل فيها مستشرقون، وأسّسها ووضَع مناهجها مستشرقون لنشر النشاط والثقافة الاستشراقية في هذه المناطق.

أيضًا حاول المستشرقون أن يعملوا موسوعات علمية إسلامية، كدوائر المعارف، والمعاجم اللغوية، واتّخذوها وسيلة لِدسِّ الأفكار الاستشراقية السامة التي يريدون دسّها وإقناع الأجيال الإسلامية بها. ولعل من يقرأ دائرة المعارف الإسلامية، ويكتشف الأخطاء الفظيعة التي دسّها المستشرقون في ثنايا هذه

الدوائر، يقف تمامًا على أنّ الأغراض لم تكن نزيهة، وأن العمل لم يكن موضوعيًّا ولا علميًّا؛ وإنما كان من باب دسّ السُّم في طبق من عسل. هناك مؤتمرات -كما أشرت إلى ذلك سابقًا- اهتمّ بها المستشرقون، وندوات ولقاءات ومحاورات، بين طرفَي العالَم شرْقِه وغرْبِه، ومحاولة جرّ الصف الإسلامي أو العلماء المسلمين إلى التأثير أو إلى التأثّر بأفكار المستشرقين تحت مسمّيات ومصطلحات برّاقة، كالتنوير، والحداثة، والعلْم، والمنهج العلمي، وما إلى ذلك... وقد نتعرض بالتفصيل لبعض هذه الأشياء فيما بعد، لكن هذه هي أهمّ المجالات التي عمل فيها المستشرقون، بالإضافة إلى الكتب والمؤلّفات التي أغرقوا بها السوق عن التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامية، والتصوف الإسلامي، وما إلى ذلك...

هذا بإيجاز فكرة عامة عن تعريف "الاستشراق"، ونشأة الاستشراق، وتاريخ الاستشراق، ومدارسه، وعن أهمّ الأسباب التي أثّرت في تاريخه الطويل، وأهمّ هذه الأسباب -كما قلنا- أنها الأسباب الدينية، ومع ذلك لا نلغي الأسباب الأخرى، كلاّ، وأهمها: السبب السياسي، أو السبب الاستعماري.

الاستشراق (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	المواقف الإيجابية للمستشرقين	٦٩
العنصر الثاني	:	نماذج من افتراءات المستشرقين على الرسول ﷺ والقرآن الكريم	٧٦
العنصر الثالث	:	مقارنة افتراءات المستشرقين بافتراءات المشركين	٨٤
العنصر الرابع	:	نماذج من عتاب القرآن للرسول ﷺ ودلالة ذلك على أنه من عند الله	٨٨
العنصر الخامس	:	تعدد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم دلالة على صدق الرسول ﷺ	٩٤

المواقف الإيجابية للمستشرقين

وقبل أن أنتقل إلى موقف المستشرقين من الفكر الإسلامي بصفة عامة، أودّ أن أضع أمام حضراتكم بعض القضايا التي ينبغي أن نكون منصفين في الحديث عنها.

لم يكن تاريخ الاستشراق إلّا مواقف معادية للفكر الإسلامي -كما قلنا-، لكننا وجدنا بعض المستشرقين في العصر الحديث -بالذات في القرن العشرين- لّما قرأ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وقرأ القرآن الكريم بعيْن العالِم المنصف، وجدناهم يحكمون على الإسلام، وعلى الحضارة الإسلامية، وعلى القرآن الكريم أحكامًا مُنصفة. هؤلاء المستشرقون المُنصِفون كتبوا كتابات طيِّبة حقيقةً عن الإسلام، وحاولوا أن يكتبوا ويدوِّنوا ويؤلِّفوا في مسائل تهمّ المفكِّر المسلم، من الإنصاف أن نقول: إن شباب الإسلام وعلماء المسلمين لم ينهضوا بها.

ولذلك هناك بعض الجوانب الإيجابية التي لا بدّ من الإشارة إليها الآن، وإن كانت لا تخلو من هنات. هذه الجوانب الإيجابية هي: أنّ المستشرقين قاموا بخدمة -أنا شخصيًّا أعتبرها خدمة طيِّبة- للتراث الإسلامي، لماذا؟ لأن كثيرًا من المستشرقين قد خدم المخطوطات العربية والمخطوطات الإسلامية خدمة طيبة، فقاموا بنشر وتحقيق ووضع مناهج -أظنّها تتّسم بشيء من الحيدة إلى حد كبير- في تحقيق التراث العربي والتراث الإسلامي بصفة خاصة. ولذلك فقد كتب بعض المفكِّرين المسلمين يبيِّن الجوانب الإيجابية في تاريخ الاستشراق.

فعندما أراد المستشرق الهولندي (هورجرنيه) أن يكتب كتابًا عن مكّة مثلًا، لم يُثْنه عزمه عن دراسة مكة إلّا أن حاول أن يزور هذه المنطقة بنفسه لكي يكتب عنها كتابة

منصفة. فزار مكة في أواخر القرن التاسع عشر، وأقام هناك مدة خمسة أشهر مدعيًّا أنه مسلم. وسمّى نفسه عبد الغفار، وأجاد اللغة العربية كأحد أبنائها. وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين: أوّلهما: "الحجّ إلى مكة"، وثانيهما: "مكة وجغرافيتها"، في القرن التاسع عشر في جزءين مهمّين جدًّا، وصف فيهما مكة وصفًا دقيقًا شاملًا مع رسم خرائط لهذه المنطقة. وتحلّى هذا الرجل بصبرٍ عجيب في وصف الدقائق التي تتّصف بها جبال مكة، وحارات مكة، وشوارع مكة في القرن التاسع عشر. وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى إعجابه بهذا الرجل، وصبره، ونشاطه فيما كتبه عن مكة، وعن معالم هذه المنطقة، وفي وصفه للمسلمين الذين يُؤدّون شعيرة الصلاة في داخل الحرم المكي. وهذا لون من ألوان الكتابة المُنصفة التي قام بها بعض المستشرقين عن مكة المكرمة.

هذه لمحة عن بعض الجوانب الإيجابية في كتابات بعض المستشرقين، وسوف نتكلم عن هذه النقطة بالذات بشيء من التفصيل حتى نكون مُنصفين -لله وللحقيقة- فيما نقوله عن ظاهرة الاستشراق.

إن بعضهم قد تناول بعض القضايا العربية والإسلامية بشيء من الحيدة والموضوعية؛ وهذا وإن لم يكن سمةً عامة في الكتابات الاستشراقية إلّا أنه من الإنصاف، وحتى نكون موضوعيِّين في حديثنا عن الاستشراق وتاريخه وعمّا له وما عليه، يجب أن نبيِّن النّقاط التي أفدنا نحن كمسلمين من دراسات المستشرقين فيها، ومِن تناوُلهم لها. وأركّز على هذه النقاط بالذات؛ لأننا في حاجة إلى أن نتعلم من غيرنا.

هذه نقطة على جانب كبير من الأهمّية -أيها الشباب-: نحن في حاجة إلى أن نتعلم من غيرنا، وهذا قد أوصانا به نبيّنا ﷺ قال: ((الحكمة ضالّة المؤمن)).

نعم، كتابات المستشرقين في معظمهما تقطر سُمًّا؛ ولكن لا شك أنّ في كتاباتهم بعض المواقف، وبعض القضايا التي ينبغي أن نتعلَّمها منهم. ومن أهمّها: الصبر على العمل العلمي، والدأب والجَلد والمثابرة، والعمل بروح الفريق.

مما لاحظناه في مواقف المستشرقين من تراثنا وحضاراتنا: هذا الترابط التام بين جماعات المستشرقين في مختلف بلاد العالم. هناك تنسيق مستمرّ وتعاون وتكامل في مجال الدراسات العربية والإسلامية للمستشرقين، وبينهم قنوات اتّصال قائمة ومستمرّة وتعمل عن دأب. فالمؤتمرات التي تُعقد تجد أنّ المستشرقين في شرق العالم وغربه يتوافدون إليها. والمجلات والدوريات التي تُنشر والحوليات التي تنشر، تجدها تصل إلى جمهور المستشرقين بلا عناء. فالعمل بروح الفريق ميزة تتميّز بها ظاهرة الاستشراق منذ تاريخها الأوّل إلى الآن. العمل بروح الفريق. وهذه قضية نحن أحوج ما نكون إليها، وأن نتواصى بها، وأن نعمل بها، وأن نروِّض أنفسنا على التخلص من روح الفردية، ومن روح الإنية أو الأنانية، لنسلك أنفسنا مع إخوتنا وأخواتنا الذين يشاركوننا الهمّ في عمل واحد؛ لأن العمل بروح الفريق أجدى وأقرب إلى الكمال من العمل الفردي. هذه واحدة.

من النقاط التي ينبغي أن نتعلّمها من المستشرقين ومن الدراسات الاستشراقية أيضًا هو: دأبهم وحرصهم على العلم، والتخصص الدقيق. فإننا نجد الواحد منهم يُفني عمره كلّه في البحث والاستقصاء لاستيفاء شتّى جوانب الدراسة التي يتعامل معها. ولهذا نجد لدى الواحد منهم معرفةً جيدةً بكل ما يُنشر عن الدراسات الإسلامية والعربية في بلادنا العربية. ولا أكون مبالغًا أنهم يعلمون الكثير والكثير عمّا ينشر عنّا أكثر من معرفتنا به. والواقع الذي نعيشه يؤكّد لنا هذه القضية، والمكتبات الخاصة والعامة التي يتوافدون إليها تبيّن لنا ذلك. أنت تطلب الكتاب في المكتبة العربية

والإسلامية لا تجده، ولكنك تطلب الكتاب في مكتبة دير من الأديرة، أو مؤتمر من المؤتمرات التي تُعقد تجد الكتاب حاضرًا أمامك. هذه حقيقة ينبغي أن نتعلم منها جيدًا الدأب والحرص والعمل بروح الفريق.

من الأمور التي ينبغي أيضًا أن نذكرها: ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين قاموا بها: دوائر المعارف الإسلامية التي قاموا بها. صحيح، لنا عليها ملاحظات، وصحيح فيها أخطاء، وقد تُرجم معظمها إلى اللغة العربية، وربما وصلوا فيها إلى حرف "العيْن"، ولم تكتمل الترجمة إلى الآن، لكن تخيّل معي المكتبة الثقافية والمكتبة العربية والإسلامية بدون دائرة معارف، تكون ناقصة ولا شك. لا نشكّك في قيمة هذا العمل، ولكن في نفس الوقت لا ينبغي أن نقلّل من أهميته، وينبغي أن نفيد منه وننسج على منواله.

أيضًا هناك من كتب مثل (بروكلمان): "تاريخ الأدب العربي". هذا من أهم الكتب التي عُنيت بالمخطوطات وبالدراسات العربية والإسلامية. ويقيني: أن هذا الكتاب لا يستغني عنه باحث في التراث العربي، لماذا؟ لأن هذا الكتاب لا يقتصر على الأدب العربي على اللغة العربية وفقط، بل يشمل كل ما كتب باللغة العربية من المدوّنات الإسلامية؛ فهو أشبه بالفهرس أو السّجلّ للمؤلفات العربية المخطوطة بالذات. وباكتمال المعلومات الواردة في هذا الكتاب عن المؤلف، وعن المخطوطات المتعلّقة بمؤلّف ما، نجد أن أي باحث في التراث العربي في المخطوطات العربية لا بدّ أن يستعين بهذا الكتاب. هذا أيضًا عمل جليل ينبغي أن يُذكر فيُشكر لصاحبه. وأضيف: ينبغي أن نتعلّم منه، ونعمل كما عملوا، ونضيف إلى ما فعلَه (بروكلمان) في "تاريخه" إلى الأدب العربي.

أيضًا اهتمام المستشرقين بجمع المخطوطات العربية من كل مكان، وبشتى السبل، والعمل على حفظها وصيانتها من التّلف، والعناية بها عنايةً فائقة، بل أضافوا إلى هذا العمل فهرسة المخطوطات. فهرسوها بطريقةٍ جيدة، وبذلك وُضعت هذه المخطوطات بشكلٍ ميسور تحت أعين الباحثين في مكان وجودها في المكتبات التي توجد بها، بدون إجراءات روتينية أو تعقيدات من موظف. وقد قام مثلًا بعض الباحثين بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة برلين على سبيل المثال في عشرة مجلدات، بلغ فيه الغاية فنًّا ودقةً وشمولًا. تخيّل معي عشرة مجلدات فهارس لمخطوطات عربية موجودة في ألمانيا! وصدر هذا الفهرس في نهاية القرن الماضي، واشتمل على ما يقرب من عشرة آلاف مخطوطة عربية إسلامية في ألمانيا، وليست في بلد عربي، ولا في بلد إسلامي!

وهنا أيضًا كلمة حقّ ينبغي أن تقال: إنّ حفظ هذه المخطوطات قد أفاد منه الباحث العربي والباحث المسلم فائدةً كبيرةً جدًّا؛ بحيث نجد الطالب الذي يريد أن يسجّل رسالة ماجستير أو دكتوراه إذا طلب مخطوطة قد لا يجدها في مكتبات العالم العربي، لا في مصر، ولا في "الظاهرية" في دمشق، ولا في مكتبات تركيا، ولا في اليمن، وإذا رجع إلى كتاب (بروكلمان) الذي أشرتُ إليه سابقًا قد يجدها في مكتبات أو في إحدى مكتبات الدول الأوربية. كيف انتقلت هذه المخطوطات إلى أوربا؟ ولماذا انتقلت إلى أوربا؟ هذا هو السؤال المهمّ. أليس ذلك سرقةً لتاريخ العرب، وتاريخ المسلمين؟ أعتقد أنّ الإجابة على هذا السؤال تحمل بيقين وظيفة الاستشراق أو إحدى وظائف الاستشراق في عالمنا العربي والإسلامي.

كذلك من الأعمال التي ينبغي أن أشير إليها هنا: ما قام به بعض المستشرقين من وضع فهرس للأحاديث النبويّة أسماه "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي".

حقيقةً هذا الكتاب من أهم الكتب التي ينتفع بها الباحث في علم الحديث خصوصاً، وفي الدراسات الإسلامية بشكلٍ عام؛ حيث جاء هذا الكتاب في سبعة مجلدات، وطُبع في الفترة من ١٩٣٦م حتى عام ١٩٦١م. جمع فيه المستشرقون كُتب الحديث السّتة مضافًا إليها "مسند" الإمام الدارمي، و"موطأ" الإمام مالك. فهرسوا الأحاديث النبوية في هذه الكتب بطريقةٍ علمية، بحيث يبدأ الحديث يأخذ منه المستشرق فعلاً أو كلمة مشتقّة، ويدور بها في كتب الأحاديث الستة مضافًا إليها "موطأ" الإمام مالك، و"مسند" الإمام الدارمي. فهذا المعجم قد سهّل للباحثين طُرق الوقوف على نص الحديث في هذه الكتب، أو عدم وجود الحديث في هذه الكتب بشكل ميسور. وهذا العمل حقيقةً من أهمّ الأعمال التي قام بها المستشرقون في التراث العربي والتراث الإسلامي بصفةٍ خاصة.

هذه بعض الجوانب التي أرى من واجبي الإشارة إليها الآن؛ حتى نكون منصفين في حديثنا عن الاستشراق. هذه الجوانب الإيجابية يقابلها بالطبع جوانب أخرى سلبية؛ ولكن حتى نكون منهجيِّين في تعاملنا مع القضية، لن أتعرض للجوانب السلبية الآن إلّا بعد أن أبيِّن موقف المستشرقين بشيء من التفصيل من القرآن الكريم، من النبي محمد ﷺ، موقفهم من الفكر الإسلامي بصفة عامة، خاصةً بعض فروع الثقافة التي أثاروا حولها كثيرًا من الشبهات كالتصوف، كالفلسفة، كالفقه... وهذا يتطلب منّا أن نتناول موقف المستشرقين بشيء من التفصيل من هذه القضايا؛ لأن تاريخ الاستشراق كلّه مرتبط بموقف المستشرقين من القرآن الكريم، والنبيّ محمد، والسنة النبوية؛ لأن هذه الموارد الثلاثة أو هذه الجوانب الثلاثة كانت هي الجوانب الرئيسة التي أثار المستشرقون حولها شبهات كثيرة، وشكوكًا كثيرة بقصد زعزعة المسلم، وإثارة الشبهات حول العقيدة الإسلامية.

من المعروف في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، وبالذات في التأريخ لظاهرة الاستشراق: أن أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية تمّت في سنة ١١٤٣م تحت إشراف رئيس دير كلوني الراهب المعروف بـ(بطرس الناسك)، أو (بطرس المحترم). ومنذ أن تُرجمت نصوص القرآن في هذه الفترة ووقفت عليها الكنيسة، قامت بإخفائها تمامًا عن أعين القراء حتى لا يتأثر بها أي فرد من أبناء الكنيسة. فأُخفيت هذه الترجمة في نفس الدير بجنوب فرنسا، إلى سنة ١٥٤٣م في عهد (بولس الثالث)، حيث ظهرت هذه الترجمة وتمّت طباعتها لأول مرة. ومنذ أن طُبعت هذه الترجمة، بدأت تنتشر في الدول الأوربية ترجمات وطبعات متعدّدة للقرآن الكريم، لكن لم تصرح الكنيسة بطباعة الترجمة الأولى إلّا في عهد البابا (ألكسندر السابع). ومما يُذكر هنا: أنه رغم ركاكة هذه الترجمة، ورغم ما فيها من أخطاء، إلّا أنها كانت تمثِّل هاجس خوف كبير للكنيسة.

ولم يقف المستشرقون عند هذا الحد، وإنما قامت بعض الجهات الأخرى بترجمة القرآن الكريم، ومعتمدةً على الترجمة الأولى، ونقلت ما فيها من أخطاء. ولعل هذه الترجمة الأولى وما فيها من أخطاء كانت مصدرًا أساسيًّا لمعرفة أوربا كلها بالإسلام وبالقرآن الكريم؛ ولذلك نجد أن الأخطاء الموجودة في هذه الترجمة تتردّد في كتابات معظم المستشرقين بلا استثناء، إلى أن ظهرت المطبعة في العالم العربي، وطُبعت المصاحف طباعة جيدة، وبدأ العالم الإسلامي يقوم بترجمة القرآن إلى لغات العالم المختلفة. فبدأ المستشرقون -وبخاصة المهتمون بالنص القرآني- يقرؤون هذه الترجمات الجديدة التي قامت بها بعض البلاد العربية

والإسلامية، ويصحّحوا ما وقعوا فيه من أخطاء نتيجة قراءتهم للترجمة الأولى التي تمّت في القرن الثاني عشر الميلادي.

في موقف المستشرقين من القرآن الكريم نجد أن هذه الترجمة الأولى قد أثّرت إلى حدٍّ كبير في تكوين صورة -ولو شِبْه كاملة- عن موقف المستشرقين ورؤيتهم للنبي محمد ﷺ وللقرآن الكريم، وهذا يدعونا إلى أن نقف وقفة قصيرة أمام موقف المستشرقين من النبي أولًا، ومن القرآن الكريم ثانيًا.

نماذج من افتراءات المستشرقين على الرسول ﷺ، والقرآن الكريم

نجد أن الرسول ﷺ تناوله المستشرقون بكتاباتٍ عديدة، وارتبط موقف المستشرقين من القرآن بموقفهم من النبوّة في ذاتها؛ لأنهم يقفون من النبي ومن النبوّة موقف الإنكار المطلق. هذا ما عليه جمهور المستشرقين؛ لكن بعضهم قد يُنكر نبوّة محمد ﷺ لكن يؤمن بنبوّة عيسى ونبوّة موسى، كبعض المستشرقين من أهل الديانتيْن. وهناك من يُنكر أصلًا النبوّة ويُنكر قضية الوحي، ويترتّب على هذا أنه ينكر أن يكون القرآن وحيًا إلهيًّا. وربما غالى بعضهم أيضًا أو صرّح بعضهم بأنه ليس هناك وحي نزل لا على موسى ولا على عيسى ولا على محمد.

ومعلوم: أن الإيمان بالنبيّ وبالنبوّة أصل من أصول الاعتقاد التي لا تقبل الشك، يؤمن بها كل مسلم إيمانًا جازمًا كإيمانه بالله. والإيمان بالنبوّة هو المِفتاح الحقيقي لتقبُّل كلّ ما جاء به الوحي ونزل على رسول الله ﷺ. فكأنَّ الإيمان بالنبوّة هو المدخل الطبيعي للإيمان بالإسلام وبمصادر الإسلام؛ بل أكثر من هذا:

هي المدخل الطبيعي للإيمان بما نزل على نبيّ الله موسى من التوراة الصحيحة. وهي المدخل الطبيعي للإيمان بما نزل على نبيّ الله عيسى ممّا صح من الأناجيل. فكأنّ قضيّة النبوّة هي أصل من أصول الإيمان لعلاقة الأرض بالسماء، لعلاقة الخالق بالمخلوق. ومن هنا نجد أنّ كثيرًا من المستشرقين وجّهوا سهامهم أصلًا إلى قضية النبوّة، وبعضهم خصّ محمدًا ﷺ بالذات. هذا موقف يجسِّد قضية الاستشراق، وموقف المستشرقين من مصادر الإسلام الأولى: القرآن الكريم والسُّنة النبويّة المطهّرة.

ولكي يكون عند السامعين فكرةٌ عن النبوّة، ينبغي أن يعلموا: أن النبوّة في جوهرها هي: إنباء الله تعالى عبدًا من عباده بشرعٍ ما، وبوحْيٍ ما. فإن أمَره بتبليغ هذا الشرع إلى الناس كان رسولًا نبياً، وإن لم يأمره بتبليغ هذا الشرع إلى الناس كان نبياً فقط.

وينبغي أن يُعلم: أن هناك فَرْقًا بين النبوّة والرسالة، بين النبيّ والرسول. فالنبيّ ينزل عليه الوحي لكن لا يُؤمر ببلاغه أو بإبلاغه إلى الناس. والرسول ينزل عليه الوحي، ويُؤمر بتبليغ هذا الوحي إلى الناس. ولذلك الفارق ينبغي أن يكون واضحًا في أذهان المستمعين بين النبي والرسول.

والنبوّة في جوهرها أيضًا: اصطفاء وعطاء من الله ﷻ، وليست كسبًا، ولا اجتهادًا كما يرى بعض المفكِّرين في الغرب. وما بلّغته الرسل إلى الناس من شرائع وعبادات ليست من عند أنفسهم، وإنما هي وحي من الله ﷻ، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون منذرًا بما جاء في هذا الوحي، ومبشِّرًا بما جاء في هذا الوحي. فإن نزل الوحي بالعربية كان قرآنًا، وإن نزل بالسريانية كان إنجيلًا، وإن نزل بالعبرية كان توراة،

تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

[إبراهيم: ٤].

وهذا الوحي ليس فيضًا من العقل الفعّال كما تدّعي الفلاسفة، وكما عليه كثير من المستشرقين، وليس إبداعًا لعبقرية النبيّ كما يقول بعض المستشرقين، وإنما هو وحي من الله على قلب الرسول بواسطة ملَك الوحي جبريل # . فهو من عند الله بلفْظه ومعناه كما هو الحال في القرآن الكريم، أو بمعناه دون لفْظه كما هو الحال في السُّنة النبويّة المطهّرة. لكن المستشرقين يرون القضية على عكس ذلك تمامًا. فهم أولًا يُنكرون قضيّة نبوّة محمد ﷺ، ولا يعترفون له بالنبوّة ولا بالرسالة.

واختلفوا فيما بينهم في تحديد ماهية هذا الرجل، ماهية النبيّ ﷺ. لماذا؟ لماذا اختلفوا؟ لأنّ الرسالة التي بلّغها إلى الناس أكبر من أن يقوم بها بشر، عالِمًا كان، أو فيلسوفًا، أو من كبار مفكِّري العالَم. فقد أعجزهم تفسير هذا الوحي، وأعجزهم أن يكون هذا الوحي من صنع البشر؛ لكن في نفس الوقت يُكابرون ويعاندون ويقولون إنه ليس وحيًا من السماء. ومن هنا اختلفت مواقفهم من النبي ﷺ. فهو عند البعض أحد عباقرة العالم العشرة. بعض المستشرقين عدّد زعماء العالَم وكبار مفكِّري العالَم، فجمَعهم عشرة، وقال: إن محمدًا نبيّ العرب هو أحد عباقرة العشرة، لكن ليس نبيًّا يوحى إليه من السماء. والبعض الآخر جعل النبيّ أحد الأبطال العظماء في صناعة التاريخ البشري. وعند البعض الآخر: ناقل ذكيّ متأثر بكتب الأوّلين السابقين، سواء كان الأولون السابقون من رهبان النصارى، أو من كبار مفكري العالم السابقين على الدعوة الإسلامية. وأكثر من هذا غرابةً: أنّ بعض المستشرقين يصفون النبي ﷺ بأنه أحد

المشعوذين، أو طلاّب الرياسة والزعامة. نعم، بعضهم صرّح بذلك، وهكذا قال بعضهم في حق نبي الإسلام -عليه الصلاة والسلام.

وهذا يدعونا إلى أن نتناول هذه الأمور بشيء من التفصيل. وسوف أكون مضطراً إلى ذكْر بعض أسماء المستشرقين حتى يكون كلامُنا عنهم موثّقًا علميًّا ومنهجيًّا، وحتى لا نكون من أصحاب الدعاوى الخالية من الدليل. وسوف أختار نماذج فقط من بعض المدارس الاستشراقية؛ لأن تناول المستشرقين على سبيل الاستقصاء والإحصاء أمْر فوق الطاقة في مثل هذه المواقف، ولكن سوف أركّز على نماذج معيّنة، والدعاوى التي يقول بها هذا المستشرق الذي أختاره مردّدة في كتابات غيره من المستشرقين.

يقول أحد المستشرقين الألمان وهو: (هربرت جريني) في كتابه عن محمد، وهذا هو عنوان الكتاب "محمد" ﷺ: "لم يكن محمد في بادئ الأمر يبشِّر بدين جديد، بل إنما كان يدعو إلى الاشتراكية. فالإسلام في صورته الأولى لم يكن يحتاج إلى أن نُرجعه إلى ديانةٍ سابقةٍ تأثّر بها، أو تفسّر لنا تعاليمه؛ وإنما هو محاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة، وعلى الأخص إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء والفقراء في مكة. لذلك نراه -أي: محمداً ﷺ يفرض ضريبة معيّنة لمساعدة المحتاجين. وهو يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخِر كوسيلةٍ للضغط المعنوي، ولتأييد دعوته في جمع الأموال من الأغنياء".

هذا مستشرق ألماني، فهو يرى أن الزكاة التي فُرضت على المسلمين ليست وحيًا، ليست أمرًا إلهياً. لم ينزل بها قرآن، ولم يأمر بها الرسول ﷺ المسلمين نتيجة نزول الوحي عليه. وإنما يراها ضريبةً فرضها محمد ﷺ يساعد بها الفقراء

والمحتاجين في هذه المنطقة من العالم، ضريبة وليست زكاة، من أوامر محمد ﷺ وليست وحيًا إلهيا، هذا نموذج.

نموذج آخر من المستشرقين الإنجليز وهو: (جيب)، وضع كتابًا أسماه "المذهب المحمدي". وقد يترجم أحيانًا بـ"الديانة المحمدية". يقول هذا المستشرق: "إن محمدًا ﷺ ككل شخصيةٍ مُبدعة، قد تأثرت هذه الشخصية بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به في مكة. ثم هو من جهة أخرى قد شقّ طريقًا جديدًا بين الأفكار والعقائد السائدة، خاصةً ما كان معروفاً في زمانه من عقائد، هذه العقائد التي دارت وانتشرت في المكان الذي نشأ فيه محمد. ولقد نجح محمد؛ لأنه كان واحدًا من المكيِّين. ومعارضة المكيين له لم تكن من أجل تمسّكهم بالقديم، ولا بسبب عدم رغبتهم في الإيمان، وإنما كانت لسبب سياسي أو اقتصادي نتيجة ما نادى به محمد".

فهذا المستشرق يفسِّر موقفه من النبي ﷺ، فيرى: أنّ دعوة محمد، أو أن قوله بأنه نبيّ رسول لم يكن نتيجة وحي من السماء، وإنما نتيجة الظروف المكية التي جعلت منه زعيمًا سياسيا، ومصلحًا اجتماعيا، وأعطته الفرصة لكي يظهر في وسط قومه المكيِّين بهذه الصورة، وأن يلتفّ حوله الفقراء طلبًا للإنصاف من الأغنياء. فكانت تفسيراته لموقف النبي ﷺ تفسيرًا سياسياً واقتصادياً، خاصةً أنه يقول في هذا الكتاب: "إن محمدًا كان يهرب -صلوات الله وسلامه عليه- من الأوضاع الاجتماعية في مكة إلى الجبل، ويختبئ فيه عن أعين الرقباء. وهذه الخلوات التي كان يقوم بها ﷺ أعطته نوعًا من التفكير والتأمل في أوضاع مكة،

وفي أوضاع الفقراء فيها، فجعل يدعو الأغنياء إلى معاونة الفقراء، والتفّ حوله الفقراء، فجعلوا منه زعيمًا حاربوا به أغنياء مكة".

هذا تفسير (هاملتون جيب) لموقف الرسول ﷺ ولنبوّته ﷺ.

لكن هناك نمط آخر من المستشرقين يروْن: أنّ النبي ﷺ قد حلّت به حالة نفسية أدّت به إلى نوع من التأمّل الذاتي في السماء، وما فيها من نجوم، وما فيها من أقمار، وساعده هذا التأمل على تألّق هذا النوع النفسي. وتأمّله في أجواء مكة، وما تتركه هذه الحالات من رهبة في قلوب المتأمِّل، خاصة إذا خلا ونفسه، إذا خلا وعالمه الطبيعي الموحش، إذا خلا وجبال مكة، إذا خلا بنفسه في هذه الظلمة في داخل الكهوف التي كان يعيش فيها، تثير في النفوس حالات من الهلع والتأمّل الذاتي، تجعل من صاحبها يدّعي كثيرًا من الإدعاءات التي يطلع ويخاطب بها بني قومه. كأنهم يريدون أن يقولوا: إن محمدًا ﷺ قد أصابته نوبة من نوبات الجنون أو الهوَس نتيجة اعتكافه وخلوته في الغار الذي كان يخلو فيه ﷺ.

وعلى مثل هذا النحو من الفهم عن الرسول ﷺ كان موقف كثير من المستشرقين. على سبيل المثال أيضًا، يقول (غوستاف لوبون): "يجب اعتبار أنّ محمدًا ﷺ من فصيلة المتهوّسين من الناحية العلمية، وكأكبر مؤسّس للديانات. ولا نعجب من ذلك؛ فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكِّرين هم الذين يُنشؤون الديانات ويقودون الناس. وإنما أولو الهوس العقلي هم الذين مثّلوا هذا الدور، وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول، وقادوا البشرية".

هذا المستشرق (غوستاف لوبون) وضع كتابًا أسماه: "حضارة العرب"، صرَّح فيه بآراء وأفكار تدل على جهله بالوحي والنبوّة، وتدل على جهله بطبيعة الحضارة الإسلامية، وعلى جهله بالحياة الخاصة للرسول ﷺ؛ لذلك نجده يتّهمه في هذا الكتاب بالشهوانية، ويتّهمه في حياته الزوجية. ويرتّب على هذا الاتهام مجموعة من الأحكام التي تدل على جهله بخصوصيات الرسل، وخاصة النبي محمد ﷺ. ويجعل من القرآن دليلًا على عبقرية الرسول وإبداعه، أو يحاول في مكان آخر من الكتاب أن يضعه في مكانة أدنى من كتب الهندوس الدينية. ويرى أنه كتاب مؤقّت بعصره، لا يحقق حاجات الناس في العصور التالية. وقد انتشرت دعوى هذا المستشرق (غوستاف لوبون) في كثير من الكتابات الاستشراقية التي أتت بعده. نفس الدعوى ونفس القضية، بل تكاد تكون نفس الألفاظ.

نموذج آخر: (جولد تسيهر) وضع كتابًا أسماه: "مذاهب التفسير الإسلامي". صرّح في هذا الكتاب بأن المعرفة التي جاءت في القرآن الكريم، والتي تلقّاها محمد ﷺ يقول: "إنه تلقاها عن مصدريْن أساسيّين. فتبشير محمد العربي ليس إلّا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينيّة عرَفها بفضل اتّصاله بالعناصر اليهودية، والعناصر المسيحية التي تأثّر بها تأثراً عميقًا".

و(جولد تسيهر) هذا من كبار المستشرقين اليهود الذين خاضوا في حق الرسول وفي حق القرآن الكريم. يقول (جولد تسيهر): "والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية اليهودية والمسيحية، كانت في وجدانه ضرورية لإقرار لون من الحياة في اتجاه يريده الله. ولقد تأثر بهذه الأفكار تأثرًا عميقًا، وأدركها بإيحاء التأثيرات

الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه. كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيًا إلهيًا، نتيجة تأمله في هذه التعاليم".

ويسير في نفس الاتجاه (بلاشير) في كتابه الذي أسماه: "معضلة محمد"؛ حيث يرى: أنّ التشابه الواقع بين قصص القرآن وقصص التوراة، كان سببًا في القول بأنّ محمدًا أخذ القرآن عن هذيْن المصدريْن.

هذه نماذج من مدارس مختلفة، بعضها إنجليزي، بعضها ألماني، بعضها فرنسي، موقفها من القرآن الكريم، وموقفها من النبي ﷺ.

نموذج آخر يبيّن موقف المستشرقين من التراث الإسلامي ككل. على سبيل المثال: نجد المستشرق الفرنسي (نيكلسون) كتب كتابين عن التصوف الإسلامي، وعن الدراسات الصوفية، بيّن فيهما أو صرّح فيهما: أن محمدًا ﷺ أخذ القرآن عن مصادر متعدّدة، لكن أهم هذه المصادر عند (نيكلسون) هي: المسيحية. ويتّهم القرآن بالتناقض والتضارب الذي لم يستطع أهل مكة اكتشاف ما فيه من تناقض لسذاجتهم وعدم قدرتهم. هكذا يصرح نيكلسون حيث يقول: "والقارئون للقرآن الكريم من الأوربيّين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلّفه -وهو محمد-، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات. وهو نفسه -يعني: محمداً ﷺ لم يكن على علم بهذه المعضلات، كما لم تكن حجَر عثرة في سبيل صحابته الذين تقبّل إيمانهم الساذج بالقرآن الكريم على أنه كلام الله". كما اتّهم هذا المستشرق الرسول ﷺ بأنه حرَّف النصرانية، وأساء فهْمها.

مقارنة افتراءات المستشرقين بافتراءات المشركين

هذه فقط نماذج من بعض المستشرقين أيضًا من القرآن من ناحية مصدره، ومن النبي ﷺ. فالقرآن عندهم ليس إلهيًّا ولا ربانيًّا ولا وحيًا نزل من السماء، وإنما هو صناعة بشرية قام بها محمد ﷺ، وأنه أخذ هذا القرآن من مصادر متعدّدة، كان من أهمّ هذه المصادر عندهم: التوراة والإنجيل. ومعلوم لدى كل مسلم: أنَّ الإيمان بالقرآن الكريم وأنه كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود: أصلٌ من أصول الاعتقاد. ولا ريب في ذلك لدى كل مسلم، وأنه بلفظه ومعناه من الله تعالى. نزل به الروح الأمين على قلب النبي ﷺ حسب الحوادث، وحسب ما تحتاجه من حلول المشكلات التي تظهر أمام الرسول. وسوف نتناول هذه الدعاوى بالرد عليها -إن شاء الله تعالى- تفصيلًا؛ لكنَّ الذي أودّ أن ألفت النظر إليه: أنَّ ما ردَّده المستشرقون في كتاباتهم وفي مؤلفاتهم، نحن -كمسلمين أو كمتخصِّصين في الدراسات الإسلامية- لم نقرأ فيه شيئًا جديدًا عمّا كان عليه مشركو مكة في عصر النبوّة. ولا نجد فيه جديدًا عمّا قاله المشركون قديمًا عن النبيّ وعن القرآن. ولا نجد فيه إلّا تكرارًا لما ادَّعاه المشركون، وللاتِّهامات التي وجَّهها المشركون إلى القرآن وإلى الرسول، والرسول ما زال على قيد الحياة؛ ولذلك لا نجد كبير عناء في الرد على هذه الدعاوى -إن شاء الله تعالى-.

وأحبّ أن ألفت نظر طلاب الدراسات الإسلامية بصفة خاصة: أن يتعوّدوا ويتمرّسوا على قراءة القرآن الكريم؛ لأن قراءة القرآن الكريم، والتمرس على قراءته وحفظه -وإن شاء الله تعالى تكونون جميعًا من حفّاظ القرآن الكريم- وكثرة التعامل مع آيات القرآن الكريم تبيّن لنا بوضوح: أنّ دعاوى المستشرقين

ليس فيها شيء جديد أبدًا عمّا قاله المشركون قديمًا. ولذلك نجد أن دعوى المستشرقين أنّ القرآن بشريُّ المصدر، ومن يقارن بين هذه التهمة وبين ما حكاه القرآن الكريم عن مشركي مكة قديمًا، وعن موقفهم من الرسول ﷺ، يجد أنَّ هذه الدعاوى قد سبق إليها المشركون بأكثر من ألْف وأربعمائة عام. سبق إليها مشركو مكة، ردَّدوها وقالوها، تهمة تهمة، بحيث لا نجد في كتابات المستشرقين أبدًا شيئاً جديدًا. وأهل الكتاب في المدينة ردّدوا نفس الدعاوى، خاصةً اليهود؛ بل قد بلغ حرص النصارى على هذه الاتهامات، وعلى تكرارها من جيل إلى جيل، حتى إن بعضهم قد أفردها بمؤلّفات مستقلة، كما فعل يوحنّا الدمشقي، وبولس الأنطاكي في رسائله عن النصرانية والإسلام.

قديمًا قال المشركون عن القرآن الكريم: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥] أليست هذه الدعوى هي ما قاله المستشرقون في عصرنا الحاضر؟ وقال القدماء عن القرآن الكريم، قال المشركون في مكة: إنه ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥] أي: محمد ﷺ، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. أساطير الأولين: نفس الدعوى التي ردّدها المستشرقون لّما قالوا إنه أخذها من الكتب السابقة. وقال المشركون في مكة عن الرسول قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] لما ادَّعَوا إن بحيرى الراهب قالوا: إنه أخذ القرآن عنه. وبعضهم نسب هذه الدعوى إلى بعض رجال الفُرس في شمال الجزيرة العربية، ولذلك تجدون القرآن في سورة (النحل) الآية: مائة وثلاثة، عندما يذكر هذه القصة يفنّدها بدعوى في منتهى العقلانية، ببرهان لا يقبل النقيض حيث قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]: بمعنى: أن الشخص الذي يدّعون أن محمدًا ﷺ تعلّم عنه القرآن لا يعرف العربية، وإنما كانت لغته الفارسية، ومحمد

ﷺ لا يعرف الفارسية، وإنما كانت لغته العربية، فكيف يأخذ هذا عن ذاك؟ اقرؤوا هذه الآيات.

وفي القرآن الكريم حكايةً عن المشركين أيضًا: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]. أليست هذه هي نفس الدعوى التي ردّدها المستشرقون. وقالوا قديمًا للرسول ﷺ: ﴿ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ ﴾ [الرعد: ٤٣]. وقالوا غير ذلك عن القرآن وعن الرسول ﷺ. ولذلك أرجو من طلبة العلم خاصةً المهتمِّين بالدراسات الإسلامية: أن يقرءوا القرآن المكي بصفة خاصة؛ لأنه ذكَر هذه الدعاوى وفنّدها قضيةً قضية.

القرآن المكي هو الذي ذكَر لنا موقف المشركين في مكة من القرآن، ومن الرسول ﷺ. اتّهام الرسول بأنه ساحر، وأن القرآن سحر. اتّهامه بأنه ليس نبياً، وأنه تعلّم القرآن من غيره، وأن القرآن أساطير الأوّلين اكتتبها، وأن القرآن نفسه ليس وحيًا من الله، وإنما هو من عند الرسول. كلّ هذا بيّنه القرآن فيما نُسمِّيه نحن: "القرآن المكي". وتولى القرآن بنفسه الرد عليه قضية قضية.

وكذلك لا نجد غرابة في اتهام المستشرقين للرسول بأنه عبقري؛ فإن المشركين قديمًا وجّهوا إليه هذا الاتهام، وخاطبوا الرسول في هذه القضية أمام عمّه أبي طالب. فنحن نقرأ في تاريخ السيرة النبوية: أنّ وفدًا من قريش ذهب إلى عم الرسول ﷺ في بداية أمر الدعوة، وأخذوا يحاورونه في أمر محمد، وقالوا له: "يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وسفَّه أحلامنا. فإن كان يريد من هذا الأمر مالًا جمعنا له من أموالنا حتى يكون أكثرنا مالًا. وإن كان يريد رياسة وزعامة أعطيناه هذه الرئاسة والزعامة. وإن كان الذي يأتيه رئيًا من الجن -اسمع معي يا أخي هذه العبارة مرةً ثانية: - إن كان الذي يأتيه هوس جنون عالجناه".

فقضية دعوى الزعامة ودعوى أنه عبقري، وأنه يريد الرياسة، ليست جديدة أيضًا على الرسول؛ وإنما هي نفس القضايا التي ردّدها المشركون قديمًا أمام الرسول ﷺ وفي العهد المكي.

وفي مثل هذا المقام الذي لا يتّسع لتفصيل القول في تكرار وذكْر هذه الدعاوى التي ذكرها القرآن الكريم، وردّدها المستشرقون حديثًا، ولكن أودّ فقط الإشارة إلى أمور:

لقد قال المستشرقون عن الرسول أنه "مُعَلّم"، "مُعَلّم" يعني: علّمه غيره. وقالوا عنه إنه: شاعر وساحر. وقالوا عن القرآن: إنه إفك افتراه. والقرآن الكريم اشتمل على هذه الاتهامات كلها وذكَرها قضية قضية.

هل لو كان القرآن الكريم من عند محمد ﷺ، ألم يكن من الأوْلى والأنفع لصاحب القضية أن يأتي القرآن خاليًا من ذكْر هذه الاتهامات؟ أليس في ذكْر القرآن الكريم لهذه الاتهامات بالتفصيل دليل على أن القرآن ليس من عند محمد، وأنه وحي من السماء؟ لأن القضية تتمثل في الآتي: المحامي الذي يترافع أمام القاضي يحاول أن يذكر الأدلة التي تبيِّن أنه صاحب حق، وتبيِّن ما فيه المصلحة ليكسب قضيّته. فلو كان القرآن من عند محمد، أليس من الأوْلى والأنفع أن يأتي القرآن خالياً من هذه الاتهامات، بدل ما يعلنها الرسول: إن المشركين اتهموه بكذا وكذا؟ لا. كان يأتي القرآن بدون ذكْر هذه الاتهامات. ولكن لأنه ﷺ هو النبيّ، وهو الرسول، وهو الأمين، وهو الصادق فيما بلّغ عن ربه، ذكَر القرآن على لسانه هذه الاتهامات تهمة تهمة، ليحمل القرآن بنفسه في آياته دليل صدْقه، وليحمل معه الرد العقلي والعلمي على كلّ من اتّهم محمدًا ﷺ بأنه

ساحر، أو أنه شاعر، أو أنه كاهن، أو أن القرآن مفترى من عند محمد؛ لأن القرآن لو كان من عند محمد لجاء خاليًا تمامًا من هذه الاتهامات. هذه قضية.

ومَن له صلة بالقرآن الكريم وبتلاوة القرآن الكريم، يدرك تمامًا سقوط هذه الدعاوى الظالمة، ويعلم يقينًا أنّ القرآن الكريم كان أمينًا في عرض هذه الاتهامات على ألْسنة المشركين، وكان أمينًا في الاحتفاظ بها تُتلى ضمن آياته، ويَتعبّد بها المسلم كما يتعبّد بتلاوة غيرها من آيات القرآن الكريم، ليكون القرآن نفسه حاملًا معه أدلّة نفي هذه الاتهامات الكاذبة، وهذه الافتراءات الظالمة، وحاملًا معه دلائل مصدره الإلهي، وأنّ مَن له حظٌّ من العقل والحكمة يعلم تمامًا أنّ هذا القرآن الكريم لو كان من عند محمد لجاء خاليًا تمامًا من ذكْر هذه الاتهامات الموجَّهة إلى شخصه، ولكان أولى به أن يأتي بشهادات تؤيّد صدْقه بدلًا من ذكْر هذه الاتهامات التي توجّه إليه وتوجّه إلى القرآن الكريم، وهو ما زال في أوّل عهده بالدعوة.

إن تسجيل القرآن الكريم لهذه الاتهامات يدل على أمور مهمّة، سوف نتناولها بالتفصيل فيما يأتي.

نماذج من عتاب القرآن للرسول ﷺ، ودلالة ذلك على أنه من عند الله

عرفنا الاتّهامات والافتراءات والأكاذيب التي وجّهها المستشرقون حديثًا إلى القرآن الكريم، وإلى وحي الله المنزل، وإلى شخص النبي ﷺ، وذكَرنا أنّ القرآن الكريم قد أتى على جميع هذه الاتهامات تهمة تهمة، وأن المشركين في مكة قد واجهوا الرسول ﷺ بهذه الاتهامات قبل المستشرقين في العصر الحديث. فالقرآن الكريم قد ذكَر هذه الاتهامات وسجّلها تُتلى في آياته الكريمة، والمؤمنون يتعبّدون

الله بتلاوتها صباحًا ومساءً. ونودّ أن نسجِّل بعض الملاحظات المهمّة في ذكْر القرآن لهذه الاتهامات، وبيان أنّ هذا كان لونًا من ألوان التأكيد على عدّة أمور تتعلق بصدْق النبي ﷺ، وتردّ في نفس الوقت على اتّهامات المشركين قديمًا والمستشرقين حديثًا، وكلّ مَن يتعرّض للقرآن أو للوحي أو للنبي في مستقبل هذا الزمان؛ لأن الله ﷻ قد تعهّد بحفْظه، حيث قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وتسجيل القرآن الكريم لهذه الاتّهامات التي ذكرناها على ألْسِنة المستشرقين حديثًا، والمشركين قديمًا، يدل على أمريْن مهمّيْن جدًا في شأن الدعوة الإسلامية عمومًا، وفي شأن صدْق النبي وألوهيّة المصدر الإلهي للقرآن الكريم ثانيًا.

-فالأمر الأوّل الذي ألْفِت النظر إليه هو: دلالة القرآن الكريم على صدْق النبي ﷺ، ودلالته على أمانته ﷺ في النقل عن ربه؛ لأنه بذكْر هذه الاتهامات يبيِّن لنا أمانة النبي في النقل، وصدْقه في التبليغ. لماذا؟ لأنه ليس من صالح أصحاب الرسالات أن ينقلوا إلى أتباعهم هذه الاتهامات التي تحمل معنى التكذيب أحيانًا، ومعنى التشكيك أحيانًا، ومعنى الافتراء والمواجهة أحيانًا أخرى؛ بل كان الأولى من ذلك -لو لم يكونوا رسلًا صادقين أمناء في التبليغ- أن يُخفوا تمامًا عن أتباعهم هذه الاتّهامات، وألّا يذكروها أصلًا؛ بل من الأوْلى أن يجيئوا بدلًا منها بشهادات تؤيِّد صدقهم على ألْسنة أعدائهم كما يحدث في عهدنا هذا في كثيرٍ من المناسبات؛ ولكنّ الأمر يختلف تمامًا، إنه ﷺ هو النبيّ وهو الصادق الأمين، وحاشا له وحاشا لواحد من إخوته الأنبياء أن يكونوا غير ذلك، أن يكونوا غير أمناء، أن يكونوا غير صادقين؛ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] حتى في تبليغ أتباعهم ما واجههم به أعداؤهم من افتراءات وأكاذيب واتهامات.

-أمّا الأمر الثاني فهو: أنَّ هذا النص القرآني بذكْره لهذه الاتِّهامات يدلُّ على ألوهيَّة مصدره، وأنَّ القرآن هو كلام الله تعالى، نزل به الوحي الأمين على قلب النبي ﷺ وأنه ليس من قول البشر. والذي له صلة بالقرآن الكريم يعلم تمامًا: أن ذلك هو حقُّ اليقين، وصدَق الله العظيم: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

-وهناك أمر آخَر ألفت النظر إليه، على درجة كبيرة من الأهمية: أنّ الذي له صلة بالقرآن الكريم يعلم أنَّ القرآن قد اشتمل على كثير من مواقف اللَّوم، ومواقف العتاب لرسول الله ﷺ، تكرَّر ذلك في أمور كثيرة كان ﷺ يتصرف فيها من واقع بشريته الخالصة، فكان ينزل القرآن معاتبًا للرسول على ما فعَل، وموجِّهًا نظره إلى ما صحّ وما يصحّ من القضية. حدث ذلك في موقفه ﷺ في أمور كثيرة نذكر منها:

موقفه ﷺ مع ابن أم مكتوم، حين انصرف عنه الرسول ﷺ إلى غيره يدعوه ويرجو له الإيمان، ويرجو له التبليغ وحُسن الاعتقاد في الله ﷻ، ونزل القرآن معاتبًا الرسول في ذلك، قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [عبس: ١ - ١٠].

الرسول ﷺ، لِعلْمه بعقيدة ابن أم مكتوم، وأنه مؤمن صادق الإيمان، ترَكه وانصرف إلى غيره يدعوه ويبلِّغه الدعوة أملًا في إيمانه، وأملًا في حُسن اعتقاده، ولكن الله ﷻ يعلم أن ذلك لن يكون؛ فنزل القرآن معاتبًا الرَّسول ﷺ: لماذا انصرفت عن ابن أم مكتوم، وانشغلت بغيره؟ وهو لن يؤمن، ولن يصدق، ولن تحسن عقيدته.

وحدث ذلك أيضًا في شأن أسرى بدر، حين انتهت المعركة وانكشف غبارها، ومات من المشركين من مات، وأُسِر منهم من أُسِر، وأخذ الرسول ﷺ يشاور أصحابه في شأن هؤلاء الأسرى: ماذا يفعل بهم؟ أيقتلهم؟ هل يَقبل الفدية منهم ويفديهم ويفكّ أسْرهم؟ هل يبادل أسيرًا بأسير؟ شاور أبا بكر > ، وشاور عمر، فكان رأي أبي بكر > : أن نأخذ منهم الفدية. وكان من رأي عمر: أن ندقّ أعناقهم. قاتلونا في مكة، وأخرجونا من مكة، أخرجونا من ديارنا وأخذوا أموالنا. وأوشك الرسول ﷺ أن ينزل على رأي أبي بكر، ويأخذ الفدية منهم ويُطلق سراحهم؛ ولكن هنا نزل الوحي مخالفًا لرأي الرسول ﷺ ومعاتبًا له. يقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

هذا لون من العتاب لرسول الله ﷺ على أمر شديد الخطورة، أمر المعركة، وأمر الأسرى الذين وقعوا تحت أيديهم بعد انتهاء هذه المعركة، أمر يمكن أن يتعلق بالإستراتيجية العامة للدعوة وهي ما زالت في أوّل عهدها.

وتكرّر مثل ذلك أيضًا في سورة (الكهف) حين اهتمّ الرسول ﷺ ببعض وجهاء مكة أملًا في إسلامهم، وأعرض عن بعض أتباعه لإيمانه ﷺ بأنهم مؤمنون حسَنو العقيدة؛ فنزل قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

وحدث نظير ذلك أيضًا في مواقف عديدة ذكَرها القرآن الكريم، حين قالت قريش لرسول الله ﷺ: "أقْبِلْ على بعض أمرنا ونحن نُقبل على بعض أمْرِك"، يعني: خُذ منا بعض الآراء وبعض العقائد، ونحن نأخذ منك بعض الآراء وبعض العقائد؛ فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

تأمّل معي هذه العتابات، أو هذه الألوان المتكرّرة من العتابات: بعضها يجيء هيّنًا ليّنًا سهلًا، ثم يشتد شيئًا فشيئًا إلى أن يصل إلى العتاب القاسي الشديد. تأمل الآية الأخيرة: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ [الإسراء: ٧٥]: هذا لون من العتاب القاسي لرسول الله ﷺ.

ونظائر ذلك في القرآن الكريم كثيرة، يتلوها المسلم ويتعبّد بها كما يتعبّد بتلاوة الأوامر والنواهي، فهل يكون ذلك اللوم وذلك العتاب من عند محمد ﷺ موجَّهاً منه إليه؟ أليس من الأوْلى -لو كان القرآن من صنع محمد كما زعموا- أن يجيء القرآن الكريم خاليًا من مثْل هذا اللّوم الموجّه إلى شخصه ﷺ؟ وهل يكونُ القرآن من عند محمد ويكون مشتملًا على مثل قوله تعالى: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ [الإسراء: ٧٥]؟

إنّ القرآن الكريم نفسه قد احتوى على ألوهيّة مصدره كجزءٍ ذاتيٍّ فيه وليس خارجًا عنه. من ذلك مثلًا: ما أشرنا إليه آنفًا من مثْل اشتمال القرآن الكريم على هذه الألوان المتكررة والمتعددة من ألوان العتاب. كما اشتمل القرآن على مواقف المشركين وأهل

الكتاب، وإنكارهم لألوهية مصدره، ودعواهم أنه من عند محمد ﷺ تارةً، أو أنه قد اتّخذه من أهل الكتاب يهود ونصارى تارةً، أو أنه قد تعلّمه من بشَر تارةً أخرى. ثم إنّ إشارة القرآن الكريم إلى اتّهام المشركين لمحمد بأنه ساحر أو شاعر أو معلَّم أو مجنون؛ إذ لو كان القرآن من عند محمد لجاء خاليًا من مثل هذه الاتهامات، وكان أوْلى به أن يأتي بشهاداتٍ تؤيِّد صدْقه.

ممّا ينبغي أن نعْلمه: أنّ القرآن الكريم عندما ذكَر هذه الإشارات لم يذكُرها إلّا مقرونة بدليل إبطالها، وبيان فسادها. فكان يذكر الفرية أحيانًا، ثم يُتبعها بقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦] لِينفي أن يكون معهم دليل على كذبهم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله سبحانه: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨] ليبيِّن أنّ كلامهم متهافت في ميزان المنطق وفي ميزان العلم، لافتقاره إلى دليل صدْقه. وكان القرآن الكريم يذكر الفرية أحيانًا، ثم يُتبعها بالقضية الجازمة بأن القرآن من عند الله، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

وكان ينفي أحيانًا عنهم صفة العلم اليقيني بمستوياته المختلفة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١] بهذه الصيغة صيغة النفي الجازم: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]. ولعل القرآن الكريم كان يلفت نظر المسلمين بذلك إلى جنس هذه الافتراءات، وأنّ أدعياءها لا يملكون دليلًا على صحة دعواهم، وإن هي إلاّ ظنون وأوهام أنبتتْها بذور الحقد والكراهية لهذا الدِّين ولنبيّه الكريم.

تعدّد أوْجُه الإعجاز في القرآن الكريم دلالة على صدْق الرسول ﷺ

من معجزات القرآن الكريم: أنه صالح لكل زمان ومكان، وأن أدلّته وبراهينه التي تحدّى بها كفار مكة سابقًا، وتحدّى بها أهل الكتاب في المدينة المنورة هي هي بعينها ما زالت مصدرًا للتَّحدي لكبار المستشرقين المعاصرين لنا الآن، ولكل من سار في فلكهم. لماذا؟ لأنّ أهل الكتاب بالمدينة وقبْلهم كفار مكة، لّما قالوا إن القرآن من عند محمد، وأنه إفك افتراه، تحدّاهم القرآن على لسان الرسول ﷺ بحُجّة سهلة وميسورة يمكن أن تتكرّر على لسان كل مسلم، فقال لهم: إذا كنتم عربًا ومحمد عربي مثلكم، وأنتم تجيدون القراءة والكتابة ومحمد أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب، وقد أتى بمثل هذا القرآن من عند نفسه -كما تدّعون كذبًا وبهتانًا-، فأْتوا بآية من مثْله أو ائتوا بسورة أو ائتوا بعشر سوَر مثلِه مفتريات. وهذه حجّة في غاية الإقناع وفي غاية الإفحام في نفس الوقت؛ لأنها ملزِمة للخصم. فهو إمّا أن يأتي بمثل القرآن إن كان بشريًا تصديقًا لدعواه، أو يسلِّم بأنه من عند الله ﷻ وأنه ليس من صنع البشر، فيؤمن به. فإذا أصرّ على موقفه المعاند المكابر، فإنه بذلك يكون خارجًا عن مجال الحوار العلمي إلى مجال العناد والاستكبار؛ وهذا هو شأن المشركين قديمًا، وهو شأن المستشرقين حديثًا، كما قال القرآن حاكيًا عنهم:

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ومن تمام نعمة الله تعالى على عباده وعلى المؤمنين، ومن كمال حُجّته على خلْقه: أن آيات النبوّة، وبراهين صدق النبيّ معلومة لكل الخلْق، وفي استطاعتهم العلْم بها، وأن يسألوا عنها، وأن يجادلوا حولها ويحاوروا فيها. وقد يكون عند بعضهم من دلائل نبوّته ما لا يوجد عند البعض الآخر، وقد يظهر

لكل قوم من دلائل النبوّة، ومن الآيات والدلائل النفسية والأفقية ما يتبيّن به أن القرآن حق. وإذا ظهرت هذه الدلائل، ووضحت هذه البراهين، وأعرض عنها الإنسانُ، أو أعرض عن النَّظر الحقِّ الموجب للعلم بها -كما هو شأن الكثير من الأدعياء ومن المفترين والمردِّدين لهذه الدعاوى- كان هو عين موقف العناد، وموقف الاستكبار، وكان في ذلك شقاق لله ولرسوله.

ثم إنَّ هناك أمراً آخرَ أُنبِّه إليه وهو: أنَّ القرآن الكريم قد شهد لنفسه بنفسه، كما شهد الله تعالى بصدقه، وبألوهية مصدره ليطمئن الرسول ﷺ وليزداد المؤمنون إيمانًا بذلك. فالله تعالى قد شهد للقرآن بنفسه تارةً، وبملائكته تارةً أخرى، وبآياته البيِّنات تارةً ثالثة، وأخبر عن هذا في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد أخبر الرسول ﷺ بذلك في أوّل أمر الدعوة وهو ما زال في مكة، وإخبار الرسول ﷺ عن هذا وبهذا النفي العام الشامل القاطع للإنس والجن، فيه آيات لنبوّته، وفيه دلائل لصدْقه ﷺ لأنّ مثل هذا الخبر لا يقوله ولا يُقدِم عليه من يريد من الناس أن يصدِّقوه إلّا وهو واثق تمام الثقة أنّ الأمر في نفسه كذلك، وأن القرآن في نفسه كذلك، وأنّ الإنس والجن لو اجتمعوا على قلب رجل منهم لا يأتون بمثله. ولو كان عند الرسول ﷺ ذرة من شك في ذلك، لجاز أن يظهر كذبُه في هذا الخبر، ويفسد عليه قصْده. وهذا يقدم عليه كثير من الناس، ولكن لا يأتي بمثل هذا الجزم وبهذه الصيغة النافية القاطعة. لا يقدم عليها حكيم ولا عاقل، إلا وهو يعلم تمام العلم أنّ القرآن في نفسه كذلك يعجز عن الإتيان بآية واحدة منه، أو بسورة أو بعشر سوّر كلّ الإنس وكلّ الجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

ثم إن الواقع الذي عاشه الرسول ﷺ، والذي عاشه القرآن الكريم بين أهل مكة وأهل المدينة، وأيضًا في عصرنا الحاضر، لم يُثبت التاريخ أن واحدًا من العرب عارض القرآن الكريم أبدًا، والذي حاول ذلك منهم أتى بأشياء فضحت أمْرَه بين قومه. ومعلوم أنّ توفّر الدواعي المعارضة للقرآن الكريم كانت موجودة عند كلّ مشرك. محاولة معارضة القرآن، محاولة الاتّهام، محاولة بيان أنه مفترًى وأنه أساطير الأوّلين وأنه وأنه... كل هذه الدواعي كانت موجودة، وحاولوا جميعًا أن يُبيِّنوا للرسول ﷺ أنه كذا... وكذا... ولكن لما عارضهم الرسول ﷺ أن يأتوا بآية أو بسورة أو بعشر سوَر، عجزوا عن معارضته، مع توفّر الدواعي عند جميعهم، ومع الحرص الشديد على محاربته وإبطاله بكل وسيلة ممكنة. ولما كان الأمر كذلك، دلّ هذا الموقف في ذاته على العجز المطلق لكلّ بني البشر، بل للجنّ أيضًا؛ وهذا في حد ذاته برهان تام على صدْق النبي ﷺ، وعلى صدْق القرآن الكريم، وعلى أنه من عند الله، وعلى أنه ليس من عند محمد، ولا مِن صنْع البشر، ودلالة على صدق أنه آية في نفس الوقت على نبوّة محمد ﷺ. وهذه آية ظاهرة وباقية إلى يوم القيامة: أن القرآن يُتلى بيننا صباحًا ومساءً، وعلى أصحاب هذه الادّعاءات الكاذبة أن يأتوا بآية أو يأتوا بسورة.

وليس القصد هنا الحديثَ عن إعجاز القرآن؛ فإنّ ذلك له مجال آخَر، ولكن الذي أودّ الإشارة إليه والتنبه إليه: أن دلائل كون القرآن الكريم من عند الله ﷻ متنوّعة ومتعدّدة، وكلها من أوجُه إعجاز القرآن الكريم، وكلُّ وجه منها منفردًا دليل على صدق النبي، ودليل على قدسيّة القرآن الكريم. ولَمَّا قص القرآن الكريم علينا موقف المشركين في مكة ودعواهم الكاذبة في أنّ القرآن من عند محمد قال لهم القرآن الكريم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ [هود: ١٣]. استعينوا بمن تشاؤون إن كنتم صادقين. ﴿فَإِن

﴿ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ [القصص: ٥٠]، والشرط هنا معلوم، الجواب عنه معلوم، يعني: فإن لم يستجيبوا. الله ﷻ يعلم أنَّهم لن يستجيبوا لأنهم عاجزون عن ذلك. ﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [هود: ١٤]. ثم تنزل الآية الكريمة لتُطمئن قلب النبي ﷺ وتُسرِّي عنه ما يلقاه من وحشةٍ، إزاء مواقف المشركين، وأنّ المشركين إذا كانوا حاربوه وعاندوه، فإنّ الذي نزل على قلبه من آيات الوحي الكريم كفيلة بأن تُطَمْئن خاطره، قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦] أي: كفاك يا محمد أن الله وملائكته يشهدون بما أنزل إليك. ثم أعاد التجديد في المدينة المنورة مع أهل الكتاب، فقال في سورة (البقرة): ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]. ثم قال: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: في الآية ٢٤]، فدلّت هذه الآية وغيرها على أمريْن مهميْن جدًّا:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ ﴾ [البقرة: ٢٤] يعني: إذا لم تفعلوا ذلك، فقد علمتم أنه حق، وينبغي أن تعترفوا بذلك وتؤمنوا به.

أمّا الأمر الثاني: فقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾، و﴿ وَلَن ﴾ هنا تفيد تأبيد النفي في المستقبل، يعني: لن تستطيعوا أن تفعلوا ذلك مهما حاولْتم، سواء في الحاضر أو في المستقبل؛ فثبت بذلك أنَّ البشر لن يأتوا بمثْله فيما يُستقبل من أمرهم. فكأنَّ القرآن الكريم بذلك قد أخبر بعجز الإنس والجنِّ، أن يأتوا بمثله ولو تعاون على ذلك أهلُ الأرض قاطبةً.

ومن المعلوم: أنّ الكفار في مكة كانوا من أحرص الناس على إبطال القرآن

ومعارضته بمثله، واجتهدوا في ذلك بكل الوسائل، تارةً يسألون أهل الكتاب من اليهود عن بعض المسائل الغيبية ليوجّهوا هذه الأسئلة إلى الرسول ﷺ على سبيل التعجيز، ليبيّنوا بذلك أنه جاهل، وأنه عاجز، وأنه ليس معه من العلْم شيء، كما سألوهم عن قصة يوسف # وسألوهم أيضًا عن أهل الكهف وعن عددهم. ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢] إلى آخِر القصة. وسألوهم عن ذي القرنين، وحاولوا أن يخبروا الرسول ﷺ بذلك ويحاوروه في شأن هذه المسائل الغيبية، ليس على سبيل العلْم ولا على سبيل المعرفة، ولكن على سبيل التَّعجيز والقهر لرسول الله ﷺ. وكانوا يجتمعون المرة بعد المرة ليتّفقوا فيما بينهم على أمور محدّدة يسألون عنها الرسول ﷺ بقصد إعجازه، فكان ينزل القرآن الكريم بالإجابة الشافية لأمراضهم لو أرادوا.

فإذا كان هذا شأنهم معه ﷺ من الحرص التام على المعارضة المرة بعد المرة، ولو كانوا قادرين عليها لفعلوها؛ لأنَّه حيث وجدت الدواعي التامة، وامتنعت الصوارف، وكانوا قادرين على ذلك لوجب أن تتم المعارضة، وأن يأتوا بمثله، وما تكرر مع المشركين قديمًا ينبغي أن يكون هو هو شأننا مع المستشرقين حديثًا الآن، الذين يحاولون أن يتهموا القرآن بأنه كذا وكذا وكذا، وهذا التحدي الذي نوجهه الآن هو من أبلغ المواقف القرآنية التي يتحدى القرآن بها أهل الأرض قديمًا وحديثًا، ويتحدى بها كل من ادعى بشرية القرآن عليه أن يأتي بمثله آية، أو سورة، أو عشر سور، فإن لم يستطع أحد أن يفعل ذلك، فعليه إن كان طالبًا للحق أن يؤمن به، ومعلوم لدى أهل العلم، خاصةً أهل الخبرة بالقرآن وعلومه، أنّ أوجُه الإعجاز القرآني من جهة معانيه، وإخباره عن الغيب الماضي أو الغيب المستقبل، هذه الوجوه الإعجازية أكثر وأكثر بكثير من جهة إعجازه من حيث لفظه، ولكن أردنا بذلك أن نضع أمام إخوتنا وأخواتنا طلاب هذه الجامعة نماذج من

هذه الوجوه على وجْه التمثيل فقط، وليس على وجه الاستقصاء أو الحصر؛ لأنه من ذا الذي يستطيع حصْر أوجُه إعجاز القرآن الكريم. ومن أراد تفصيل ذلك القول فليراجع كتب علوم القرآن الكريم، كـ"الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي، أو كتاب "دقائق التفسير" لشيخ الإسلام ابن تيمية خاصةً الجزء الأول، وخاصةً أيضًا المقدمة الخاصة بإعجاز القرآن الكريم.

ومن المفيد: أن نشير هنا إلى: أنَّ الذين تأمَّلوا القرآن وقرؤوه بعين الإنصاف من المستشرقين، وعلموا تمامًا أنَّ ما في القرآن -سواء من الأخبار ومن المعاني ومن الحقائق العلمية ومن الإشارات الكونية- ليس من صنع البشر، لم يلبثوا أن أعلنوا إسلامهم، وأعلنوا اعتناقهم للإسلام، وللقرآن الكريم، واتخذوا الإسلام دينًا والقرآن دستورًا، وأعلنوا ندَمهم الشديد على ماضي أيامهم التي قضوها على الكفر والعناد.

يقول (موريس بوكاي) أحد المستشرقين الفرنسيِّين الذين هدى الله قلوبهم وأعلنوا الإسلام، وألّف كتابًا مهماً بعنوان: "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلْم"، يقول (موريس بوكاي): "لقد أثارت دهشتي هذه الجوانب العلمية التي يختصّ بها القرآن الكريم، والتي كانت مطابقةً تمامًا للمعارف العلمية الحديثة. ولقد درست هذه النصوص بروح متحرّرة تمامًا من كل حُكم سابق، وبموضوعية تامّة؛ بيْد أني لا أنكر تأثير التعاليم التي تلقّيتها في شبابي، حيث لم تكن الأغلبية تتحدث عن الإسلام، وإنما عن المحمّديِّين لتأكيد الإشارة إلى أنّ هذا الدِّين أسّسه رجل اسمه محمد، وبالتالي فهو ليس بدين سماوي، فلا قيمة له عند الله.

وكان يمكن أن أظل محتفظًا بالكثير من هذه الأفكار الخاطئة عن الإسلام، وهي شديدة الانتشار في بلادنا. ولّما تحدثت مع بعض المستنيرين من غير المتخصِّصين، عرفت أنّي كنت جاهلًا قبل أن تُعطى لي صورة واضحة عن الإسلام تختلف تمامًا

عن تلك التي تلقّيْتها في الغرب عن الإسلام. وكان هدفي الأوّل هو: قراءة القرآن الكريم، ودراسة نصّه آية آية. وانتهيت إلى دقّة الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية، ومطابقتها للمفاهيم التي تملكها اليوم مؤسّسات العلم، والتي لم يكن لمحمدٍ ﷺ ولا لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يكون عنده أدنى فكرة عنها. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء كثيرة علميةٍ وتاريخيةٍ، أخطاء فادحة، فإننا لا نجد في القرآن الكريم أيّ خطإ.

وقد دفعني ذلك إلى أن أتساءل: لو كان مؤلِّف القرآن إنسانًا بشرًا، فكيف استطاع في القرن السابع المسيحي أن يكتب ما اتّضح اليوم أنه يتّفق تمامًا مع معطيات العلْم الحديث؟ ففي مجال القضايا التي تخضع للملاحظة والتجربة مثل: "تطوُّر الجنين" يمكن مقابلة مختلف المراحل الموصوفة في القرآن الكريم مع معطيات علْم الأجنّة الحديث مرحلة مرحلة".

هذا كلام أحد المستشرقين الذين قرءوا القرآن بعين الإنصاف ليَحكم له أو عليه بحُكم موضوعي. وهو رجل هداه الله تعالى للإسلام؛ لأنه بحث عن الإسلام وبحث في الإسلام مستخدمًا خطوات المنهج العلمي بروح متجرِّدة إلّا من البحث عن الحقيقة، وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

هذه بعض الملاحظات التي أردت تسجيلَها حول ما اشتمل عليه القرآن في آياته البيِّنات من دلائل صدْقه، ومن العوامل التي تؤيِّد ألوهيّة مصدره. وهي نفس الآيات ونفس الأدلة والبراهين التي يُمكن أن نقدّمها للمستشرقين الآن الذين يردِّدون هذه الافتراءات، وتلك الإدعاءات، وهذه الأكاذيب التي ورثناها في القرآن الكريم عن المشركين سابقًا. فباستطاعة أي مسلم الآن أن يمسك قرآنه بيده ويتحدّى به أعْتى عتاة الأرض، وأكثر

علماء الأرض، وأعظم مفكِّري الأرض، ويقول له كما قال القرآن سابقًا: فأتوا بآية، فأتوا بسورة، فأتوا بعشر سورة، وإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فإن كنتم طالبين للحق فآمنوا به، أمّا إن كنتم أهل عناد ومكابرة، فلا شأن لنا معكم الآن؛ لأنَّ أهل العناد وأهل الاستكبار لا ينفع معهم الحوار العلمي؛ لأنهم لا يطلبون الحق في ذاته، وإنما يطلبون العلوّ والاستكبار في الأرض.

كما لا أريد هنا أن استقصي الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الحقائق الكونية المبثوثة في آيات القرآن الكريم، من مثْل قوله تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]، ومن مثل حديث القرآن عن تاريخ الجنين في بطن أمّه، ومن مثل حديث القرآن عن البحار وأهوالها وما فيها من عجائب، والسماء وأبراجها وما فيها من عجائب، والأفلاك وآثارها وما فيها من دلائل القدرة الإلهية، لَخرجنا عن الحدّ المحدّد لنا، أو لَخرَجْنا عن مقصودنا، ولكنها فقط إشارات لِما في القرآن الكريم من دلائل صدْقه، ليكون القرآن بنفسه شاهدًا لنفسه على أحقّيّته، وعلى ألوهية مصدره، وما علينا إلّا أن نعايش القرآن الكريم قراءةً وتدبرًا وفهمًا واستعانةً بالله سبحانه وتعالى على حسن فهمه، والله من وراء القصد.

الاستشراق (٣)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	كيف أثر الفكر الاستشراقي في بعض مفكِّري العرب والمسلمين	١٠٥
العنصر الثاني :	موقف المستشرقين من الشعائر والعقائد الإسلامية	١١٥
العنصر الثالث :	موقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية	١٢٠
العنصر الرابع :	موقف القرآن الكريم من العمل العقلي والرد على اتهامات المستشرقين	١٢٣
العنصر الخامس :	موقف المستشرقين من الفلسفة الإسلامية	١٣٣

كيف أثر الفكر الاستشراقي في بعض مفكِّري العرب والمسلمين

سوف أختار بعض النماذج التي تحدثت عن القرآن الكريم، وعن بشريّته، وكيف أثرت هذه الشخصية وغيرها في بعض مفكِّري العرب والإسلام، فتحمّلوا عن المستشرقين أعباء هذه الاتّهامات، وتولّى بعض الكتاب العرب وبعض المفكرين العرب والذين يتسَمَّوْن بأسمائنا الترويج لهذه الإشاعات الكاذبة بين أبناء الوطن العربي. سوف أختار نموذجًا واحداً فقط وأذكر مَن تأثّر به من المفكِّرين العرب.

هناك مستشرق معروف في تاريخ الحضارة الإنسانية اسمه: (هاميلتون جيب) تحدّث عن بشرية القرآن، ووضع كتابا أسماه: "المذهب المحمدي" أو "الديانة المحمدية" كما في بعض الترجمات. يقول في هذا الكتاب: "إن الرسول ﷺ ككلّ شخصية مُبدعة، تأثّر بالظروف الموجودة في مكة، وأنه قد شقَّ طريقًا جديدًا بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه والدائرة في مكانه. وظلّ محمد ﷺ يتطوّر في تأثّره بأجواء مكة إلى أن حدَث عنده ما يُسمّى بالثورة النفسية. هذه الثورة النفسية لم تظهر في صورة إصلاح اجتماعي، بل بدلًا من ذلك دفعَتْه إلى اتّجاه دينيّ أعلنه في اعتقاد ثابت لا يتأرجح بأنه رسول من الله لينذر أتباعه ويبشّرهم إمّا بالجنة وإمّا بالنار. وكلّ ما جدّ بعد ذلك كان نتيجة منتظَرة للتصادم بين ما جاء به هذا الرجل -الرسول عليه الصلاة والسلام- وبين الكفر".

كما يقول أيضًا: "ومحمد ﷺ في البداية لم يكن نفسه على علم بأنه صاحبُ دعوة إلى دين جديد؛ بل كانت دعوته مجرّد معارضة للمكيين ولخصومهم، كان

يدعو بذلك إلى إعلان الإسلام كجماعة دينيّة جديدة تدعو إلى الانتصار للفقراء من الأغنياء".

ويقول أيضًا: "ومعروف من القرآن نفسه أنّ فكرة الوحدانية التي جاء بها محمد كانت معروفة في جزيرة العرب. لقد كان وجود الإله الأكبر -وهو الله- مبدأً مقبولاً كأصل عام لدى محمد ولدَى خصومه على السواء. والقرآن لم يناقش هذه النقطة، وحجّته التي كان يقيمها فقط على أن لا إله إلا الله".

هذه بعض مقتطفات من كتاب (جيب): "المذهب المحمدي". ماذا يريد أن يقول؟

يريد أن يقول: إن محمداً لم يكن رسولاً، وإنما كان طالب زعامة، وصاحب سلطة. وبما أنّ المقدّسات الدينية التي كانت موجودة في جزيرة العرب كان من شأنها مَن يحتمي بها ومَن يلجأ إليها يَجِد فيها شيئًا من الانتصار له والتئام الجموع الغفيرة حوله، لجأ محمد إلى هذه القضايا الدينيّة ليلتف حوله الفقراء، فأراد أن ينافس المكيين في الزعامة وفي الرياسة. لماذا؟ ليصرف جمهور المكيين عن زعماء مكة ويلتفوا حوله هو. بل أكثر من هذا: يضيف (جيب) في هذا الكتاب قوله: "إنَّ محمدًا قد استغلَّ فكرة الجنة والنار بتفصيلاتها الواردة في القرآن الكريم، واعتبرها مصدرًا من مصادر الترغيب والترهيب..." يقول: "إنه قد أخذها من المسيحية".

وأريد أن ألخّص لكم ما جاء في هذا الكتاب، حتى تكونوا على بيِّنة من الأمر: أنّ هؤلاء لم يقرؤوا الإسلام حبًّا له ولا شوقًا فيه ولا عشقًا لحقائقه، ولكن من باب: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] يريد أن يقول (جيب): إنّ مكة كان فيها حضارة وزعامة، ولم تكن أرضًا جرداء، ولم يكن سكّانها حفاة ولا عراة؛ بل كانت لديهم فطنة وذكاء، وكان فيهم سياسة، وما يمكن أن يشبه بالدولة، وأنّ حياة محمد ﷺ كانت حياة مكية خالصة بما فيها نشأته ودعوته، ولذلك تأثرت بظروف

مكة. فدعْوتُه حينئذ -وهذا ما صرح به (جيب)- ليست دعوة عامة لكل العرب ؛ بل كانت لأُناس معيّنين هم : أهل مكة فقط. وكان اختياره لطابع الدعوة الدينية، ثم اختيار هذه الدعوة بأن تكون في صورة حكومة إلهية ملفوفة بأساليب الترغيب والترهيب بالجنة والنار، كان هو من تحديد عوامل الحياة المكية، والظروف المكية فقط هي التي فرضت على محمد أن يستخدم هذا الأسلوب في الدعوة إلى ما يسميه بالديانة الجديدة.

ثم يضيف (جيب): "وأن القرآن ليس جديدًا كله على العرب خاصةً المكيين، وأنّ ما فيه من مسيحية أو يهودية أو ديانات أصحاب اللغات السريانية القديمة، وكل ما فيه لا يتعدّى إمّا آثاراً يهودية أو آثاراً مسيحية كان يعرفها بعض زعماء مكة ؛ ولذلك يحتجّ بالآية القرآنية التي ذكرها القرآن عن أهل مكة : ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢- ٢٤]، ولكن جاءت معارضة مكة في نظر (جيب) بسبب المنافسة على الزعامة وعلى السياسة، وليس رفضًا للدِّين، وليس رفضًا للقرآن الكريم.

هذا تصوير لموقف أحد المستشرقين بشيء من التفصيل الموجز. هذه الصورة بكاملها انتقلت إلى مفكّرٍ من مفكِّري العرب المسلمين هو: طه حسين، الذي ألّف في النصف الأوّل من القرن العشرين، وبالتحديد ١٩٢٦م، صدرت الطبعة الأولى من كتابه المسمى بـ"الشعر الجاهلي". ماذا جاء في هذا الكتاب؟ على سبيل الإجمال نفس الصورة التي شرحتها أمامكم عن موقف (جيب) في كتابه

"المذهب المحمدي". نفس الصورة تقريبًا انتقلت على لسان وعلى قلَم طه حسين في كتابه "الشعر الجاهلي".

وفكرة هذا الكتاب تقوم على بعض القضايا أو الحقائق أو الملاحظات التي أراد طه حسين أن يطرحَها على القرّاء؛ حيث أراد أن يقول: إن الشعر الجاهلي لا يمثِّل حياة العرب قبل ظهور الإسلام، وأنّ هذا الشعر مُصطنع مفتعل؛ ولذلك لا يعبّر عن حقائق الحياة العربية، ولا يعبِّر عمّا دار فيها. وإذا كان العرب أصحابَ علم ودِين، وأصحاب ثروة وقوة وبأس، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة خارج الجزيرة العربية، متأثّرة بها ومؤثّرة فيها، فما أخْلَقهم أن يكونوا أمّةً متحضرةً لا أمّةً جاهلة همجية. نفس القضية التي صرح بها (جيب).

يريد أن يقول: إن العرب في مكة كانوا أصحاب حضارة، أمّة متحضّرة، على درجة عالية جدًا من الرّقي، ولم يكونوا يعيشون حياة البادية. ولذلك يقول طه حسين نقلًا أو تأثرًا بـ(جيب): "وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدِّق أنّ القرآن ظهر في أمة جاهلة همجية؟". النص في كتاب: "الشعر الجاهلي" صفحة ١٥. فبما أنّ الشعر الجاهلي لا يصحّ أن يكون مرآة صافية للحياة الجاهلية، فالشيء الذي يعبّر عن هذه الحياة تعبيرًا صادقًا هو: القرآن؛ فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي. هكذا يريد أن يقول طه حسين. ومن هنا يستطرد ليشرح نظرته أو نظريته في هذه القضية، فيقول: "لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي، لم يكونوا معتزِلين ولا معتزَلين. فأنت ترى القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفُرس والروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الروم: ١- ٤]". فهذا الذي ذكره القرآن في سورة (الروم) يراه طه حسين عناية

سياسية أكثر منه إخباراً عن طريق الوحي بمصير الإمبراطورية الرومانية في الشرق.

ثم يستطرد ويقول: "والقرآن الكريم يصف اتّصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السوَر المعروفة بالقرآن المكي، كما في سورة (لإيلاف قريش)".

ويستطرد بعد ذلك طه حسين في شرح نظريته في أنّ القرآن الكريم بشريّ المصدر، وأنه يشتمل على بعض الأساطير التي كذّبها التاريخ، كما سنوضّح ذلك.

تحدّثنا عن قضية تأثُّر بعض المفكِّرين المسلمين أو العرب بآراء المستشرقين حول ما جاء في القرآن الكريم، وحول بشريّة القرآن الكريم أو ألوهية مصدره، واخترنا نموذجًا واحدًا فقط وهو (هاملتون جيب) في كتابه "المذهب المحمدي". وأردنا أن نبيِّن لكم كيف انتقلت هذه الفكرة -فكرة بشريّة المصدر- وما ردّده (جيب) في كتابه من أنّ محمدًا ﷺ هو إفراز للبيئة المكية في فكره وفيما دعا إليه، انتقلت هذه الفكرةُ بقضِّها وقضيضها إلى الفكر العربيِّ، وردَّدها طه حسين في كتابه "الشِّعر الجاهليّ". ونريد أن نوضِّح ما بين الكتابيْن من صلة، لكي نُثبت أن دعاوى المستشرقين قد آتت أكلها في كثير من المواقف، حيث وجدْنا أن أمثال طه حسين يردِّد نفس الدعوى في كتابه في الشعر الجاهلي.

قلنا: إنّ هذا الكتاب قد أُلِّف في النصف الأول من القرن العشرين، أو في الربع الأوّل، وبالتحديد في سنة ٢٦ تقريبًا ١٩٢٦م. وأراد المؤلِّف أن يبيِّن لنا في هذا الكتاب: أن القرآن الكريم هو حكاية لتاريخ الجاهليِّين في مكة، وأنه انطباع للحياة الاجتماعية الواقعة في عصر النبي، وهو يمثل لذلك تأريخاً عمليًّا للبيئة المكية، تأريخ لها في عقيدتها، في لغتها، في عاداتها، في اتّجاهها العام. وهذه البيئة التي يتحدّث عنها في كتابه هي بيئة العرب في الجزيرة العربية. يريد أن يقول: إنّ ما جاء به النبي من القرآن الكريم هو تأريخ للحياة المكية. وليصرف النظر عن

أنّ الشِّعر الجاهلي هو تأريخ لهذه الحياة، فيكون القرآن من عند محمد كتأريخ للواقع المكي، أمّا الشعر الجاهلي فيرى أنه انتحال، ويشتمل على كثير من الأكاذيب؛ ونظرية الانتحال الشعري معروفة عند طه حسين.

يقول هذا المؤلف: إنه ليس من اليسير أبدًا أنّ القرآن كان جديدًا كلّه على العرب. يقول: إنّ هذا أمر صعب أن نصدِّقه! لأنه لو كان جديدًا على العرب لما فهموه، ولما وعَوْه، ولا آمن به بعضهم، ولا جادله وناهضه بعضهم. وفي القرآن ردّ على الوثنيِّين فيما كانوا يعتقدونه من وثنيّة، وفيه ردّ على اليهود، وفيه ردّ على النصارى، وفيه ردّ على الصابئة، وفيه ردّ على المجوس. وهو لا يرد على يهود فلسطين، ولا على نصارى الروم، ولا على مجوس الفُرس، ولا على صابئة الجزيرة العربية، وإنما يردّ على فِرَق من العرب كانت تمثِّلهم في البلاد العربية نفسها. ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر. يريد أن يقول: إن محمدًا ﷺ شغل الناس حوله بواقعهم، ولم يخرج بنظره ولا بفكْره خارج نطاق الجزيرة العربية، وأنّ القرآن جاء تسجيلًا لواقع العرب في بيئة العرب، وليس لواقع غير العرب خارج الجزيرة العربية؛ فهو محلي وليس عالَمي.

ولذلك يصرِّح طه حسين ويقول: "وإذاً فالقرآن بعبارة أخرى دِين محلِّيّ، لا إنساني عالمي، قيمته وخطَره في هذه المحلية وحدها. قال به صاحبه متأثرًا بحياته الخاصة التي عاشها وعاش فيها؛ ولذلك هو يعبِّر تعبيرًا صادقًا عن هذه الحياة. أمّا أنه يمثِّل غير الحياة العربية، أو يرسم هدفًا إنسانيًّا عامًّا، فليس ذلك بحق" هكذا يصرِّح طه حسين. إنه إذن دين بشريّ وليس وحيًا إلهيًّا، قاله صاحبه لقوم معيَّنين؛ ولذلك تجاوب معه بعضهم، وقاومه بعضهم. ولو أنّ

صاحبه قاله في جماعة أخرى، لما حفل به أحد؛ لأن ما يقوله فيه لا يتّصل عندئذٍ بحياة الجماعة الآخَرين.

هذه مقتطفات فقط من هذا الكتاب الذي نقَل فيه طه حسين نظرية (جيب) وغيره من المستشرقين حول القرآن الكريم. فالقرآن إذاً مؤلَّف ومؤلِّفه هو محمد ﷺ. ويمتاز تأليفه بأنه يمثِّل حياة العرب المحدودة في شبه جزيرة العرب، بدليل أنه ناقش يهود الجزيرة، ونصارى الجزيرة، وصابئة الجزيرة، ومجوس الجزيرة، ولم يمتدّ بنظره خارج الجزيرة العربية.

كما أشار طه حسين أيضًا إلى: أنّ القرآن مصنوع ومؤلّف، ومنهج دراسة الحياة الجاهلية للعرب قبل الإسلام كان يدور عند صاحب هذا الكتاب بيْن أمريْن لا ثالث لهما: إمّا ما ورد في الشعر الجاهلي، أو ما ورد في القرآن الكريم، وكلاهما صناعة إنسانية، وكلاهما يتحدّث عن الحياة العربية الجاهلية، ولكنه استبعد الشعر الجاهلي كمصدر للتأريخ لحياة العرب، ولم يُبق أمامه إلّا القرآن الذي صنعه وألّفه محمد. فهو المرآة الصادقة لحياة العرب في الجاهلية، وما في القرآن من عقائد وديانات ومِلَل ونِحَل لا يمثِّل إلّا البيئة الجاهلية فقط؛ فحديثه عن النصرانية وحديثه عن اليهودية وغيرهم ليس إلّا عن يهود ونصارى الجزيرة. ويستدل طه حسين على ذلك بالآية الكريمة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]؛ حيث يرى طه حسين: أنّ احتكاك المسلمين بالنصارى كان ضعيفًا، على العكس من احتكاكهم باليهود في المدينة المنورة.

وبناءً على هذا التصور العام، ينتقل طه حسين إلى ما احتواه القرآن وما اشتمل عليه القرآن من بعض القصص، فيتطرّق إلى قصة الذبيح إسماعيل # التي وردت في القرآن الكريم. ويرى أنّ القرآن في نظره لا يعبِّر عن الحقائق التاريخية التي وقعت في الحياة العربية قبل مجيء محمد، وأنَّ ما جاء في القرآن حول هذه القضايا أشبه بالأساطير التي تنقصها الدقة التاريخية. وبناء على هذا التصور يرى: أنّ قصة إسماعيل # الذي ينسب إليه العدنانيون قصة خيالية. وكذلك ما يروى من الحديث النبوي: ((أنّ أوّل من تكلّم بالعربية ونسي لغة أبيه وهي اللغة العبرية أو الكلدانية هو: إسماعيل بن إبراهيم)). ويرى: أنَّ هذا حديث مكذوب، بل أكثر من هذا، يرى: أنّ القرآن الكريم ومحمد ﷺ لم يشأ أن يُغفل شأن هذه القصة، لما لها من أهمية في حياة قريش. لماذا؟ لأنه كان هناك صراع بين قريش وبينه باعتباره صاحب السيادة المنتظرة في الجزيرة العربية، وباعتبار أنّ قريشاً هي الحريصة على مناوأته ومعاندته في هذه القضية.

ولا يملّ طه حسين أن يُسمِّي هذه القصة بالأسطورة. تكرّر ذلك أكثر من مرة في كتابه حيث يقول: "وقد كانت قريش مستعدّة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح قبل ظهور الإسلام بقليل؛ فقد كانت قريش أوّل هذا القرن قد انتهت إلى حظٍّ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة، وبسط سلطانها المعنوي على جزءٍ غير قليل من جزيرة العرب". فأمْر هذه القصة عند طه حسين واضح؛ فهي حديثة العهد، وظهرت قبل الإسلام. ويرى: أن محمدًا ﷺ قد استغلّ هذه الأسطورة لسبب ديني، وقبلَتْها مكة منه أيضًا لسبب ديني. وإذن يقول طه حسين: "فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي أن يحفل بهذه الأسطورة عندما يريد أن يتعرّف أصل اللغة العربية

الفصحى. ونستطيع أن نقول: إن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلّمها العدنانية، واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن كانت كالصلة بين اللغة العربية وأيّ لغة من اللغات السامية الأخرى". ويصرّح في أكثر من موضع بأنّ هذه القصة قصّة خيالية، ربما لا نجد لها أثرًا حقيقيًّا في الوقائع التاريخية.

لك الآن أن تلاحظ ما بين الموقفيْن من تشابه كبير جدًّا، بين موقف (جيب) في كتابه "المذهب المحمدي" وبيْن طه حسين في كتابه "الشعر الجاهلي"؛ فكلاهما يرى: أن الحياة الجاهلية قبل الإسلام كانت حياة حضارية حافلة بالكياسة والسياسة والنشاط الاقتصادي والنهضة الدينية. وأظنّ أن هذا التصور في الكتابيْن يُكذبه واقع العرب قبل الإسلام. وكلا الكتابيْن يرى: أنّ محمدًا أو أن الإسلام أو أنّ القرآن قد استغلّ المقدسات الدينية في مكة، وفي مقدّمتها البيت الحرام وهو أول بيت وُضع للناس في مكة، والذي قام على عمارته إبراهيم وابنه إسماعيل، وظاهرة استغلال هذه المقدسات -كما يرى (جيب)- هي في أن ثورة محمد أخذت طابع الدِّين دون الطابع الاجتماعي. أمّا عند طه حسين، فيرى: أن ثورته أخذت الطابع الاجتماعي وليس الطابع الديني؛ ولذلك جاءت مشتملة على بعض الخرافات والأساطير، كاستشهاده بقصة الذبيح إسماعيل # .

وكلا الكتابيْن يصرِّح بأن القرآن لم يكن جديدًا على العرب، فما فيه من عقائد كانت تعرفها مكة، وكانت تعرفها العرب في شبه الجزيرة العربية، لكن كان يرى (جيب): أن آية معرفتهم لذلك أنهم لم يعارضوا محمدًا فيما ذكَره من عقائد، وأرجع معارضتهم له لأسباب سياسية وللتنافس على الزعامة. أما عند طه

حسين، فلم يكن القرآن مألوفًا لديهم، وإنما عارضوه وحاولوا أن يثيروا حوله هذه الشكوك حقدًا واستكبارًا وعنادًا لمحمد.

وكلا الكتابيْن يرى: أنّ دعوة الإسلام دعوة محلِّية وليست عالمية، خاصة بالبيئة المكية؛ ولذا فالقرآن أو الإسلام انطباع واضح لهذه الجماعة ولهذه البيئة، كما يرى (جيب) وكما يرى طه حسين. ومنطق هذا كلّه أو معنى هذا كلّه: أن القرآن ليس وحيًا من الله؛ إذ لو كان وحيًا من الله لكان للناس عامّة. والفرق الذي نراه بين هاتيْن النظرتيْن: أنّ أحد الكتابيْن في وصفه لصلة القرآن بالعرب: أنه أخذ من المسيحية العربية وأخذ من اليهودية العربية كما ذهب إلى ذلك (جيب)، بينما طه حسين يرى: أن هذا الكتاب الذي هو القرآن الكريم فيه ردّ على الوثنية العربية، وردّ على المسيحية العربية، وردّ على اليهودية العربية. الفرق بين الاثنين: (جيب) يرى: أنه تأثّر بالديانات المحلّية، وطه حسين يرى: أنه ردّ على الديانات المحلية. والهدف من الاثنيْن واحد: أن الكتاب -أي: القرآن الكريم- أثر من آثار الدِّيانات المحلِّيّة.

إنّ القصد من المقارنة بين هذيْن الكتابيْن: أن كتاب "الشعر الجاهلي" لطه حسين يحكي رأي المستشرقين في هذا الجانب، وأنه أثر من آثار الاتهامات والأكاذيب، أو إن شئت فقل: من آثار الغزو الفكري لعقول العرب وعقول المسلمين بمثل هذه الاتهامات.

أمّا القرآن الكريم نفسه، فنقرأ فيه الآيات الكثيرة التي تُكذِّب هذه الدعاوى، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٢- ٤].

موقف المستشرقين من الشعائر والعقائد الإسلامية

إذا كان هذا النموذج الذي قدّمناه عن موقف (جيب) وغيره من القرآن الكريم، وكيف تأثّر بهذه الأفكار المسمومة بعضُ المفكِّرين العرب، فأريد أن أضع أمام القارئ أيضًا نماذج قليلة وموجزة عن موقف المستشرقين من بعض الطقوس والشعائر الدينية والعقائد الدينية أيضًا.

في مطلع القرن العشرين، كتب الفيلسوف الفرنسي (رينان) كثيرًا عن الإسلام، وتناول بعض العقائد الإسلامية. أحيانًا يقارن بينها وبين ما في الديانة المسيحية، وما في الديانة اليهودية مثل: مقارنته بين عقيدتَي القضاء والقدَر عند المسيحيين وعند المسلمين، ليَخلص في النهاية إلى: أنّ هاتيْن الديانتيْن إحداهما ديانة ربانية التي هي المسيحية، والأخرى بشريّة، وأنّ هاتيْن الديانتيْن متناقضتان تمامًا. فإن الديانة الأولى -التي هي الديانة المسيحية- ديانة ربانية وارثة بلا واسطة آثار الآريِّين ومقطوعة الصلة بالمرّة مع المذهب السامي، ولكنها مشتقّة منه وغصن من دوحته. ومن خصائص هذه الديانة -اسمع هذه العبارة-: ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية. على حين أنّ الديانة الثانية البشرية -التي هي الإسلام- مَشوبة بتأثير مذهب السامية، تنحطّ بالإنسان إلى أسفل الدّرك، وترفع الإله عنه في علاه، وفي استعلاء لا نهاية له.

وينتهي من هذه المقارنة إلى التصريح بعبارة خطيرة جدًّا، حيث يقول: "إن الإله عند المسلمين متكبِّر جبّار مترفِّع على البشرية، يطلب أن يسير إليه العابد، بينما الإله في المسيحية عطوف متواضع يتودّد إلى الناس؛ فظهر في صورة بشر -الذي هو تجسّده في المسيح عليه الإسلام- وذلك هو الإله الابن".

لاحِظ المقارنة بين العقيدتيْن: فعقيدة التثليث في المسيحية قرّبت الإنسان من الإله، وأعطَتْه نموذجًا رفيعًا واقعيًّا في حياته يسعى ليقترب منه. أمّا عقيدة التوحيد فباعدت بين الإنسان والإله، وجعلت الإنسان متشائمًا من شدّة الخوف منه، ومِن جبروته وكبريائه.

أرأيت هذه المقارنة؟! (رينان) الفيلسوف الفرنسي يقارن بين إلَه المسلمين وإلَه النصارى، وإذا كان رينان يصف إله المسلمين بهذه الصفة، لا نريد أن نذهب معه في هذا المجال لنقارن بين موقف تجسّد الإله في شخصية المسيح # وما يستتبع ذلك من عوامل نقْص ينبغي أن يُنزّه الله ﷻ عنها، لا نريد أن نسير في هذا المجال، ولكن فقط أضع أمام حضراتكم موقف مفكِّري أوربا من عقائد المسلمين.

إذا انتقلنا إلى مستشرق آخَر نجده يتكلّم عن فريضة الزكاة بأسلوب ساخر، ويفهم القرآنية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]: أن المسلمين يعتقدون أنّ المال نجس، وأنه من أصل شيطاني، ولا يجوز للمسلم أن يتمتّع بهذا المال إلّا بعد أن يطهّره، يطهّره بماذا؟ بأن يرجع هذا المال إلى الله لينفق في سبيل الله. قضيّة أو استنتاج في منتهى العجب!

وهذا الفهم الذي ذكَره هذا المستشرق لموقف الإسلام من فريضة الزكاة بالذات تردّد في أكثر من كتاب، وعند أكثر من مستشرق: أن موقف المسلمين من المال وعقيدتهم في المال: أنه نجس ويجب أن يتطهّر؛ بل إنّ بعضهم يربط بين خُلق الزهد في الإسلام، وانصراف كثير من المسلمين عن الحياة الدنيا إلى الانشغال بأمور الآخرة بهذه العقيدة، العقيدة الخاطئة التي يدّعونها: أن المال أصله نجس وأصله شيطاني، وأنه لا يستعمل أو لا يحلّ استعماله إلّا بعد تطهيره بعودته إلى الله.

موقف آخَر للمستشرقين بالنسبة لقضية الزواج والمرأة: يفهمون قَوامة الرجل على المرأة بأنها لون من التّفوّق، ويَبنُون عليها قضية التفرقة العنصرية بين النوعيْن، بين

الرجل والمرأة، ويجعلون ذلك أمارة على أنّ نظرة الإسلام إلى المرأة نظرة دونية احتقارية، وأنّ الرجل يتفوّق عليها، وأنّ الإسلام دين ذُكوري، كما يُردّد بعض المتهوِّسين الآن. فالإسلام -كما يرى هؤلاء- يَسمو بالرجل إلى ذروة الرفعة، بينما يهبط المرأة إلى درجة الحيوانية. أما طاعة المرأة للرجل، فيعرضونها على أنها نوع من الإذلال، وسبب لفرْض الرِّق والعبودية على نصف المجتمع -كما يقولون-.

ولك أن تقرأ ماذا كتب المستشرقون عن قضية المرأة وعلاقتها بالرجل، وتفسيرهم الخاطئ المشبوه لعلاقة الرجل بالمرأة، وتفسيرهم الخاطئ لقضية القوامة التي تحدّث عنها القرآن الكريم، حتى إن اللورد (كرومر) في كتابه "مصر الحديثة" -واللورد (كرومر) هذا كان أحد مستشاري الاستعمار الإنجليزي في مصر في مطلع القرن العشرين- كتب في كتابه "مصر الحديثة": أن الرجل المسلم يتمسّك بالإسلام أشدّ من تمسّك المرأة المسلمة بالإسلام. ويعلل هذا الافتراض الخاطئ على أنّه ظاهرة في الحياة الإسلامية؛ لأنه يرجع إلى اختلاف وضعيّة كلٍّ من الرجل والمرأة في الإسلام على النحو المشار إليه الذي هو: أن الإسلام يجعل للرجل القوامة على المرأة.

ويشرح المستشرقون مبدأ الإسلام في عدم قبول المسلم لولاية الأجنبي بفكرة عدم التعاون مع الغير، أو بفكرة كراهية الغير؛ وهذا كلام خاطئ.

وتفسيرهم للجهاد أعجب وأعجب؛ فهو عند البعض قضية الحرص على الاعتداء على الغير، وأعطى الإسلام أتباعه هذه الصبغة الشرعية الدينية وجعَلها حقًّا له، كي يدفع بها المسلم لمهاجمة غير المسلم في وقت الأمن والسِّلم وفي وقت الحرب على السواء. إنهم يشرحون قضية الجهاد على أنها فكرة الغدر، أو تشجيع العدوان؛ ولهذا الشرح أثر سيِّئ فيما يثار حول الإسلام الآن، وفي أجهزة

الإعلام الغربية. إنهم يدندنون حول هذا المبدإ، وكلّ كلامهم فيه مبنيّ على خطإ، سواءٌ كان ذلك عن قصد وعمْد، أو كان ذلك عن سوء قصد وعمْد. كلامهم عن الجهاد ينمّ عن النوايا السيئة التي يشيعونها حول موقفهم من مبدإ الجهاد في الإسلام، وأنه مبدأ للدفاع عن النفس وليس للاعتداء على الغير.

وأكثر من هذا: بعضهم يفسِّر نداء بعض العلماء بضرورة العودة إلى القرآن الكريم وإلى السُّنة النبوية التي يمكن أن يفسِّروها تحت مبدإ الأصولية أو الإصلاح الديني، يُفسّرون ذلك على أنه نوع من انقسام المسلمين إلى طوائف. وبعضهم يفسِّره على أنه إسلام سُنِّيّ ضد الإسلام الشيعي؛ وهذه الفكرة ترمي في نظر الكثير منهم إلى تحكيم الخلافات المذهبية، وإثارة النعرات والعصبيات القبلية والجنسية أحيانًا بين طوائف المسلمين، مع أنها في واقع الأمر دعوة إلى التمسك بالإسلام في أصوله التي تدعو إلى التسامح والإخاء والمحبة والتعاون، ولكن المستشرقين عندما وقفوا على هذه الفكرة -فكرة العودة للإسلام-، ورأوا أثرها الإيجابي في حياة الجماعة الإسلامية لو سارت في طريق الإسلام الصحيح -كما بيّن القرآن الكريم وكما شرحها الرسول ﷺ بأنها الرجوع إلى الحياة الإسلامية الصافية- لهالهم ذلك؛ ولذلك عارضوها وألصقوا بها الاتّهامات.

هذه بعض المواقف التي أثارها المستشرقون حول بعض القضايا الإسلامية، وآخِر صيحة يتكلّمون عنها الآن في إثارة الخلاف بين المسلمين هو: حديثهم عن الإسلام المتعدّد، حسب تعدّد الشعوب، وتعدّد الثقافات، وتعدّد الحضارات. فتجد بعضهم يتكلم عن إسلام الصوفية، والبعض الآخر يتكلّم عن إسلام الفقهاء، وآخَرون يتحدثون عن إسلام إيران أو إسلام الشِّيعة، أو إسلام السُّنة، أو الإسلام السّلفي، الإسلام الاعتزالي، الإسلام الأشعري... هذه كلها

مسمّيات يحاول المستشرقون أن يدغدغوا عواطف المسلمين بها، ليثيروا الخلافات المذهبية بين الفِرَق الإسلامية، وبين الشعوب الإسلامية، لِيَجْنوا من ذلك تفرّقَ وتمزُّق الصف العربي. هذا مُجمل موقف المستشرقين من القرآن، ومن بعض العقائد الإسلامية.

أمّا موقفهم من الحضارة الإسلامية ومن الفكر الإسلامي، فيُكمل لنا موقف المستشرقين بصفة عامة حول الفكر الإسلامي أصوله وفروعه. وطبعًا لم يكن الفيلسوف الفرنسي (رينان) ولا (جيب) وحدهما في الساحة، وإنما هي نماذج اخترتُها فقط؛ لأن آراءها كانت أكثر شيوعًا بين مَن أُسمِّيهم بأنصاف المثقفين، أو مَن ليست لهم دراية بالفكر الإسلامي ولا بأصول الإسلام. وإذا فتّشنا في الساحة، سوف نجد هناك مستشرقين آخَرين ربما كانوا أكثر حِدّة في الهجوم على الإسلام، مثل: (شاخت) في كتابه: "أصول الشريعة المحمدية" الذي جعله طعنًا في كتب السّنة الصحيحة كلها، وفي المسانيد، وفي الأحاديث الفقهية. وهناك (مرجليوث) المستشرق اليهودي، و(جولد تسيهر) وغيرهم وغيرهم.

لكن فقط اخترت هذه النماذج، لأن بعضها يطعن في العقيدة نصًّا، والبعض الآخَر يطعن في الإسلام بصفة عامة. أمّا بقية المستشرقين فيمكن أن يقال: إنّ بعضهم تخصّص في جزئية معيّنة، إمّا في الحضارة الإسلامية، إمّا في الفلسفة الإسلامية، وإمّا في التصوف الإسلامي. لكن هؤلاء كتبوا عن الإسلام بعمومه وشموله، وأرادوا أن يوجِّهوا طعونهم نصًّا إلى المصدرَيْن الأساسيّين: القرآن الكريم، والسّنة النبوية المطهّرة. والطعن فيهما يتناول الطعن تلقائيًّا في شخصية الرسول ﷺ.

موقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية

أنتقل الآن إلى لون آخَر من ألوان موقف المستشرقين من الفكر الإسلامي، ومن تاريخ الحضارة الإسلامية، وسوف أختار نموذجًا واحدًا أو مجالًا واحدًا من مجالات الفكر التي شغل المستشرقون أنفسهم بالطعن فيها، وتوجيه الاتهامات إليها، وهي: مجال الفلسفة الإسلامية، أو الفكر الإسلامي النظري بالذات.

هناك فكرة عامة وشائعة يدندن حولها المستشرقون منذ ما يقرب من ثلاثة قرون، هذه الفكرة تتلخّص فيما يأتي:

إن الحضارة الإنسانية هي حضارة أوربية -فكرة أوربا الحضارة الإنسانية-، وأن هذه الحضارة بدأت بالفلسفة اليونانية، وإذا انتَقَلت إلى منطقة جغرافية أخرى -كالمنقطة العربية مثلًا في العصور الوسطى- فإنما تنتقل إليها لتنقل إليها بعضًا من الحضارة، وبعضًا من السلوك الحضاري، ثم ما تلبث أن تعود إلي مهدها ومحضنها الطبيعي، وهي: البيئة الأوربية.

ففكرة أوربا الحضارة الإنسانية، أو مركزية أوربا للحضارة الإنسانية: فكرة أصيلة لدى المستشرقين، يحاولون أن يلقّنوها لشعوب العالم. وربما نجد عند التأمل: أنّ هناك علاقة قوية بين ما يُسمَّى الآن بفكرة العولمة، وفكرة أوْربا الحضارة الإنسانية التي نشأت في القرن الثالث، أو بَلْوَرها بعض المستشرقين في القرن الثالث، ودندن حولها كثير من المستشرقين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وربما يجني العالم ثمرة هذه الفكرة الآن فيما يسمّى بالعولمة. صحيح، العولمة فكرة أمريكية مائة في المائة، ولكن ينبغي ألّا ننسى أنّ الحضارة الأمريكية امتداد للحضارة الأوربية فكرًا وثقافة وعقيدةً أيضًا؛ فلا ينبغي أن نفصل بين

الموقفيْن. إذا كان هناك فصل بينهما في المواقف السياسية، فهذا الفصل من باب البحث عن المصالح، وليس من باب الفصل الحضاري أو الانقسام الحضاري؛ وصرّح بهذه القضية حُكّام أمريكا في أكثر من موقف.

هذه الدعوى أو هذه الفكرة -التي هي: أوربا الحضارة الإنسانية- يترتّب على الإيمان بها عند الكثير من المستشرقين: أن يوجِّهوا سهام النقد إلى الحضارة الإسلامية، لينزعوا عنها كل ما هو حسن وينسبوه إلى الحضارة الأوربية، ويفرغُوها من كل شيء جميل وينسبوه إلى تأثرها بالحضارة اليونانية القديمة. وقد أقاموا في سبيل تحقيق هذا الهدف بعض الاتهامات التي وجَهوها إلى العقلية العربية، وإلى القرآن الكريم، وإلى الفلسفة الإسلامية.

نجد فيلسوفًا أرّخ للفلسفة الإسلامية مثل: (ديبور)، كتب كتابًا بعنوان "تاريخ الفلسفة الإسلامية". يقول في مقدمة هذا الكتاب: "إن العقلية العربية أو إن العقلية السامية قبل اتصالها بالفلسفة اليونانية لم يكن لها علم بالفلسفة، ولم تعرف معنى التفلسف. وكان تفكيرها يقوم على نظرات في الإنسان ومصير الإنسان. وإذا عرض للعقل السامي ما يعجز عن إدراكه، لم يشقّ عليه أن يردّه إلى إرادة لا تُدرك مداها العقول"، يعني: إلى الله. فكرة: أن العقلية العربية عقلية ليس من طبيعتها التفلسف، ولا حب الفلسفة؛ لأنها عقلية ساذجة. بل أكثر من هذا: صرّح هذا الفيلسوف: أنّ العقلية العربية تميل إلى الأخذ بالجزئيات، ولا تعرف التعامل مع القضايا العقلية الكلية العامة. وهذا صرّح به أيضًا (رينان) في كتابه الشهير عن اللغات السامية، و(بيتز) في كتابه عن مذهب الذرة عند المسلمين الفيلسوف الذي حقق كتاب "التمهيد" للباقلاني: بيتز. معروف كلهم يُجمع على: أن العقلية العربية ليست صالحة للتفلسف، عقلية جزئية، وأنها إذا عرض لها أمر يشقّ فهْمه أو يصعب فهْمه

تنسبه إلى الله. ويخرجون من هذه الأحكام الثلاثة إلى القول بأن الفلسفة أو التفلسف خاصية للعقل الآري أو العقل الأوربي، وليست من شأن العقلية العربية ولا العقلية السامية. كأن التفلسف يختص بأمّة دون أمّة، أو بفرد دون فرد، أو شعب أو جنس، هكذا يريدون أن يقولوا.

وقبل أن أنتقل إلى مناقشة هذه الادّعاءات أودّ أن أطرح سؤالًا: هل حقيقةً إن التفلسف خصوصية تتميّز بها أمّة دون أمّة؟ أمْ أنّ التفلسف أو الفكر عمومًا قضية إنسانية مشاعة بين بني الإنسان أين كان موقعه، وأيًّا كانت لغته، ثقافته، حضارته؟ إنه ظاهرة إنسانية وليس ميزة يختص بها شعب دون شعب أو أمّة دون أمّة، بدليل أننا وجدنا القضايا الفلسفية التي أثارها فلاسفة اليونان، أو ما يسمّونهم الآباء الشرعيِّين للتفلسف، وجدْنا نفس القضايا فكّر فيها الشاعر الجاهلي قبل الإسلام، وأبدى رأيه فيها، فنجد حتى أحدث المذاهب العبثية التي وجدناها في عصر الإلحاد في فرنسا عبّر عنها الشاعر الجاهلي قديمًا في قوله:

رأيتُ المنايا خبْط عَشواءَ مَن تُصِب ❖ تُمِته ومَن تُخطِئ يُعمَّر فيَهرَم

قضية الموت لم يوجد مثلًا: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، ولا ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. يرى أنّ القضية عشوائية، لا نظام، ولا دقة، ولا اختيار، ولا يعترفون بمشيئة إلهية، إنما هي العبثيَّة.

نجد نفس القضية عبّر عنها شاعر آخَر في قوله:

أرى قبرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بمالِهِ ❖ كقَبرِ غويٍّ في البَطالَةِ مُفسِدِ

قبر رئيس الجمهورية ورئيس الدولة بجانب قبر الغفير والحقير.

تَرى جُثوَتَينِ مِن تُرابٍ عَليهِما ❖ صَفائِحُ صُمٌّ مِن صَفيحٍ مُنَضَّدِ

فكرة المساواة عند الموت: قضية فلسفية، وبجانب هذا وذاك نجد من كان يتعبّد على دين الحنيفية قبل الإسلام. فما هي القضايا الفلسفية التي أثارها فلاسفة اليونان ولا نظير لها في الحضارات الأخرى؟ نفس القضايا موجودة في كل حضارة وعند كل أمّة، كلّ ما في الأمر: أن أصحاب كلِّ بيئة يعبرون عن آرائهم ومعتقداتهم ومواقفهم من هذه القضايا حسب حظِّهم من الثقافة، وحسب طرائقهم في التعبير اللغوي؛ فليس هناك فارق نوعيّ بين حضارة وأخرى، وإنما الفارق في طرائق التعبير وفقط. إذن دعوى أنّ للفلسفة خصوصية بأمّة دون أمّة: دعوى تحتاج إلى دليل وبرهان، ولا سنَد لها أصلًا.

موقف القرآن الكريم من العمل العقلي والرد على اتهامات المستشرقين

أنتقل بعد ذلك إلى ما يدّعيه المستشرقون من اتّهام الفلسفة الإسلامية والعقلية العربية بأنها عقلية جزئية، واتّهامهم للقرآن بأنه يعوق العمل العقلي عن التفكير. وهذه من أخطر القضايا التي أثارها المستشرقون، وللأسف الشديد يردّدها كثير ممّن يحملون الأقلام في عالمنا العربي وعالمنا الإسلامي. وقد أُرجئ الحديث عن العقلية العربية والفلسفة الإسلامية إلى ما بعد مناقشة هذه الدعوى الكاذبة: أنّ القرآن يعوق العقل عن التفكير. هذه القضية ينبغي أن نفرِّق فيها بين أمريْن: بين الواقع المعاصر الذي يَعيشه المسلم الآن ويعيشه العالم الإسلامي: هل حقيقة أنّ القرآن الكريم يعوق العقل عن النظر وعن التفكير والتأمّل؟ أو إن شئت فقل: يعوق العقل عن التفلسف؟

أقول: ينبغي أن نفرِّق هنا بين أمريْن، بين واقع المسلمين، بين واقع العالَم الإسلامي المعاصر الآن، وبين ما جاء في القرآن الكريم من قضايا عقلية وأوامر إلهية تحفز العقل وتحثّه حثًّا على النظر والتأمل والتفكر. وسوف أستعرض هذا

بشيء من التفصيل الآن لأهمِّيته من جانب، ولخطورة هذه الدعوى من جانب آخر، ولأن المستشرقين يربطون تخلّف المسلمين الآن بتمسكهم بالقرآن الكريم.

تعالوا نستقرئ واقع القرآن الكريم وموقفَه من التأمّل والعمل العقلي. اقرؤوا معي: أوّل آية نزلت من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: ١، ٢]. إذا رجعنا أو إذا عُدنا إلى كتب التفسير، نجد جمهرة كبيرة من علماء التفسير. فبعضهم يقول: ﴿ اقْرَأْ ﴾ هنا لا مفعول لها، لا تحتاج لمفعول. وبعضهم يقول: إن المفعول محذوف. والجمهور الأعظم يستدلّ بهذه الآية على: أنّ القرآن نزل ليحثّ الإنسان على التعلّم، ويقصدون بالتعلّم هنا: التعلّم الأبجدي: القراءة والكتابة. ولكن أنا ألفت النظر إلى أمْرٍ آخَر: ﴿ اقْرَأْ ﴾ هنا: فعْل، ونحن نعلم: أنّ اللغة العربية الفعل فيها إمّا متعدٍّ يحتاج إلى مفعول، وإمّا لازم لا يحتاج إلى مفعول. والفعل ﴿ اقْرَأْ ﴾ الذي معنا الآن من نوع الأفعال المتعدِّية التي تحتاج إلى مفعول، ومفعول الفعل هنا هو عبارة: ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾: اسم الموصول وصِلته.

يريد الحق -تبارك وتعالى-: أن يبيّن لنا في أوّل آية خاطبَت الإنسان، أوّل آية نزلت من القرآن الكريم، أن يلفت نظرنا إلى القراءة العقلية، ولا أقول القراءة البصرية، أو أنّ هذه القراءة تتعلّق بمقروء، وهو هنا: الذي خلق المخلوقات، الكون وما فيه. فاسم الصلة الاسم الموصول: ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾، وجملة الصلة كلّها تؤوّل أو تفسّر بأن المقروء هنا هو: المخلوق. عليك -أيها المسلم- أن تُعمل عقلك في المخلوقات ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾، لكن بشرط أن تكون هذه القراءة باسم الله، وليست باسم الشيطان، ولا باسم الإلحاد، ولا باسم العلْم، ولا باسم العقل؛ وإنما يجب أن تكون باسم الله الخالق. فكأنّ القرآن يلفت نظرنا في أوّل آية إلى أنْ

نقرأ الكون وما فيه، وأن تكون قراءتنا للكون الهدف منها: ربْط المخلوق بالخالق، ربْط الكون بخالقه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾، اقرأ ماذا؟ الَّذِي خَلَقَ: المخلوقات. فكأنّ القراءة هنا قراءة عقلية. وهذا لا ينفي أن تكون إحدى المعاني المرادة أيضًا: قراءة بصرية، لكن لنا أن نتجوّل في القرآن الكريم لنرى كيف أشار القرآن، وكيف أمَر القرآن العقل الإنساني بقراءة هذا الكون وما فيه.

القرآن نزل في بيئة مكية كما نعلم، وبيئة بدويّة كما نعلم، ولكي يُعلّم القرآن العقل الإنساني أن يتأمل هذا الكون وما فيه نجد القرآن المكي يلفت نظر الإنسان إلى البيئة المحيطة به من سماء، وأرض، وجبال، ووديان، وأنهار، وأشجار، وإبل، و... و... باعتبار أنّ هذه هي العناصر المكوّنة للبيئة، ويتأمل فيها من خلقها؟ نقرأ في سورة (الغاشية) قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢١].

تأمّل معي هذه الآيات، وهذه الأسئلة العقلية المطروحة في هذه الآيات: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ ﴾؟ ليس النظر هنا أيضًا نظراً بصرياً؛ لأن السؤال عن ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾؟، والسؤال عن كيفية خلْق الشيء غير السؤال عن وجود الشيء. الإبل موجودة، الأرض موجودة، السماء موجودة، لكن السؤال هنا ليس عن وجود هذه الأشياء، وإنما هو عن كيفية وجود هذه الأشياء، وهذه هي وظائف العلم؛ لأن العلم البشري هو الذي يفسر لنا كيف تقع الظاهرة، كيف توجد الظاهرة، لكن لا يفسر لنا لماذا توجد الظاهرة؟ ولا لماذا يوجد المخلوق؟ هذه وظيفة العلم: الإجابة على السؤال" كيف؟ وليس الإجابة على السؤال: لماذا؟ ولذلك تجدون هذه الآيات تطرح هذه المجموعة من الأسئلة.

تأملوا هذه الآيات جيدًا: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ ﴾ ؟ ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ ﴾ ؟. ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ ﴾ ؟ ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؟ السؤال عن ماذا؟ ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ أم هي موجودة، أم غير موجودة؟ أم لماذا وجدت؟ لا السؤال عن ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ لم يسرح أو لم يتعد القرآن عن البيئة المحيطة بالإنسان البدوي، وإنما لفت نظره إلى ما تحت يديه وتحت سمعه وبصره من أشياء هذا الكون، عليه أن يتأمّل فيها ويتساءل: ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟

إذا انتقلنا إلى مستوى آخَر من مستويات النظر العقلي الذي أمَر به القرآن الكريم، نقرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ ؟ والسؤال هنا أيضًا عن: كيف؟ وليس عن: هل وُجد المخلوق أم لم يوجد؟ وإنما ﴿ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ ؟ ولعلّ هذه أكبر مشكلة واجهت العقل الفلسفي قديمًا وحديثًا، وستظل إحدى محارات العقول: ﴿ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾. ويمكن ورثنا عن الفلسفة اليونانية، وعن مؤرِّخي الحضارة الفرعونية القديمة اجتهاداتهم العقلية، هل بدْء الخلق كان من الذّرّة من عنصر واحد؟ العالم ينتمي إلى الوحدة؟ أم ينتمي إلى الكثرة التي هي: الماء، والهواء، والنار، والتراب: الاسطقسّات الأربعة؟ بحثَها القدماء ويبحثها العلماء المعاصرون. لم يتعد القرآن بالعقل الإنساني عن الكون الذي يعيشه؛ بل أمَره أن يتأمل في هذا الكون، في وجود الإنسان، في وجود العالَم من سمائه إلى أرضه، ويتساءل: ﴿ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ ؟

مستوى آخَر من مستويات الأمر الإلهي للعقل الإنساني: أن يتأمَّل ويُعمل نفسه، ويُحسن توظيف أدواته في هذا الكون: نقرأ قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]. تأمّل معي منطوق هذه الآية لو سمحت!

الأمر هنا ليس أمرًا بالنظر إلى السماء، وليس أمرًا بالنظر إلى الأرض، وإنما هو أمر بالنظر إلى ما في السموات وما في الأرض. و"في" في اللغة العربية تفيد معنى الظرفية. فكأن هذا الأمر يتطلب منّا أن نخترق حجب السماوات لنعلم ماذا في داخلها، ونخترق حجب الأرض لنعلم ماذا في باطنها. هذا أمر إلهي للعقل الإنساني: أن يخترق حجب الكون كلّه ليعلمَ ماذا فيه.

إنَّ القرآن الكريم حفز العقل حفزًا، وأمره أمرًا إلهيًا بأن يجتاز ويقتحم مجاهل هذا الكون من سمائه إلى أرضه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

وفي مستوى آخَر من مستويات الأمر القرآني، نجد القرآن الكريم يلفت نظر العقل إلى قضية مهمة جدًّا تتعلّق بعمل العقل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

توقّفْ معي قليلًا لنتأمّل في هذه الآية، ونتعرف على أنواع الكائنات التي ذكَرتْها وطلبتْ من العقل البشري أن يتعامل معها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ [فاطر: ٢٧]: هذا علْم النبات. ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾: علم الجيولوجيا. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾: علْم الإنسان، وعلم الحيوان.

ثم تأمل نهاية الآية: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] تجدها جاءت في صيغة بلاغية، يُسمِّيها علماء اللغة: صفةَ قَصْر أو أسلوب قصْر،

بمعنى: أنَّ خشية الله تعالى قاصرةٌ على العلماء، وبقدر ما يزداد العالمُ علمًا بصنعة الله في كونه، يزداد خشية لله ﷻ.

وهذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي جسَّدت وقصَرت معنى الخشية الحقيقية لله ﷻ على المشتغلين بهذه الألوان من العلوم الكونية: علم النبات والحشرات، وعلم الحيوان، وعلم الكيمياء، وعلم الفيزياء، وعلم الفلَك، وعلم الطب. هذه المجموعة العظيمة من العلوم هي التي تفتح باب العقل للتَّعرُّف على الخالق ﷻ؛ ولذلك أجدني مضطرًا هنا إلى أن أعود بك إلى أوّل آية نزلت من القرآن الكريم، لتقرأ فيها قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾. ماذا أقرأ؟ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾. اقرأ الكون وما فيه، اقرأ مخلوقات الله. لماذا؟ لأنّ من وظائف الإنسان في هذا الكون: تعمير الكون؛ ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]. "الألِف" و"السين" و"التاء" في: ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ تفيد معنى الطلب، بمعنى: أنّه طلَب منكم عمارة الكون؛ وعمارة الكون لا تتم إلا بعد اكتشاف قوانين هذا الكون، واكتشاف قوانين هذا الكون لا تتم للإنسان إلا بعد أن يتعرّف بعقله وبصيرته وبصره معًا على أنواع هذه الموجودات، ويتعرّف على العلاقات القائمة بينها، كيف يوظِّفها؟ كيف يُسخِّرها لصالحه؟ لأن الكون في نهاية المطاف مسخَّر لخدمة الإنسان. وهنا نقطة على جانب كبير من الأهمية: أنّ هذه المجموعة من العلوم لا تَعرف الانحياز أو المجاملة، بل هي علوم محايدة، مَن اكتشف قوانينها استفاد من عطائها ولو كان كافرًا، ومن لم يكتشف قوانينها لم يَجْنِ ثمرتَها ولم يستفد من عطائها، حتى ولو كان من أتقى أتقياء الله. وهذه سُنّة الله في كونه. العلم محايد.

والقرآن الكريم أمَر أتباعه بأن يتعلّموا هذه المجموعة من العلوم؛ لأنها مفتاح خشية الله من جانب، ولأنها قاطرة التّقدّم والنهضة والحضارة وعمارة الكون من جانب آخَر. فمن تعرّف على هذه العلوم جنَى ثمرتها نهضة وحضارة وتقدمًا، ومن لم يتعرّف عليها ولم يتعامل بها لم يَجْن شيئًا من ثمرتها. وهذا قانون الله في أرضه.

أنتقل بعد ذلك إلى مستوى آخَر؛ لكي نُعرِّف شبابنا كيف أنّ القرآن الكريم يأمر العقل بالعمل، بل يُروِّضه على كيفية التعامل، وكيفية التفكير، التفكير المنهجي بعيدًا عن المؤثرات الخارجية، بعيدًا عن التأثر بالأهواء والأتباع والآباء. اقرؤوا معي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ [سبأ: ٤٦]. اقرأ الآية مرة ثانية وثالثة ورابعة لتعرف كيف يعلّم القرآن العقل أن يعمل بعيدًا عن المؤثرات: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ لأنّ العقل الجماعي أو عمل العقل في مجموعة من البشر، في مجموعة من الناس، لا بدّ أن يكون متأثرًا بأهواء الجماعة، لا بد أن يكون متأثرًا بمذهب الجماعة السياسي أو الاجتماعي أو الفلسفي، أو مقلّدًا للآباء، فإذا فكر في مجموعةٍ لا يستطيع العقل أن يتخلّص من المؤثّرات الخارجية. ولذلك تجد القرآن الكريم يأمرُنا أن نبتعد عن المؤثرات الخارجية ثم نتفكّر؛ لكي يكون تفكيرنا حرًا بعيدًا عن المؤثرات.

وهذه الآية نزلت حين اتّهم مشركو مكة الرسول ﷺ بالجنون أو السحر والكهانة، فقال لهم القرآن الكريم: يا مشركي مكة، أنتم حين تعودون إلى بيوتكم فردًا فردًا، تؤمنون بأن محمدًا هو الصادق الأمين، وحين تجتمعون معًا في نادٍ أو في مجتمع من مجتمعاتكم، تتّهمون محمدًا ﷺ بالجنون، وما هكذا يكون التفكير؛ بل إن التفكير العلمي الصحيح: أن تلجؤوا إلى بحث هذه القضايا بعيدًا

عن المؤثِّرات، وتسألوا أنفسكم: لماذا إذا عُدتم إلى بيوتكم وفكّرتم فرادى تؤمنون بصدق محمد، لكن إذا اجتمعتم في ناديكم تقولون: إنّ محمدًا مجنون؟ ولذلك تجد الآية الكريمة تقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾. بهذا النفي القاطع: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، وهذه هي البداية الصحيحة لعمل العقل.

هل بعد هذا العرض لهذه النماذج من الآيات القرآنية يصحّ للمستشرق أن يدَّعي كذبًا وبهتانًا أنَّ القرآن يعوق العقل عن العمل، أو يدعو العقل إلى الخمول والكسل؟! إنْ هي إلا نفَثات الحقد والكراهية لهذا الدِّين وللإسلام وللقرآن الكريم.

تعالَ معي نتعرَّف على بقية المنهج القرآني في تعليم العقل كيف يفكِّر.

بعد أن طرح القرآنُ هذه الأسئلة على العقل، لم يقف به عند حدود الكون المادية المحسوسة، بل طلب من العقل بعد أن يُحسن توظيف أدواته في عالم الشهادة، في قوانين هذا الكون، في اكتشافها. طلب منه أن يتساءل حول هذا الكون، ويطرح على نفسه هذه المجموعة من الأسئلة التي حيّرت الفلاسفة قديمًا وحديثًا، هذه الأسئلة هي: مِن أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ هذه هي قضايا الفلسفة أيها الإخوة. هذه هي قضايا العمل الفلسفي من يوم أن ظهرت هذه الكلمة وإلى الآن: البحث في الكون من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟

اقرأ معي كيف عبّر القرآن الكريم عن هذه القضايا، لكن بمنهج آخَر يختلف عن المنهج الفلسفي أو المنهج المادي. بعد أن أمَر القرآن العقل بالنظر في هذا الكون من سمائه إلى أرضه، طرح عليه هذه المجموعة من الأسئلة: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

هذه الأسئلة الثلاثة يحمل كلّ سؤال منها فرضًا عقليًّا يمكن أن يتوسّم فيه العقل إجابة على السؤال المطروح: مَن خلَق؟ مَن خلَق هذا الكون؟ ماذا وراء هـذا الكـون؟ هـل وُجد مصادفة؟ هل أوجدَتْه الطبيعة كما يقول الماديّون؟ أم أنّ وراءه خالقاً؟

للأسف الشديد، العقل الحسي أو المذهب الحسي أو المدرسة الحسية في المعرفة، قصَرت بحثها على العـالَم الحسي، على الظـواهر الحسية في هـذا الكـون. وحـين حاولـت أن تجتـاز العـالَم الحسي إلى البحث عمّا وراءه، عزلت نفسها عن النصوص الدينية فضلّت وأضلّتْ. فمنهم من قال: إن العالَم موجود بالصدفة. ومنهم من قال: إن العالَم مادّة أولًا ومادّة ثانيًا وثالثًا، وليس وراء المادّة من شيء. لكن القرآن الكريم طلب من العقل أن يتأمّل في هذا العالَم الحسي، ويستخرج منه بعض القوانين المعرفية الضرورية اليقينية التي يَبني عليها ما غاب عن الحواس من قضايا معرفية.

ومن الأمور التي وصل إليها العقل من خلال نظره في هذا العالم الحسي: أنّ كلّ فعْل لا بد له من فاعل. هذه قضية بدَهيّة عقلية ضرورية. استصحب هـذه القضية في حديثه وفي بحثه عن خالق هـذا الكون من خلال طرْح الأسئلة الثلاثة التي وجدناها في القرآن الكريم: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ ﴾؟ يعني: من غير خالِق. ﴿ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ لأنفسهم؟ هل وُجد أحد ادّعى أنه خلَق نفسه؟ ﴿ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾؟ هل وُجد من ادّعى أنه خلَق السموات والأرض؟ هذه بدايات طبيعية للعمل العقلي المنظّم، وما على العقل إلاّ أن يناقش هذه الفروض الثلاثة فرضًا فرضًا، بعيدًا عن المؤثّرات الخارجية ليصل في النهاية إلى أنّ القائلين بالصّدفة قولُهم فاسد باطل عقلًا، وأنّ القائلين بالمادّة قولهم فاسد وباطل عقلًا، وأن القائلين بالطبيعة قولهم فاسد وباطل عقلًا.

ومناقشةُ هذه القضايا الثلاث أو هذه المحاور الثلاثة تحتاج إلى شيء من التفصيل. يمكن أن أشير إلى بعض المراجع التي عالجَتْها خوفًا من الإطالة في مثل هذه الأمور. وإذا ما بطلتْ، لم يبقَ أمام العقل إلاّ أن يؤمنَ بالحقائق الدِّينية: أن لهذا الكون خالقاً وهو: الله ﷻ.

هذه بعضُ الآيات القرآنية التي نزلتْ لتعلِّم العقل كيف يفكِّر، من خلال منهج برهانيّ يقينيّ لا يَقبل الشك، بعيدًا عن المؤثِّرات الخارجية. ومن هنا لا يصحّ لمدّعٍ أن يفتريَ على القرآن هذه الفرية الكاذبة ويقول: إن القرآن يعوق العقل عن العمل وعن التفكير الحُر.

بل أكثر من هذا أيضًا: نحن نعلم أنّ عالَم الكون العالَم الحسي له قوانينه، عالم الطبيعة له قوانينه التي تحكُمه، كذلك أيضًا عالَم الاجتماع البشري، يَلفت القرآن نظرنا ونظر العقل إلى أن يتأمل في مسيرة التاريخ البشري، ليكتشف مِن سيرة الإنسان عوامل وقوانين قيام الحضارات وانهيار الحضارات، ليكتشف قوانين قيام الممالك واستمرارها، وعوامل انهيارها وفسادها وانحلالها. قضية الاعتبار بالسُّنن الكونية في عالَم البشر، في عالم الاجتماع البشري. نجد القرآن الكريم يأمر العقل في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ [الروم: ٩]، ويعيب القرآن وينعَى القرآن الكريم على الإنسان الذي عطّل عقله وسمعَه وبصرَه عن العمل، وعن حُسن توظيف هذه الأدوات، يقول تعالى: ﴿ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل أكثر من هذا، نجد القرآن الكريم يَلفت نظر الإنسان إلى ضرورة حُسن توظيف أدوات المعرفة التي زوّده الله بها، فإنّ الإنسان قد يملك هذه الأدوات ولا يُحسن

توظيفها قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]. اقرأ هذه الآية -يا أخي- مرّة ومرّة ومرّة، لتعرف مطلوب الآية: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، كأنّ النظر شيء ووظيفة النظر شيء آخَر. فالإنسان يملك حاسّة البصر وينظر ببصره إلى الأشياء، لكنه لا يعتبر ولا يَعي الدرس من الأشياء التي يتعامل معها. هكذا كان القرآن الكريم داعيًا للعقل الإنساني إلى العمل، آمرًا للعقل الإنساني أن يُحسن أدوات وملَكات المعرفة التي زوّده الله بها؛ فإذا ما قصّر الإنسان ولم يُحسن توظيف هذه الأدوات، إذا أساء الإنسان توظيفها هل يُعاب على القرآن ذلك؟ هل يُعاب على القرآن الكريم ويُتّهم القرآن بأنه سبب إعاقة العقل؟ أم أن نعود باللّوم على الإنسان الذي قصّر وأساء توظيف هذه الأدوات؟ تلك قضية على جانب كبير من الأهمية، ألفت النظر إليها؛ حتى نُبيِّن فساد قول المستشرقين وبطلان اتّهامهم للقرآن بأنه يعوق العقل عن العمل.

موقف المستشرقين من الفلسفة الإسلامية

أجدني مضطرًا الآن إلى التوقف عن الحديث عن موقف المستشرقين من القرآن الكريم؛ لأن هذا الموقف كلّما زدناه تفصيلًا أغرانا بالحديث عنه؛ وسوف أكتفي بهذا لأنتقل إلى قضية أخرى من مواقف المستشرقين من الإسلام ومن الفكر الإسلامي؛ حتى نكون على درجة كافية من إلْمامنا بنظرات المستشرقين المتنوّعة والمتلوّنة حول الفكر الإسلامي وقضاياه.

كان للمستشرقين موقف من الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي، لعلّني قد أشرتُ فيما مضى إلى أنّ هناك فكرة مسيطرة على العقلية الأوروبية، وهي: أنّ الحضارة الإنسانية حضارة أوربية، نشأت في أوربا وترعرعت في أوربا، ولا

تزدهر خارج البيئة الأوربية، التي هي فكرة أوربا الحضارة الإنسانية. هذه القضية يحاول كلّ فيلسوف أن يستدلّ على صحة هذا الزعم الخاطئ بما شاء من أدلّة، يحاول أن يجمع حولها كلّ ما عنّ له ممّا يظنّه براهين، وما يظنّه أدلة على صحة قوله؛ ولذلك نقرأ في كُتبهم التي وضعوها للتأريخ للفلسفة الإسلامية، هذه الدعوى ملفوفةً ومسوقة بألفاظ وبراهين تختلفُ من فيلسوف لآخَر.

وجدنا ذلك عند (ديبور)، وعند (هنري كوربان)، وعند (رينان)، وعند (جون ستيورات ميل)، وغيرهم وغيرهم... كأنهم تواصوا فيما بينهم على هذه القضية: أنَّ الحضارة الإنسانية حضارة أوربية، وحين انتقلَت إلى العالم الإسلامي عن طريق الترجمة في العصور الوسطى، فإنما انتقلت هذه الحضارة لتحضِّر العرب فقط.

ويمكن أن نطرح سؤالًا: إذا كانت الحضارة العربية والفلسفة الإسلامية ما هي إلا تكرار للفلسفة اليونانية -كما يقولون-، لماذا أتعبوا أنفسهم في دراستها؟ لماذا أجهدوا أنفسهم وبذلوا فيها وقتًا طويلًا في التأريخ لها والحديث حولها؟ لماذا؟ نجد الإجابة على هذا السؤال تتكرَّر بعبارات تكاد تكون هي هي عند مؤرِّخي الفلسفة الإسلامية من الأوربيِّين. يقولون: إننا نقرؤها لنعرف أثر الحضارة والمدنية الأوربية على العالم الإسلامي، كأنّ الحضارة العربية لم تُسهم إطلاقًا في مسار الحضارة الإنسانية. نعم هكذا يقولون. بل أكثر من هذا؛ يقولون: إن العقلية العربية ليست صالحة للتفلسف. وقد أشرنا إلى ذلك.

وهذه الأمور نودّ أن نتوقف أمامها قضية قضية، لنبيّن هل هذه دعاوى نكتفي في القول بأنها دعاوى لا يسندها دليل ولا برهان، أم أنها تحمل نوعًا من الحقد الدفين على الفلسفة الإسلامية وعلى الفكر الإسلامي بصفة عامة.

نتوقف مع القضية الأولى وهي التي تدَّعي: أن الفلسفة الإسلامية تكرار للفلسفة اليونانية، وأن العرب لا يعرفون الفلسفة.

من القضايا التي لا تحتاج إلى دليل: أن الحضارات الإنسانية كالأواني المستطرقة، لا بدّ أن يتأثر لاحقُها بسابقها. والحضارة اليونانية التي يتحدّثون عنها ويدّعون أنها أمّ الحضارات، لو قرأنا تاريخ الحضارات أو تاريخ العلم لـ(سارتون) -وهذا ما توصّلوا إليه أخيرًا- سوف نجد أنّ ما في هذه الحضارة من أشياء يتِيهون بها على العقلية الإنسانية عمومًا، نجدها ليست بنتًا شرعية للعقلية الآرية التي يدّعونها، ولا للعقلية الأوربية، بل إنّ معظم ما فيها من أشياء جديدة على الفكر في وقتها هي ثمرات لأثر حضارات سابقة على الحضارة اليونانية. فمن المعلوم تاريخيًا: أن (أفلاطون) قد زار منطقة الشرق العربي، وجاء إلى مدرسة الإسكندرية، وعاش في منطقة الشرق ما يقرب من عشر سنين، وعاد إلى أثينا وهو يحمل معه معالم الرياضيات لـ(فيثاغورث) والهندسة، ومعالم فكر في التوحيد التي كانت منتشرة في بلاد الشرق، ومعالم الحضارة الشرقية القديمة في فارس، وبعض الآراء الدينية التي كانت موجودة في مصر آنذاك. وبمجرد أن عاد إلى أثينا، وجدنا هذه الأفكار تشيع وتنتشر في الحضارة اليونانية وفي الفلسفة اليونانية. ومن وجهة نظري هذا لا يعيب الحضارة اليونانية أن تأخذ من الحضارات السابقة عليها؛ لأن هذا أمر طبيعي. لكن الذي يُعاب على المستشرقين: أنهم يدّعون الأصالة لحضارتهم، ويَنفون الأصالة عن حضارات الآخَرين، مع أنّ هذا شيء عام إنساني مشترك بين كل الحضارات. فلا يُعيب الحضارة الإسلامية ولا الفلسفة الإسلامية: أن تأخذ بعض الأشياء عن الفلسفة اليونانية القديمة. كما لا يعيب الفلسفة اليونانية: أن نجد فيها آثارًا لفلاسفة الهند، ولفلاسفة الصين، وللحضارة الفرعونية القديمة، وللآراء وللأفكار الهندسية التي كانت موجودة في مدرسة الإسكندرية.

هذه قضية ألفت النظر إليها حتى لا نُتّهم بالتعصّب، وحتى لا يتعصّب علينا فلاسفة أوربا بدعوى أنّ الحضارة أو الفلسفة الإسلامية تكرار للفلسفة اليونانية القديمة.

حقيقة، لقد بدأت هذه الحملة المسعورة على الفكر الإسلامي في القرن التاسع عشر، حيث وُضعت مؤلفات كثيرة جدًا تتّهم الإسلام بأنه يتنافى مع العلم، وأن الحضارة الإسلامية والفلسفة الإسلامية تكرار لفلاسفة اليونان و... و... كما أشرنا إلى ذلك؛ ولكن للأسف الشديد، أن هذه الأفكار وجدنا بعضها يتردّد في كتابات بعض المفكِّرين أو المشتغلين بالفكر العربي من أبناء العرب أنفسهم. وهذا ما يدعونا إلى الغرابة. كيف تأثر هؤلاء بهذه الدعاوى الكاذبة، ولم يُعنوا أنفسهم بالبحث عن الحقيقة، ليعلموا هل هذه دعاوى كاذبة، أم أن هذه دعاوى لها نصيب من الموضوعية والعقلانية؟

دعوى: أن الفلسفة الإسلامية تكرار للفلسفة اليونانية دعوى تحتاج إلى شيء من التحفظ، وأحب أن أوضح هنا بعض الحقائق:

أولاً: لو فتّشنا نحن في الثقافة الغربية وتاريخها الطويل، وحاولنا أن ننتقدها بنفس المقاييس التي تناول بها المستشرقون علماءنا وأسلافنا وحضارتنا، لما نَجا منهم واحد، وعلى رأس هؤلاء (أرسطو) أعظم فلاسفة اليونان والغرب على الإطلاق كما يُسمّونه. لقد وقع في كثير من الأخطاء التي كانت تدين بها أوربا على أنها مسلّمات بديهية، حتى اكتشف الغرب خطأها في القرن الخامس عشر. فلقد رفض (أرسطو) المذهب القائل بأنّ أصل الوجود هو: "الذّرّة"، أي: الوحدة، وأخذ بنظرية العناصر الأربعة القائلة بأنّ أصل الأشياء هو: الماء، والهواء، والنار، والتراب. وهذه النظرية قد رفضها مفكِّرو اليونان قبل (أرسطو) لظهور فسادها.

وقال (أرسطو) بأن الجِسميْن المختلفَي الثّقل إذا سقطا من شاهق، فإن سرعتهما في السقوط تتناسب مع ثِقلهما تناسبًا رأسيًا، بمعنى: أننا لو ألقَيْنا من شاهق -من ارتفاع كبير- حجريْن وزْن أحدِهما كيلو جرام واحد، ووزْن الآخَر نصف الكيلو مثلًا، فإنّ الحجر الأوّل يصل إلى الأرض في نصف المدة التي يستغرقها الحجر الثاني؛ وهذا أمْر قد ثبت بطلانه، كما هو معروف في علوم الطبيعة. وهذا لا يعيب (أرسطو)، كما لا يعيب بعض مفكِّري الإسلام إذا وقعوا في أخطاء. فإذا أخذ المستشرقون على العرب أخطاء ومآخذ، فهذا شيء لم تَخْلُ منه أمّة من الأمم حتى نقول خَلَت منه الأمّة العربية.

وأمّا إذا كانت مآخذ المستشرقين على الثقافة العربية بهدف إنكار أصالتها، وسلْب فضْلها على مسار الحضارة الإسلامية، فمِن واجبنا الآن: أن نعرِّف ونعرِّف وأن نكشف النقاب عن جهود علمائنا، وعن فضل الثقافة العربية والإسلامية على النهضة الحديثة. وسوف تكون هذه القضايا التي وجّهها المستشرقون إلى الثقافة العربية هي مدخلنا إلى توضيح الفضل الكبير الذي كان للفكر الإسلامي، وما له من أصالة، وما له من دَوْر هامّ في حمل لواء الحضارة الإنسانية في وقت كانت أوربا منغمِسة فيه في جهالة القرون الوسطى. كانت مكبّلة بقيود التقليد الأعمى للحضارات السابقة، وكانت تتعبّد بآراءٍ وأفكار أثبت العلْم أنها خرافات لا أصل لها في ميزان العلم.

فدعوى المستشرقين: أنّ العقلية العربية أقلُّ شأنًا من العقلية الآرية، هذه دعوى تفتقد إلى برهان يسندها على الأقل. ولا يملك المستشرقون في هذه الدعوى إلا قضية التعصب للجنس، والتعصب للثقافة؛ بل إنّني أجدها امتدادًا طبيعيًا لأكذوبة إسرائيل في وقتنا الحاضر: بأنهم شعب الله المختار الذي يجب أن يَسود

العالَم. ولعل هذه الدعوى الأخيرة -فوقية الجنس الآري على الجنس السامي- امتداد لدعوى إسرائيل: بأنهم شعب الله المختار. وأنا أطرح على إخوتي وأخواتي المستمعين الآن: أليست هناك علاقة بين القضيّتَيْن؟ فما أسهل على المرء أن يرسل الدعاوى العامّة على عِلاّتها بلا بدليل ولا برهان، لكن فقط لكي ينفث بها عن رغبة ملحّة أو هوًى مكبوت. أما المنهج العلمي الصحيح، فإنه يرفض تمامًا أمثال هذه الدعاوى، ومن الخطإ الفاحش أن يدّعي المستشرقون أنّ الفلسفة الإسلامية وليدة الفكر العربي وحده أو العقلية العربية وحدها؛ لأن الفلسفة الإسلامية قد أسهم فيها مفكِّرون من شعوب أخرى لا ينتمون إلى الجنس العربي، ولا إلى اللغة العربية. فقد أسهم فيها الهنود، والفُرس، والأتراك، والسوريون، والمصريون، والأندلسيون، وكلّ من دان بالإسلام عقيدة، أو نطق العربية لغة؛ ولذلك نجد مِن الآثار النبوية: ((ليست العربية مِن أحدكم بأب وأمّ، وإنما هي الدِّين واللغة؛ فمن نطق العربية فهو عربيّ، ومن دان بالإسلام فهو عربيّ)). ولعل ممّا يؤكد هذا: أن الأقباط في مصر الآن إذا سألْتَ المثقّف منهم يقول لك: "أنا مسيحيّ العقيدة، إسلامي الثقافة". هذا هو المنهج العلمي.

أمّا عن دعواهم: بأنّ الإسلام أو القرآن الكريم يعوق العمل العقلي، فقد بيّنّا ذلك تفصيلًا، وأوضحنا أنّ هذه الدعوى كاذبة لا أصل لها، وهي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على جهلهم بالقرآن الكريم، وعلى جهلهم بما في القرآن من أوامر ونواهٍ تحفز العقل حفزًا، وتأمُره أمرًا إلهيًا بالنظر في ملكوت السماوات والأرض. هذه أمور ينبغي أن نوضِّحها لأنفسنا حتى إذا ما قرأناها في كتابات غيرنا نعلم ما في هذه الدعوى من أخطاء.

أمّا اتّهام بعض المستشرقين للتفكير العربي بأن العقلية العربية لا تصلح للتفلسف، أو دعوى بعضهم بأنها تميل إلى التفكير الجزئي ولا تأخذ بالقضايا الكلية، فأنا أودّ أن أوضِّح لحضراتكم: أن ميْل العقلية العربية إلى البدء بالجزئيات هل هي عيب يُعاب على العقل العربي؟ أم أنّ هذه ميزة ينبغي أن تُحمد للعرب؟

من المعلوم: أن المنهج العلمي الآن -خاصّة منهج الاستقراء- يبدأ بفحص الجزئيات قبل أن يَبني القضايا الكلية، ويتساءل أو يحلِّل المشكلات الكبرى إلى جزئيات صغيرة، ويحاول أن يجد لهذه الجزئيات حلًا جزئية جزئية. ومن المعلوم في منهج الاستقراء: أن الباحث يتناول المشكلة، ثم يطرح مجموعة من الأسئلة يتوسّم في كلّ سؤال حلاً لهذه المشكلة. وهذه الأسئلة التي يطرحها هي ما نُسمّيه في منهج البحث العلمي بالفروض العلمية، وما على الباحث إلاّ أن يختبر هذه الفروض فرضًا فرضًا، ويستبعد الفروض الزائفة ويستبقي الفرض الصحيح.

على سبيل المثال: عندنا في مصر مثلًا انتشر مرض البلهارسيا بين أفراد الشعب المصري: هذه مشكلة تحتاج إلى حلّ. نجد المهتمِّين بهذه القضية من العلماء في وزارة الصحة حاولوا أن يحلِّلوا هذه الظاهرة، ويتساءلوا عن أسبابها. ما هو سبب انتشار مرض البلهارسيا في الشعب المصري؟ هل هذا السبب يعود إلى البيئة؟ إلى السكن الذي يسكنه الإنسان في مصر؟ وجدوا أنّ الكلّ الذي يسكن في طبقة ريفية أو في منطقة ريفية مصاب بالمرض. من يقيم في الحضر ومن يقيم في البادية مصاب بالمرض. إذن لا يصلح هذا الفرض. هل الهواء الذي يتنفّسه الإنسان سبب في هذا المرض؟ وجدوا أيضًا: أنّ الإنسان الذي يسكن في منطقة زراعية، أو منطقة صناعية، أو بيئة حضرية، كلّهم مصابون بهذا المرض؛ فلا يصلح هذا الفرض أيضًا. قالوا: هل ماء النيل سبب في انتشار هذه الظاهرة؟ بحثوا هذا

الفرض، ووجدوا أنّ الذي يشرب من ماء النيل غالبًا يصاب بهذا المرض، أما الذي لا يشرب من ماء النيل فلا يصاب بالمرض. وضعوا أيديَهم على هذا الفرض وقالوا: إنّ هذا الفرض يصلح أن نعلِّل به انتشار مرض البلهارسيا في الشعب المصري. فبدؤوا يبحثون في ماء النيل، فوجدوه مشتملًا على ميكروب البلهارسيا، فوضعوا قاعدة: كلّ من يشرب ماء النيل من غير معالجة لهذا الماء معرّض للإصابة بالبلهارسيا. وأصبحت هذه حقيقة علمية. لكن كيف وصلوا إلى هذه الحقيقة؟ بتجزئة المشكلة عن طريق فرض الفروض حولها. إذن معنى أن العقلية العربية تهتمّ بالجزئيات، معنى هذا: أنها عقلية علمية، تبدأ ببحث الجزئيات أولًا، ثم تنتهي من بحث هذه الجزئيات إلى وضع قاعدة علمية أو قانون عام. يفسر المشكلة التي يعيشها الإنسان ويحلّلها، ثم يضع للإنسان أيضًا قاعدة يخرج منها بقانون عام. إذا عاش الإنسان هذه الظروف وشرب من ماء النيل، فهو معرّض لمرض البلهارسيا، فيفسِّر بها حاضره ويتنبّأ بها لمستقبله. فهل هذا يعاب على العقلية العربية، أم أن هذه ميزة ينبغي أن تُحمد للعقلية العربية؟

فهذا يدلّنا على: أنّ العرب يأخذون بالمنهج العلمي الحديث، الذي يقوم أساسًا على خطوات محدّدة. أُولى هذه الخطوات هي: ما يُسمّى بمرحلة البحث، وفيها يقوم الباحث بجمع الملاحظات والتجارب في العلوم الطبيعية والإنسانية على سواء، وجمع هذه الملاحظات ليس إلا ملاحظة الأشياء الجزئية المتباعدة، ثم يحاول أن يربط بين هذه الأشياء الجزئية بما يتخيّله من علاقات ومناسبات تجمع بينها؛ وبهذا وحده يمكن للباحث أن يفسِّر الظواهر والوقائع التجريبية. فكيف يعد ذلك اتهامًا للعقلية العربية، وهو ركيزة أساسية من ركائز العلم التجريبي في القرن العشرين؟!

الاستشراق (٤)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	نقض فلاسفة الإسلام لفلاسفة اليونان	١٤٣
العنصر الثاني :	دور الحضارة العربية في مسار الحضارة الإنسانية	١٤٥
العنصر الثالث :	مواقف علمية لبعض مفكِّري الحضارة الإسلامية	١٥١
العنصر الرابع :	علاقة الاستشراق بالاستعمار	١٦٠

نقض فلاسفة الإسلام لفلاسفة اليونان

نقض فلاسفة الإسلام لفلاسفة اليونان، ودور الحضارة العربية في مسار الحضارة الإنسانية.

وحين نناقش دعواهم في أنّ الفلسفة الإسلامية ليست إلا تكرارًا لآراء (أرسطو) و(أفلاطون)، بل يقولون إنها تكرار بصورة مشوّهة، سوف نجد: أنّ هذا الحُكم فيه إجحاف بدَوْر العرب، وتجريد لهم من عبقريتهم التي أضافوها إلى الفلسفة اليونانية.

في البداية، ينبغي ألاّ نُنكر أثر الفلسفة اليونانية على بعض فلاسفة الإسلام، وخاصة الفلاسفة التقليديِّين منهم أمثال: الفارابي مثلاً، وابن سينا، وبعض آراء ابن رشد؛ فلا شكّ أن الفلاسفة المسلمين قد أخذوا عن (أرسطو) بعض أرائه، كما تأثّروا بآراء (أفلاطون) أيضًا. ولكن السؤال هنا: مَنْ مِن المفكِّرين لم يتأثر بِمَن سبقه ممّن يعملون في نفس الحقل؟ فهذا حق مشروع لجميع الأجيال، وليس هناك خلْق من العدم كما يظن البعض. وقد أشرنا فيما مضى: أن الفلسفة اليونانية في جوهرها ليست إلا نتاجًا لعباقرة سبقوا (أفلاطون) و(أرسطو). وقلنا: إنه ينبغي أن نتلمّس مصادرها لدى قدماء المصريين، ولدى فلاسفة الصين، ولدى حكماء الفُرس. وإذا كانت الفلسفة اليونانية مَدينة بالفضل لِما سَبقها من آراء وأفكار، فلماذا نُحرِّم على الفلاسفة المسلمين التَّأثُّرَ بمن سبقهم أيضًا؟

وينبغي أن نشير هنا إلى: أنّ تأثّر هؤلاء الفلاسفة بآراء (أفلاطون) و(أرسطو) لم يبلغ حدّ الإذعان أو الخضوع لكلّ ما قالوه؛ بل نقضوا بعضها أحيانًا، ونقدوا بعضها أحيانًا أخرى. أقول: نقضوا البعض، بمعنى: هدَموه هدمًا كاملًا، ونقدوا

البعض الآخَر. وليس أدلّ على ذلك مِن أنّ ابن سينا قد نقد (أفلاطون)، واعترض عليه في رأيه حول طبيعة الإنسان، وهل هي جوهر مستقلّ عن البدن، أم لا؟ وألّف ابن تيمية كتابًا مستقلًا بيّن فيه نقْض منطق (أرسطو)، وبيّن تهافت هذا المنطق عن تحصيل العلوم الجديدة. ولا شكّ أنّ نقْل العرب هذه العلوم إلى أوربا كان فاتحةً لعصر النهضة الحديثة، وهذا في حدّ ذاته مجهود كان لا بد منه لبعث روح الحضارة الأوربية التي كانت قد ماتت وعفا عليها الزمن.

ولقد تصدّى للرد على هذه الدعاوى الاستشراقية في القرن التاسع عشر: مفكِّرون كبار أمثال: السيد جمال الدين الأفغاني في كتابه: "الرد على الدهريِّين"، ونُشر هذا الرد في مجلة "العروة الوثقى". كما رد عليها أيضًا الإمام: محمد عبده في مجلة "المنار". وحين تجدّدت الدعوى بعد الحرب العالمية الأولى، كتب الشيخ مصطفى عبد الرازق ~ كتابه: "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية" ناقش فيه هذه الأقوال مناقشة مستفيضة، وردّ عليها واحدة تلو الأخرى.

وإذا كان المستشرقون يركِّزون في تأثّر الفلسفة الإسلامية بالفلسفة اليونانية على ابن سينا والفارابي مثلًا، فإنّ هؤلاء لا يمثّلون إلا شريحة ضيِّقة جدًا من شرائح الفكر الإسلامي، وهي التي نُسميها بـ"الفلسفة المشائية" أو "الاتجاه المشائي في الفكر الإسلامي". لكن هناك مفكِّرون آخرون كانوا أكثر أصالة، وأكثر تعبيرًا عن الفكر الإسلامي من أمثال علماء الكلام، ومن أمثال الصوفية، وغيرهم وغيرهم في شتى الفروع.

دور الحضارة العربية في مسار الحضارة الإنسانية

أمّا دعواهم بأن: الحضارة الإسلامية لم تقدِّم جديدًا إلى الحضارة الإنسانية بصفة عامة، فينبغي أن يكون ردّنا على هذه الدعوى بذكْر مآثر الحضارة والعلوم الإسلامية على الحضارة الأوربية بصفة خاصة. وسوف أورد هنا نماذج معيّنة من العلوم التجريبية بالذات التي هي بحق مقياسُ النهضة الأوربية المعاصرة. ولنأخذ نموذجًا من العلوم الرياضية.

إن تاريخ العلوم الرياضية المعاصرة يدين بالفضل إلى حدّ كبير لتراث العرب، وما خلّفوه من مؤلّفات في هذا العلْم، ظلّت هذه المؤلفات حبيسة المكتبات والمتاحف وفي بطون المخطوطات إلى وقت قريب جدًا. وللأسف الشديد، فقد اهتمّ بها المستشرقون، ووقفوا على ما فيها، واهتموا بهذا اللون من التراث، ونفضوا عنه غبار الزمن، وفتحوا له صدورهم وعقولهم، وأنشؤوا لإحيائه المؤسسات والمراكز البحثية، ورصدوا لطباعته ونشره ميزانيات ضخمة. بل إن العرب والمسلمين -وهذه حقيقة- لم يعرفوا قيمة هذا التراث إلاّ بعد أن وقف الغرب على نشره وتحقيقه، وبذل فيه جهودًا كبيرة.

ولعل من أكبر المهتمّين بإبراز دور العرب في النهضة العلمية في أوربا، العالم الكبير (جورج سارتن) في كتابه: "تاريخ العلم"، والمفكِّر الكبير (ديورانت) في كتابه: "قصة الحضارة". كما أفرد العالم الإيطالي (أولدميلي) المعروف مجلّدًا خاصًا لبيان فضل العرب في الرياضيات. وكذلك ينبغي ألا ننكر فضل (يوسكوفيتش) في كتابه: "تاريخ الرياضيات"، حيث عقد فصلًا خاصًا لأسماء الرياضيات العربية.

ومن المعلوم تاريخيًا: أن العرب قد اطّلعوا على علوم الأمم الأخرى، حيث

امتزجت الحضارة الإسلامية بالحضارات المجاورة، كحضارة الهند، وحضارة الفرس. وصارت بغداد -حفظها الله- بوتقة انصهرت فيها هذه الحضارات كلها، خاصة في مدرستي الكوفة والبصرة، وفي بغداد العاصمة حيث تأسست فيها مدرسة رياضية كبيرة تمّت فيها ترجمة رياضيات (أرشميدس) و(بطليموس)، وانتقلت إليها نظريات (فيثاغورث) في الهندسة وفي علوم الرياضة. ولم يقف جهد العقل العربي في الرياضيات على مجرد الاختراع فقط، بل تعدّى ذلك إلى توظيف ما اخترعوه أحسن توظيف وأحسن أداء.

وممّا يبرهن على دور العرب في العلوم الرياضية موقفهم من الأعداد: لقد وقف العرب على نظام الأعداد والترقيم الذي نعرفه الآن، وعرفوا كيف تتعامل به الأمم المجاورة، واستحسنوا الأرقام الهندية بالذات، وأخذوا بها في معاملاتهم، وطوّروها، ونظّموا أشكالها حيث لم تكن موحّدة بالشكل الذي نعرفه الآن. فوحّدها العرب، وهذّبوها، التي هي: "١، ٢، ٣، ٤... إلى آخره". وتفرّع عنها نوعان من الأرقام، عرفت إحداهما بـ"الأرقام الهندية" وهي التي يستعملها أكثر شعوب العالم العربي الآن، كما عرفت الثانية بـ"الأرقام الغبارية" أو "الأرقام الفاسية" نسبة إلى مدينة فاس بالمغرب. واشتهرت هذه الأرقام الأخيرة ببلاد المغرب وبالأندلس، ولا زالت تستعمل بها حتى الآن، التي هي الأرقام "١- ٢- ٣- ٤..." وهي التي تعرف في أوربا بـ"الأرقام العربية". وكان أهم ما في هذه الأرقام رقم "الصفر" الذي ساعد على وضع الأرقام في سلسلة مضاعفات العشرة والمائة والألْف. ومن الجدير بالذكْر: أن كلمة أو لفظ "صفر" كلمة عربية، وهي ترجمة للكلمة السنسكريتية "سوجا" وتعني: الفراغ. وأوّل من مثّل "الصفر" على شكل نقطة ظهر على قرطاس مكتوب يرجع تاريخيه إلى عام ٨٧٣م هم العرب. ولم يُكتشف الصفر في الهند إلا في القرن الثامن الميلادي. وبدأ العرب

يتعاملون به قبل أن يتقدم الهنود في استعماله.

ومن العجيب حقًّا: أنّ أوّل كتاب أُلِّف بالعربية وظهر فيه "الصفر" مرسومًا على شكل نقطة كما نرسمه نحن اليوم ظهر سنة ٢٧٤هـ، الموافق سنة ٨٧٤م،

هذه بعض نماذج ممّا أضافه العرب إلى علم الرياضيات، وكان من أهمّها -كما أشرنا إلى ذلك- رقم "الصفر".

بينما وجدْنا أنّ أوّل نقش هندي ظهر فيه "الصفر" يرجع إلى ما بعد ذلك بعامين أو أكثر. ومن المعلوم تاريخيًا: أن العالَم كلّه قد عرف الأرقام العددية ومنها "الصفر" عن طريق العرب، وليس عن طريق الهنود، ولا تزال -إلى هذه اللحظة- هذه الأرقام يحمل بعضها اسمها العربي إلى اليوم في أوربا؛ فإن "الصفر" في الإنجليزية "صيفر"، وفي الألمانية "تزيفر"، وفي الفرنسية "شيفرا" وفي الإيطالية "شيفرا".

وبواسطة "الصفر" هذا أمكن تحديد مراتب الأعداد وقيمتها حسب موضع "الصفر" منها يمينًا أو يسارًا. فإذا كان الرقم واحدًا وعلى يساره "صفر"، يُنطق: واحداً. إذا كان الرقم على يمينه "صفر" يُنطق: عشرة، "صفران" يُنطق: مائة، ثلاثة "أصفار" يُنطق: ألْفاً، وهكذا... فالعرب لم يفهموا "الصفر" على أنه عدم كما يَفهم الناس ذلك قطعًا، وليس كما فهِمه الأوربيّون أوّل أمْرهم حين أسموه بـ"نول" بمعنى: العدم؛ بل إنّ العرب فهموا "الصفر" على أنه قيمة عددية يطرأ بسببها تبدّل أساسي على الأعداد المأخوذة معه حسب موضعه فيها يمينًا أو يسارًا. ولعل أقرب مثال على ذلك هو: وضع "الصفر" يمين رقم واحد أو يسار رقم واحد؛ هذا أمر له جانب كبير من الأهمية في تقدّم علم الرياضيات، خاصة إذا علِموا أنّ "الصفر" لا يعني العدم، وإنما هو قيمة عددية.

من الأمور التي ينبغي أن نشير إليها هنا -هذا كلام أيها الأخوة أنا أوجز فيه أشدّ

الإيجاز؛ لأن كلّ قضية أعرض لها الآن، التفصيل فيها يحتاج إلى مجلدات- استطاع غياث الدين الكاشي في أوّل القرن التاسع الهجري: أن يستخرج نسبة محيط الدائرة إلى قُطرها بصورة أدقّ ممّا نعرفه نحن اليوم. من المعروف أن محيط الدائرة له علاقة بقطر الدائرة، ونسبة القطر إلى المحيط -يمكن هذا يُدرّس لطلاب الثانوي الآن أو الإعدادي-. غياث الدين الكاشي هذا اكتشف علاقة القطر بالمحيط، ونسبة أحدهما إلى الآخَر بصورة أدقّ مما نعرفه نحن اليوم. ومن المعلوم تاريخيًا: أنّ أوّل من ألّف في الجبر على وجْه العموم هو المفكِّر العربي: الخوارزمي، صاحب كتاب: "الجبر والمقابلة". واستطاع هذا الرجل أن يصِل إلى حلِّ معادلات من الدرجة الأولى والثانية والثالثة. كما استطاع عمر الخيام المتوفى سنة ٥١٧ هـ أن يَحُلّ معادلات في علم الجبر من الدرجة الرابعة؛ وهذا أرقى ما وصل إليه علماء الرياضيات في عصرنا الحاضر. فهل بعد هذا يقال: إن العرب ليس لهم في تاريخ الحضارة الإنسانية شيء يُذكر؟!

أمر آخَر: لقد سبق العرب إلى اكتشاف النظرية القائلة: بأن مجموع عددَيْن مكعّبَيْن لا يكون عددًا مكعّبًا؛ وهذا هو أساس النظرية التي اشتهر بها الرياضي الفرنسي (بيير) المتوفى سنة ١٦٦٥م.

كما أنّ فضل العرب على علْم التفاضل والتكامل لا يُنكره أحد.

هذه شذرات مما أضافه العرب إلى علوم الرياضيات.

أمّا في العلوم الطبيعية، فينبغي أيضًا أن نُبيِّن فضل العرب فيها؛ لأنّهم يدّعون كذبًا وبهتانًا: أنّ العرب لم يضيفوا شيئًا إلى العلوم الطبيعية. من المعروف تاريخيًّا: أن العرب قد اهتمّوا بهذه العلوم في فترة مبكّرة من التاريخ؛ فلقد اشتغل خالد بن يزيد الملقّب بحكيم آل مروان -الذي هو آخِر أمراء الدولة الأموية- اشتغل

هذا الرجل بعلم الكيمياء -في القرن الأول الهجري- ، وترجم مؤلّفات في علم الكيمياء من اللغة اليونانية ، وانتدب لذلك جماعة من علماء مدرسة الإسكندرية بمصر ، وبالتحديد في سنة ٦٨٣م ، وأمر أحد هؤلاء العلماء -وهو العالم المعروف بـ(أسطفن الإسكندري)- أمره بنقل كلّ كتب الكيمياء التي تحت يده إلى اللغة العربية حتى يقف العرب على حقيقتها ويتعاملوا بها.

ولعلّ هذه أوّل ترجمة حدثت في تاريخ الفكر الإسلامي : ترجمة خالد بن يزيد لبعض رسائل الكيمياء في القرن السابع الميلادي. ثم جاء جابر بن حيّان فبلغ في ذلك شأنًا عظيمًا. وهذا يُدرّس لأبنائنا في المدارس والمؤسسات التربوية : نظريات جابر بن حيان ، ومنهجه في العلوم الطبيعية. ثم جاء من بعده الإمام البيروني وابن الهيثم و "الكنديُّ"، وفضل هؤلاء في هذه العلوم الطبيعية لا يجهلها أحد ، خاصة -وهذه قضية على جانب من الأهمية- أنّ ابن الهيثم قد أشار في كتابه : "البصريات" أو "المناظر في البصريات" إلى مجموعة من قواعد علم المناهج لا نظير لها في أيِّ مؤلَّف في عصره. قواعد المنهج العلمي الذي نَدرسه ونُدرِّسه لأبنائنا الآن ، وخطوات هذا المنهج ، تكلّم عنها بإفاضة لا نظير لها. ويكفي أنّ هذا الكتاب -وهو كتاب : "المناظر في البصريات" لابن الهيثم في قوانين الضوء- يُعدّ جزءًا من العلم الحديث إلى هذه الساعة. وإذا علمْنا أنّ هذا الكتاب قد تُرجم إلى اللاتينية في زمن متقدّم جدًا على النهضة الحديثة ، يمكن أن نقف على فضل هذا الكتاب على علْم المناظر وعلم البصريات في أوربا. ولقد أفاد (روجر بيكون) من هذا الكتاب ، وصرّح بذلك. وأفاد منه أيضًا (جون بيكام) ١٢٩١م ، وصرّح بذلك. ولكن ممّا يدعو إلى الدهشة حقًا : أن عالِمًا متقدمًا كابن الهيثم قد راودته فكرة بناء السد العالي في مصر للانتفاع بماء النيل قبل تنفيذ هذه الفكرة في وقتنا الحاضر. هذه أمور ينبغي أن يعلمها الشباب ، لنُعرِّف غيرنا بفضلنا في العصور

التي كانوا يعيشون فيها في ظلمة وفي جهالة وفي شبكة من الخرافات العقلية.

من الذي يستطيع أن يُنكر فضل العرب في الطب، بعد أن ذاعت شهرة الأطباء العرب في أوربا كلها عبر العصور الوسطى؟ لقد عرف العرب الطبّ والتشريح، وعلوم الصيدلة وعلوم البيطرة، في وقت مبكّر من التاريخ، ابتداء من الكندي والرازي وعليٍّ بن العباس، كما ظهرت هذه المؤلّفات الطبية في الفكر العربي. ولعل كتاب "القانون" لابن سينا أشهر من أن يشار إليه؛ فلقد اعتبرتْه الجامعات الأوربية أهمّ مرجع في الطب في العصور الوسطى. فكان يدرّس في مدارسها وفي جامعاتها على حدّ سواء. ولا تعجبْ إذا عرفتَ أن شخصية ابن سينا نُصبت له التماثيل في مداخل الجامعات الأوربية، وما زال موجودًا إلى هذه اللحظة. ولقد ترجمت إلى اللاتينية كثيرٌ من هذه الكتب، ولم تكد تظهر طبعة كتاب "القانون" لابن سينا حتى لقِي الكتاب شهرة كبيرة، فنُقل إلى جميع اللهجات المحلية في أوربا، واعترفوا به كمرجع أساسي في الطب في جامعة (بولونا) في القرن الثالث عشر، حيث أنشئت كلية العلوم في تلك الجامعة. ومنذ ذلك التاريخ بدأ "قانون" ابن سينا يغزو جامعات أوربا، وانجلترا، واسكتلندا على وجه الخصوص. وأصبح هذا الكتاب يمثّل تقريبًا -كما صرح بذلك علماء الحضارة- نصف المقرّرات الطبية حتى أواخر القرن الخامس عشر.

ومن المعروف فضل ابن النّفيس، وفضل علي بن ربَن الطبري، وفضل ابن رضوان في مصر. كل هؤلاء وأولئك كانوا أطباء، وعلماء تشريح، وعلماء صيدلة وبيطرة، ونُقلت نظرياتهم وآراؤهم إلى أوربا. ولا تعجب إذا كان ملوك أوربا يستدعون الأطباء العرب -خاصة أمثال: ابن رشد، والرازي، وابن سينا- لعلاجهم في بيوتهم في أوربا. هل بعد هذا يقال: إن العرب ليس لهم فضل في تاريخ الحضارة الإنسانية؟!

وكما أسهم العرب في العلوم الطبيعية وفي نهضتها في أوربا، أسهموا كذلك في فرع مهمّ جدًا في تاريخ العلم، وهو ما يُسمَّى بـ"علم المناهج" أو "مناهج البحث في العلوم"، وهذا الفرع من أحدث الدراسات المعاصرة والحديثة. ومن المعلوم أن مناهج البحث من العلوم التي ربما تختلف وجهات النظر حولها، ويختلف هذا العلم نفسه من مجال البحث في العلوم الطبيعية إلى مجال البحث في العلوم الإنسانية؛ حيث تختلف قواعد المنهج هنا عنه هناك، وإن كان بعض المفكرين يريد أن يطبِّق قواعد المنهج العلمي في العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية، وإن كان ذلك فيه شيء من الصعوبة كما يرى ذلك كثير من المفكِّرين.

مواقف علمية لبعض مفكِّري الحضارة الإسلامية

سوف أختار نموذجيْن من نماذج الفكر الإسلامي، أو علَميْن من أعلام الفكر الإسلامي كممثِّليْن للنهضة العربية في هذا الفرع من الفروع: علْم المناهج.

من المعروف تاريخيًا: أنّ الفلسفة اليونانية تتّخذ المنطق مدخلًا لها ومقدّمة لها، بمعنى: إذا أردت أن تقرأ في الفلسفة، فعليك أن تبدأ بقراءة المنطق لتعرف دلالة الألفاظ، ولتعرف القياس وأنواع القياس، وأشكال القياس، وتعرف ما يُسمّى بالحدّ أو التعريف: متى يكون التعريف جامعًا مانعًا؟ وما هي شروطه؟ إلى آخره...

باختصار شديد، جعلوا دراسة المنطقة مقدّمة طبيعية لدراسة الفلسفة؛ وهذا ما اتّفق عليه الفلاسفة قديمًا.

أ- ابن تيمية :

أراد ابن تيمية... وهذا هو النموذج الذي أختاره للإمام ابن تيمية بالذات، لماذا؟ لأنّ هذا الرجل قد ظُلم كثيرًا من قارئيه، سواء كان قرّاؤه محبِّين له أو كارهين له. فالذين أحبّوه ظلموه ظلمًا فادحًا حين اقتصروا في قراءتهم له على الجوانب الفقهية، وبعض فتاوى المناسبات، وأغفلوا تمامًا الجوانب المنهجية والجوانب العلمية في تراث ابن تيمية. أمّا الذين أبغضوه فقرؤوه قراءة ممزوجة بأحكام مُسبَقة؛ فكانت قراءتهم له قراءة مُغرضة، فلم يُنصفوه.

تراث هذا الرجل يَنطق بعقلية ناقدة من مستوى راقٍ جدًا. لقد تناول هذا الرجل في تراثه العقلي المنهج العلمي بوضوح كامل، وكان من أبرز القضايا التي تناولها بالنقد والتمحيص والتحليل: الفلسفة اليونانية، ومن أوائل ما تناوله في الفلسفة اليونانية: المنطق.

لقد هاجم ابن تيمية الفلسفة الأرسطية المتمثِّلة في تراث الفارابي وابن سينا، كما هاجم الغزالي والرازي في الجوانب التي تأثّروا فيها بهذا المفكِّر أيضًا. وفي منهجه النقدي لهؤلاء وأولئك، كان يوظِّف المنهج العلمي توظيفًا كاملًا. فكان يعتمد على الاستقراء الكامل لرأي مخالفيه في المشاكل الفلسفية المتعدّدة، فيجمع العناصر الفرعية لآرائهم كلّ على حِدة، ثم يربط بينها ويستنتج منها الحلول والأحكام التي يُصدرها على هؤلاء وأولئك. هذا المنهج سلَكه ابن تيمية في موقفه من الفلاسفة، ومن المتكلِّمين، ومن الصوفية.

لكن الذي يهمّنا هنا بالتحديد هو: موقف ابن تيمية من منطق (أرسطو) بالذات، لماذا؟ لأن هذا المنطق كانت تتعبّد به أوربا إلى العصور الوسطى، وكانوا يعتبرونه أزهى وأنضج ما أنتجته العقلية اليونانية، وفي نفس الوقت يعتبرون قراءته مقدّمة

ضرورية لكلّ من أراد أن يقرأ فلسفة (أرسطو)؛ لكن ابن تيمية كان له وجهة نظر أخرى في منطق (أرسطو) بصفة عامة، وخاصة في أهم مبحثَيْن لهذا المنطق، هما: مبحث الحدّ أو التعريف، ومبحث القياس.

نرى ابن تيمية في موقفه من منطق (أرسطو) بالذّات قد وضع كتابيْن مهميْن جدًا. هذان الكتابان هما: "الرد على المنطقيِّين"، والكتاب الآخَر أسماه: "نقْض منطق أرسطو". نقْض -بالضاد- بمعنى: هدْم منطق (أرسطو). وكشف ابن تيمية في هذيْن الكتابيْن عن قواعد منهجية كبرى، وجدناها مطبّقة تطبيقًا حرفيًّا فيما بعد لدى مفكِّري أوربا في القرن السابع عشر.

فعلى سبيل المثال: لقد نقض ابن تيمية الفكرة التي سادت في أوربا عصورًا طويلة وهي القائلة بأنّ منطق (أرسطو) هو الأداة أو المنهج العلمي الذي يجب تحصيله كشرط أساسي لكسب المعرفة -هكذا: المنهج. هو الأداة-، المعرفة في شتى مجالاتها، في مختلف فروع الدراسة. وبعد أن استقرأ ابن تيمية هذا المنطق وجد: أنّ الحاذقين -وهذه عبارة ابن تيمية، أيها الإخوة- في العلوم الطبيعية والطبية والفلَك والرياضيات قبل (أرسطو) لم يستعينوا بهذا المنطق، ولم يعرفوه ولم يوظِّفوه، حتى إنّ أبا الطب (أبقراط) له كلام في الطب مقبول من جميع الأطباء، ولم يستخدم هذا المنطق ولم يوظّف قضاياه ولم يتعرّف عليه. وقد وجدنا مصداق ذلك بالتجارب، ومع ذلك فإن أحدًا من هؤلاء العلماء لم يستخدم منطق (أرسطو)؛ فكيف يقال: إنّ هذا المنطق شرط ضروري لكسب المعرفة أو لتحصيل المعرفة؟!

نقطة أخرى انتقل إليها ابن تيمية حيث فطن إلى: أنّ منطق (أرسطو) ليس في الحقيقة إلا تحصيلاً لمعلومات موجودة في الذهن الإنساني؛ فهو لا يضيف علمًا

جديدًا أبدًا، بل يأخذ المعارف من العقل الإنساني ويعيد تكرارها. وأحسن ما يُقدِّمه المنطق: أنه يُستخدم في عرْض المعلومات التي نكون قد اكتسبناها من قبل؛ فهل أضاف هذا المنطق معلومات جديدة إلى شخص العارف، إلى شخص الإنسان؟ أبدًا.

ثم يقرِّر ابن تيمية: أنّ علماء الطب والحساب والنحو والهندسة وأهل العلوم المختلفة لم يستعن واحد منهم في مؤلّفاته بالحدود المنطقية، وأنّ القياس الأرسطي الذي وضعوه وحدّدوه لا يُعلم بمجرّده شيء من العلوم الكلية الثابتة في الخارج. ثم ينتهي ابن تيمية إلى تقرير حقيقة منطق (أرسطو) حيث يقول: "أما بعد، فإني كنت دائمًا أعلم أنّ المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي، ولا ينتفع به الغبي": هذا حُكم ابن تيمية على منطق (أرسطو). ثم يشرح كيف أن هذا المنطق لا يُضيف علمًا جديدًا إلى الشخص. فهو يوقف حركة التقدم العلمية، ولا يدعو إلى تقدّم العلوم، لأنّ جوهر منطق (أرسطو) القائم على ما يُسمَّى بالقياس، والقياس هذا له أشكال متعدِّدة. فإذا أخذنا قضية منطقية مثل: "كل الطّلبة ناجحون": هذه تسمَّى قضية كلية. هذه القضية الكلية إذا كانت صادقة فكيف أعلم أنّ هذه القضية صادقة في ذاتها: "كلّ الطّلبة ناجحون". لكي أتأكّد من صدْق هذه القضية، لا بد أن أستقرئ أفراد الطلاب فردًا فردًا طالبًا طالبًا: أسأل هذا وهذا وهذا هل نجحت؟ فيقول: نعم. هل نجحت؟ يقول: نعم. هل نجحت؟ يقول: نعم، لأصِل في النهاية إلى أن أحْكم على الجميع بهذا الحُكم: "كل الطلبة ناجحون". فإذا تخلّف واحد منهم لم يكن ناجحًا، فإنّ القضية الكلية لم تكن صادقة.

وهنا يطرح ابن تيمية سؤالًا يفنِّد به هذا القياس: هل صِدْق القضية الكلية القائلة بأنّ "كل الطلبة ناجحون" ذاتيّ فيها؟ أم متوقف على استقراء أفرادها؟ هذا هو

السؤال. في الحقيقة نجد أنّ صدْق القضية الكلية متوقّف على صدق القضايا الجزئية -قضايا الأفراد- ، فإذا تخلّف فرد واحد لم تكن القضية الكلية صادقة. ويخرج ابن تيمية من هذا التحليل إلى القول بأنّ صدق القضايا الكلية في منطق (أرسطو ليس) ذاتيًّا فيها، وإنما متوقّف على القضايا الجزئية. والنتيجة الموجودة في القياس، حين أقول: "كلّ الطلبة ناجحون"، ومحمد ناجح، ومحمد طالب، تكون النتيجة إذن: "محمد ناجح"؛ إذن نجاح محمد هذا هل هو علم جديد؟ هل هي إضافة علمية إلى العقل؟ أم أنّ نجاح محمد متضمّن في قولنا: "كل الطلبة ناجحون"؟ بالتأكيد حين أقول: "كل الطلبة ناجحون" فإن هذا الحكم يشمل فيما يشمل محمداً؛ إذن كأن النتيجة التي أخرُج منها في هذا القياس لا تضيف علمًا جديدًا؛ ولذلك قال ابن تيمية: إن منطق (أرسطو) منطق عقيم لا يضيف علمًا جديدًا، وإنما يُكرّر معلومات مختزنة في الذهن. فإذا صدقت القضايا الجزئية صدقت القضية الكلية، وصدْق القضية الكلية ليس ذاتيًّا فيها، وإنما هو مستمد من القضية الجزئية؛ ولذلك قال: إن هذا المنطق لا يستفيد منه الذكي.

موقف ابن تيمية من هذا المنطق تُرجم إلى اللغات اللاتينية، ووقف -خاصة فلاسفة الشك (ديفيد هيوم)، (جون ستيوارت ميل)- وقفوا على موقف ابن تيمية، أو فهموا موقف ابن تيمية من منطق (أرسطو)، وعرفوا ما فيه، وبدؤوا يوجِّهون سهام النقد إلى منطق (أرسطو) بعد أن وقفوا على رأي ابن تيمية في هذا المنطق، حتى إننا لنجد -كما صرَّح بذلك بعض من أرَّخوا لتاريخ الفكر العربي والفكر الفلسفي-. قالوا: إننا نجد قضايا ابن تيمية وربما أحيانًا ألفاظ ابن تيمية مكتوبة بحروف لاتينية عند فلاسفة الشك. وبدأت حركة النقد لمنطق (أرسطو) من هذا التاريخ، حيث تخلّصت أوربا من سيطرة منطق (أرسطو) على فكرها الذي كانت تتعبّد به، وبدأت تظهر في الحضارة الأوربية وفي تاريخ الفلسفة

الأوربية أسماء لمنطق جديد، كالمنطق الرياضي، المنطق الشكلي، المنطق الصُّوري، على حساب أو على أنقاض منطق (أرسطو).

هذا موقف لفيلسوف أو لمفكَّر ربما لا يُعرف ابن تيمية في دوائر الفكر الإسلامي إلاّ أنه مفكِّر دينيّ أو مفكِّر سلفيّ. وللأسف الشديد، تغافل الشباب أو تغافل المسلمون عن قراءة هذا الجانب في تراث ابن تيمية.

إذا تركنا موقف ابن تيمية من منطق (أرسطو) لِنرى ما يقول (ديكارت) في القرن السابع عشر عن هذا المنطق، لم نجد لديه جديدًا أكثر ممّا قاله ابن تيمية قبل ذلك بثلاثة قرون؛ لقد قال (ديكارت): إن القياس يُستخدم بالأحرى لكي يُفسِّر المرء للآخَرين الأشياء التي يعلمونها، بدلًا من أن يكشف لهم عن معلومات يجهلونها، أو يكشف لهم عن تلك التي يجهلونها؛ ولذلك فمن واجب المفكِّرين أن يقلعوا عن استخدام القياس على النحو الذي كان يفعله أتباع (أرسطو) في القرن السابع عشر. هذا ما قاله (ديكارت) عن منطق (أرسطو) بعد ما قاله ابن تيمية بثلاثة قرون عن هذا المنطق. و(أوجست كونت) عالِم الاجتماع المشهور كان يردِّد ما قاله ابن تيمية عن منطق (أرسطو).

أما في القرن الثالث عشر الذي كانت علوم العرب ما زالت تغزو فيه أوربا، فإننا نجد مفكرًا كبيرًا وعالِماً من علماء الرياضيات مثل: (روجر بيكون) يدعو معاصريه ألاّ يصبّوا لعناتهم على علوم الرياضة، ولا علوم الطبيعة، ولا الملاحظات والتجارب، بدعوى أنها علوم عربية إسلامية. أخي المستمع الكريم، اسمع هذه العبارة مرة ثانية ماذا يقول (روجر بيكون)؟ إنه يدعو العلماء في عصره، يدعو معاصريه وتلامذته ألاّ يصبّوا لعناتهم على الرياضة، ولا على علوم الطبيعة، والملاحظات والتجارب. لماذا يلعنونها؟ بدعوى أنها علوم عربية وإسلامية. بل عليهم أن يفسحوا المجال لها، إيمانًا

بأن ذلك هو الطريق إلى منهج جديد تنهض به أوربا. هذا ما قاله (روجر بيكون) في القرن الثالث عشر عن العلوم العربية والإسلامية التي انتقلت إلى أوربا. وعلينا أن نعلم: أن (روجر بيكون) هذا هو الذي لقبه (رينان) بأنه الأمير الحقيقي للفكر الأوربي، عالِم الرياضيات المشهور. هذا ما صرّح به (روجر بيكون) عن العلم العربي والعلوم الإسلامية، وموقف أوربا من هذه العلوم حين كانوا يلعنونها بدعوى أنها علوم عربية.

ب- ابن خلدون:

إذا انتقلنا إلى عالِم آخَر كابن خلدون مثلًا، فبالإضافة إلى أنّ الكلّ يعلم أنّ ابن خلدون أوّل مَن أسس علْم الاجتماع، أسّسه على منهج علمي سليم قائم على الاستقراء، استقراء أحوال البلاد، ظروف البلاد الطبيعية والثقافية والحضارية، فإن ابن خلدون بالإضافة إلى ذلك قد اهتدى إلى أنّ هناك نوعيْن من الاستقراء: أحدهما أسماه: استقراء فطري، والآخّر أطلق عليه اسم: استقراء علْمي. وهذه الفكرة نفسها قد وجدناها مطبّقة تطبيقًا حرفيًا عند (كلود برنارد) في القرن التاسع عشر.

وشرح كلّ من ابن خلدون و (كلود برنارد) هذيْن النوعيْن من الاستقراء شرحًا يكاد يكون حرفيًّا عند هذيْن العالِمين. فرغم اختلاف الاستقراء الفطري عن الاستقراء العلمي كما هو معروف، إلا أنّ كلاً من هذيْن النوعيْن من الاستقراء يُعتبر منهجًا صحيحًا لكسب المعلومات الجديدة التي لا يمكن الوصول إليها عن طريق القياس الأرسطي.

يرى ابن خلدون -وهو يشرح الاستقراء الفطري- : أن هذا الاستقراء عبارة عن المعاني التي نستخدمها في حياتنا العملية، دون أن نشعر بها أو نحسّ بأنها إحدى خطوات المنهج العلمي، أو نشعر بأنها من المعاني التي اكتسبناها عن طريق الخبرة الزمنية. وهذه المعاني لا تبعد عن الشعور، ولا نلتفت إليها بشيء من التعمق، بل كلّها تدرَك بالتجربة وبها تستفاد، التي هي عبارة عن الخبرة الزمنية التي يكتسبها الواحد منا، أو التي عبّر عنها المثل المصري المعروف: "أكبر منك بيوم، يعرف أكثر منك بسنة". الخبرة الزمنية المكتسبة عند الإنسان هي عبارة عن معانٍ جزئية تتعلّق بالمحسوسات، وصدْقها وكذبها يظهر قريبًا من الواقع الذي نعيش فيه. وعن طريق تكرار هذه المواقف يومًا بعد يوم، نكوِّن لأنفسنا معارف يقينية، دون أن نحسّ بها أو دون أن نقصدها أو نسعى إليها. هذا يسميه ابن خلدون بالقياس الفطري.

وفي هذا النص الذي أشار إليه ابن خلدون هو نفس الخطوات تقريبًا التي نجدها مطبّقة في المنهج الاستقرائي الذي أشار إليه (كلود برنارد) وهو يُبيِّن لنا خطوات المنهج الاستقرائي الفطري؛ حيث يجمع المرء الوقائع الجزئية عن طريق التجارب اليومية، ثم يضع فروضًا تكاد تكون غير شعورية، ثم يتحقّق من صدْقها أو كذبها بالواقع المعيش، ليس عن طريق القصد وإنما عن طريق المعايشة اليومية. وما سمّاه ابن خلدون بالاستقراء الفطري هذا هو ما أطلق عليه (كلود برنارد) أو ما سمّاه (كلود برنارد) بالخبرة العملية غير الشعورية، التي يكتسبها المرء بمباشرة الأشياء في حياته اليومية، ومع ذلك فمن الضروري أن تكون هذه المعرفة المكتسبة بهذا الطريق مصحوبة بلون من التفكير الغامض الذي يحسّه المرء أحيانًا، ولا

يحسّ به أحيانًا أخرى. هذه خطوات للمنهج الاستقرائي الفطري الذي وجدناه عند ابن خلدون وعند (كلود برنارد). كل ما في الأمر: أن ابن خلدون أسماه: استقراءً فطريًّا، و(كلود برنارد) أسماه: خبرة عملية غير شعورية، نفس المعنى عند الاثنيْن.

هذه بعض النماذج التي طرحْتُها على حضراتكم من مواقف علمية لبعض مفكِّري الحضارة الإسلامية والحضارة العربية. وهناك الكثير والكثير التي تمتلئ بها بطون الكتب عن فضل العرب على الحضارة الأوربية المعاصرة. وينبغي أن نعلم: أن انتقال الحضارة العربية والإسلامية إلى أوربا ارتبطت به النهضة الأوربية المعاصرة.

ومن المفيد أن نعلم: أنّ مفكِّرًا أو فيلسوفًا كبيرًا كابن رشد كانت أوربا تسمِّي علْمه بالعلْم الشيطاني. وهو كان طبيبًا، وعالِم فلَك، وفيلسوفًا، ومفكرًا كبيرًا. وترجمة الحضارة الإسلامية إلى اللغات اللاتينية المختلفة في العصور الوسطى كان بداية طبيعية لنهضة أوربية يعيش العالَم كلّه هذه النهضة ويَجنى ثمرتها إلى الآن؛ فمن الجحود أن نُنكر فضل العرب. وليس من المنهج العلمي ولا من الإنصاف: أن نُنكر أثر الحضارة الإسلامية والحضارة العربية على أوربا كلّها. وإذا وجدنا من يردِّد هذه الأمور، أو يكرر ذلك من المستشرقين، فينبغي أن نعلم أنّ هناك أيضًا نوعًا آخَر من المستشرقين فضّلوا الإنصاف، وفضّلوا أن يقرؤوا التراث العربي بعين موضوعية وبروح علمية جادة، فأنصفوا العرب، وأنصفوا تاريخ المسلمين، وأنصفوا الحضارة الإسلامية ممّا شانها من دعاوى هؤلاء المستشرقين.

علاقـة الاستـشراق بالاستعمار

أنتقل بعد ذلك إلى سؤال مهم جدًّا: هل للاستشراق علاقة بالاستعمار، الاستعمار العسكري؟ نحن نتناول الاستشراق الآن على أنه ظاهرة من ظواهر الغزو الفكري، لكن هل لهذا اللون من الغزو الفكري علاقة بالغزو العسكري في العالم العربي والعالم الإسلامي؟ هذا ما أريد أن أوضّحه لحضراتكم الآن -إن شاء الله تعالى-. هذا سؤال مهم جدًا: هل للاستشراق علاقة بالاستعمار العسكري؟

الإجابة على هذا السؤال تقتضي منّا أن نتعرّف على الآثار السيئة التي ظهرت في العالَم العربي والعالم الإسلامي خاصة على أقلام وفي كتابات وفي أعمال بعض المفكرين الذين وقعوا تحت سيطرة النفوذ الاستشراقي، إمّا انبهارًا بهذه الظاهرة، وترتب على هذا الانبهار: انتقال أو سفَر أو هجرة أو ابتعاث بعض الشخصيات إلى الدول الأوربية ليتتلمذوا على يد المستشرقين، أو استقدام بعض المستشرقين إلى بعض الجامعات العربية والإسلامية ليقوموا بالتعليم فيها، كما حدث مثلًا في الجامعات المصرية في أوّل عهدها حين تأسّست في مطلع القرن العشرين، فكان القائمون على التدريس فيها معظمُهم من المستشرقين، وتربّى على أيديهم ثلة كبيرة أو نفر كبير من الذين حملوا الأقلام فيما بعد، وتحملوا عن المستشرقين عبء الدعوة إلى الأفكار التي حملها الاستشراق، وروّج لها هؤلاء في بلادهم. فالاستشراق نحن نعتبره من أهم الوسائل التي مهّدت للاستعمار العسكري، وغزو الشرق أولًا: غزوًا ثقافيًّا فكريًّا، وثانيًا: غزوًا عسكريًّا استعماريًّا؛ لأن غزو العقول أو غسيل العقول من الأفكار التي تَدين بها وتعتقد صحتها، وإحلال أفكار جديدة وثقافة جديدة ورؤى جديدة يمهِّد لنشر الاستعمار

العسكري، أو يجعل الأرض أو البيئة صالحة لتقبّل الاستعمار العسكري، ومعاونته في كثير من الأمور.

ومن المعلوم -وأصبح هذا حقيقة لا تحتاج إلى أدلّة ولا براهين-: أنّ الاستعمار الحديث يعتمد على المستشرقين بصورة فعالة في دراسة نفسية الشعوب، ودراسة عادات الشعوب، وتقاليد الشعوب، وما هي أفضل الوسائل المتاحة للسيطرة على الشعوب بأقلّ قدْر ممكن من التكاليف. والذي يتابع أحداث القرن التاسع عشر والقرن العشرين -ولعل هذيْن القرنيْن هما أكثر القرون في النشاط الاستعماري الحديث- لعلّ من يتابع علاقة الشرق بالغرب في هذيْن القرنيْن يعلم تمامًا عُمق الصلة القويّة بين الاستعمار والاستشراق؛ ومن هنا: بماذا نفسِّر أننا نجد في كثير من سفارات الدول الاستعمارية مستشرقين عاملين بها؟ إمّا مستشارًا ثقافيًّا، أو مستشارًا إعلاميًّا، أو مستشارًا هندسيًّا، أو... أو... إلى آخره.

هؤلاء المستشرقون يقع على عاتقهم مهمّة الاتصال بالعقول المفكِّرة في البلاد التي يعيشون فيها، والتي يريدون السيطرة عليها ثقافيًّا أو عسكريًّا. وكذلك عن طريق هؤلاء المستشارين يتمّ الاتصال بكبار العاملين في المناصب القيادية في الدولة، وغالبًا ما يركزون على المناصب القيادية في مجالات الثقافة، في مجالات الإعلام، في مجالات التعليم العام، في مجالات التعليم العالي والجامعي، وأيضًا في مراكز البحوث. ولا تنقصهم الوسائل التي يفضِّلونها في محاولة احتواء هذه الشخصيات، إمّا عن طريق الصداقة الشخصية، أو الدعوات واستدعاء هؤلاء في أعمال ثقافية يقدِّمون لهم خلالها إتاوات مالية مجزية، أو تقديم الخبرة لهم، أو محاولة استضافتهم فترة زمنية معيّنة في بلاد أوربا، أو... أو... إلى آخره.

ولعلَّ آخِر ما وصلوا إليه هو: توظيف المرأة في الاستيلاء على بعض الشخصيات التي يريدونها.

نعم هذه وقائع معروفة لكلّ مَن تتبّع هذه القضية. وعن طريق هذه الشخصيات يستطيعون تنفيذ الخطط التي يريدونها في غزو عقول البلاد التي يريدون السيطرة عليها فكريًّا، ثم عسكريًّا إذا اقتضى الأمر. ولقد استطاع الاستعمار الحديث أن يغزو معظم البلاد الإسلامية عبر هذا الطريق، كما استطاع أن ينفِّذ خططه في السيطرة على عقول كثير من المفكرين في بلادهم، ليكون هؤلاء المفكّرون هم الأداة الطَّيِّعة لتنفيذ برامج الاستعمار في هذه البلاد. وبلغ الأمر في ذلك حدًّا خطيرًا جدًّا، حتى إنّ كثيرًا من المشتغلين بالثقافة في معظم البلاد العربية والإسلامية جعلوا أنفسهم بمثابة وكلاء عن المستشرقين في الترويج لأفكارهم، والدعوة إلى تبنِّي آرائهم في الفكر الإسلامي وفي قضاياه.

فهذا مندوب عن (ماركس) والشيوعية يروِّج لها. وذاك مندوب عن الوضعية والوضعيِّين يروّج لأفكارهم. وثالثهم مندوب عن الوجودية والوجوديِّين يروِّج لها في بعض البلاد. وآخَر يدعو إلى القول بتأنيس الإله، أو تأليه الإنسان، أو أنسنة الألوهية، إلى آخر هذه الأمور التي ردّدها المستشرقون في القرن التاسع عشر، ووجدوا في البلاد العربية مَن يحمل عبئها نيابة عنهم في القرن العشرين. وللأسف الشديد، امتلأت المؤسسات الثقافية في كثير من البلاد العربية والإسلامية بوكلاء معتمدين لتوزيع الفكر الاستشراقي على المؤسسات العربية، وشحذ الوجدان العربي بهذه المفاهيم تحت مقولات مضللة كالتنوير والتقدمية والنهضوية، في مقابل وصم الاتجاه الإسلامي

الأصيل بالتُّهم التي تَنفِّر أتباعه من الانتماء إليه كالرجعيِّين والمتخلِّفين والظلاميِّين... إلى آخره. من يتابع الحركة الثقافية في العالم العربي يدرك هذا الموقف جيدًا.

ولقد عمَد هؤلاء إلى إثارة الفتنة حول بعض القضايا الخلافية في الفكر الإسلامي، منهج الاصطياد في الماء العكر. أثاروا فتنًا كبيرة عن طريق إثارة قضايا هي أصلًا قضايا خلافية، كالْتفافهم حول قضايا المرأة في الإسلام: قضيّة الطلاق، قضية تعدّد الزوجات، قضية العصمة هل هي في يد الرجل أو المرأة؟ قضية القوامة. وأثاروا حول موضوعات المرأة وما يخصّها خلافات كثيرة جدًّا مزّقوا بها شمْل الأمّة، وفرّقوا بها الصف العربي، وكلمة العلماء. ومن وجهة نظري أنا شخصيًا، كانت هذه إحدى الوسائل التي شغلوا بها المفكِّرين عن عظائم الأمور؛ لأنها لا تمثّل فكرة جوهرية في الفكر الإسلامي ولا في الأصول العقائدية، لأنها كلها آراء موجودة في الفقه الإسلامي؛ لكن شغلوا بها المفكِّرين عن التفكير والعمل لعظائم الأمور التي تمسّ حياة الأمّة ونهضة الأمّة.

لقد نقلوا إلى العالَم الإسلامي مشكلات دخيلة على الفكر الإسلامي، لا وجود لها أصلًا في الإسلام، وإنما هي مشكلات موجودة في أوربا، نبتَت في أوربا وترعرعت في أوربا. وكانت أرضيتها هناك أرضية خصبة بحُكم ثقافة أوربا في العصور الوسطى، وبحكم الديانة التي كانت تدين بها في العصور الوسطى؛ ولكنهم نقلوها إلى العالم الإسلامي، وشغل المسلمون أنفسهم بهذه المشكلات الدخيلة، وبالبحث عن حلول لها، وفي واقع الأمر لم تكن هذه المشكلات أصلية في البيئة الإسلامية ولا في الفكر الإسلامي، لكن استوردوا المشكلة واستوردوا لها حلًا أوربيًا أيضًا. وفي الواقع: المشكلة ليست إسلامية، ولا الحل المستورد لها من أوربا يناسب الفكر الإسلامي.

وكان هذا مجالًا واسعًا للفرقة والتعصب والتحزب للرأي ضد الرأي الآخَر، وما زال المسلمون يكتوون بنار هذه الفُرقة إلى الآن.

وكان من الآثار الخطيرة التي ترتّبت على إثارة هذه القضايا: أنّ فريقًا كبيرًا من المثقّفين العرب انقادوا وراء هذه الضجة، وأخذ البعض يتولّى نيابةً عن المستشرقين إثارة هذه الفتن بين صفوف المسلمين، ويتبنّى آراءهم ويدعو إلى الأخذ بأفكارهم. وبدلًا من أن يكون الخلاف دائرًا بين المسلمين كوحدة متماسكة والمستشرقين كجبهة مضادّة، انتقلت المعركة إلى أرض المسلمين أنفسهم، لتفرِّق صفوفهم وتمزِّق وحدتهم، فأصبحوا جبهات متعارضة بين مؤيِّد ومعارض، بين رافض للفكر الاستشراقي وداعٍ إليه. وهذه الفُرقة في الصف هي في ذاتها تمثِّل هدفًا وغاية سعى المستعمِر لتحقيقها خلال جهود المستشرقين. وكان شغل المسلمين بعضهم بعضًا حول هذه القضايا عاملًا مهمًا جدًّا بالنسبة للمستشرقين، وهدفًا وغاية قصدوا من ورائها فقط بداية تمزيق الصف لتحقيق مقولتهم "فرِّق تَسُد". وشغلوا بذلك العلماء عن التفكير في مستقبل الأمّة الذي يعبث به الاستعمار، وكان كل ذلك تحقيقًا لأهداف سعى المستشرقون من ورائها إلى السيطرة على عقول نخبة كبيرة من المشتغلين بالثقافة العربية في بلادنا.

وفي مطلع هذا القرن، زرع المستشرقون الترويج -وهذا يا إخواننا نموذج فقط للآثار السيئة التي ترتّبت على جهود المستشرقين، وعلى الخلافات التي أثاروها بين صفوف المسلمين-. كان مما أثاروه: تبنِّي ما يسمَّى بالفكر القومي، وأشاعوا وروّجوا لما يُسمّى بالقوميات. من المعلوم: أنّ الخلافة العثمانية كانت تمثِّل رمز وحدة المسلمين، وطالما كانت الخلافة الإسلامية قائمة كانت تمثل هاجسًا، وتمثِّل

رعبًا في صدور مفكِّري أوربا وساستها، ولكيّ يتخلّصوا من هذا الهاجس عملوا على إضعاف هذه الخلافة، وعلى تقويض أركانها، وبدؤوا ذلك بتوظيف أفكار المستشرقين في تفرقة الصف العربي، وكان ممّا أثاروه: الدعوة إلى القوميات، بدلًا من أن يكون الإسلام عامل وحدة للشعوب الإسلامية في شرق العالم وغرْبه، بذَروا بذور الفتنة، ونادَوْا بالقوميات بديلًا عن العقيدة الإسلامية. وتولّى إثم هذه القضية في عالمنا العربي: إخواننا في بيروت -خاصة النصارى منهم- متأثِّرين في ذلك بدعوة مصطفى كمال أتاتورك الذي ينتمي إلى يهود الدونمة، والذي تربّى في نوادي أوربا، وجاء بفكرته الملعونة، فكرة القومية الطورانية، التي أراد أن يُحلّها مكان الديانة الإسلامية في الخلافة العثمانية في تركيا بالذات. واستطاع أن يجمع حولَه مجموعة من مفكِّري تركيا الذين انقادوا لفكرته، وتشبعوا بالفكر القومي، وكانوا يسمَّوْن بـ"جمعية الاتحاد والترقي"، واستطاع كمال أتاتورك بمعاونة "جمعية الاتحاد والترقي" أن يعمل على تقويض الخلافة العثمانية. وبمجرد أن انفرط عقد هذه الخلافة، بدأ الاستعمار يستولي على العالَم الإسلامي قطرًا قطرًا تحقيقًا لهدفه: "فرِّق تَسُد".

الاستشراق (٥)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	فكرة التآمر على إسقاط الخلافة الإسلامية	١٦٩
العنصر الثاني :	بعض النماذج التي تبنت الفكر الاستشراقي	١٧٥
العنصر الثالث :	كتاب علي عبد الرازق: "الإسلام وأصول الحكم"	١٧٩
العنصر الرابع :	أساليب المستشرقين في محاربة لغة القرآن	١٨٧
العنصر الخامس :	المطالبة بإلغاء الإعراب	١٩٣
العنصر السادس :	موقف أوربا من المسيحية	١٩٥

فكرة التآمر على إسقاط الخلافة الإسلامية

هكذا تبيّن لنا أنّ من آثار العلاقة المتبادلة بين نشاط المستشرقين والاستعمار العسكري: فكرة التآمر على إسقاط الخلافة العثمانية. وقد تعاون على إسقاط هذه الخلافة فكْرُ المستشرقين وسيفُ المستعمرين معًا. فكْر الاستشراق الذي خطّط ودبّر ووضع الكتب، وحاك المؤامرات ودسّ الدسائس، واستعان في تدبيره وكيده للخلافة العثمانية بكلِّ ما أوتي من علاقات اجتماعية وثقافية بالفكر الماسوني العالمي، وبالفكر الصهيوني العالمي، وأيضًا بالنشاط اليهودي الذي كان قد اشتدّ ونشط في نهاية القرن التاسع عشر.

أودّ أن أوضِّح لكم هنا: بعض النقاط التي هي على جانب كبير من الأهمية، لنتعرّف على العلاقة المتبادَلة بين مصلحة الاستعمار العسكري في تحقيق أهدافه، وبين النشاط الاستشراقي الذي اشتدّ عُوده في القرن التاسع عشر، واشتدّت هجماته، وظهرت آثاره واضحة في بعض البلاد العربية والإسلامية؛ لأن إسقاط الخلافة العثمانية لم تكن مصادفة، وإنما كانت نتيجة طبيعية لتخطيط طويل امتد ربما طيلة القرن التاسع عشر، واشتد عوده في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ حتى إننا وجدنا أنّ كثيرًا من مفكِّري أوربا اجتمعوا وخطّطوا، ووضعوا المؤلّفات والكتب، وبحثوا البحوث لكيفية إسقاط الخلافة العثمانية. وتعاونوا على ذلك بالمنهج الماسوني العالمي، وبالأيدي الصهيونية ونشاطها الشديد في أوربا، ونوادي أوربا بالذات؛ حتى إننا وجدنا أن هناك مائة مشروع أوربي تعاوَن في وضْعه المستشرقون في أوربا شرقًا وغربًا: مائة مشروع لإسقاط الخلافة العثمانية.

ولو تأمّلنا هذه المشاريع، نجدها تحاول أن تستعين في تنفيذ مخطّطاتها بكلّ ما تستطيع من وسائل أخلاقية، أو غير أخلاقية. وكان مِن أظهر وسائِلها: الاتّهامات الموجّهة اللاأخلاقية لبعض خلفاء الخلافة العثمانية، وإشاعة أكذوبة أنّ الخلافة العثمانية أصبحت كالرجل المريض. وشاع هذا الوصف القميء بين أقطار العالم العربي والعالم الإسلامي. ثم روّجوا لفكرة أنّ الخلافة العثمانية ما هي إلا استعمار تركي للعالم العربي والعالم الإسلامي، وإعمالًا لمبدإ الحرية ينبغي أن يتخلّص العالم العربي والعالم الإسلامي ممّا أطلقوا عليه اسم الاستعمار التركي، أو الاستعمار العثماني. وأظنّ أن هذه العدوى قد انتشرت وشاعت، بل دخلت بعض المناهج الدراسية في كثير من أقطار العالم العربي، وأصبح تاريخ المنطقة يُدرس لأبنائنا في مدارسنا الابتدائية والإعدادية والثانوية وربما في بعض الجامعات، على أنّ العلاقة المتبادَلة بين الخلافة العثمانية التي تمثِّل رمز وحدة المسلمين وبين الأقطار العربية التي تنضمّ تحت لوائها هي: علاقة استعمارية.

ودرس الشباب هذه الفكرة: فكرة أنّ العالم العربي مستعمَر استعمارًا عثمانيًّا، ولكي يكون حرًّا لا بد من التخلص من الاستعمار التركي والاستعمار العثماني.

وبدأت شعوب المنطقة تتأثّر بهذه الأكذوبة، واستغلّت فكرة القوميات التي أشاعها وعمل على إشاعتها يهود الدونمة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، وتولّى إثمها أيضًا بعض نصارى لبنان وبيروت، وبعض العلمانيِّين في البلاد العربية والإسلامية، وبعد أن كان العالم العربي يَدين برمز الوحدة للدولة العثمانية والخلافة الإسلامية بدأت تظهر في الأقطار الإسلامية فكرة العصبية القومية؛ فنشأت فكرة القومية الآشورية، والبابلية، والفرعونية، والبربرية، وأصبح أبناء

كـل قوميـة يتعـصّبون لقـوميّتهم، ويتنـادون فيمـا بيـنهم بـضرورة التحـرر مـن الاستعمار العثماني، متأثرين في ذلـك بـأن الخلافـة العثمانيـة مـا هـي إلا استعمار ينبغي أن يتخلّصوا منه.

وفي هـذه الفـترة كـان الاسـتعمار العـسكري نـشطاً نـشاطًا كـبيرًا، وبـدأت فرنـسا وبريطانيا بالـذات تـستغلاّن ضـعف الخلافـة العثمانيـة في أواخـر أيامهـا، وتـستغلان أيضًا الترويج للفكر القومي. وبدأت كلّ دولة منهما تضع يدَها على ما تـستطيع مـن التّرِكة التي خلّفتها الخلافة العثمانية. فوجدنا بريطانيا وضعَتْ يدَها على الأردن، والعـراق، ومـصر، وفلسطين. وبـدأت فرنـسا تـضع يـدها عـلى سـوريا، ولبنـان، ودول شمال أفريقيا: تونس والجزائر. وإيطاليا احتلّـت ليبيا. وتواطؤوا فيما بينهم على معاهـدة لتقسيم هـذه التركـة أسموهـا في التـاريخ المعاصر بمعاهـدة (سـايكس بيكو) التي تم بمقتضاها تقسيم هذه التركة العثمانية فيما بينهم، مستعينين في ذلك بنشر الأفكار التي روّجوا لها لكي تساعدهم الـشعوب على ضرورة التخلص من الخلافة العثمانية تحت مسمّى التخلص من الاستعمار العثماني.

وفي هـذه الأثنـاء، كانـت الأفكـار الـتي روّج لهـا المستشرقون تعمـل عملـها في المنطقة، الأفكار الـتي تنال من تـاريخ المسلمين وحـضارة المسلمين من جانـب، والتي تـدعو إلى وجـوب التأسِّي والتأثر بوجوب الاقتداء بالحـضارة الأوربيـة في جميع مناحيها من جانب آخَر.

إن هذه الفترة التي نحن بـصددها الآن يمكـن أن تُـسمّى بمعنـى مـن المعـاني: الفـترة التي جنَى الاسـتعمار العـسكري فيهـا ثمـرة جهـود الغـزو الفكـري الـتي نهـض بهـا الاستـشراق في القـرنين الثـامن عـشر والتاسـع عـشر؛ حيـث بـات العـالم العربـي ومعظم البلاد الإسلامية واقعة تحت الاستعمار العسكري قطرًا قطرًا.

انطلاقًا من هذا، بدأت كلّ دولة استعمارية تفرض على القطر الذي تحتلّه ما تشاء من مناهج تربوية، وإعلام، وثقافة، وعادات، وتقاليد، وفي نفس الوقت تحاول أن تخلِّص هذه الشعوب ممّا تسميه المواريث القديمة، وهي تعني بذلك: الإسلام، والفكر الإسلامي، والحضارة العربية، والحضارة الإسلامية -من جانب آخَر.

لقد ظلّت الخلافة الإسلامية رمزًا لوحدة المسلمين في جميع أقطار العالَم الإسلامي، وكانت تمثِّل هاجس خوف لكل بلاد أوربا، حتى إننا قرأنا على حضراتكم ما صرّح به وزير خارجية فرنسا في مطلع القرن العشرين (هانوتو) حين صرّح بأنّ فرنسا باتت في كبد الإسلام، وفي قلبه، وأنّ البحر الأبيض المتوسط أصبح "بحيرة إسلامية". وأخذ يحفز دول أوربا لضرورة التخلّص من الخلافة العثمانية، حتى جاء عام ١٩٢٤م. وفي أوائل شهر مارس بالذات، ألغى مصطفى كمال أتاتورك رسميًّا الخلافة العثمانية في تركيا، وكان ذلك كله قد تمّ في ظروف سياسية هيّأت لها المبررات والأوامر والخطط التي كان حاكها المستشرقون، وأعطوها ليد الاستعمار العسكري ليقوم بتنفيذها كورقة عمل واجبة التنفيذ.

وبدأ مصطفى كمال أتاتورك ينفِّذ المخطّط الذي يريده في تركيا: فألْغى اللغة العربية إلغاءً كاملًا، واستبدل بحروفها حروفاً لاتينية، وألغى المدارس الدينية، وألغى كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم، وحوّل بعض المساجد إلى مسارح ومؤسسات أخرى غير دور للعبادة، وأعلن أن تركيا قوميّتها طورانية، لا علاقة لها لا بالإسلام ولا بالعالم العربي. وظلت تركيا من هذا التاريخ تلهث وراء أوربا لتلحق بها، ولتنتظم في عقدها، ومازالت هذه القضية موضع خلاف بين

تركيا المعاصرة، وبين دول أوربا إلى الآن، ولم تقبلها أوربا لكي تكون واحدة منها.

لعل العالم الإسلامي قد استقبل سقوط الخلافة بحزن شديد، وألَم ومرارة؛ لأنها كانت تمثِّل لهم رمز الوحدة، وكانت تمثِّل لهم التاج العظيم الذي توارثوه أكثر من ألْف عام. وكان وجود الخلافة في بلاد المسلمين يمثِّل بالنسبة لأوربا عوامل ينبغي أن يتخلّصوا منها. كانت تمثِّل لهم ما يمكن أن نسمِّيه: أمانة، علّة. كيف يبرؤون منها؟ لماذا؟ لأن بقاء الخلافة العثمانية كانت تمثِّل في نظر أوربا أنّ هناك نظامًا سياسيًّا يعمل على جمْع شمل المسلمين في شرق العالم وغرْبه، مهما كان واقع حال هذا النظام ضعيفاً أو قوياً، واحداً أو ممزقاً؛ المهمّ: كان يمثِّل رمز الوحدة الإسلامية، وهذا في حدّ ذاته كان يمثّل هدفًا للاستعمار العسكري ينبغي أن يتخلّصوا منه، وقد فعلوا ذلك.

الأمر الثاني: أنّ بقاء الخلافة الإسلامية أمام مفكِّري ومستعمري أوربا كان يمثِّل لهم دليلًا قويًّا على استمرار أثَر الحضارة الإسلامية، واستمرار التاريخ الإسلامي في ظلّ شعار سياسي موحّد يجمع شمْل الأمّة الإسلامية شرقها وغربها، وهم يريدون أن يقطعوا مسيرة هذا التاريخ، ويريدون أن يستأصلوا شأفته؛ فكان لا بدّ مِن هدْم هذه الخلافة.

ثالثًا: أنّ بقاء الخلافة كان يعني بالنسبة لأوربا بقاء الرمز الذي هزَمهم في كثير من المعارك، بقاء الرمز الذي يَمْثُل أمامهم، ويبرِّر للمسلمين في نفس الوقت ضرورة الدفاع عن بلاد المسلمين شرقًا وغربًا، يُبرِّر في نظر المسلمين من جانب: أن المسلم في شرق الأرض يسأل عنه المسلم في غرب الأرض، ويُبرِّر في نظر أوربا في نفس الوقت: أن بقاء الخلافة التي هزمَتْهم في كثير من

المعارك ينبغي أن يتخلّصوا منه. محوران: محور يمثِّل قوّة المسلمين، تنادي المسلمين فيما بينهم، لا بد مِن قطع همزة الوصل التي تربط بين المسلم في شرق الأرض والمسلم في غرب الأرض. وفي نفس الوقت، ضرورة التخلص من هذا الرمز الذي يمثِّل هزيمة أوربا في كثير من المعارك.

وهناك أمْر آخَر: أنّ بقاء الخلافة كان يُمثِّل في نظر أوربا: أنه يقضي في أدنى الحدود الرمزية بألاّ تقوم بين البلاد الأوربية حواجز مصطنعة، خاصة إذا كانت هذه الحواجز تمثِّل بلادًا يؤذَّن فيها بـ"لا إله إلا الله، محمد رسول الله". فقد كانت البلاد التابعة للخلافة العثمانية تَقْسم أوربا شرقًا وغربًا، وكانت البلاد الأوربية الشرقية في معظمها خاضعة للخلافة العثمانية. ولعلّ المسلمين لم يتنبهوا إلى أهمية هذه القضية إلاّ بعد أن سمعوا عن حروب البوسنة والهرسك. والشيشان هذه البلاد التي كانت خاضعة للحُكم وللوحدة وللخلافة العثمانية، كانت تمثِّل في نظر أوربا أنها شرق أوربا الجغرافي، ولا بد أن تعود إلى أحضان أوربا الغربية.

كل هذه الهواجس كانت تعمل أوربا جاهدة على التخلص منها، إلى أن جاء مارس ١٩٢٤م، وأُعلن رسميًا إسقاط الخلافة العثمانية. وبمجرّد أن سقطت الخلافة رسميًا، بدأ النشاط الثقافي الذي مهّد له الاستشراق يظهر على السطح. لماذا؟ لأنه أصبح في حماية الاستعمار العسكري.

فبريطانيا -كما قلنا- وضعَتْ يدها على مصر، والسودان، والعراق، والأردن. وبدأ النشاط الثقافي الذي بشّر به الاستشراق في هذه البلاد ينشط ويعمل عملَه تحت حماية الاستعمار العسكري في هذه البلاد. وفرنسا -كما قلنا- وضعَتْ يدها على لبنان، وسوريا، وتونس، والجزائر. وبدأ النشاط الثقافي الذي بشّر به المستشرقون في هذه البلاد ينشط ويعمل تحت حراسة النشاط العسكري؛ فكأن

النشاط العسكري أو الاستعمار العسكري جاء ليحمي ما بشّر به المستشرقون في هذه البلاد من آثار، وأفكار، وعقائد، وحضارة، وعادات، وتقاليد أوربية أرادوا زرعها ونشرها في هذه البلاد. فبدأ الاستعمار العسكري يعمل على حراسة هذه الأنشطة الاستشراقية، وتبنّاها للأسف الشديد أقلام وأسماء تسمّت بأسماء المسلمين في هذه البلاد، وبدؤوا يبشِّرون أو ينشرون هذه الأفكار في العالَم العربي شرْقه وغرْبه.

بعض النماذج التي تبنَّتِ الفكر الاستشراقي

ولعلَّ من المفيد: أن نقف هنا بعض الوقفات مع بعض النماذج التي تبنَّت الفكر الاستشراقي، وأخذتْ تُبشِّر به في بلاد المسلمين نيابة عن الغزو الفكري والاستعمار الثقافي تحت حراسة الاستعمار العسكري.

فعلى سبيل المثال: وجدْنا في مصر في مطلع القرن العشرين كاتباً مثل سلامة موسى -وهو مسيحي الأصل والديانة- انتهز هذه الفرصة وكتب كتابًا أسماه "ما هي النهضة؟". بشَّر في هذا الكتاب بأنّ مصر لا يمكن أن تنهض إلاّ إذا قلّدت أوربا -حذو القُذَّة بالقُذَّة-. وكان من أهمّ ما نادى به في هذا التقليد: أن نتخلّص من الدين الإسلامي، كما تخلّصت أوربا من المسيحية.

كان ينادي في هذا الكتاب: أن نجعل الدنيا غايتنا، وأن نعتقد ونؤمن أنه ليس وراء هذا العالَم المحسوس وليس وراء هذه الدنيا شيء ينبغي أن نعمل مِن أجْله، أو نسعى لتحصيله، أو إرضائه، وأننا نحن البشر يجب أن تكون لنا آداب وفلسفات وعلوم لا تمتُّ بأيّ صلة إلى ما يسمَّى في الأديان بالغيبيّات؛ وضعْ تحت كلمة "الغيبيّات" ما يأتي: الله، الوحي، النبوّة، اليوم الآخِر وما فيه...

كأنّ هذه العبارة تتضمّن في مضمونها -كما يريد سلامة موسى- : أن نرفض الإيمان بالله، أن نرفض الإيمان بالأنبياء، أن نرفض الإيمان بالوحي، أن نرفض الإيمان باليوم الآخِرِ وما فيه. وإن علينا: أن نعتمد على أنفسنا فقط في تحقيق السعادة على هذه الأرض؛ لأنها تمثّل حياتنا أولًا وأخيرًا، وليس وراء هذه الحياة ما يُمكن أن يُسمَّى باليوم الآخِرِ حتى نعمل من أجْله، وأنّ النهضة الأوربية لم تنشأ في أوربا ولم تخرج أوربا من ظلمات القرون الوسطى إلاّ لأنها تخلّصت من الغيبيّات.

بل أكثر من هذا: يصرِّح سلامة موسى بضرورة التخلّص من العقائد الدينية كلِّيّة، وأن نعتمد على العقل أولًا وأخيرًا؛ حيث يقول: "إذ ليس في الكون كلّه ما يُعتمد عليه سوى العقل، وليس لإنسان خلاف في هذا العالم، وليس وراء هذا العالم عالَم آخَرَ يُمكن أن نسعى إليه، أو نطمع في تحقيق السعادة فيه، وأنّ الانحطاط لم يكن ليَحيق بالمسلمين إلاّ لتمسّكهم بما يسمَّى: الغيبيات: اليوم الآخِرِ وما فيه".

ولا يألُو سلامة موسى جهدًا في تكرار هذا القول بوجوب محاكاة الحضارة الأوربية، فنحيا كما يحيَوْن؛ لأنه لا يمكن لأيٍّ أمّة أن تحيا إذا خالفت أوربا في عاداتها وتقاليدها وثقافتها. بل أكثر من هذا يقول: "ولا أستطيع أن أتصوّر نهضة عصرية لأمّة شرقية ما لم تَقُم على المبادئ الأوربية التي في مطلعها: ضرورة التخلّص من الغيبيّات".

هذا كان أحَدُ أوجُهِ التّأثّر بالفكر الاستشراقي الذي ظهر في مصر على يد سلامة موسى. وفكرة التخلص من الدِّين لم تكن مشكلة أو قضية سلامة موسى وحْده، وإنما نادى بها في لبنان، وفي سوريا، وفي العراق، وفي بلاد المغرب، كلُّ الذين تتلمذوا على الفكر الاستشراقي، خاصة الإلحادي منه، الذين رأوا ضرورة

التخلص من الدِّين، والذين أعلنوا ثورتهم على الكنيسة، كما سوف نتعرّض لذلك في العلمانية فيما يأتي إن شاء الله.

قضية التّخلّص من الدِّين إذا أردنا أن ننهض، ربما نطرح هنا سؤالًا: هل تخلّصت أوربا من الدِّين لكي تنهضَ؟ أم أن أوربا نهضت لأنها أخذت بأسباب النهضة؟ سوف أرجئ الإجابة على هذا السؤال حتى أستكمل مع حضراتكم بعض الآثار السيئة التي تفشّتْ في بلاد الشرق العربي كأثر من آثار استعمار الشرق استعمارًا ثقافيًا، وكأثر من آثار الغزو الفكري في بلاد الشرق.

ممّا ينبغي أن نتعرَّض له أيضًا: ما أثاره المستشرقون حول قضية المرأة، وأنّ الإسلام يَظلم المرأة، ويهضمُها حقوقها، وأن الإسلام دين ذكوريٌّ، ولا مكان في تعاليم الإسلام لتكريم المرأة، ولا لكي تُسهم أو تنهض أو تشارك في نهضة الأمة. فكتب قاسم أمين كتابًا عن "تحرير المرأة" وكتابًا آخَر عن "المرأة الجديدة"، ونادى في هذيْن الكتابيْن بوجوب أن تحذو المرأة المسلمة حذو المرأة في أوربا، وخاصة في فرنسا شبرًا بشبْر، وأن ترفع صوتها رافضة قضيّة تعدّد الزوجات، وترفع رفضها لقضية الطلاق والعصمة، وخروجها للعمل، والدعوة للسفور... قضايا كثيرة طرَحها قاسم أمين في الكتاب الثاني بالذات الذي هو "المرأة الجديدة".

وربما كان الكتاب الأوّل لا نجد فيه مشكلات كثيرة كتلك التي آثارها في: "المرأة الجديدة". وبمجرّد أن ردّد قاسم أمين ما ذكَره المستشرقون في كتبهم حول قضايا المرأة، وجدْنا من الكتّاب والمشتغلين بالإعلام -بالذات- يتبنّوْن هذه القضية -قضية المرأة-، ويجعلون منها مشكلة ينبغي أن تُحَلّ. وفي واقع الأمر ليس في الفكر الإسلامي، وليس في الكتاب والسُّنة ما يتعلق بأن المرأة مُهانة، أو أن المرأة ليست لها حقوق؛ بل إن القرآن الكريم يجعل من المرأة -لا أقول نصف المجتمع، أو كما

وفدت إلينا العبارة من أوربا- وإنَّما المرأة في الإسلام هي كلّ المجتمع. هي أمُّه، هي الزوجة، هي البنت، هي الأخت. قضية المرأة في المجتمع -إذا فُهمت على أصلها، وفي ثوبها الحقيقي- لا نجد لها نظيرًا في أي فلسفة، ولا في أي فكر إنساني، ولا في أية حضارة؛ لأن الإسلام يجعل من المرأة -كما قلت- هي المجتمع كلّه، وليست نصف المجتمع كما يتردّد على ألْسنة البعض.

تولّى تكرار وترديد هذه القضية أناس لا يعلمون أبجديات ما تحدّث به الإسلام عن المرأة، ولا يعلمون ما تحدّث به الرسول ﷺ عن المرأة، ولا كيف كرّم الإسلام المرأة؛ وإنما فقط كانوا كالببّغاوات كرّروا، وردّدوا كلام المستشرقين عن المرأة في أوربا، وألبسوا المرأة الإسلامية ثوب المرأة الأوربية، وأرادوا أن ينقلوا المشكلة من أوربا إلى بلاد المسلمين، ويطرحوا لها الحلول التي وُجدت في أوربا، وليست حلولًا إسلامية. ولم تعدم الساحة الثقافية من وجود نماذج أنثوية أيضًا تردّد كلام المستشرقين دون وعي بما في الإسلام، ودون معرفة أدنى معرفة لِمَا عليه القرآن الكريم من مكانة المرأة، ومن حفْظ حقوق المرأة وجعْلها -كما قلت- هي المجتمع كلّه وليس نصف المجتمع.

هذان نموذجان كان لهما أكبر الأثر في شيوع الفكر الاستشراقي في مطلع القرن العشرين، حول قضية التّخلّص من الدِّين، التي نادى بها سلامة موسى، وإثارة بعض المشكلات بين طرفَي المجتمع: الرجل والمرأة على يد قاسم أمين.

وبمجرّد ظهور هذيْن الكتابيْن: "ما هي النهضة؟" لسلامة موسى، و"المرأة الجديدة" لقاسم أمين، بدأ الإعلام يتلقّف هذه الأفكار، ويجعل من هذه القضية مادة إعلامية يخاطب بها الجمهور، ويدغدغ بها عواطف المرأة. فوجدنا مسرحيّات كثيرة جدًا تظهر وتحمل في طيّاتها وفي أفكارها فكرة أن الإسلام

ينتقص المرأة، وأن الإسلام يجعل من المرأة كائنًا هامشيًّا لا منفعة فيه إلا الجسد.

ووجدْنا في هذه الفترة بالذات توضَع بعضُ الكتب وبعض المؤلَّفات التي حملَت الطابع الفكري للاستشراق، وكان من أهمِّها أيضًا: كتاب "مستقبل الثقافة في مصر" لطه حسين. أذكر أنّني تحدثت إليكم عن كتاب "الشعر الجاهلي" لطه حسين الذي ادّعى فيه القول ببشريّة القرآن.

أمّا في هذه القضية بالذات: قضية تأثير الفكر الاستشراقي حول قضايا الثقافة، وقضايا اللغة، والمرأة، والدِّين أيضًا، فقد بثّه طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"؛ فنادى في هذا الكتاب بأن نحذو حذو أوربا، فنأكل كما يأكلون، وننام كما ينامون. وأكثر من هذا: نادى بضرورة مُجاراتهم في العادات والتقاليد والسلوكيات التي عليها أوربا.

كتاب علي عبد الرازق: "الإسلام وأصول الحُكم"

وكان من أخطر الكتب التي وُضعت في هذه المرحلة -تجسيدًا للفكر الاستشراقي-: كتاب علي عبد الرازق وهو: "الإسلام وأصول الحُكم".

علي عبد الرازق هذا كان يعمل قاضيًا شرعيًّا، فألّف كتابه عن الإسلام وأصول الحُكم، ليُعلن فيه ما حرص المستشرقون على توكيده وترسيخه في أذهان المسلمين. أعلن في هذا الكتاب: أنّ الإسلام دين لا دولة، عقيدة لا شريعة، وحْي لا دستور؛ وليس في الإسلام نظام لسياسة الدولة إطلاقًا.

والكتاب من أوّله إلى آخِره يَعرض الآراء التي استقاها علي عبد الرازق من كتابات المستشرقين عن الدِّين المسيحي. لم يكن لهم علاقة إطلاقًا بالدين

الإسلامي، ولم يعرفوه، ولم يعرفوا ما فيه من أنظمة الحُكم، ولم يعرفوا ما فيه من مبادئ تَحكم حركة المجتمع صغيرها وكبيرها، وإنما كان التّصوّر الذي أخذوه في كتاباتهم هو تصوّرهم لواقع الكنيسة في العصور الوسطى.

تبنّى علي عبد الرازق هذه الأفكار، وأراد أن يسحبها أو يطبِّقها على الدِّين الإسلامي، وأعلن في هذا الكتاب ضرورة فصل الدِّين عن الدولة.

من المعلوم: أنّ الإسلام في حديثه عن الجماعة، عن الأمّة، عن الدولة، وضَع لها قوانين، وضَع لها مبادئ؛ لكن علي عبد الرازق أخذ تحديد الفكر الغربي للدولة من واقع علاقة السلطة بالكنيسة في العصور الوسطى، واستعان بهذا الفهم على الإسلام، وعلى تأويل الإسلام في ضوء الفهم للكنيسة، ولعلاقة الكنيسة بالسلطة في العصور الوسطى؛ وبهذا كان الدين -في تصوّر الغربيِّين من جانب، وفي تصوّر علي عبد الرازق من جانب آخر- كان مشتقًا من طابع الرسالة الروحية البحتة التي جاء بها عيسى ~ ، وكذا من الحال التي انتهى إليها الصراع الدائر بين الكنيسة والسلطة في العصور الوسطى، وأصبح المعنى الروحي أو الدعوة إلى رياضة النفس وصفائها هو التجسيد العملي -في نظر علي عبد الرازق، وفي نظر المستشرقين- عمّا يمكن أن يُسمّى بنظام الدولة.

هذا النظام -أيها الإخوة- لا مكان له في الإسلام. هو كان موجودًا في أوربا في العصور الوسطى، وتسلّطت الكنيسة على الجمهور وعلى الشعوب في العصور الوسطى -كما قد نتعرض لذلك فيما بعد-، أمّا في الإسلام فإن شخصية الأمّة يحدِّدها القرآن الكريم أو الدستور الذي قامت عليه هذه الجماعة، والذي يَحكم حركتها أفرادًا وجماعات في علاقاتها بالله، وفي علاقة الإنسان بالإنسان، وفي علاقة الإنسان بالكون وما فيه. فهي: عقيدة، عبادات، معاملات. هذه النواحي

الـثلاث نظّمهـا القـرآن الكـريم في صـورة أوامـر ونـواهٍ تـستقيم بمقتـضاها أمـور الجماعة، أو أمور الأمّة، أو أمور الدولة؛ ولذلك فإنّ الإسلام معروف عنه أنه عقيدة وشريعة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢]. ثم يختم القرآن الكريم هذه الأوامر والنواهي بقوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. في هذه الآيات الكريمة نجد: أنّ القرآن الكريم قد جمع بين ثلاثة أنواع من الأسس التي لا بد منها لقيام المجتمع.

بعضها يتعلّق بعقيدة الفرد، فحرّم عليه الشرك بالله، وطلب منه التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى.

الثـاني: مـا يتعلـق بـسلوك الفـرد الأخلاقي، سـلوكه مـع الجماعـة، سـلوكه مـع نفسه، مع الكون وما فيه؛ فأوصاه بالإحسان إلى الوالـديْن، وعـدم قتـل الأولاد والتعلل في ذلك بالفقر أو خشية الفقر، إلى آخر ما أمرت به الآيات ونهَتْ عنه...

أمّا النوع الثالث: فهو ما يتصل بالمعاملات بين الأفراد؛ فطلب عدم المساس بمال اليتيم إلاّ بما يعود عليه بالنفع، وبالوفاء في الكيل والميزان، أي: بتحقيق التعادل في المعاملات

بين الناس، والقضاء بالعدل، والوفاء بالعهد. هذه المعاني كلُّها يمكن أن تندرج تحت ما يسمّى بإيصال الحقوق إلى أصحابها، والحفاظ على الأمانات.

هذه هي عُمد قيام المجتمع. وعن علاقة المجتمع بغيره من المجتمعات الأخرى، هناك آيات كثيرة تبيِّن ما يُمكن أن نسمّيه الآن بالعلاقات الدولية؛ ولذلك الذين تكلموا عن فصْل الدِّين عن الدولة ليس لهم من العلم بما في الإسلام من نظام الدولة شيء، وإنما أردوا أن يطبِّقوا دعوى المستشرقين على المسيحية في أوربا، أرادوا أن يطبقوها على الإسلام.

ومن هنا، وجدْنا كتاب: "الإسلام وأصول الحُكم" يحمل هذه المعاني في محاولة تطبيقية على الفكر الإسلامي، مع أن هذا الرجل كان قاضيًا. وقد قيل إنه رجع عن هذا الكتاب فيما بعد؛ ولكن الأهمّ من هذا: أن الكتاب عُرف، وقُرئ، وتأثّر به مَن تأثّر. وردّ عليه جمهورٌ كبير من علماء الأزهر الشريف، لكنّ الفتنة قد ثارت، وأخذ البعض يقتنص أو يقتبس من الكتاب بعض النصوص التي يُعلنها في الصحف، وينادى بها في منتديات ومؤتمرات ثقافية؛ لأن الكتاب أو المؤلف قد نادى في هذا الكتاب -أكثر من مرة- أنّ الإسلام دِين فقط، وأنّ ما يدعو إليه من وحدة بين المؤمنين هو وحدة دِينية وليس وحدة سياسية، وحدة عقيدة وليس وحدة دولة.

وفكرة الإسلام دين لا دولة التي نادى بها هذا الرجل نجدها مُسيطرة على الكتاب كلِّه مِن أوّله إلى آخِره. ولعل ممّا تأثّر به أكثر وأكثر أنه يقول: "لقد كان عيسى ابن مريم ~ رسول الدعوة المسيحية وزعيم المسيحيين، وكان مع هذا يدعو إلى الإذعان لقيصر ويؤمن بسلطانه، وهو الذي أرسل بين أتباعه تلك الكلمة البالغة: "أَعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله".

إلى هذا الحد كان تأثّر علي عبد الرازق بكلام المستشرقين عن المسيحية، وأراد أن يطبِّقه على الإسلام، وليس متأثرًا في ذلك بالإسلام، وإنما هو تأثّر بما في ذهن المستشرقين عن المسيحية. ثم يوضح غرضه في قياس الإسلام على المسيحية أكثر وأكثر فيقول: "تكلّم عيسى بن مريم ~ عن حكومة القياصرة، وأمَر أن يعطى ما لقيصر لقيصر؛ فما كان هذا اعترافًا من عيسى ~ بأن الحكومة القيصرية من شريعة الله، ولا مّما يعترف به دين المسيحية، ولا كان ممّن يفهم لغة البشر في تخاطبهم أن يتّخذ من كلمة عيسى حجة له على ذلك، وكلّ ما جرى في أحاديث النبي ﷺ من ذكْر عن الإمامة والخلافة والبيْعة لا يدلّ على شيء أكثر ممّا دل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر".

إلى هذا الحدّ يريد علي عبد الرازق أن يوحِّد بين المسيحية والإسلام في فصل الدِّين عن الدولة. وأكثر من هذا يصرح بقوله: "لم يبق أمامك بعد الذي سبق إلاّ مذهب واحد، وعسى أن تجده مذهبًا واضحًا؛ ذلك هو: القول بأنّ محمدًا ﷺ ما كان إلاّ رسولًا لدعوة دينية خالصة لا تشوبها نزعة مُلْك ولا حكومة، وأنه ﷺ لم يَقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يُفهم سياسيًّا الآن من هذه الكلمة، وما كان إلاّ رسولًا كإخوانه الخالدين من الرّسل، وما كان ملِكًا، ولا مؤسِّس دولة، ولا داعيًا إلى مُلْك".

هذا ما انتهى إليه علي عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحُكم" لينادي، وليعلن أمام الناس بضرورة فصل الدين عن الدولة. وهذا المعنى الذي أثاره في هذا الكتاب قد تردّد في كتابات كثيرة، وأيضًا تلقّفته بعض الأقلام لتجسِّده في أعمال درامية أحيانًا، وفي أعمال مسرحية أحيانًا أخرى، لتخاطب به العوام من

الناس لكي تَسْرِي هذه العدوى في الشارع المسلم بدلًا من اقتصارها على المفكَّرين وكتابات المفكِّرين فقط. إلى هذا الحدّ بلغ الأثر السيِّئ لكتابات المستشرقين في صفوف المثقّفين العرب، وبعض الكُتاب المسلمين.

أنتقل من هذا إلى قضية أخرى ما أراها إلاّ تكملة لآثار الفكر الاستشراقي في أوساط المثقّفين العرب، والمثقّفين المسلمين في مصر، وفي بلاد الشام بصفة خاصة، ممّا دعا إليه المستشرقون: العمل على إحلال العامية مكان اللغة الفصحى.

هذه القضية ترتبط بالقرآن الكريم من جانب، وترتبط برمز وحدة المسلمين على قلب رجل واحد من جانب آخَر. وكان من أهداف المستشرقين: فَصْم عُرى هذه الوحدة؛ إذ من المعلوم أنّ اللغة تمثِّل بالنسبة للمسلمين دِينا وعقيدة، لأنها لغة القرآن الكريم، ولأنها رمز وحدة المسلمين، ولأنها تمثِّل لأي أمّة من الأمم ركنًا أساسيًا من مكوِّنات الهوية الثقافية لأي أمّة. فتداول أي فكرة علمية أي فكرة ثقافية، ما لم تكن في ثوب لغوي متعارف عليه بين أفراد الأمّة، لا يمكن فهْمها، وكذلك الحقائق الدينية.

ومن هنا وجدْنا الرسول ﷺ يوصي بلغة العرب ويقول: ((ليست العربية من أحدكم بأب وأمّ؛ وإنما هي الدين واللسان. فمن نطق العربية فهو عربي، ومن دان بالإسلام فهو عربي)). وكل مسلم لا تُقبل صلاته إلاّ إذا قرأ (فاتحة الكتاب) باللغة العربية. وكل مسلم مطالَب منه -على سبيل الفرض العينيّ-: أن يحفظ قدرًا من القرآن يؤدِّيه في صلاته، وإن لم يكن على سبيل الفرض العيني، فمطلوب منه على سبيل الفرض الكفائي: أن يحفظ قدرًا من القرآن الكريم باللغة العربية على قدْر الاستطاعة.

وإذا علمنا أنّ اللغة تمثل رمزًا لوحدة المسلمين، كانت تمثل للاستعمار في نفس الوقت عاملًا مهمًا لا بد من القضاء عليه. وحديثنا عن أهمية اللغة لا يحتاج إلى تفصيل، ولا إلى مزيد من البسط؛ لأنها واضحة في ذهن كلِّ مثقّف، لكن اللغة العربية بالذات أخذت من المستشرقين قدرًا هائلًا من الاهتمام، والبحث عن المداخل التي يشكِّكون في قيمتها، وفي مقدرتها على مسايرة العصر، واستيعابها للغة العلْم، بذلوا في ذلك شأنًا كبيرًا، وأرادوا أن ينقلوا نفس هذه الفكرة عن اللغة العربية إلى كثير من الناطقين باللغة العربية، ومن حَمَلَة الأقلام في أمّتنا العربية والإسلامية.

لقد أدرك المستشرقون: أن الشعوب الإسلامية ما دامت على صلة وثيقة باللغة العربية، فإنها سوف تظلّ مرتبطة بالإسلام من جانب كعقيدة وشريعة، وبالقرآن الكريم من جانب آخر كمصدر ووحْي إلهي يؤمن به كلّ مسلم في شرق العالَم وغرْبه. ومن أجْل ذلك أخذ المستشرقون يوجِّهون مختلف الوسائل، ويتابعون ألوان الجهود، ويتّخذون شتّى الوسائل المتاحة لصدّ الشعوب الإسلامية وصرْفهم عن اللغة العربية الفصحى، وتغذية اللهجات المحلية والإقليمية؛ لتحلّ محل هذه الفصحى.

ولذلك وجدْنا أنّ المستشرقين بدؤوا يضعون الخطط لاستئصال شأفة اللغة العربية في البلاد الإسلامية من جانب، والبلاد العربية بصفة خاصة. وكان من أهمّ هذه الوسائل التي حاربوا بها اللغة العربية:

أولًا: محاولة استهجان هذه اللغة، واستهجان الناطقين بها، من خلال بعض الأعمال الأدبية التي تُنفِّر المُشاهد أو القارئ أو المستمع من معلِّم اللغة العربية. ولعلّكم رأيتم بعض المسرحيات التي تعرض على المُشاهد، ويمثّل فيها مدرس اللغة العربية ومدرّس الدِّين بشكل مُزْرٍ منفِّر، يدعو إلى السخرية، حتى إنه إذا

تكلّم فإنما يتكلّم بلغة مقعّرة لا يفهمها المُشاهد، ممّا جعل مكانة معلّم اللغة ومعلّم الدِّين الاجتماعية تتدنّى إلى أدنى المستويات الاجتماعية في الأمّة؛ وهذا شيء مقصود ومطلوب وموصًى عليه: أن يظهر مدرِّس اللغة ومدرِّس الدِّين بهذا المظهر السيِّئ.

وكان ممّا ترتّب على ذلك:

أن المستشرقين أوصَوْا بتدريس اللغة الإنجليزية أو الفرنسية كلغة إجبارية في المدارس الأولى منذ المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية، واعتبار هذه اللغة هي اللغة الأولى في كثير من البلاد، مع إهمال اللغة العربية بدعوى أنها لغة وطنية لا تحتاج إلى تعليم واسع في بعض البلاد. وهم يخلطون في هذا الكلام بين اللغة العامية المنتشرة، وبين لغة القرآن الفصحى أو لغة العلوم العربية على اختلافها، لتنطلي الحيلة على أفراد الشعب. بمعنى: أنكم تتكلّمون العربية تلقائيًا؛ فلا داعي لتعليم اللغة العربية، وإنما تعلّموا لغة تنفعكم علميًّا كالإنجليزية والفرنسية. وماذا عن العربية الفصحى؟ يقولون: لا، إنكم تتكلّمون العربية فلا يوجد داعٍ لتعليمها.

ثم توالت بعد ذلك التوصيات بأن تكون لغة الاستعمار -سواء كان الاستعمار إنجليزيًّا في البلاد التي يستعمرها، أو فرنسيًّا في البلاد التي يستعمرها- هي لغة دوائر الحكومة، والدواوين الرسمية في الدولة. وهذه الصورة لون من ألوان القهر للشعوب، بحيث ينسب المتحدث باللغة الإنجليزية إلى الثقافة الإنجليزية، والمتحدث باللغة الفرنسية إلى الثقافة الفرنسية.

أساليب المستشرقين في محاربة لغة القرآن

هكذا يتبيّن موقف المستشرقين من اللغة العربية، ومحاولة استبدال العامية باللغة العربية، فتحلّ اللغات أو اللهجات المحلية في البلاد العربية محلّ اللغة الفصحى. وكنّا قد ألقيْنا بعض الضوء على أهمية اللغة كعامل من عوامل وحدة المسلمين، ولغة القرآن الكريم، وتمثل رمزاً من رموز الالتزام بالإسلام كدين وعقيدة. وأودّ أن أتناول هذه القضية بشيء من التفصيل لأنها على جانب كبير من الأهمية؛ لأن المستشرقين قد أوصَوا الاستعمار العسكري - وهم حراس الاستعمار العسكري في العالَم العربي - بمخطّط لنشْر إمّا اللهجات المحلية، أو اللغة الرسمية للدولة المستعمِرة لتحلّ محلّ اللغة العربية الفصحى. واستخدموا في ذلك وسائل شتّى يمكن التعبير عنها بوسائل الترغيب والترهيب: الترغيب في تعلّم اللغة الاستعمارية القائمة، سواء كان المستعمِر إنجليزيّاً أو فرنسيًّا، والترهيب من اللغة العربية بوسائل متعدّدة.

وكان ممّا سلكوه في ذلك: أن جعلوا التعليم بلغة الشعب المستعمِر، بلغة الأمّة المستعمِرة: التعليم العامّ، وجعلوا ذلك أمرًا إجباريًّا في مختلف مراحل التعليم. ولا يغيب عن حضراتكم ما فعلتْه فرنسا في الجزائر من يوم أن استعمرتْها. وكان من أوائل ما فعلتْه فرنسا في الجزائر: إلغاء اللغة العربية من مراحل التعليم، إلغاء كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم، تحويل المساجد إمّا إلى كنائس، أو إلى دواوين للموظفّين، ثم فرْض اللغة الفرنسية كلغة إجبارية في كلّ مراحل التعليم، وأرادوا بذلك أن يجعلوا من الجزائر ولاية فرنسية.

أيضًا، كان من الوسائل التي أوصى بها المستشرقون: إهمال اللغة العربية من الجدول الدراسي في المؤسسات التربوية -اللغة العربية التي هي اللغة الأمّ للبلاد- ، إهمالها إهمالًا كليًّا، أو جعْلها في المراحل الأولى للخطّة التعليمية كلغة ثانية، لا لغة أولى. ثم إذا نظرت في جدول اليوم الدراسي، تجدهم يضعون اللغة العربية إمّا في آخر حصة في اليوم الدراسي، بحيث يأتي إليها الطالب وقد كَلّ ذهنُه وتعِب جسده، ولم يكن عنده استعداد لا للفهم ولا للتحصيل، فيكْره اللغة ويكْره مدرِّس اللغة؛ وهذا واقع. وعليك أن تراجع الجدول الدراسي في الزمن الذي كان الاستعمار العسكري قائماً في هذه البلاد.

وكان من الوسائل التي استعملها الاستعمار أيضًا: التنفير من اللغة العربية بطرح عبارات سخرية واستهزاء من قواعد اللغة، ومن معلِّم اللغة -كما أشرنا إلى ذلك- عن طريق المسرحيات، والعمليات الدرامية، وبعض البرامج الثقافية في أجهزة الإعلام المختلفة.

ثم إذا انتقلنا من التعليم إلى دواوين الحكومة والدواوين الرسمية ودواوين الموظفين، نجد أن الدولة المستعمِرة قد ألغت الكتابة الرسمية باللغة العربية تمامًا في هذه الدواوين، وحلّ محلها لغة المستعمِر لغة الدولة الغالبة جعلتها لغة رسمية في الدولة المغلوبة. وترتّب على هذا: أن الأعمال الوظيفية الهامة في الدولة لكي يقوم بها فرد من أفراد الشعب لا بدّ أن يتعلّم أولًا اللغة التي يتعامل بها في هذا الديوان، سواء كانت لغة إنجليزية أو لغة فرنسية، مما ترتّب على ذلك: هجْر اللغة العربية في دواوين الحكومة، ودواوين الموظفين، وفي مراحل التعليم المختلفة.

وبدأ في اتّجاه آخَر: العمل على نشر اللهجات المحلية أو اللغة العامية في شتّى أنحاء الوطن العربي. لو تصفّحنا العالَم العربي بلدًا بلدًا أو قطرًا قطرًا، لا نجد قطرًا عربيًّا -إلا نادرًا- يخلو من الكتابة، والدعوة، وإثارة العواطف، وإثارة القوميات نحو استعمال اللهجة المحلية لهذا البلد أو ذاك محلّ اللغة العربية الفصحى. وعلى سبيل المثال وليس على سبيل الحصر، وجدْنا أنّ مِن أوائل مَن دعا وألّف ونشر الدعوة إلى اللغة العامية لتحلّ محلّ اللغة العربية الفصحى: موظّف في دار الكتب المصرية اسمه: (الهلموسبيتا) كان مديرًا لدار الكتب المصرية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر. بمجرد أن احتلت إنجلترا مصر ١٨٨٢م، بدأ هذا الرجل في وضع كتاب سمّاه: "قواعد اللغة العربية العامية في مصر"، وأورد في هذا الكتاب كلّ ما أرد أن يقف عليه من عوامل ووسائل التنفير من اللغة الفصحى، والدعوة إلى اللغة العامية؛ حتى إنه يقول: "إن التزامكم -يعني: يا شعب مصر- الكتابة باللغة العربية الكلاسيكية القديمة -التي هي العربية الفصحى- لا يمكن أن ينمو في ظلها -في ظل هذه اللغة الفصحى- أدب حقيقي، أو يتطور العلم؛ لأن الطبقة المتعلِّمة القليلة العدد هي وحْدها التي يمكن أن يكون الكتاب في متناول يدها، أما بالنسبة إلى جماهير الناس فالكتاب شيء لا يعرفونه بتاتًا. فإذا احتاج رجل عادي من عامّة الشعب إلى كتابة خطاب أو تنفيذ وثيقة، فعليه أن يضع نفسه وهو غامض العينيْن تحت يدي كاتب محترف".

أترونْ المغالطة؟! الرّجل العامي أصلًا لا يكتب لا باللغة العامية ولا باللغة الفصحى. إذا كان يقرأ ويكتب، فهو ليس بأمّي، فهو يقرأ الفصحى؛ لماذا ندعوه إلى كتابة وقراءة العامية؟ وهل حقيقة أن اللغة الفصحى تعوق نموّ الأدب وتطوّره؟ ألم يقف هذا الرجل على الأدب الجاهلي قبل الإسلام، الأدب العربي في عصوره المختلفة في العصر الأموي والعباسي: القصة، والشعر، وفنون

الأدب المختلفة، كيف نمت وتطورت في ظل اللغة العربية الفصحى. هذه الأكاذيب التي روّج لها هذا الرجل في كتابه وَجَدت من يتبنّاها تحت سمع وبصر الاستعمار الإنجليزي في مصر. وربما من المفيد أن نعلم: أن هذا الكتاب كان له أثر كبير في إقامة كثير من الندوات والمؤتمرات حول مقارنة اللغة العربية الفصحى بالعامية تحت دعوى: صعوبة الفصحى وسهولة العامية، وأن الفصحى لا تتّسع للُغة العلم وتضيق عنها، أمّا اللغة العامية فتتّسع لها.

في هذه المعركة قال شاعر النِّيل حافظ إبراهيم قصيدته المعروفة: "اللغة العربية تنعى حظّها"، وقال فيها: إن اللغة العربية تتّسع للُغة العلْم كما اتّسعت للُغة القرآن الكريم:

وسعتُ كتابَ الله لفظًا وآيَةً ❖ وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعِظاتِ

فكيف أضيق اليومَ عن وصْفِ آلةٍ ❖ وتنسيقِ ألفاظٍ لمختَرَعاتِ

هذا ما قاله حافظ إبراهيم ليُفنِّد به دعوى هؤلاء الذين يتّهمون العربية بالجمود، وعدم مسايرة لغة العلْم.

وبعد (الهلموسبيتا) هذا، جاء أيضًا اللورد (دوفرين) ووضع تقريرًا أراد أن يبيِّن فيه: أنه لا أمل يُرجى لتقدّم مصر إلاّ إذا هجرت العربية الفصحى، وأحلّتْ محلّها اللغة العامية المصرية. وقال: "إنّ أمَل التّقدم ضعيف في مصر، طالما أنّ العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية، لغة القرآن الكريم -كما هو في الوقت الحاضر-، ولكي يتقدّموا لا بد أن يَهجروا الفصحى".

ثم جاء بعده (كارل فولرس) ووضع كتابًا أيضًا عن أهمية اللهجة العربية الحديثة في مصر. وتوالت المؤلّفات التي تبنّت الدعوة إلى هذه القضية؛ فوجدنا مثلًا

(ولمور) الذي كان قاضيًا في المحاكم الأهلية بالقاهرة. نحن نعلم أنّ الإنجليز لما أتوا مصر ألغوا المحاكم الشرعية -وهذا أثر من آثار الاستعمار- ، وأتوا مكانها بمحاكم تسمّى : المحاكم المختلطة. كان هذا الرجل يعمل قاضيًا في المحاكم الأهلية بمصر، ووضع كتابًا في سنة ١٩٠١م سمّاه : "العربيّة المحكيّة". "المحكيّة" يعني : اللغة العامية الدارجة على اللسان. وقارن بين سهولتها وصعوبة العربية الفصحى. وتوالت القضية أيضًا.

لم تكُفّ أقلام المستشرقين عن اتّهام الفصحى ، والدعوة إلى العامِّيّة. وكان من أخطر ما وُضع في هذه المرحلة : كتاب المستشرق الإنجليزي : (وليم ويل كوكس). هذا الرجل كان مهندسًا للرّيّ في القاهرة -لا موظفاً في دار الكتب ، ولا قاضياً ؛ وهذا يدلّكم على أنّ هذه المهمة -قضية اللغة الفصحى- كانت تشغل كل العاملين في مصر من الإنجليز. ولكي تعلموا النشاط الاستشراقي : هذا الرجل كان يعمل مهندس ريّ، وفي نفس الوقت كان مستشرقًا مهتمًا بتهجين الثقافة المصرية بالثقافة الإنجليزية. هذا الرجل وضع كتابًا عن اللهجة المحلية ، ومقارنتها باللغة العربية الفصحى أيضًا. ثم ألقى محاضرة في نادي الأزبكية في أواخر القرن التاسع عشر -للأسف الشديد- على مسامع المصريِّين. في هذه المحاضرة ، كان يخاطب عرب مصر ، ويدعوهم ألا يتقيّدوا بالعربية الفصحى. وكان ممّا قاله في هذه المحاضرة -وهي وثيقة من أخطر الوثائق التي تُدين الاستشراق وموقفه من القرآن ومن الإسلام ، ومن الفصحى...

ماذا يقول هذا الرجل؟ إنه ربط في هذه المحاضرة انحطاط قوة الاختراع والإبداع في عقلية العرب بتقيّدهم وتأليفهم بالعربية الفصحى. وحاول أن يبعد أو يلفت أنظار

المستمعين، أو يربط بين تخلّف المنطقة وكتابتها للفصحى وقراءتها للقرآن، بدلا من أن ينبِّههم ويرشدهم إلى أنّ التخلف سببه عدم الأخذ بالمنهج العلمي، وعدم توظيف العلْم. لا، بل يقول لهم: سبب تخلّفكم هو: اللغة والقرآن.

وكانت هذه المحاضرة من أخطر المحاضرات التي ابتدأ بها الاستعمار في القرن العشرين نشاطه في تحويل ولفت أنظار المثقّف المصري عن اللغة العربية. وهذا الرجل أيضًا لم يَأْلُ جهدًا عن الدعوة إلى العامية. فنجده في سنة ١٩٢٦م وهذه السنة هي السنة التي وضع فيها كتاب علي عبد الرازق عن "الإسلام وأصول الحُكم"، وهي نفس السنة التي وضع فيها طه حسين كتابه عن "الشعر الجاهلي"، وهي السنة التي أعلن قبلها بعامين اثنين فقط سقوط الخلافة العثمانية. في هذه السنة ألّف (ولكوكس) رسالة أو كتاباً بعنوان: "سوريا ومصر وشمال إفريقيا". هذه البلاد تمثِّل محورًا على البحر الأبيض المتوسط، أو تمثّل المنطقة الجغرافية المسلمة المطلّة على البحر الأبيض المتوسط. وبيّن في هذه الرسالة: أن هذه المنطقة لكي تلحق بأوربا الواقعة في شمال البحر الأبيض المتوسط، لا بدّ أن تتخلّى عن أمريْن اثنيْن: عن لغتها، وعن دِينها.

أرأيتم أثر الاستشراق في دعْوته إلى هجر اللغة الفصحى، وربطه بين التمسك بالفصحى، والتخلف؟ وصارت هذه القضية تمثّل عدوى على ألْسنة بعض المثقّفين -للأسف الشديد- العرب؛ فوجدْنا (لويس عوض) في مصر، وجدنا (أنيس فريحة) و(سعيد عقل) في بيروت، وجدْنا طه حسين في "مستقبل الثقافة في مصر" وغيرهم، يتبنَّوْن الدعوة إلى العامية، ووجوب تقليد أوربا في كل ما تذهب إليه من مناحٍ ومناهج ثقافية.

المطالبــة بإلغــاء الإعــراب

بل أكثر من هذا: وجدْنا البعض -في عصرنا الحاضر- يردِّد نفس القضية التي تبنّاها ودعا إليها المستشرقون في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وجدْنا وسمعنا مَن يدعو إلى إلغاء الإعراب من اللغة العربية. ليس تطوير اللغة هنا، وإنما إلغاء الإعراب.

وفي الحقيقة، لا أجد لديّ تعليقًا على هذه الدعوة إلاّ أنْ أخاطب هؤلاء أننا إذا ألغيْنا الإعراب، كيف يقرؤون القرآن الكريم؟ أضَع أمامهم بعض الآيات القرآنية التي أسفِّه بها آراءهم وعقولهم وأفكارهم، إذا ألغينا الإعراب؛ كيف نقرأ الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] هم يقولون بالتسكين بدل الإعراب.

كيف نقرأ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ﴾؟ نقرؤها بدون نصب لفظ الجلالة؛ فهل يفهم المستمع مَن الذي يخشى الآخر، اللهُ يخشى العلماءَ؟! أم العلماءُ يخشَوْن الله؟

وأضع أمام هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، كيف يقرؤون هذه الآية إذا ألغيْنا الإعراب؟ مَن الذي ابتلَى، ومَن الذي ابتُلِي إذا ألغينا الإعراب من هذه الآية؟

إذا ألغينا الإعراب، كيف نقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣]؟ كيف نقرأها بدون إعراب؟!

هذه نماذج أيها الإخوة، لكي تبيِّن لكم: أن كلّ من سار على هذا الدرب لا علْم له لا بلغة القرآن، ولا بخصائص اللغة العربية. ولا أريد أن أشكِّك في نوايا أحد

حتى أقول لا علْم لهم أيضًا بنوايا الاستشراق، وما يريده الاستشراق من لغتنا، وما يريدونه من المسلم. كيف يتخلّى عن دِينه، ولغته، وعقيدته؟

هذا ما يتعلّق أو بعض ما يتعلّق بموقف المستشرقين من اللغة العربية. وأودّ من إخوتي وأخواتي المستمعين: أن يراجعوا تفصيلات موقف المستشرقين من اللغة العربية من بعض المراجع التي أشير إليها الآن، ولعلّ من أهمّها:

كتاب "أجنحة المكْر الثلاثة" للشيخ عبد الرحمن الميداني، خاصة من صفحات ٣٤٦ وبعدها...

وكتاب "تيارات فكرية معاصرة: قراءة تحليلية نقدية" للمتحدّث إليكم، في صفحة ٥٩ وبعدها.

وكتاب "عقائد وتيارات فكرية معاصرة" للمتحدث إليكم، وبعض الزملاء، طبع في قطر.

وكتاب "الفكر الإسلامي الحديث وصِلته بالاستعمار" للأستاذ المرحوم الدكتور محمد البهي.

وكتاب "الإسلام وأصول الحُكم" لعلي عبد الرازق، وهو طبع عدة طبعات.

وأن تراجعوا هذا الكتاب، والرد على هذا الكتاب، أهمّ كتابين تناولاه بالرد العلمي الأكاديمي: كتاب المرحوم محمد ضياء الدين الريس عن الخراج في مصر، رد فيه ردًّا علميًّا على علي عبد الرازق في دعواه فصْل الدين عن الدولة.

وكتاب المرحوم الدكتور محمد البهي "الفكر الإسلامي وصِلته بالاستعمار" خاصة صفحات ٢٠٦ وما بعدها.

أيضًا من الكتب المهمّة في بيان موقف المستشرقين من اللغة العربية، وموقف المستشرقين وعلي عبد الرازق من قضية: فصل الدِّين عن الدولة: أن الأزهر

الشريف قام بعض علمائه بتناول كتاب علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحُكم"، وتناولوا بالرد الأكاديمي المنهجي على موقف المستشرقين من اللغة العربية في كتابات كثيرة نشرت في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين.

لكن الذي يهمّنا هنا هذان الكتابان فقط، وهما محدَّدان، ومركزيان جدًا: كتاب "أجنحة المكر" وكتاب "الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار".

موقف أوربا من المسيحية

أنتقل إلى قضية أخرى أعتبرها نتيجة ومحصلة لقصة الصراع بين الفكر الاستشراقي وبين الفكر الإسلامي، التي تجسّدت في أكذوبة طرحوها على العقلية العربية في نهاية القرن العشرين، وللأسف الشديد لاكَتها بعض الأقلام في كثير من البلاد العربية. تتجسد هذه القضية في الدعوة القائلة بأنّ أوربا تقدّمت لأنها نفَضت يدها من المسيحية، وأنّ الشرق تأخّر وسيظلّ متأخِّرًا ما دام متمسِّكًا بالإسلام. هذه القضية قضية ربط تقدّم الأمّة أو تأخّر الأمّة بتديّنِها أو عدم تديّنها تحتاج منا إلى وقفة نوضّح فيها الموقف لأنفسنا حتى نكون على بيِّنة من أمْرنا.

إنهم يقولون: إنّ سبب تأخُّر الشرق الإسلامي ماديًّا وعلميًّا يرجع إلى تمسُّك العرب بالدِّين الإسلامي، وتنفيذ تعاليم الإسلام. ثم يوصوننا بقولهم: لا مناص للشعوب الإسلامية إذا أرادوا أن يتغلّبوا على التخلف الحضاري، إلاّ أن يتخلّصوا أولًا من تعاليم الإسلام، ومن لغة القرآن، وأن يُنَحُّوا الإسلام بعيدًا عن شؤون حياتهم اليومية، حتى إذا ما حاولوا أن يمارسوه فيكون قضية شخصية يمارس الإنسان طقوسه، وشعائره الدينية داخل البيت، داخل المسجد، هذا إذا أراد، أمّا الوصية الأساسية: أن يتخلّصوا من الإسلام تمامًا.

وينتقل المستشرقون من هذا إلى المقارنة بين تقدّم الغرب، وتأخُّر الشرق. ويطرحون على الشباب في كتابات كثيرة: هذه المقارنة الظالمة ليبيِّنوا فيها أنّ تقدّم الغرب كان سببه هو التخلص من المسيحية، والتمسك بمنطق العلم فقط، وليس أمام الشرق إلاّ أن يسْلك مسْلك الغرب؛ لأن الغرب هو النموذج الأفضل للتقدم ومواكبة علوم العصر. هذا تجسيد أو بلورة لأهداف المستشرقين. وإن شئت فقل: هي تمثِّل بؤرة الحوار أو بؤرة الصراع بين الذين حملوا القضية عن أكتاف المستشرقين وتولّوا هم الدعوة إليها، من العلمانيِّين الموجودين في عالمنا العربي وبين المسلمين.

لا يغيب عن حضراتكم: أنّ المستشرقين قد جنّدوا كثيرًا من حمَلة الأقلام، وسخّروهم للترويج لهذه الأكذوبة في البلاد الإسلامية. وأصبح يتولى عبء الدفاع عن هذه القضية بعضُ المحترفين للكتابة من المسلمين، نيابة أو وكلاء عن الاستعمار. فعَل ذلك بعضُ حمَلة الأقلام في مصر، في بيروت، في سوريا، في العراق، في تونس، في الجزائر، في المغرب، ولا أريد أن أسمِّيَ أسماء.

كما شغلت هذه الدعوة أيضًا كثيرًا من وقت أجهزة الإعلام صحافة، وإذاعة، وتلفازًا، ولا أبالغ إذا قلت أيضًا: المسرح العربي شُغل بها، وعُقدت من أجلها الندوات، وأقيمت المؤتمرات والمناظرات، ووصل الأمر بهذه الدعوة إلى أن تسلّلت إلى بعض قاعات الدّرس الجامعي تحت ستار المصطلحات المضلِّلة: مصطلح "التنوير"، مصطلح "المعاصرة"، مصطلح "التقدم". واستغل بعضهم الوضع المتردِّي للمسلمين في وقتنا الحاضر، ليلقّن الشباب -زورًا وبهتانًا-: أن سبب هزائمنا المتكررة هو: التمسك بالإسلام. وتناسى هؤلاء وأولئك: أن للنصر أسبابه، وأن للنهضة أسبابها، وأن للهزيمة أسبابها، وللتأخر أيضًا أسبابه، وأنّ إقحام القضية الدينية في ذلك هو تضليل وافتراء وتعمِية، وإن شئت فقل:

تزييف للواقع على عقول الشباب.

كنت أتمنّى أن يقارن هؤلاء -بدلًا من المقارنة بين تقدّم أوربا وتخلّف المسلمين، وربطها بالدين- أن يقارنوا بين نُظم الحُكم في الغرب ونظيرها في الشرق، ولماذا لم يقارنوا بين ما يتمتع به الغرب من حرية وديمقراطية وما هو واقع في بلاد الشرق من نُظم حُكم؟ لا أريد أن أصفها بكذا وكذا، وإنما هي أحد الأسباب التي أخّرت المسلمين.

إن أسباب التقدم تَكْمن في احترام الأسباب الضرورية لنهضة كل أمّة، وهي: العلم، والمنهج العلمي، واحترام العلماء الذين أفنَوا أعمارهم في الكشف عن الحقائق العلمية، والتنبيه إليها. ولعلَّ المفكِّرين المسلمين هم الذين قد نبّهوا إلى هذه القضية، فإننا نجد مفكرًا كابن خلدون نبّه إلى ذلك قديمًا، كما نبّه إليها المفكرون حديثًا، وهي قضية: أن السُّنن الكونية لا تتخلّف آثارها أبدًا.

ومن السُّنن الكونية: أنّ العلْم محايد لا يجامل أحدًا؛ فمَن أخَذ بمنطق العلْم جنى ثمرته، ومن لم يأخذ بمنطق العلْم يجْن النتيجة مَرارةً وتخلفًا. إن السُّنن الكونية لا تتخلف إذا ما وُجدت الأسباب، سواء تعلقت هذه السُّنن بالأفراد أم بالجماعات. فللنّصر أسبابه وللهزائم أسبابها، كما أنَّ لقيام الحضارة أسبابها ولانهيار الحضارات أيضًا أسبابها؛ وتلك سنن الله في كونه، لا فرقَ فيها بين مسلم وكافر. أُريد أن أوضّح أو أجسِّد هذه القضية لحضراتكم في مجموعة من الأسئلة:

هل حقيقة أنّ أوربا قد نفضَتْ يدها من قضايا الدِّين المسيحي ومن المسيحية، فلم تَعُد تعبأ بالدين ولا تحتفل بالمسيحية؟ هذا سؤال لا بدّ من الإجابة عليه؛ لأنه يطرح علينا وكأنها حقيقة علمية.

سؤال آخَر: هل حقيقة أنّ أوربا تقدمت لأنها نفضت يدها من الدين؟ سؤالان

مهمان، هل هي نفضت يدها من الدين أو لا؟

السؤال الثاني: هل هي تقدّمت لأنها نفضت يدها من الدِّين؟

سؤال ثالث: وهل حقيقة أنّ سبب تأخّر الشرق العربي يرجع إلى تمسُّكه بالإسلام وأخذه به؟ وهل الشَّرق متمسِّك بالإسلام؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة، أجد عندي سؤالًا لا بد من طرْحه:

هل الإسلام يتعارض مع الأخذ بأسباب التقدم وبأسباب النهضة حتى يُدَّعى أنَّه سبب تأخّرنا؟

وفي رأيي: أن وضع هذه القضية أمام حضراتكم بهذا الشكل يكون أكثر تحديدًا وموضوعية، بدلًا من أن نتلاعب بالألفاظ بوضْعها في غير موضعها الحقيقي، أو أن نلجأ إلى أسلوب الوعظ والإرشاد، وهو لا يفيد في مثل هذه المواقف. ولعلّ الإجابة عن السؤال الأخير -من وجهة نظري- تعطينا المفتاح الحقيقي للإجابة على بقية الأسئلة؛ لأن الأخذ بالمفاهيم الدينية الصحيحة لا يتعارض أبدًا مع الأخذ بأسباب التقدم. لماذا؟

لأن العلاقة بين الدين والتقدم ليست علاقة تناقض، ولا علاقة تضادّ حتى نظن أو نتوهم أن التمسك بالدين الصحيح هو سبب التأخر؛ وإنما هي علاقة اشتمال وتداخل. فكلّ ما هو دين صحيح لا بدّ وبالضرورة أن يكون فيه تقدم للبشرية، ولا بد أن يكون فيه أمن وأمان للبشرية. وكلمة "دين صحيح" هنا أنا أقصدها بالذات؛ لأن ليس كلّ ما يمارسه المسلمون هو دين صحيح، وحتى لا يُعَدّ من الدِّين ما ليس منه، وحتى لا يُرتكب باسم الدِّين ما لا يمتّ إلى الدِّين بسبب. كما أن التقدم الذي ينشده الإسلام بالذات لأهله هو: تقدّم لا يقتصر على تقدّم الأشياء في ذاتها -كما هو الحال في أوربا- فتكون الحضارة

الناتجة عن هذا اللون من التقدم حضارة مادية، أو حضارة شيئية، لا تُعنى بصالح الأشياء ولا بصالح الإنسان قدْر عنايتها بالأشياء في ذاتها، ذلك أنّ هذا اللون من التحضرّ المادي يوجّه كلّ اهتمامه إلى الوسائل، فيقلْبها إلى غايات، ويهمل الغايات الحقيقية التي يجب أن يتوجّه لخدمتها وتحصيلها كل همّ الإنسان أيًا كانت ثقافته ودينه.

والأديان كلّها خلاف ذلك تمامًا لأن الأديان تجعل الإنسان غاية، غاية في ذاته، غاية لكلّ تقدم، غاية لكل حضارة، وغاية لكل نهضة. ولا يمكن أن يكون الإنسان وسيلة لغيره أبدًا، وإلا انقلبت الموازين؛ بل لا بدّ أن يكون كلّ ما في هذا العالم مسخراً لخدمة الإنسان. ومن هنا، نجد الأديان كلّها قد وجّهت عنايتها إلى الإنسان باعتباره غاية مقصودة، وفي الوقت نفسه لم تطلب من الإنسان أن يهمل الوسائل باعتبارها مرآةَ وجوده وعنوان تحضّره؛ وهذا هو الفارق الدقيق بين موقف الأديان من معنى التّحضّر، وموقف أولئك الذين يرفضون الدِّين بدعوى أنه يعوق التقدم. فإن أولئك يهتمّون بتقدم الأشياء في ذاتها على حساب التقدم الإنساني. فإنّ تقدّم الإنسان في ذاته شيء، وتقدّم الأشياء المحيطة بالإنسان شيء آخَر. وفي هذا خلْط للأوراق، وجعْل الوسائل غايات، والغايات وسائل؛ وهذا في حد ذاته يحمل معنى الإفلاس لأية حضارة، حتى وإن طال زمنها.

ولذلك نجد أن بعض المستشرقين أنفسهم قد بشّروا ببوادر الإفلاس لبعض الحضارات المادية المعاصرة، ويرَوْن أنها قد بدَت واضحة في كثير من دول أوربا، حيث ظهرت حركات التمرد التي تعبِّر عن روح الإفلاس وروح الشباب الثائر على كل شيء، مع أنه في الوقت نفسه يملك ويتمتّع بكل شيء؛ هذه قضية.

قضية أخرى: أن أوربا لم تتقدم لأنها أهملت الدّين أو نفضت يدها من الدِّين، كما يُصدِّر إلينا المستشرقون هذه الأكذوبة لكي نتخلّص نحن من ديننا؛ بل

تقدّمت أوربا لأنها أخذت بأسباب التقدم، وملَكت ناصية العلْم. كما أن الشرق لم يتخلّف بسبب تمسّكه بدِينه ولا بسبب أخذه بمفاهيمه، وإنما يرجع تأخّر الشرق لأنه أهمل الأخذ بأسباب العلم، وأهمل الأخذ بأسباب التقدم وعوامل النهضة، ولم يسْعَ إليها. وهذا قانون عام ينطبق على المسلم وعلى غير المسلم؛ فمن يأخذ بأسباب التقدم يَصل ضرورة إلى النتائج إذا توفرت العوامل المساعدة.

ومن يهمل الأخذ بأسباب التقدم لا ينبغي أن يُمنِّي نفسه بالوصول إلى النتائج أبدًا؛ فالدِّين مفترًى عليه في هذه المقارنة. فليس إهمالُ الدِّين في أوربا كان سبب تقدّمها، وليس التمسك بالدين في بلاد العرب والمسلمين كان سببًا لتأخّرهم؛ بل ينبغي أن نتلمّس أسباب تقدم الغرب وأسباب تأخر الشرق بعيدًا كلّ البعد عن هذه الأكذوبة التي يُروِّج لها الاستشراق والاستعمار ومَن يدور في فلَكهم.

أودّ أن أُلقي معكم نظرة سريعة على موقف أوربا من المسيحية؛ لأننا سوف نجد أمامنا الآن ما يدعو إلى الدهشة والعجب؛ لأن موقف حكومات أوربا يختلف تمامًا عمّا يُشيعه المستشرقون عنها في العالم الإسلامي، من أنها تخلّصت من المسيحية. وسوف أضع أمامكم بعض المواقف لبعض دول أوربا على سبيل التمثيل وليس على سبيل الحصر، لنعرف هل هذه الدولة أو تلك تخلّصت من المسيحية، أم أن المسيحية تمثّل جوهر الثقافة الأوربية على امتداد تاريخها؟

وليكُن المثَل الأوّل من إنجلترا، فلا يشك أحد أنّ الشعب الإنجليزي -بمنطق العصر- شعب متقدّم، وشعب متحضر -بالإضافة إلى ذلك-، فإننا نراه على المستوى الحكومي من أكثر الشعوب الأوربية تمسكًا وحفاظًا على دينه، ومعتقداته، وكنيسته، ومسيحيته. وسوف أضع أمامكم مثالًا واحدًا يبيِّن مدى تمسك الحكومة الإنجليزية والأوربية بالمسيحية:

فلقد أثير في الحكومة أو بين أعضاء الحكومة في إنجلترا خلاف حول قضية دينية مائة في المائة، وهي: قضية تتصل بقصة العشاء الأخير الموجودة في العقيدة المسيحية، وأن الخبز والخمر الذي أوصى به المسيح في قصة العشاء الأخير، هل هو خبز حقيقي وخمر حقيقي حتى يتحوّل إلى جسد المسيح، أم أن العبارات الواردة في كلام المسيح عن هذه القضية كلام من باب الأسلوب المجازي، وليس الأسلوب الحقيقي.

هذه مسألة معروفة في الدِّين المسيحي. فالمحافظون في الحكومة الإنجليزية يروْن ويعتقدون أنه بمجرد أن يقف القسيس، ويقرأ بعض التراتيل على الخبز وعلى الخمر، ينقلب الخبز إلى جسد المسيح، وينقلب الخمر إلى دم المسيح، بناء على أن المسيح قد قال في العشاء الأخير السري لحوارِيِّيه: "إن هذا الخبز جسدي، وإن هذه الخمر دمي"، وقدّم لهم الخبز والخمر معًا.

أرجو أن تكونوا معي، وتفهموا هذه القصة جيدًا. فالكاثوليكيون يقولون: إنّه كلّما قدَّس الكاهن على الخبز والخمر، ودعا بالدُّعاء المعروف الذي قاله السيد المسيح، ينقلب الخبز إلى جسد المسيح، وينقلب الخمر إلى دم المسيح، حقيقة، وليس مجازًا؛ ولذلك كل من يأكل الخبز، ويشرب الخمر من يد الكاهن في هذه الليلة، فكأنه قد حلّت فيه بركة المسيح.

وأمّا الطرف الآخَر -الذين هم اليساريون- فيرون: أنّ هذه عبارات مجازية. غير معقول أن ينقلب الخمر والخبز إلى جسد ودم المسيح حقيقية. فحدث خلاف بين الطرفيْن، واحتدم الخلاف بين اليسار واليمين حول هذه المشكلة. واستدلّ اليسار بما في كتاب الصلاة الذي يمثل عقيدة الكنيسة الإنجليكانية. وفي هذا الكتاب ما يدل على: أن كلام المسيح ليس إلا رمزًا فقط، وتعبيراً مجازيًّاً فقط، وليس حقيقة ولا عبارة حقيقية؛ وبالتالي لا يجوز تعديله. اعترض اليمين على النص المقدّس، وطلبوا

تعديله وحذفه من كتاب الصلاة. وقف أمامهم الطرف الآخَر. ومن هنا دخلت هذه المشكلة -وهي مشكلة دينية مائة في المائة- إلى مجلس العموم البريطاني. وانتقلت منه إلى مجلس اللوردات. وشكلت الحكومة البريطانية لذلك مجلسًا مؤلفًا من كبار المطارنة لِحَسْم هذه المشكلة. ولكن هذا المجلس المؤلّف انقسم على نفسه أيضًا، ولم يتّفق على رأي واحد، إلا بعد نقاش طويل ترتّب عليه أن وزير الداخلية الإنجليزي في هذا الوقت قدّم استقالته احتجاجًا على تعديل النص.

هذه قضية دينيّة أم قضية سياسية؟ واضح أنها قضية دينية مائة في المائة، ونوقشت في أعلى مستويات المجالس النيابية والتشريعية في إنجلترا؛ فهل يُفهم من هذا: أن إنجلترا نفضت يدها من المسيحية، ومن الدين المسيحي؟ هذا بعد عرض القضية على مجلس اللوردات، وبعد مناقشات طويلة وعنيفة قرر المجلس تنفيذ قرار الأباطرة الذي كان يرأسه حينذاك رئيس أساقفة كانتربري أكبر أساقفة إنجلترا. ولما طلبوا تعديل كتاب الصلاة من موافقة مجلس العموم البريطاني، دخلت القضية مرة ثانية إلى مجلس العموم، ووقف وزير الداخلية البريطاني معترضًا على قرار التعديل في الكتاب المقدس، وقال: "إن كتاب الصلاة هو دستور كنيستنا في إنجلترا، ولا يمكن تعديله".

هذا موقف إنجلترا من المسيحية، ومن قضية واحدة فقط في الدين المسيحي.

مثال آخر: لقد وضعتْ بلجيكا في برنامج حكومتها الرسمي العمل على تنصير زنوج مستعمراتها في الكونغو، وتمّ لها ما أرادت؛ فأصبح أكثر نصف سكان الكونغو يدينون بالمسيحية بعد أن كانوا يعيشون حياة البداوة، وذلك بتبني بلجيكا نشر المبشرين في هذه البلاد لتحويلهم إلى النصرانية. هذا كلام معروف.

إيطاليا بعد أن غلب عليها حُكم الفاشية أعادت إلى المدارس الحكومية التعليم الديني الخاص الكاثوليكي، وأقامت الصلبان في المدارس، وعدّلت قوانين البلاد

تعديلًا موافقًا لمبادئ الكنيسة، وأعلنت أنها دولة مسيحية كاثوليكية، وأرسلت القساوسة والمبشرين إلى مستعمراتها، وزادت على غيرها من دول الاستعمار المسيحي: أنها أخذت أطفال المسلمين قهرًا من حجور أمهاتهم في ليبيا لكي تنصِّرهم على الكاثوليكية في إيطاليا. أيضًا هذا كلام معروف، وموثّق، وله وثائق في خزائن السفارات لهذه الدول. هذا شيء قد سجله التاريخ. جميع الدول البروتستانتية بلا استثناء في أوربا تعلن أنها دول مسيحية، وأن ثقافتها ثقافة إنجيلية. وكثيرًا ما أعلنت هذه الدول في برامج حكومتها أمام المجالس النيابية: أنها دول ملتزمة بالثقافة الإنجيلية، وبتعاليم الإنجيل.

ولا يخفى على أحد ممّن يقرأ تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي: أن وزير معارف هولندا افتتح مؤتمر المستشرقين في لايدن سنة ١٩٣١م بخطاب صرّح فيه بأن هولندا لم تذهب إلى الشرق لأجل التجارة، وإنما ذهبت إلى الشرق لنشر الدين المسيحي. كما صرّح وزير خارجية ألمانيا في كثير من خُطبه أمام الرخستاج: أن ثقافة ألمانيا قائمة على الدِّين المسيحي. بل أكثر من هذا: هتلر المعروف بدمويّته صرّح في فبراير سنة ١٩٣٣م حين تولّى رئاسة الحزب القومي الاشتراكي الحُكم في ألمانيا، ماذا فعل؟ وضع برنامجًا لوزارته صدّق عليه جميع وزراء ألمانيا المشتركين في الوزارة، بدأ هتلر هذا البرنامج بقوله: "إن أول واجب ستقوم به الحكومة القومية الألمانية هو: العمل لأجْل الوحدة الروحية، وإحياء العقيدة النصرانية في الأمّة، وإحياء التقاليد الجيدة الماضية".

وهناك كتاب يسمّى: "الأديان في ألمانيا" ينبغي أن يقرأه أولئك الذين يتزعّمون عن جهل دعوى فصْل الدين عن الدولة، ليعلموا ما للدِّين من قوة في هذه البلاد، وخاصة في ألمانيا، وكيف يقترن التعليم الديني بالتعليم المدني في ممارسته؟

مثال آخَر -معذرة أيها الأخوة. لنعرف الفَرْق بين ما يقال لنا، والواقع الذي تعيشه أوربا-: المصلح المسيحي وهو (كلفين) كان أساس برنامجه الإصلاحي هذه العبارة جعلها شعارًا لدولته: "أن الدولة المسيحية رأسها هو: الله، ولأجل أن يكون الإنسان تابعًا لهذه الدولة ينبغي له عدم الحيْدة عن خطّة الإنجيل، والمواظبة على إقامة الشعائر المسيحية، وأن يتناول القربان أربع مرات في العام؛ ذلك أنّ الاشتراك في المائدة الإلهية هو عبادة لله الذي هو رأس الدولة المسيحية".

ولا تنسوا أن فرنسا قد أعلنت في أكثر من مرة: أنها حامية المذهب الكاثوليكي في العالم. هذه بعض نماذج لمواقف دول أوربا من الديانة المسيحية، فهل بعد هذا يصحّ أن يقول أحد: إن أوربا تخلّصت من المسيحية؟ تخلّصُ أوربا من المسيحية كان سبباً في تقدمها؟

أردتُ من هذا فقط: أن أبيِّن ما في الأقوال التي تُطرح علينا من قِبَل المستشرقين من تزوير وتضليل وتدليس. لعل هذه هي آخر محاضرة تتعلق بقضية الاستشراق، وموقف المستشرقين من الفكر الإسلامي. وأودّ أن أضع أمامكم أهمّ الكتب التي تحدثت عن هذه القضية لتعودوا إليها إذا شئتم:

١- كتاب "تيارات فكرية معاصرة" لمحدّثكم: محمد السيد الجليند، أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، ورئيس قسم الفلسفة بها.

٢- كتاب "الاستشراق والتبشير" لمحدّثكم أيضًا: محمد السيد الجليند.

٣- كتاب "الفكر الإسلامي وصِلته بالاستعمار الحديث" للمرحوم الدكتور محمد البهي.

٤- كتاب "أجنحة المكر الثلاثة" للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني.

وهناك كتب كثيرة أكثر تفصيلا، ولكن أهمية هذه الكتب: أنها موجزة ومحدّدة، وتنهج نهجًا أكاديميًّا علميًّا.

التنصير (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	التنصير معنًى وتاريخًا	٢٠٧
العنصر الثاني	:	كتابا: "الغارة على العالم الإسلامي" و"العالم الإسلامي اليوم"	٢١٦
العنصر الثالث	:	تاريخ التنصير في المنطقة العربية	٢٢١
العنصر الرابع	:	تابع: تاريخ التنصير في المنطقة العربية، وفي العالم الإسلامي	٢٢٥

التنـــصير معنًـــى وتـاريخـــا

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، وأصلّي وأسلّم على خيْر خلْقه وخاتم رسُله، سيدنا ومولانا وإمامنا ومعلّمنا محمَّد ﷺ.

نلتقي الآن حول موضوع جديد يُعتبر إحدى وسائل الغزو التبشيري، أو الغزو الثقافي، أو الغزو الفكري، في عالمنا العربي والعالم الإسلامي؛ وهو بمعنى من المعاني يُمثِّل مع الاستشراق وجهيْن لعملة واحدة.

تحدّثنا عن الوجْه الأوّل —وهو: الاستشراق-، وسوف نتناول -بعون الله تعالى وتوفيقه- الوجْه الثاني من هذه العُملة وهو: التبشير. كلاهما معًا -الاستشراق من جانب، والتبشير من جانب آخَر- يمثِّلان الموقف التاريخي للغرب عمومًا، وإن شئت فقل: لأصحاب الديانتيْن السابقتيْن: اليهودية والمسيحية، من الإسلام.

وأنا أميل عادة إلى أن أسمِّي الأشياء بأسمائها. إن كلمة "تبشير" هي المصطلح الفنّي لتلك الحركة التي يقوم بها علماء النصارى ورهبانهم لنشر تعاليم الإنجيل بين المسلمين أو بين أصحاب الديانات الأخرى، ولكنني أفضل أن أطلق عليها اسمها الحقيقي وهو: التنصير. فأنا أفضِّل استخدام كلمة: "تنصير" بدلًا من كلمة: "تبشير"، لأن هذه الكلمة أكثر دلالة على المطلوب من كلمة "التبشير" التي حاول بعض الكُتّاب أن يستعملوها للتعبير بها عن هذا الجهد التاريخي الذي بذَله ويبذله علماء الدِّين المسيحي من النصارى في نشر وبث تعاليم الإنجيل بين المسلمين وغيرهم...

فإذا علِمْنا أنّ الهدف من نشر تعاليم الإنجيل هو: تنصير المسلمين وغيرهم، كان من الأفضل والأحوط والأوْلى أن نُطلق على هذه الظاهرة كلمة: "تنصير" بدلًا من كلمة: "تبشير".

وقد يكون مفيدًا لكم -أبنائي وبناتي طلاب هذه الجامعة-: أن نعلم جميعًا أنّ سياسة التنصير، وسياسة العمل على نشر أو بثّ تعاليم الإنجيل بين المسلمين ليست جديدة، وليست هي بنت هذا العصر، ولا وليدة جيل بعيْنه؛ بل هي قديمة قِدم الإسلام نفسه، وقد يمتد تاريخها إلى عصر النبوّة، ثم عصر الخلفاء الراشدين، ثم عصر بني أميّة، وما زالت هذه الظاهرة مستمرة إلى يومنا هذا؛ كل ما في الأمر: أنّ أساليب التبشير أو أساليب التنصير تختلف من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة، بل من فرد إلى فرد.

وأقدّم وثيقة سجّلت لنا تاريخ الحوار المسيحي الإسلامي هو: القرآن الكريم، وما جاء في القرآن الكريم من آيات كريمة سجّلت لنا ما كان يدور بين الرسول ﷺ مع أهل الكتاب في المدينة المنوّرة من حوار. وهذا الحوار -كما نلاحظ في الآيات القرآنية- كان يشتدّ أحيانًا ليأخذ شكل الصراع الذي يذهب إلى مستوى الكيْد للرسول، والتدبير لقتل الرسول ﷺ، كما فعلت اليهود مع الرسول في المدينة. وكان يهدأ أحيانًا ليأخذ شكل الحوار الموسوم بالسِّمة العقلانية.

وهناك سورتان في القرآن الكريم سجّلتا لنا ما كان يجري بين الرسول وأهل الكتاب، وهما: سورة (آل عمران) وسورة (المائدة). والذي يتدبّر آيات الحوار الواردة في هاتيْن السورتيْن يقف تمامًا على حقيقة هذه القضية، وحقيقة الموقف العقدي الذي كان يمثّل موضوع هذا الحوار، وكيف فضح القرآن الكريم سرائر هؤلاء النصارى واليهود حين بدّلوا وحرّفوا ما أنزل الله على عيسى النبي، وما

أنزله على موسى النبي. وبيّن أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هو من عند الله، وفي واقع الأمر ما هو من عند الله، وإنما هو من عند أنفسهم. واستمرت موضوعات هذه القضية تجسِّد نبرة الحوار الدينيّ خلال عصور الإسلام المتوالية.

وجسّد القرآن لنا هذا الهدف الذي استندنا إليه في تسمية الحركة بأنها تنصير وليست تبشيرًا، جسّدها لنا القرآن الكريم في العديد من آياته. اقرؤوا معي إن شئتم قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ [النساء: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]. هذه مواقف أودّ أن أضعها تحت أيديكم مع بداية حديثنا عن قضية التنصير في العالم؛ لأنها تجسد لنا الهدف الحقيقي من وراء الوسائل والمظاهر والمناهج التي اعتمدتها حركة التبشير في العالم في عصورها المختلفة.

ولقد تصدّى علماء الإسلام لهذه الظاهرة عبر القرون العديدة، فنجِد من علماء الكلام المعتزلة يضَع رسالته في الرد على النصارى وما أثاروه من فِتَن بين المسلمين، ونجِد القاضي عبد الجبار في كتابه: "دلائل النبوّة" نبّه على أساليب النصارى ومنهجهم في نشر تعاليم الإنجيل بين المسلمين، وردّ عليهم افتراءاتهم. كما تصدّى لنفس القضية الإمام ابن حزم في كتابه العظيم: "الفِصَل"، والإمام الشهرستاني في كتابه "المِلَل والنِحَل"، وعلي بن ربن الطبري في رسالته: "الرد على النصارى"، والإمام ابن تيمية في كتابه العظيم: "الجواب الصحيح لَمن بدّل دين المسيح"، وابن القيم في كتابه: "هداية الحيارى في الرد على النصارى"،

وكذلك الإمام القرافي في كتابه: "الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة"، والإمام القرطبي في كتابه: "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام"، وكثير من الرسائل التي لا تكاد تُعَدّ ولا تُحصى في هذا الغرض، وكلها تناولت الفتن والشبهات والشكوك التي أثارها النصارى واليهود في هذه العصور المتتالية حول القرآن، وحول مصدر القرآن، وحول نبوّة محمد ﷺ، وحول كونه خاتم الأنبياء أم ليس خاتم الأنبياء، إلى آخر الشبهات التي كانوا يُثيرونها من حين إلى آخَر. تولوا جميعًا الرّدّ عليها وتفنيدها، بل أكثر من هذا تجاوزوا مستوى الرّدّ على أكاذيبهم إلى محاولة نقْد ما في كتبهم، من تناقض وتحريف وتزوير وضَعه أهل هاتيْن الدِّيانتين بأيديهم ونسبوها إلى الله سبحانه وتعالى.

ولعلّ من المفيد أن أنبِّه هنا إلى: أنّ هناك علمًا مستقلًا برأسه الآن، يُدرس في معظم الجامعات الأوربية والجامعات الإسلامية أيضًا، يُسمّى: علم مقارنة الأديان. لقد وضع المسلمون الأوائل أصول ومناهج هذا العلْم من خلال تناولِهم لهذه الكتب السابقة ومقارنة بعضها ببعض، بل مقارنة أوّلها بآخرها لإظهار ما بها من تناقض لبيان أنّ التحريف والتبديل قد تطرّق إليها في كثير من المواضع، مما أصابها بالخلل، وصدق الله العظيم في قوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦].

وفي عصرنا الحاضر، كتب الأستاذ رحمة الله الهندي كتابه العظيم: "إظهار الحق" الذي يُعتبر من أهم الكتب الحديثة التي عرضت لقضية التبشير بأسلوب رصين ومنهج علمي رائع، أفاد من كتب العلماء السابقين. ثم بدأت هذه القضية تأخذ مكانها البارز في اهتمامات المفكرين المعاصرين لنا، وفي الأقسام الأكاديمية في كليات الجامعات المتعدّدة. ولعلّها تمثل الآن أهمّ قضايا الحوار القائم بين المسيحية

والإسلام في المؤتمرات المتعدّدة التي أخذت تحتلّ بؤرة الصراع القائم بين أهل هاتيْن الديانتيْن عبر التاريخ. وتحوّلت لغة الصراع إلى لون جديد من الحوار، كمظهر جديد من مظاهر العلاقة بين هاتيْن الديانتيْن.

سوف أركِّز على نصوص القائمين بحركة التبشير أنفسهم أو القائمين على سياسة التنصير، وكذلك على التوصيات التي يُوصون بها في مؤتمراتهم المتعدّدة ليكون كلامهم هُم شاهدًا لنا بما نريده من هذه المحاضرات، من حيث هدفها، ومن حيث غايتها، وليكون في نفس الوقت ردًا عمليًا على الذين يردِّدون كلامهم ويتشيّعون لمنهجهم، تحت ستار المدنية أحيانًا، وتحت ستار التحضّر والتنوير أحيانًا، وما إلى ذلك من مسمّياتهم الكثيرة التي يتستّرون خلفها لبثّ أفكارهم بين المسلمين.

ولقد نشطت المؤسسات التنصيرية في عالمنا المعاصر منذ القرن التاسع عشر وطيلة القرن العشرين، واشتدت بعد الحربيْن العالميتيْن الأولى والثانية، ممّا لفت أنظار المفكّرين المسلمين أن يتنبّهوا لخطورة هذه القضية وسوء عاقبتها، ممّا دعا البعضَ إلى رصد هذه المؤسسات، وتتبّع تاريخ هذا النشاط التنصيري في القرنيْن الأخيريْن بالذات.

وقبل أن أدخل إلى الحديث عن تاريخ حركة التبشير أو التنصير، أودّ أن أضع أمام حضراتكم تعريفًا بسيطًا لمعنى "التبشير"، ومن هو "المبشِّر"؟ وما هي أهداف هذه الحركة؟ فإن كلمة "التبشير" بهذا التعبير اللغوي أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على النشاط الذي يقوم به الرهبان والقساوسة والمتعهِّدون بهذه المهمّة لمحاولة تنصير الشعوب غير النصرانية، ولا سيَّما بين المسلمين، تعبير أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على هذا النشاط الذي يقوم به فئةٌ من رجال الكنيسة. قد

يكونون قساوسةً، أو رهباناً، أو تجاراً، أو علماء فلَك، أو علماء دِين، أو مهندسين، أو فنيين، لأن هذه المهمة -مهمّة التبشير أو التنصير- هي في حقيقتها تعتبر مسئولية كلّ من يَدين بالنصرانية، لكنهم بدؤوا يخصِّصون لها رجالًا معيّنين بمناهج معيّنة ووسائل معاصرة؛ ليكتسبوا بها وجاهة عند أولئك الشعوب التي يعملون فيها. ثم تحوّل هدف التبشير داخل الشعوب المسلمة ليس الهدف منه إدخال المسلم إلى الديانة النصرانية، ولكن كما صرح بعضهم: أن يخرج المسلم عن دِينه، ولا ينبغي أن ينال شرف النصرانية.

افهموا هذه القضية! غايتها بين المسلمين: إخراج المسلم عن دِينه، هل ليكون نصرانياً؟ في العصور المتأخِّرة اعتبروا أن هذا شرفٌ لا ينبغي أن يلحق به أبناء المسلمين، وصرّحوا بهذا في بعض المؤتمرات التي سوف نتعرّض لها بالتفصيل فيما بعد. هذا هو التعريف البسيط جدًّا لحركة التبشير. والمبشِّر أو المبشِّرون أو المنصِّرون هم: الذين يجنِّدون أنفسهم للقيام بهذه المهمة، سواء أكانوا من العاملين أو العاملات في السلك الكنسي كالرهبان والقساوسة، أو في الأعمال المدنية من المتطوِّعين والمتطوعات من ذوي الاختصاصات الأخرى، كالمهندسين والأطباء، والممرضات، والحكيمات، والمشرف الاجتماعي، والأخصائي النفسي، والطبيب... و... و... إلى آخره.

فليست المهمة إذن قاصرة على رجال الكنيسة، ولا على المنتمين إلى العمل الديني، وإنما كل نصراني يعتبرها جزءًا من مهمّته بمقتضى انتمائه إلى النصرانية. وهم يستدلّون على ذلك بأدلة من الأناجيل قد نتعرّض لها فيما بعد؛ إنما المهمّ: أن نعلم أنّ وظيفة التبشير ليست قاصرة على القسيس أو الراهب، وإنما تمتدّ لتشمل كلّ من ينتمي إلى المسيحية، وكلّ حسب استطاعته؛ ولذلك وجدْنا

بعضهم يُنصِّر أو يُبشِّر عن طريق الدعوة إلى النصرانية مباشرة، والبعض الآخر يستخدم التعليم أو الثقافة العامة، أو الخدمات الصحية، أو الخدمات الاجتماعية، أو دسّ الأفكار التنصيرية في مقالة، في مسرحية، في رواية، في حديث تليفزيوني، في مؤتمر... إلى آخره.

أما كلمة "التبشير" في أصلها اللغوي فهي تحمل معنى: البشارة بما هو خير، أو تبليغ ما هو خير للناس؛ لكي يكون واقعُ المبشِّرين الصليبيِّين وأهدافهم من التبشير تحمل هذه الدلالة التي تدعو إلى التفاؤل. "التبشير": كلمة "البشارة" -كما قلت-: خبر بما هو خيْر، فعندما يُطلق على نفسه كلمة "مبشِّر"، وعلى كلامه اسم "التبشير"، يدعو المستمع إلى التفاؤل بما يسمع. وهذه المصطلحات ينبغي أن نتوقّف أمامها لِنعرف دلالتها اللغوية، والهدف منها؛ وهذا باختصار هو معنى كلمة "التبشير"، والهدف من التبشير، وكلمة "المبشِّر".

أنتقل بعد هذا إلى الحديث بإيجاز عن تاريخ التبشير؛ لأننا سوف نجد في تأريخنا لهذه الحركة أنها مرت بمستويات: فقد كانت في العصور السابقة -خاصة في العصور الوسطى- كانت تقتصر على بعض النشاطات التي يقوم بها أفراد معيّنون جنّدوا أنفسهم لهذه القضية: فرْد هنا وفرْد هناك، لكنها في العصر الحديث أخذت تأخذ شكلًا تنظيميًا في صورة مؤسّسات تبشيرية، جميعات تبشيرية، دُور، مدارس، معاهد، كليات، أقسام في كليات. بدأت تأخذ شكلاً تنظيمياً أكثر ممّا كان موجودًا في العصور الوسطى.

وإذا تتبّعنا تاريخ هذه المؤسسات التبشيرية، سوف نجد أنّ معظم المؤرِّخين لهذه الحركة يكادون يُجمعون على: أنّ أوّل مَن مارس هذه المهمّة في العالَم الإسلامي الحديث هو: (ريمون لول) ١٢٩٩م أو ١٣٠٠م تقريبًا. هذا الراهب كان مفكرًا

إسبانيًّا تعلّم اللغة العربية، واستطاع أن يحصل على إذْن كتابي من الملِك يعقوب -صاحب مدينة أرهونة في إسبانيا- ليقوم بمهمّة التبشير في مساجد المسلمين في برشلونة، بين صفوف المسلمين. ونحن نعلم أن الإسلام ظلّ في إسبانيا ما يقرب من ثمانية قرون، لكن في أواخر عهد الإسلام بهذه المنطقة الجغرافية بدأت تتسلّل عوامل الضعف بين صفوف المسلمين، فانتهز المستشرقون هذه الظاهرة -ظاهرة ضعف المسلمين، وظهور ملوك الطوائف- وبدؤوا يستغلّون هذه الفرصة لنشر تعاليم الإنجيل بين صفوف المسلمين.

وكان في ذلك محتمياً بالسلطة المسيحية في إسبانيا، وذلك بعد أن فشلت الحروب الصليبية في تحقيق أحلام الغرب، وعودة بيت المقدس إلى السلطة الكنسية وانتزاعه من أيدي المسلمين. ولعلنا هنا نستطيع أن نربط بين ظهور فكرة الاستشراق من جانب، وظهور قضية التبشير بشكل منظّم أو في هيئة مؤسسية من جانب آخَر. يعني: يمكن أن نقول بشيء من الاطمئنان: أنّ ظهور الاستشراق ارتبط بظهور التبشير في شكل مؤسسي، في شكل منظم، أو تحت رعاية الدولة.

وكان قبل ذلك قد تأسس في سوريا وبلاد الشام جماعة تسمَّى: "جماعة الأخوة الكرملية" أسّسها أحد الصليبين في سنة ١١٥٧م. هذه التواريخ مهمة جداً لكي نعرف منها كيف تحوّل التبشير من نشاط فردي -مجهودات فردية غير منظّمة- إلى نشاط مؤسسي سياسي تتبنّاه الدولة وتتبنّاه الحكومة القائمة.

١١٥٧م تأسّست هذه الجماعة التي أطلقت على نفسها: "الإخوة الكرملية". وأطلق على المكان الذي تأسّست فيه اسم: جبل الكرمل. وفي أوائل القرن الثالث عشر تأسّست مدرسة الآباء الفرنسيسكان والدومينيكان، وأنشأت لنفسها فروعًا مختلفة في أنحاء سوريا وبيروت. ومن المهمّ: أن نشير هنا إلى أنّ المدارس

التبشيرية التي تأسّست في سوريا وبيروت كان لها أكبر الأثر في أمور مهمة جدًّا تتعلّق بمستقبل الإسلام والمسلمين في هذه المنطقة. فقد ساعدوا على إسقاط الخلافة العثمانية من جانب، وساعدوا على نشر الفكر القومي من جانب آخَر، وساعدوا على أكذوبة فصْل الدِّين عن الدولة من جانب ثالث. مع امتداد التاريخ، نجد أنّ هذه المنطقة النشاط التبشيري فيها نشيط جدًّا وله آثار قوية جدًّا في المنطقة. ويمكن أن نأخذ من هذه النقطة التاريخية بدايات طبيعية للتفكير في تأسيس دولة إسرائيل في منطقة شمال الجزيرة العربية، أو في منطقة فلسطين الآن. التفكير في تأسيس هذه الدولة تمالأ عليه الفكر الاستشراقي والفكر التبشيري، متعاونًا مع الفكر الصهيوني الماسوني كما سوف نعرف فيما بعد.

وفي أعقاب الحروب الصليبية كتب (وليم الطرابلسي) في بيروت رسالة تتعلق بشؤون المسلمين، يوصِي في هذه الرسالة باستخدام المرسلين -المرسلين الذين يعنيهم: هم المبشِّرون أو المنصِّرون- بدلًا من الجنود المعسكرين، لاستعادة البلاد المقدسة. وهذا الكلام كتبه (فيليب حتى) في كتابه: "تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين" في الجزء الثاني صـ ٢٦٣. ليس هذا الكلام من عندي، وإنما هو من عند المؤرخين الذين أرخوا للحضارة الإسلامية في بلاد الشام والحركة التبشيرية فيها. ولقد أشار (فيليب حتى) إلى هذه الوثيقة الخطيرة في كتابه عن "تاريخ سوريا وفلسطين"، وأوضح القول في العلاقة المتبادَلة بين الاستشراق من جانب والتنصير من جانب آخَر. وأشار إلى أن هدف الفريقيْن يكاد يكون واحدًا، وإن اختلفت الوسائل بينهما؛ فالمبشرون يستفيدون من دراسات المستشرقين دراستهم لخصائص البلاد: أحوالها الثقافية، أحوالها الاجتماعية والسياسية، عاداتها، تقاليدها، كيفية التقرب إلى أهلها، ما هي المداخل النفسية لأهل هذه البلاد؟ كيف يتم التعاون؟ ويكون التعاون قائمًا بين المبشرين وبين أهل هذه البلاد

لاستقطاب أهل الرأي في المنطقة للسيطرة عليها بكل الوسائل المتاحة؟ ولقد ركّزت حملات التنصير في العصر الحديث على أطراف العالم الإسلامي، والمناطق النائية في شرق وجنوب شرق آسيا، وبصفة خاصة في بلاد إندونسيا.

كتابا: "الغارة على العالم الإسلامي" و"العالم الإسلامي اليوم"

من الأمور التي وضعوها في مؤتمراتهم وتواصَوْا بها: أنهم قسّموا العالم الإسلامي إلى مناطق جغرافية. هناك منهجان لهذا التقسيم: منهج يقسم العالم الإسلامي إلى قلب وأطراف: قلب العالم الإسلامي يشمل: منطقة الحرميْن الشريفيْن ومصر. وأطراف العالم الإسلامي تشمل: شرق وجنوب شرق آسيا، وشرق وجنوب شرق إفريقيا، والبلاد التي تقع فيما نسمِّيه نحن الآن: أوربا الشرقية، والتي كانت خاضعة لبلاد الاتحاد السوفيتي قبل أن ينفرط عقد روسيا فيما بعد. وهذان المنهجان كلٌّ منهما وسيلة في التعامل.

فهناك من كان يرى أنّ أصلح وسيلة لنشر تعاليم الإنجيل بغية تنصير المسلمين: أن نركِّز أولًا على الأطراف؛ فيموتَ القلب من تلقاء نفسه. ويشبِّهون هذه الحركة بالطائر؛ فأنت إذا قصصت أطراف الطائر لا يستطيع أن يطير، وقد يموت تلقائيًّا بدون حرب.

المنهج الثاني يقول: لا، بل الأوْلى: أن نبدأ بضربات سريعة موجّهة إلى القلب، فإذا مات القلب ينقطع ضخّ الدم عن الأطراف؛ فتموت تلقائيًّا.

وبعد الحربيْن العالميّتيْن الأولى والثانية ظهر مَن ينادي بالأخذ بالمنهجيْن معًا: منهج الضغط على الأطراف، والضرب في القلب. والذين لهم دراية وخبرة

ويستطيعون تحليل الواقع الذي نعيشه الآن، يجدون مصداق ما نقول منفذًا وواقعًا وعمليًّا على الأرض وفي العالم الإسلامي.

أودّ أن أضع أمام حضراتكم: أن هذه القضية لم تَغِب عن أعيُن النصارى حُكّامًا ومحكومين. وهناك كتابان مهمّان جدًا أشير إليهما لِمن أراد أن يرجع إلى شيء من التفصيل: كتاب اسمه: "الغارة على العالم الإسلامي" لأحد المستشرقين الفرنسيِّين اسمه (إل. شاتيليه)، تُرجم إلى اللغة العربية بعنوان: "الغارة على العالم الإسلامي" بواسطة المرحوم الشيخ محب الدين الخطيب. في هذا الكتاب يُبيِّن هذا المستشرق الخُطط والمناهج العملية للاستشراق، ويبيِّن لنا تاريخ تأسيس الاستشراق جيلًا بعد جيل. فابتداءً يضع أمام أيدينا التقسيم الجغرافي للعالم الإسلامي، ثم يبدأ يبيِّن لنا تاريخ تأسيس الجمعيات والمؤسسات والمعاهد التبشيرية في هذه المناطق. فعلى سبيل المثال نجد أنه في سنة ١٦٦٤م في القرن السابع عشر، تأسست مدرسة تسمى: "قاعدة علمية لتخريج المبشِّرين". يتعلمون في هذه الكلية أصول التبشير ووسائله، ثم ينطلقون إلى أنحاء العالم. أين تأسّست هذه الكلية؟ تأسّست في قلب أوربا. ننتقل من ١٦٦٤م نجد بعدها وقبل أن يمضي قرن من الزمن تأسّست جمعية أخرى أيضًا في قلب أوربا - في لندن بالذات - تسمّى: "الجمعية اللندنية التبشيرية". وتأسس نظيرها في أسكتلندا. ثم انتقلت القضية إلى نيويورك، تأسست جمعية بنفس الاسم "جمعية أمريكا التبشيرية". وفي نفس الوقت تأسّس في ألمانيا، والدنمارك، وهولندا، والسويد، والنرويج، وسويسرا، جمعيات مماثلة لنشر المسيحية ١٧٩٥م. يعني: في أواخر القرن الثامن عشر - كلّ جمعية في أي دولة من هذه الدول بدأت تنتشر لها فروعٌ في أنحاء العالم؛ فتأسَّست جمعيات فرعية لكل واحدة من هذه البلاد فيما يسمّونه: "جمعيات التَّبشير في أرض التَّوراة العثمانية"

التي هي أملاك الدولة العثمانية. وحدثتكم - وأنا أتكلم عن الاستشراق - أنّ هناك مائة مشروع لتقسيم الخلافة العثمانية، نستطيع أن نعرف من الآن: أنّ هذه الجميعات التبشيرية التي انتشرت في أنحاء أوربا كيف تعاونت فيما بينها على وضع هذه المائة مشروع لإسقاط الخلافة العثمانية.

سنة ١٨٥٥م تألّفت جمعية الشبان المتطوِّعين للتبشير بالمسيحية في البلاد العربية. في ١٩٠٢م تأسست جمعية "تبشير الشبان"، ومهمّتها الخاصة استمالة المرأة، بنتًا، أو زوجة، أو مطلّقة، أو أرملة، طالبة، أو عاملة، أو ربّة بيت.

في ١٩٠٧م تأسّست جمعية لتبشير الكهول من النساء والرجال، واحتضانهم في بيوت تسمّى: بيوت كبار السن. وهذه منتشرة في أنحاء العالم.

ولا يفوتنا هنا أن نتكلم عن نشاطهم في إفريقيا أيضًا؛ ففي ١٨٠٤م تأسّست جمعية كنسية بروتستانتية تحت حماية الاستعمار الفرنسي في إفريقيا الغربية. في ١٨٠٤م هذه الجمعية بالذات بدأت تنتشر لها فروع في شرق وجنوب ووسط إفريقيا. في ١٨١٩م اتفقت الجمعية الكنسية البروتستانتية مع الأقباط في مصر، وألّفت في مصر إرسالية عهدت إليها بالتبشير في إفريقيا الشرقية وفي وسط إفريقيا. وركزت هذه الجمعية بالذات على منطقتيْن مهمّتيْن: جنوب السودان، والحبشة. ثم عزّزت ألمانيا هذه الإرسالية بالذات، وفتحت لها فروعًا في المنطقة التي يدور فيها الصراع في جنوب السودان الآن.

ثم توافد المبشِّرون على إفريقيا الوسطى بالذات عقب بعثة (إستانلي) سنة ١٨٧٨م. وقسّموا إفريقيا مناطق فيما بينهم؛ بحيث أنّ كلّ إرسالية تابعة لدولة معيّنة تضع يدها على منطقة جغرافية من إفريقيا لنشر تعاليم الإنجيل.

وسوف نعلم فيما بعد ما هي الوسائل التي كانوا يخاطبون بها أهل إفريقيا، أو يتعاملون بها مع أهل إفريقيا، لنشر تعاليم المسيح فيما بينهم، خاصة إذا علمنا أنّ معظم بلاد إفريقيا كانت في هذا الوقت لا تعرف شيئًا لا عن الإسلام ولا عن المسيحية، وإنما كانت ديانتها أقرب إلى الوثنية منها إلى أي دين سماوي.

هذا فيما يتعلق بالكتاب الأوّل وهو كتاب: "الغارة على العالم الإسلامي".

أمّا الكتاب الثاني الذي أودّ أن أشير إلى أهمّيته في هذا المقام؛ لأنني قلت في بداية المحاضرة: أنني سأعتمد على كتابات المبشِّرين في لقائي معكم حول هذا الموضوع. الكتاب الثاني يسمَّى: "العالم الإسلامي اليوم"، كتبه أحد كبار المبشِّرين في الخليج العربي، وهو القسيس (زويمر)، كان رئيسًا لإرسالية التبشير في البحرين، وكان يعمل تحت حماية أمريكا في هذه المنطقة، وكتب هذا الكتاب وهو: "العالم الإسلامي اليوم". والكتاب عبارة عن مجموعة تقارير عن أعمال المبشرين في الجزيرة العربية، في سوريا، ولبنان، والشام، في مصر، في البصرة، في البحرين، في الكوفة، في وسط إفريقيا.

وجاء في مقدمة هذا الكتاب أمور مهمّة جدًّا، أودّ أن أضعها أمام حضراتكم. فإن مقدّمة هذا الكتاب كلّها عبارة عن إلحاح على ضرورة التبشير بين المسلمين. ويوجِّه نقْده الشديد إلى المؤسسات التبشيرية، ويصفها بالكسل والتواني أو التخاذل عن نشر تعاليم الإنجيل بين المسلمين؛ بل إنه يعتبر المؤسسات التبشيرية ارتكبت خطأ كبيرًا بتركها المسلمين وشأنهم؛ إذ ظهر لها أنّ أهمية الإسلام في هذه الدرجة الثانية حوالي ثمانمائة مليون وثني -هكذا يعتبرهم (زويمر)-.

وُضع هذا الكتاب في النصف الأول من القرن العشرين، وكان تعداد المسلمين وقتها لم يتجاوز أو لم يصل إلى المليار الذي نتحدث به الآن، فكان يحكم عليهم

بأنهم وثنيون. ويطلب (زويمر) في هذا الكتاب الإلحاح على ضرورة الإسراع بالتبشير بهمّة ونشاط، ويقول: "إنّ أبواب التبشير صارت مفتوحة الآن في جميع الممالك الإسلامية، مثل: الهند -وركّز على الهند وإندونيسيا بالذات- والصين الجنوبية، ومصر، وتونس والجزائر". ثم يقدّم نصائحه إلى المبشرين قائلًا: "يجب أن يكون تبشير المسلمين بوساطة رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم؛ لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أغصانها، أو أحد أعضائها. وكيف يكون المبشِّر بالمسيحية مسلماً؟ عن طريق نشر الانحلال، والتجرد من الشعائر والطقوس الدينية، ومحاولة تشويه الإسلام وتزيين المسيحية؛ فينشأ جيل لا علاقة له بالإسلام، ولا صلة له بالإسلام، ولا يريد أن يعرف شيئًا عن الإسلام. هذا اللون من الأجيال يسهل اقتيادها إلى ما يراه المستشرقون".

ثم يقول: "ينبغي للمبشرين ألا ييأسوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة؛ إذ من المحقّق: أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيِّين، وإلى ما طرحناه عليهم من تحرير المرأة". واسمع يا أخي هذه العبارة: "قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيِّين وإلى ما طرحناه عليهم من قضية تحرير المرأة".

ويشير إلى أن أهمّ معاهد التبشير التي أنشئت في مصر هو: المعهد الذي أسسته جمعية اتحاد مبشري أمريكا الشمالية سنة ١٨٥٤م. وقد استطاع المبشرون منذ هذه الحقبة حتى سنة ١٩٠٤م أن يحتكُّوا بالمسلمين في مصر، عن طريق مؤلفاتهم ومدارسهم، وعن طريق المحاضرات العامة وبقية ألوان النشاطات المختلفة التي استخدموا فيها كلّ ما هو متاح ثقافيًّا واجتماعيًّا.

تاريخ التنصير في المنطقة العربية

ومن الأمور التي تحتاج إلى إشارة في مثل هذا اللقاء: أن نشير إلى نشاط المبشِّرين في الجزيرة العربية؛ لأن موقف المبشِّرين من الجزيرة العربية وعلاقة هذه الجزيرة بالحرمَيْن الشريفَيْن يقتضي من المسلمين أن يكونوا على وعي تام بما يُدبَّر لهذه المنطقة من سياسة الالتفاف حول الحرمَيْن الشريفين.

ولك أن تدور بناظريْك الآن يا أخي، حول ما يجري في هذه المنطقة. ففي شمال الجزيرة العربية زُرعت إسرائيل زرعًا شيطانيًّا. وفي شرق الجزيرة العربية الآن توجد أمريكا. وفي جنوب الجزيرة العربية الآن أكبر مخزن سلاح أمريكي في العالم. وبقية المناطق الجغرافية المحيطة بالحرمَيْن الشريفَيْن لا ينبغي أن نغضّ الطرف عما يجري فيها؛ وهذا يدعونا إلى إلقاء بعض الضوء على موقف المبشرين وأيضًا نشاط المستشرقين المتعلّق بالجزيرة العربية بالذات.

فأقدم إرسالية تبشيرية في هذه المنطقة هي: الإرسالية الأمريكية البروتستانتية، ذات الأهداف التبشيرية المتعدِّدة في شبه الجزيرة العربية.

هذه الإرسالية -أيها الأخوة- قام بتأسيسها الدكتور (لانسنج) أستاذ اللغة العربية في معهد اللاهوت في نيوبرسنج. هذا المعهد خاص أو أنشئ خصيصًا لتدريب المبشِّرين، والعمل على نشرهم في البلاد الإسلامية؛ فهو خاص بتدريب المبشِّرين وتابع لكنيسة الإصلاح الديني في أمريكا. فلقد ساعد "لانسنج" هذا في تأسيس هذه الإرسالية، وقام بمعاونته ثلاثة من أخص تلاميذه وهم: (جيمس كنتان) و(صموئيل زويمر) و(فيليب فيليبس): ثلاثة من كبار المبشرين في المنطقة؛ وهم من أصفى تلاميذ الدكتور (لانسنج). ولا ننسى أن والد (لانسنج) نفسه كان

مبشرًا في بلاد الشام وخاصة في سوريا، وظل في سوريا لمدة طويلة جدًّا حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد أطلق (لانسنج) ومساعدوه الثلاثة على هذه الإرسالية الأمريكية هذا اللقب، أسموها باسم: "الإرسالية العربية"، وأسسوها في سنة ١٨٨٩م، استجابة لطلب رسمي مقدّم إلى هيئة الإرساليات الأجنبية للسماح بالقيام بعمل تبشيري في البلاد الناطقة باللغة العربية. وهذا الطلب مقدم من (لانسنج) إلى زعماء هذه المنطقة، للسماح لهم بتأسيس هذه الإرسالية لنشر تعاليم الإنجيل بين الناطقين باللغة العربية.

وبدأت هذه الإرسالية تباشر نشاطها فعلًا في الجزيرة العربية، وخاصة في المناطق المطلّة على الخليج العربي. الذي يتصوّر جغرافية المنطقة يعلم: أن المناطق المطلّة على الخليج تبدأ من البحرين، الكويت، قطر، الإمارات العربية المتعدّدة، ثم عمان. ولا مانع أن تتوغّل هذه الإرسالية إلى قلب الجزيرة العربية؛ وهذا قد حدث فعلًا. وكانت كنيسة الإصلاح الأمريكية بولاية نيوجرسي هي التي تتولّى الإشراف العلمي والتمويل المادي لهذه الإرسالية. وكانت أيضًا تمدّها بالمبشِّرين الجدد، الذين أتّموا تدريبهم وأصبحوا مؤهَّلين للقيام بالعمل التبشيري في الجزيرة العربية. وكان من أهم أسلحتهم: تعلّم اللغة العربية، وتعلّم العادات والتقاليد الاجتماعية لهذه المنطقة.

وكان من خطّة هذه الإرسالية: العمل على نشر الإنجيل، خاصة الآيات التي تدعو إلى المحبة في هذا المكان بالذات. ولقد أحسّت هذه الإرسالية بصعوبة المهمّة التي كُلِّفوا بها، خاصة في منطقة الجزيرة العربية التي هي المهد الحقيقي للإسلام، والتي يتمتّع جميع أهلها وجميع من يعمل فيها بالولاء الكامل والغيرة الشديدة على الإسلام والمسلمين؛ لذلك فكّروا في وضع خطة مكتوبة يوافق عليها أعضاء الإرسالية لتكون هذه الخطة بمثابة ورقة عمل لهذه الإرسالية في المنطقة وفي غيرها

من العالم. لمَ؟ لأنه كان عندما يأتي مبشِّر يقيم فترة زمنية معيّنة ثم لا يجد من إقامته فائدة، ولا أحد يعلن تبرُّؤه من الإسلام ويعتنق المسيحية، ظلوا هكذا فترة طويلة، فأخذوا يغادرون المنطقة واحدًا تلو الآخر. فبدؤوا يضعون ورقة عمل، وتقدّم هذه الورقة للمبشِّر المتطوّع الذي أتى للمنطقة، ثم يوقِّع عليها بالموافقة على تحمُّل كلّ ما يواجهه في هذه المنطقة من صعوبات. ولذلك نجد أنه ممّا جاء في هذه الورقة المكتوبة -أنا أسميه عقداً بين أفراد المبشرين وبين الإرسالية كمؤسسة حكومية أمريكية تقوم بهذه المهمة- ، جاء في هذه الخطة ما يلي:

نحن الموقِّعين أدناه، قد عقدنا العزم على القيام بنشاط تبشيري رائد في البلاد الناطقة باللغة العربية، وبصفة خاصة من أجل المسلمين والعبيد، مقرِّين منذ البداية بالحقائق التالية:

١- الحاجة البالغة لهذا العمل التبشيري، وضرورة تشجيعه في العصر الحديث في هذه المنطقة من العالم.

٢- عدم وجود مثل هذا العمل التبشيري في هذه المنطقة، خاصة تحت إشراف مجلس الإرساليات الأجنبية في الوقت الحالي. (هذه العبارة تدلّنا على أنه كان هناك نشاط لكن لم يوجد تحت إشراف إرساليات).

٣- عدم قيام أي مجهود يُذكر حتى الآن في المجالات التبشيرية آنفة الذِّكر.

ولتحقيق هذه الأهداف المرجوّة، فإننا نتقدم من المجلس وبتأييده إلى الكنيسة العامّة بالمقترحات التالية:

١- الشروع بهذا العمل التبشيري بأسرع وقت ممكن.

٢- أن يكون ميدان العمل هو: الجزيرة العربية وأعالي النيل. -أعالي النيل في عُرفهم يشمل السودان ومصر-.

وممّا جاء في المادة الأولى من دستور هذه الإرسالية: أنه سيكون اسم هذه الإرسالية "المنظمة العربية" أو "الإرسالية العربية".

وفي المادة الثانية: سيكون هدف هذه الإرسالية: القيام بالعمل التبشيري في الجزيرة العربية، والبلاد الناطقة باللغة العربية.

هذا أشبه بالعقد المكتوب بين أفراد المبشِّرين الذين انتشروا في الجزيرة العربية، وبين الإرسالية الأمريكية كمؤسسة حكومية تشرف وتهيمن وتموِّل نشاط هؤلاء المبشرين. ولا شك أنّ اختيار الجزيرة العربية، واختيار هذه الإرسالية كأكبر إرسالية في الشرق، كان يهدف إلى أمور كثيرة، نتناولها، ونتعلّم كيف استطاعت هذه الإرسالية أن تغزو أطراف الجزيرة العربية المطلّة على الخليج العربي غزوًا ثقافيًّا، وأصبح له تأثيره في السلوك العربي في كثير من هذه البلاد.

فهذه الإرسالية التبشيرية الأمريكية التي زُرعت زرعًا في شرق الجزيرة العربية، وبالذات في دولة البحرين، كانت تعمل بنشاط على أطراف الجزيرة العربية المطلّة على الخليج العربي، ولا مانع أن كان نشاطها يمتد أحيانًا إلى قلب الجزيرة العربية تحت أسماء لنشاط اجتماعي أو ثقافي كما سوف نتناوله فيما بعد. وقلنا ونقول: إنّ اختيار الجزيرة العربية كمركز رئيسي لهذه الإرسالية بالذات كان له أهدافه البعيدة، التي خطّط لها المبشِّرون -وبمعاونة بعض المستشرقين- ليعملوا على تحقيقها على المدى البعيد.

ومن أهمّ هذه الأسباب التي أعلنوها صراحة -كما جاء في مؤتمراتهم- هو: أنّ الجزيرة العربية كانت في سابق عهدها موطناً للمسيحية قبل الإسلام، ومحاولة إرجاعها إلى سابق عهدها المسيحي أمر ضروري، أرأيتم؟!!

وقد أكّد أحد رؤساء هذه الإرسالية -وهو: (صموئيل زويمر) أحد المؤسِّسين لها مع (لانسنج)- على هذه الأهداف أكثر من مرّة. فقد أكد عليها في قوله: "إن من بين الدوافع للعمل التبشيري في جزيرة العرب: أنّ لنا فيها تاريخًا. إن للمسيح حقًّا في استرجاع الجزيرة العربية": هكذا صرّح (زويمر). "وقد أكّدت الدلائل التي تجمّعت تحت أيدينا في الخمسين سنة الماضية على: أن المسيحية كانت منتشرة في هذه البلاد في سابق عهدها. وهناك دلائل أثريّة واضحة المعالم على وجود الكنيسة المسيحية هناك؛ ولهذا فإنّ من واجبنا أن نُعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية".

هذا الكلام قاله (زويمر) في بعض المؤتمرات، وقاله في كتابه: "العالَم الإسلامي اليوم". و(زويمر) هذا هو أحد مؤسِّسي الإرسالية التبشيرية الأمريكية في دول الخليج؛ لا ننسَ هذا.

تابع: تاريخ التنصير في المنطقة العربية وفي العالم الإسلامي

وبعد دراسة أحوال المنطقة سياسيًّا وجغرافيًّا واجتماعيًّا، قرّر الجنرال (هيج) في رحلته إلى الجزيرة العربية: أنّ كل الجزيرة العربية بدرجات متفاوتة مهيّأة الآن لاستقبال الكتاب المقدس بذراعين مفتوحتيْن، مع أنّ الجنرال هذا رجل عسكري، لكنه في نفس الوقت يحمل في عمله العسكري الطابع التبشيري. وهو قد كتب هذه العبارة في بعض التقارير التي أرسلها إلى الكنائس التي يتْبعها. وقد أنشأت هذه الإرسالية الأمريكية عدّة مراكز متعدّدة في بيروت، وفي البصرة، وفي

البحرين، لكن كانت البحرين أهمّ مركز لهذه الإرسالية؛ حيث أنشأت الإرسالية مكتبة كبرى للكتاب المقدس في البحرين سنة ١٨٩٣م. ومن هذه المكتبة أخذت هذه الإرسالية توزِّع الكتاب المقدس على الإرساليات التي أنشأتها في البصرة، وفي الكويت، وفي بيروت، وفي بعض بلاد الجزيرة المطلّة على الخليج الفارسي. فكأنّ المكتبة التي زُرعت في هذه الإرسالية كان من أهمّ أهدافها: نشْر الكتاب المقدس في هذه المنطقة. وبذلك أصبحت البحرين مركزًا مستقلًا للنشاط التبشيري في هذه المنطقة، بعد أن كان تابعًا لمركزهم بالبصرة، كانت البحرين والمنطقة كلّها تابعة في نشاطها التبشيري للمركز التبشيري الموجود في البصرة. وهو مركز قديم، لكن جُدِّد نشاطه بعد تأسيس هذه الإرسالية.

وساعد على تكثيف النشاط التبشيري في هذه المنطقة عوامل كثيرة، أشار إليها المبشِّرون في كتاباتهم، من أهم هذه العوامل:

أنّ وضْع البحرين السياسي كان مؤهلاً للقيام بهذه المهمّة. لماذا؟ لأن البحرين كانت محميّة بريطانية. وكان هذا العامل وحده كافيًا لتوفير قدْر من الحماية، قدْر من الأمان والأمن للمبشِّرين الذين يعملون في هذه المنطقة. ثم ابتدأ نشاط هذه الإرسالية إلى جنوب الجزيرة العربية، فأنشأت لها مركزاً في عمان، وفي مسقط. ومن عمان امتد نشاط الإرسالية إلى شرق إفريقية ووسطها. كأنَّ إرسالية البحرين أصبحت مركز تجمّع ونشر للإرساليات في المنطقة العربية شمالها وجنوبها، كما رأينا في بيروت وفي عمان شرقها وغربها، كما رأينا في إفريقية وفي البصرة في العراق؛ ولذلك علّق المبشرون أهمية كبيرة جداًّ على المنطقة الجغرافية لهذه الإرسالية باعتبارها مركزًا لتوزيع الكتاب المقدس على المنطقة.

في مطلع القرن العشرين، وجدْنا المبشرين يؤسِّسون مركزًا لهم في دولة الكويت، حيث بدؤوا في زيارتها من سنة ١٩٠٠م. وبعض المؤرخين يقول أن هذه هي المرة الأولى التي وفد إلى الكويت بعض المبشرين لمباشرة النشاط التبشيري. وكانت الزيارة الثانية في سنة ١٩٠٣م حين افتتحوا بها مكتبة لبيع الكتاب المقدس. ولكن في هذه المرحلة التاريخية رفض حاكم الكويت -وهو: الشيخ مبارك- أن تقوم هذه المكتبة بأي نشاط تبشيري في الكويت، وأمر بإغلاق هذه المكتبة نهائيًّا. ولكن هل انتهت علاقة التبشير بالكويت؟ لا. فإن أعين المبشرين لم تنصرف أبدًا عن الكويت، بما فيها وما لها من أهمية كبيرة في نظر المبشرين. فلقد كتب أحد المبشرين وهو (أرنولد ويلسن) عن أهمية الكويت بالنسبة للنشاط التبشيري، وبيّن أن المزايا الاستراتيجية والتجارية لموقع الكويت الجغرافي، وقرْبها من مدخل دجلة والفرات، وصلتها الوثيقة بمملكة ابن سعود آنذاك في وسط الجزيرة العربية، وأنّ موقعها الجغرافي يسمح بالعبور بسهولة إلى قلب الجزيرة العربية؛ كل هذه الأمور جعلت الكويت ذات أهمية قصوى في نظر المبشِّرين. وظلت المحاولات قائمة بين مدّ وجزر، بين الإرسالية وبين الشيخ مبارك حاكم الكويت، ولم ييأسوا أبدًا من المحاولات وتكرار المحاولات، إلى أن توصلت الإرسالية إلى الحصول على موافقة من الشيخ مبارك بفتح مستشفى في الكويت سنة ١٩١٣م. وأعطاهم الشيخ مبارك قطعة أرض مجاورة للقصر الذي يقيم فيه ليقيموا عليها منزلًا لهم. وتدخّل القنصل البريطاني ليكون وسيطًا لهم عند الشيخ، بضمان الولاء وعدم المعارضة. وظلت الإرسالية تباشر نشاطها من هذا المنزل بالمنطقة إلى وقت قريب جدًا.

هذه الإرسالية مسؤولة عن نشر الإرساليات الفرعية في معظم بلاد الخليج؛ فكان من المراكز التي أنشئت تحت رعاية هذه المؤسّسة التبشيرية: أن أنشئ مركز لهم في

منطقة قطر أو في إمارة قطر آنذاك ؛ حيث قدّم إليها القسيس (جريت بنتجز) والدكتورة (توما) و(دين) و(أريسون) والآنسة (كورنيلا) لتفقُّد معالم هذه المنطقة ودراسة أحوالها. وحدثت لقاءات مع المسؤولين في إمارة قطر آنذاك. وفي سنة ١٩٤٥م بالتحديد، حضر إلى قطر القس (فان برسن) لافتتاح مستشفى وبعض المراكز الطبية في قطر. ووجدوا في هذا فرصة جيدة لمزاولة نشاطهم التبشيري. وطلب منهم الشيخ أن يضعوا تصميمًا لمستشفى سيعهد بإدارتها فيما بعد إليهم. وفي خريف سنة ١٩٤٧م، أصبح المستشفى جاهزًا للعمل، ولكن هذه الخدمات الطبية لم تستمر طويلًا في قطر؛ ففي سنة ١٩٥٢م اضطرت الإرسالية التبشيرية أن تتوقّف عن نشاطها تمامًا؛ حيث عادت المستشفى إلى حكومة قطر، وأصبحت الإرسالية غير آمنة على نفسها؛ فتوقفت عن العمل تمامًا في هذا البلد، ورحلت بكل أفرادها من قطر رحيلًا كاملًا. وهذه فكرة موجزة عن نشاط المبشِّرين في المنطقة العربية خاصة في دول الخليج.

ومن المعلوم: أنه في عصر الاستعمار الحديث، وبالذات تحت الحماية البريطانية لهذه المنطقة، نشطت عملية التبشير في الأقطار الإسلامية التي احتلّتها دول الغرب، خاصة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا؛ حيث فرضت هذه الدول سيطرتها السياسية والثقافية على أهل هذه البلاد، وجلب الاستعمار معه كثيرًا من المبشرين وسدَنة الكنائس. ففي عام ١٨٧٠م -على سبيل التمثيل- وَسَّعتْ البعثة التبشيرية التابعة إلى الكنيسة الإصلاحية في أمريكا مجال نشاطها في العراق، حيث كانت تباشر أعمالها في العراق، وامتدادًا منه إلى منطقة الخليج عن طريق تقديم الخدمات الطبية والتعليمية. كما أن الكنيسة الإنجليكانية ارتبط وجودها بالجيش البريطاني في منطقة الخليج،

وامتد ذراعها لتعانق النشاط التبشيري تحت الحماية البريطانية في مصر، بينما وصلت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق الهند وإفريقيا الشرقية. وقد أسّس عدد كبير من موظفي شركات النفط كنائس على المستوى المحلي، وأخرى على المستوى الإقليمي. وآخِر الكنائس التي أسِّست في الخليج العربي، كانت تلك التي أسّسها العمال المهاجرون من الهند وباكستان في منطقة الخليج.

هذه فكرة موجزة عن تاريخ التبشير في المنطقة العربية، وفي العالم الإسلامي شرْقه وغربه. وباستقراء النشاط التبشيري في هذه المناطق، يمكن أن نقول بشيء من الإيجاز: إن النشاط التبشيري قد غطّى العالم الإسلامي جغرافيًّا. فوجدنا المناطق الإسلامية في إفريقيا، وفي أسيا، والبلاد الإسلامية في شرق أوربا، كلها واقعة تحت نفوذ وسيطرة المبشرين الذين انتشروا في هذه الأرجاء تحت حماية الاستعمار، وعلى مرأى ومسمع من العالم الغربي الذي يدعونا العالم إلى أن نتحلّل من ديننا، بدعوى أنّ ديننا يدعو إلى التعصب ويدعو إلى التطرف.

التنصير (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول : أهم وسائل المنصرين في نشر مبادئهم الإنجيلية ٢٣٣
العنصر الثاني : دور نصارى لبنان في النشاط التنصيري في مصر ٢٤١
العنصر الثالث : دور العمالة المهاجرة في التنصير ٢٤٥
العنصر الرابع : النشاط التنصيري في مصر ٢٤٩

أهم وسائل المنصرين في نشر مبادئهم الإنجيلية

بعد هذه الفكرة الموجزة، نريد أن نتعرّف على أهمّ الوسائل التي كان يسلكها المبشِّرون في نشر مبادئهم الإنجيلية، وفي نشر تعاليم الإنجيل بين المسلمين. وسوف يكون حديثنا عن هذه الأمور بشيء من الإيجاز بقَدر ما تحتمله هذه المحاضرات. وهذه الوسائل التي نتحدّث عنها الآن -إذا أمعنّا النظر فيها- نجدها تختلف حسب البيئة الجغرافية للمنطقة التي يعملون فيها:

فإذا كانت المنطقة فقيرة ومستواها الاجتماعي متدنٍ، نجدهم يلجؤون إلى العمل الاجتماعي عن طريق فتح ملاجئ للأيتام، فتح دور لكبار السِّن، فتح مستوصفات للعمل الطبي، فتح مستشفيات ومؤسسات تعليمية. وهي تحمل معها هذه الأسماء البراقة: مستشفى طبي، مؤسسة علاجية، دُور لليتامى، دُور لكبار السن؛ لكن إذا دخلت أيًّا من هذه الدُّور سوف تجد النشاط الداخلي فيها يركِّز همّ المبشرين على العمل التبشيري من ألِفِه إلى يائه. ولا يخفى على حضراتكم: أنّ العمل الطبي كان يحظى بنصيب الأسد، ثم يليه العمل الاجتماعي، خاصة في البلاد الفقيرة والتي مستواها الاجتماعي متدنٍ إلى حدّ كبير، كمثل إفريقيا مثلًا، وجنوب السودان. هذه البلاد انتشرت فيها هذه الوسائل أكثر من غيرها.

أمّا إذا كان المستوى الاجتماعي يتمتّع أصحابه بقدر من الثقافة وقدر من العلم، فإننا نجد أن الوسائل تختلف. فربما استخدموا الوسائل الإعلامية، كالمذياع والتلفاز، وأحيانًا الرواية والقصة، وأحيانًا المسرح.

وإذا كان المستوى الاجتماعي له ميول سياسية لمذهب معيّن، يميلون معه، يعني: يتفرّسون المداخل النفسية لكلّ منطقة؛ وهذا نوع من الخبرة التي اكتسبوها من طول ممارستهم للنشاط التبشيري في العالم. لكن بالتحديد، نجد أنّ أهم الوسائل التي سلكها المبشرون في منطقة الخليج: أنهم كانوا يركّزون على الجوانب الاجتماعية لخدمة المنطقة. ومما ساعدهم على سهولة الأخذ بهذه الوسيلة: أنّ المنطقة الخليجية قبل ظهور النفط فيها كانت تعيش حياة البداوة، وكان الجهل هو الصفة الغالبة على سكّان المنطقة، وكان الفقر أيضًا يغرسُ أنيابه بين السكان، وكان واقعًا يعيشه معظم أبناء هذه المنطقة، خاصة الذين يعيشون في البادية. أضف إلى هذا: أن الجهل والفقر يَتبعه تلقائيًّا أنّ الحالة الصحية والرعاية الطبية تكون متدنِّية. وهذا كله جعل النشاط الطبي وسيلة مناسبة وميسورة، وبعيدة عن الشبهات؛ فاتّخذ المبشِّرون هذا الجانب الطبي. وعن طريق المستشفيات، والعيادات العامة، والمستوصفات الطبية، حتى الخيام، كانوا ينصبون الخيام الطبية لمعالجة الفقراء، ومن هنا كان يسهل اللقاء المباشر مع سكان المنطقة من المسلمين، رجالًا ونساءً على حدٍّ سواء. فكان المريض مثلًا إذا ذهب إلى المستشفى لا يُسمح له بلقاء الطبيب إلاّ بعد أن يؤدّي صلاة الكنيسة، أو الصلاة المسيحية بالكنيسة الملحقة بالمستشفى. ثم بعد لقائه بالطبيب، يأخذ الروشتة من الطبيب ويذهب إلى الصيدلية - وطبعًا ليس هناك صيدلية وإنما هي خيمة أو غرفة - لأجل أن يصرف العلاج؛ فلا يُصرف له العلاج إلا بعد لقاء مباشر مع الراهب إذا كان رجلًا، أو الراهبة إذا كانت امرأة. وهذا اللقاء جعل للهيئات الطبية بالمنطقة وضعًا متميزًا بين جميع سكانها.

نقول: إن هذه الظروف قد أتاحت للمبشِّرين وضعًا متميزًا وفرصة لا تعوّض، لماذا؟ لأنّ المريض أو المريضة، أو بعبارة أخرى المسلم والمسلمة كانوا هم الذين يطلبون لقاء الراهب أو الراهبة، أو بعبارة أخرى الطبيب أو الطبيبة، ويسعيان لمقابلتهما؛ فكان

المبشِّر لا يسعى هو إلى من يدعوه، ولكن المريض كان هو الذي يسعى إلى الطبيب، ويسمع منه ويجلس إليه؛ وهذا جعل المستشفى والمستوصف من أخطر مراكز التبشير في منطقة الخليج. وفي الحقيقة، لم تكن هذه الظاهرة -ظاهرة استغلال الحالة الصحية، أو النشاط الطبي- قاصرة على دول الخليج، وإنما كانت هي وسيلة عمّمها المبشرون في كل أنحاء العالم، وخاصة في المناطق الفقيرة كما قلت.

ففي إفريقيا وفي إندونيسيا كانوا يعتمدون على النشاط الطبي كوسيلة من وسائل التبشير. ويليه مباشرة النشاط الاجتماعي. ولعل أكبر مثال على هذا: مستشفى بعثة الاتحاد الإنجيلي في الإمارات العربية المتحدة؛ فإن نشاط هذه المستشفى لا يقتصر على المرضى المقيمين فيها فقط، وإنما تعدّى نشاطها إلى إقامة الندوات العامة التي كانت تُعقد في القاعة المُعَدّة لذلك. كما تأسس في المستشفى مكتبة خاصة لبيع الكتب والمطبوعات المسيحية؛ بل في كلّ غرفة منها كانت تُقدّم أشرطة التسجيل للكتاب المقدس وسماع موعظة الأحد.

إذاً النشاط الطبي كان أحد الوسائل التي اعتمد عليها المبشرون في العالم كلّه، وخاصة المناطق المحرومة طبيًا أو الفقيرة اجتماعيًا؛ وهذا كان سبيلهم -كما قلنا- في إفريقية وفي إندونيسيا، وفي مناطق ريفية في مصر.

ثم نجد أن من الوسائل أيضًا التي اعتمدوا عليها في دول الخليج، وفي بعض البلاد المتمتعة بشيء من التحضر كالشام، سوريا، ولبنان، ومصر، وبلاد المغرب بالذات: تونس، والجزائر، والرباط، العلاقات الشخصية بين المبشرين وبين مَن يصادقونهم من أهل هذه البلاد كانت تتم هناك علاقات شخصية وصداقات بين الأفراد والعائلات في داخل المنطقة وخارجها. ومن أبرز الشخصيات المهتمِّين بهذه القضية: مجموعة تسمى: "صانعي الخيام". احفظ هذا اللقب جيدًا؛ لأنه كان له نشاط مهم

جدًّا في العملية التبشيرية، مجموعة صانعي الخيام، لوجودهم في أماكن العمل المختلفة، واحتكاكهم المباشر مع أصحاب الأعمال، وخاصة مع رجال الأعمال الأثرياء. وفي غالب الأحيان كانوا يشاركونهم برؤوس أموال رمزية؛ ليجعلوا من ذلك منفذًا للتأثير على العمالة الموجودة في هذا المصنع أو ذاك.

بعد العلاقات الشخصية، نجد أنّ هناك دوْرا كبيرًا للمطبوعات. كان لها دور كبير جدًّا في عملية التبشير، وتوزيع هذا المطبوعات بالمجان. فنحن عندنا على سبيل المثال في مصر: كثير منا كان يفتح باب بيته في الصباح فيجد تحت باب الشّقّة أو تحت باب البيت خطابًا. يفتح هذا الخطاب، فيجد أن الخطاب موجّه إليه من أحد النصارى، يدعوه فيه إلى السلام والمحبة وتعاليم الإنجيل؛ بل أكثر من هذا: كنا نجد أحيانًا على بعض أبواب المساجد ملصقات تبشِّر بتعاليم الإنجيل، بالإضافة إلى الدوريات المنتشرة في شتّى أنحاء العالم العربي، دوريات تبشيرية. وكانت توزّع، وما زالت توزّع بالمجان، بالإضافة إلى الكتب المسيحية التي تتولى نشر هذه المهمة. وإذا علمنا أنّ هناك بالإضافة إلى الخطابات والملصقات هناك بعض المطبوعات التي توزّع مجانًا مع باعة الصحف، وهؤلاء باعة مخصوصون يقفون أمام الكنائس لتوزيع هذه المطبوعات التبشيرية.

بعد المطبوعات، هناك وسائل الإعلام المعاصرة والحديثة، مثل: الإذاعات التبشيرية المنتشرة حول العالم كلّه، نجد في كثير من البلاد الإسلامية إذاعات تبشيرية، في داخل العالم الإسلامي وفي خارج العالم الإسلامي؛ وهي أكثر الوسائل الحديثة انتشارًا وفعالية، وأكثر الوسائل اتصالًا بالمسلمين الآن؛ لأنها تدخل على المسلم حجرة نومه. وهناك أجهزة إعلامية متخصصة في إنتاج البرامج التبشيرية الموجهة إلى المسلمين. ولعلّ من أهم هذه الأجهزة: شركات الإنتاج

الإعلامي الموجودة في لبنان، وفي فرنسا، وفي إسبانيا، وفي جزيرة قبرص، وفي جزيرة سيشل. وبعض هذه الشركات تبثّ برامجها من راديو عبر العالم من موناكو، ومن قبرص. كما أن راديو الفاتيكان يبثّ برامجه التبشيرية باللغة العربية. ولعل أنشط هذه الشركات الآن: راديو مونتكارلو الذي يبث برامجه التبشيرية بعد الساعة الحادية عشرة مساء في غالب الأحيان. ثم هناك إذاعة صوت الغفران، وإذاعة مركز النهضة، وإذاعة قبرص في نيقوصيا، وإذاعة فيبا بجمهورية سيشل في المحيط الهندي، وهذه الإذاعات تبث برامجها باللغة العربية.

إذا أضفنا إلى الإذاعات ما جَدّ من وسائل إعلام عبْر الأقمار الصناعية، نستطيع أن نقول: إن عوامل أو وسائل التبشير تلاحق كلّ ما هو جديد فتستفيد به. فوجدنا أقمارًا صناعية تبث برامج، وظيفتها الأساسية: محاربة الإسلام ونشر المسيحية. وقد سمعت من أحد المتخصصين في السياسة الإعلامية في بعض البلاد العربية: أنّ هناك سبعة عشر قمرًا صناعيًّا وظيفتها التأجير لقنوات تحارب العالم الإسلامي بمستويات الحرب المختلفة: اقتصاديًّا، ثقافيًّا، اجتماعيًّا، دينيًّا، وبلغات مختلفة أيضًا.

بعد هذه الإذاعات، نجد أن وسائل التبشير اتّخذت من المؤسسات التربوية التعليمية وسيلة أيضًا لمباشرة النشاط التبشيري؛ فأسست لها مؤسسات ودوراً تربوية، ابتداءً من دور الحضانة، ثم المدارس الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، والجامعات. ولا يكاد يخلو بلد عربي من هذه المؤسسات التربوية التعليمية التبشيرية. لو تقصّينا العالم العربي من شرْقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، نستطيع أن نجزم: أنه لا توجد دولة عربية؛ وبالتالي لا توجد دولة إسلامية تخلو من مثل هذه المدارس، إمّا تحت مسمًّى مدارس اللغات، أو مدارس (الفرير)، أو الفرنسيسكان، أو كلية اللاهوت أو... أو... إلخ.

وهذه المؤسسات يختلف نشاطها قوة وضعفًا حسب المنطقة التي تعمل بها. فعلى سبيل المثال: نجد أن أنشطة المدارس العاملة في دول الخليج، مدارس كاثوليك في أبي ظبي، ومدرسة إرسالية أمريكية تعمل في البحرين، ومدارس فورير فرنسية في بعض الإمارات العربية، ومدارس إنجليزية في قطر، وهذه المدارس على اختلاف أنواعها مثْلها مثْل نظائرها في البلاد العربية الأخرى، لها مناهج دراسية تختلف في كثير من موادها عن المواد الدراسية في المدارس الحكومية الرسمية لهذه البلاد.

وليس من الصعوبة أن نكتشف: أن مناهج هذه المدارس يُبث فيها ما يخالف العقيدة الإسلامية، بل يُبث فيها تزوير وتزييف للحقائق التاريخية الإسلامية، إما بسوء نية وقصد، وإما بحسن نية وقصد؛ لكن الأهم من ذلك: أن أبناءنا يتربَّوْن على هذه الحقائق المشوّهة وهذه التواريخ المزيّفة. وسوف أضع أمام حضراتكم بعض النماذج التي وقعت تحت أيدينا ممّا يُدرّس لأبنائنا في هذه المدارس التبشيرية، أو إن شئتم فسمّوها المدارس الأجنبية، أو مدارس اللغات، أو مدراس (الفرير) أو... أو ...إلخ.

لقد أعلنت الصحف عن طرد بعض المعلّمات الإنجليز، وكانت إحدى هؤلاء المدرّسات تعمل ناظرة في مدرسة إنجليزية بالدوحة. وكانت هذه الناظرة قد ألّفت كتابًا مقررًا على الطلبة يسمى: "العصور الوسطى". جاء في هذا الكتاب الذي كان يُدرّس للطلاب العرب والمسلمين بعض الدسائس والأباطيل والافتراءات، التي اكتشفها أبناء المسلمين؛ وترتّب عليه فعلًا طرد هذه المُدَرِّسة وإغلاق المدرسة حقيقة. مما جاء في هذا الكتاب: أن الإسلام منقول عن الثقافة الهيلينية الإغريقية، ومتأثّر بالفلسفات اليونانية والوثنية. وجاء في هذا الكتاب: أنّ الإسلام أذاب أو ضيَّع أو محا شخصية الفرد، وقضى على كبريائه، خاصة في البلاد التي شهدت الفتوحات الإسلامية. وجاء في هذا الكتاب أيضًا: أنّ الإسلام جعل الإنسان المسلم غيبيًّا واتكاليًّا بتأكيده على مبدإ القناعة

والتوكل، واعتماده على القضاء والقدر، وأن الإسلام غذّى النزعة الحربية العدائية تجاه الشعوب، ودرّب أنصاره على مبدإ الحرب، أن الإسلام جعل المسلم يركع ويمرِّغ جبهته في الأرض خلال صلواته خمس مرات يومية، لتكون العبادة عملية شكلية ليس إلا. إن الحضارة التي يَنسبها المسلمون إلى أنفسهم ليست إلا حضارة هندية، أو إغريقية، أو فارسية، وليس للعرب فيها سوى الاقتباس والأخذ عن هذه الحضارات. وهو نفس الكلام الذي ردّده المستشرقون عن الحضارة الإسلامية. إن الفتوحات الإسلامية اعتمدت على تدمير الشعوب، وإذلال المجتمعات التي وقعت تحت رحمة الغزو العربي الإسلامي. ثم إن الرسول محمدًا ﷺ شخصية ذات سطوة قمْعية -هكذا تقول في هذا الكتاب- شخصية ذات سطوة قمعية ترى أن الرأي رأيها. ولأنه سليل أسرة قرشية عريقة، فقد فرض زعامتها عن طريق جدّه، وساعدتْه خديجة في تمكين هذا النفوذ؛ لأنه لم يكن مفكرًا بل كان أميًّا. إلى غير ذلك من الافتراءات التي كانت تردّدها هذه المُدرِّسة. وكان الكتاب مقررًا على أبناء المسلمين، ويدرّس لأبناء المسلمين. وهذا نموذج واحد فقط.

إذا أضفنا إلى ذلك: أن ما كان يدرَّس في هذه المدرسة وعلى يد هذه المدرسة يوجد له نظائر كثيرة جدًّا، على مستوى الجامعات الأمريكية وما يُدرّس فيها، على مستوى التعليم الثانوي في مدارس (الفرير) الفرنسية، أو مدارس اللغات الأجنبية وما يدرّس فيها. ومن الغريب جدًا -أيها الإخوة-: أنه ليس هناك رقيب أو مراجع على مقرّرات الدراسة في هذه المدارس. هناك إشراف سطحي لوزارات التربية والتعليم في هذا البلاد، إشراف سطحي على المناهج، لكن ليس هناك مُراجع حقيقيّ يقرأ ويمحِّص، ويدقّق النظر، خاصة في المقررات التي تتّصل بالعلوم الإنسانية: تاريخ، علوم الدِّين، مادة الدين أو مادة الأخلاق؛ لأن هاتيْن المادتيْن أثرهما كبير جدًّا في تكوين شخصية الطفل أو التلميذ عمومًا.

إذا علمنا من جانب آخر: أن هذه المدارس بات لا يذهب إليها إلاّ صفوة المجتمع، وأثرياء القوم من الذين بهَرَتْهم عوامل الإعلام التي زيّنتْ لهم أنّ هذه المدارس مدارس راقية، وأنّ مناهجها حديثة، وأنّ الأبناء يتعلّمون فيها على أيد من بلاد أجنبية -التي هي فكرة الخواجة، أو عقدة الخواجة- فنجد أن معظم أبناء هذه المدارس من طبقة اجتماعية معيّنة. وأيضًا المدرِّسون الذين يلتحقون بالعمل في هذه المدارس لهم أيضًا ميول خاصة، أو يُنتقَوْن بمعايير خاصة؛ فهم يحاولون بكل وسيلة أن يعملوا على ربط الأسرة التي ينتمي إليها هؤلاء التلاميذ بالمدرسة التي يوجد فيها أبناؤهم، وبتوجّه المدرسة التي ينتمي فيها أبناؤهم، ويَدعون أسَر هؤلاء التلاميذ إلى لقاءات متكرِّرة ودورية، إمّا كل شهر؛ بل إنّ بعض الأمهات يُطلَب منهن الذهاب إلى المدرسة ربما كل أسبوع -خاصة الأمهات- لتقف الأم على ما في هذه المدرسة من تعاليم، وأساليب تربية، وتقاليد اجتماعية، لتنقل -بطريق غير مباشر- وسائل التربية القائمة في هذه المدارس من المدرسة إلى الأسرة؛ ولذلك يحاولون بكل وسيلة أن يعملوا على تحويل واقع الأسَر وواقع المجتمع إلى ما عليه المدرسة؛ حتى تنتقل صورة الحياة من المدرسة -سواء كانت صورة تقاليد وعادات يهودية، أو تقاليد وعادات نصرانية، أو تقاليد وعادات إلحاديّة- تنتقل هذه العادات تلقائياً إلى البيت الذي ينتمي إليه هذا التلميذ. وبطريقة سهلة جدًا يحقّق المبشِّر هدفَه، بأن جعل المدرسة خليَّة أخرى من خلايا التربية تحلّ محلّ البيت، وفي نفس الوقت جعل البيت -بمعنى من المعاني- معاونًا للمدرسة في تكوين الوجدان والفكر والثقافة لهؤلاء الناشئة الذين ينتمون إلى هذه المدارس.

ولكي تتأكّدوا من نشاط هذه المدارس، وأنّ التبشير يمثِّل ركنًا ركينًا من أهدافها الأساسية، عليكم أن تراجعوا النشيد الذي يردّده طلاب هذه المدارس في يومهم الدراسي كلّ صباح، والأناشيد التي يردِّدها هؤلاء التلاميذ، خاصة في دُور الحضانة، وفي المستويات التعليمية المتقدِّمة، كالابتدائي، والإعدادي. الأناشيد

التي يردِّدونها فيما يسمّى بحصة النشاط الفني، لم نجد أكثر دلالة على بروز النشاط التبشيري في هذه الأنشطة اليومية في المدارس، حتى اللُّعَب التي يمرِّنون عليها التلاميذ في سنّ الحضانة والابتدائي، نوعية اللعب: تجدونهم يقدمون لهم المرأة الإفرنجية التي تلبس لباس يغطِّي نصف جسدها، وامرأة أخرى تلبس اللباس العربي الإسلامي -الحجاب-، ويكتبون عبارة باللغة الإنجليزية تحت المرأة الإفرنجية التي تلبس لباس يغطِّي نصف جسدها كلمة: Good، والمرأة الأخرى التي تلبس لباسًا إسلاميًّا يغطي جميع جسدها كلمة: Dirty. ويضعون علامة استفهام عليها. ويقولون للتلاميذ: عليك أن ترسم هذه وهذه، ثم تبيِّن أو توضّح أو تكتب تحتها العبارة التي تناسبها. ويخفون عن التلميذ الرسم الذي قدّموه له، ويجعلون ذلك من وسائل اختبار التلميذ هل هو ذاكر درْسه جيدًا أو لا.

هذه بعض نماذج مما يُلقى على أبنائنا في المدارس الأجنبية، أو مدارس اللغات، أو مدارس (الفرير). وهي مدارس -كما قلت- لا يذهب إليها إلا طبقات معيّنة من المجتمع، لكن هي أصبحت الآن تعمل كما نقول: تلعب على المكشوف، وأن نشاطها التبشيري أصبح واضحًا ولا يحتاج إلى مزيد من التأكيد.

دوْر نصارى لبنان في النشاط التنصيري في مصر

أيضًا أجد من الضروري: أن أشير إلى بعض الوسائل التي قامت بدَوْر كبير في النشاط التبشيري في بلادنا العربية، خاصّة من وسائل الإعلام ذات الشهرة التاريخية في منطقتنا العربية:

لقد قامت بعض الصحف بأخطر الأدوار التبشيرية في مصر على وجه الخصوص، وفي العالم العربي على وجْه العموم. نحن نعلم: أن بعض اللبنانيِّين -الموارنة بالذات- قد

هاجروا إلى مصر بدعوى زائفة ومكشوفة في بداية القرن العشرين، وهي: طلب الأمان في مصر، بلد الحرية وبلد النور. طلب الأمان من ماذا؟ من الظلم والطغيان الذي كانوا يعانونه في بلادهم، وبلادهم هي لبنان. هكذا كانوا يبررون هجرتهم إلى مصر. ولكن قد أثبت الواقع التاريخي عكس ذلك تمامًا؛ فقد كان الموارنة الذين هاجروا إلى مصر بالذات معظمُهم من خريجي الأدْيرة والكنائس والمدارس التبشيرية، الذين حملوا معهم بذور الفتنة وأساليب التنصير في ربوع مصر، وأخذوا يباشرون نشاطهم تحت حماية الاستعمار الأجنبي، الذي كان مسيطرًا على كلّ مرافق الحياة في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وطيلة القرن العشرين، إلى تاريخ قيام الثورة المصرية من ١٨٨٢م إلى أن رحل في عهد الثورة المصرية.

وكان نشاط الموارنة شديد الأثر جدًّا؛ لأنه هيّأ الوجدان المصري للاستعمار الثقافي. ولقد أشار إلى هذه الحقيقة: المؤرخ الأمريكي (بيتر جران)؛ حيث قال: "لقد سعَت فرنسا إلى زرع فئة من التجار المارونيِّين الشوام في الإسكندرية ودمياط ورشيد، تحت حماية النفوذ الأجنبي".

من الذي يصرح بهذه الحقيقة؟ المؤرخ الأمريكي (بيتر جران). وكان لهؤلاء بعض الصحف التي أطلق عليها الشيخ عبد الله النديم: "صحف الأُجراء". وكان يسمي ما ينشرونه فيها بـ"القاذورات"، هذه هي عبارة المؤرخ الأمريكي.

وقام جرجي زيدان بتأسيس دار الهلال بمصر، وهي مؤسسة تبشيرية خالصة. وكذلك أنشؤوا مجلة "الكاتب المصري"، وقيل: إنها تأسست بأموال صهيونية. وعليكم أن تراجعوا الأفكار الثقافية التي نُشرت في هذه المجلة في أوائل عهدها.

ولا ننسى: أنّ جريدة الأهرام قد تأسست بأيد صليبية خالصة، وكان من بنود تأسيسها: ألاّ يعمل فيها إلا النصارى، ولا يقوم بتوزيعها إلاّ النصارى. وكان من أكبر مؤسسيها:

أولاد (تقلا): بشارة تقلا وإخوانه الذين هاجروا إلى مصر سنة ١٨٧٣م تحت حماية الحملة الفرنسية. وكان صاحب دوْر كبير في تأليب الإنجليز ضدّ أحمد عرابي.

هذه أمور ينبغي أن نعرفها لأنها تاريخ. وكان قلم بشارة تقلا مدافعًا عن الإنجليز أحيانًا، وعن الفرنسيين أحيانًا أخرى. ولقد سجّل الزعيم العربي أحمد عرابي في مذكراته: كيف خدعه بشارة تقلا -مؤسس جريدة الأهرام في مصر-. فقد كان مؤمنًا بمبادئ عرابي أو هكذا كان يدّعي ويتظاهر. يقول أحمد عرابي: "وبعد ساعة -يعني: بعد ساعة من دخول الإنجليز مصر-، جاء بشارة تقلا هذا ليزورني، محرّر جريدة الأهرام آنذاك. وظننتُ أنه قدِم ليعزِّيني، ويبدي عواطفه نحوي؛ لأنه قد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا، وأنه يعمل لحرية وطننا. ولكنه لما دخل علي، توقّح أشد التوقح، ثم قال: "إيه عرابي! ماذا فعلت؟ ماذا حلّ بك؟". ورأيت أنّ الرجل خائن لا محالة". ثم يستطرد الزعيم أحمد عرابي في وصف لقائه ببشارة تقلا هذا، الذي عاون الإنجليز، وعاون الفرنسيين بقلمه ضد أحمد عرابي.

والدوْر الذي لعبه هؤلاء -أولاد تقلا هذا- لا يقلّ عنه ما قامت به مؤسسة جرجي زيدان في مصر. فتحت ستار التنوير والنهضة والتقدمية، زلزلت كثيرًا من ثوابت الأمّة ومن قيَمها في الشارع المصري الحديث. واستطاعت أن ترسِّخ في وجدان الأمّة العربية كثيرًا من الأحاديث، وتعمل على الترويج لها، مثل قولهم: بأن الحملة الفرنسية هي بداية عصر النهضة في مصر. وللأسف الشديد راج هذا على كثير من حملَة الأقلام، ومن مثْل دعواهم: أن الخلافة العثمانية تمثِّل عصر الظلام؛ هكذا أيضًا راج على كثير من حملَة الأقلام في مصر. نحن لا ننكر أنّ الخلافة العثمانية في آخِر عهدها وقعت في كثير من الأخطاء، لكن لا ننسى أن الخلافة العثمانية ظلت رمز وحدة الأمة الإسلامية خمسة قرون متتالية.

كما روّج جرجي زيدان وأنصاره: أن اتّصالنا بفرنسا هو الذي علّمنا معنى الحرية، وأنه أخذ بيدنا إلى سلّم الحضارة. أرأيتم هذه القيَم؟ وهذه الأفكار روّج لها جرجي زيدان ورفاقه الذين أسّسوا دار الهلال في مصر، وجعلوا منها منبرًا لنشر هذه الأفكار التي تعمل على محورَيْن:

المحور الأوّل: زلزلة ثوابت الأمّة من جانب، بإثارة الشكوك والشبهات، ثم تزيين الفكر الغربي والثقافة الغربية، ومحاولة تقليد الغرب، ومناداة وطرح البديل الغربي بديلًا عن الفكر الإسلامي من جانب آخَر.

وأظن مَن يتابع القائمين على أمر هذه المؤسسة -مؤسسة الهلال-، يَعلم يقيناً: أنها منذ تأسيسها إلى هذه اللحظة ما زالت تتبنّى الفكر الغربي وتدعو إليه، تحت ستار التنوير والتقدمية. وهي أُسِّست خصيصًا للنشاط التبشيري في مصر. وإذا راجعنا بعيْن تاريخية ناقدة ما تولّت نشره مؤسسة الأهرام في أوّل عهدها، ومَن كانت تستكتبهم من أسماء وأعلام، وما كان ينشر لهم في هذه المؤسسة، نستطيع أن نقول بيقين: إنّ هذه المؤسسة قد قامت بدور تبشيري تغريبي في المنطقة العربية لا يقلّ أبدًا عن دوْر المستشرقين، ولا عن دوْر المبشِّرين الذين كانت وظيفتهم الأساسية هي التبشير؛ ولذلك نحن نَعُدّ هذه المؤسسة ذات هدف تغريبي تبشيري في منطقتنا العربية.

وإلى هنا أجدني في حاجة إلى التوقف؛ لأنني مضطر أن أبدأ في قضية جديدة تتعلق بالنشاط التبشيري، ووسائل المبشِّرين في منطقتنا العربية؛ ولذلك أتوقف هنا لأتناول هذه الوسيلة الأخيرة بشيء من التفصيل. وأدعوكم إلى مراجعة هذه المعلومات بشيء من التفصيل في كتاب: "تيارات فكرية معاصرة"، وكتاب: "أجنحة المكر الثلاثة"، وكتاب: "التبشير والاستعمار".

الكتاب الأول: "تيارات فكرية معاصرة" تأليف: محمد السيد الجليند، خاصة الصفحات من ٧١ إلى ١٠٣. وكتاب: "أجنحة المكر الثلاثة" الصفحات: ٨٢ ، ٦١ ، ٦٣. وكتاب: "التبشير والاستعمار" في مواضع متعدّدة منه؛ بل إن الكتاب كلّه في علاج هذه القضية.

دور العمالة المهاجرة في التنصير

تحدثنا عن بعض نشاطات المبشِّرين عن طريق أجهزة الإعلام، وخاصّة الصحافة في مصر، وتناولنا مؤسّسة جرجي زيدان -وهي: دار الهلال-، ومؤسّسة "الأهرام" في بداية نشأتها؛ لكن بالتأكيد قد طرأ نوع من التطور والتغيير في وسائل ووظيفة هذه المؤسّسات فيما بعد، خاصة بعد قيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢م، فأصبح نشاطها وطنيًّا مصريًّا لأن الدولة قد وضعت يدها، وغيّرت مناهجها، وغيّرت موظّفيها، وأخذت تأخذ خطًّا وطنيًّا لصالح العرب ولصالح أبناء الشعب المصري.

أريد أن أضع أمامكم بعض الوسائل الغائبة عنّا في هذه المنطقة، وهي تقوم بوظيفة تبشيرية على جانب كبير من الأهمية. هذه الوسيلة التي لم نُعِرْها اهتمامًا: ما يطلَق عليها: العمالة المهاجرة تحت حراسة الكنيسة. وأقصد بالعمالة المهاجرة هنا: العمالة الآسيوية المهاجرة طلبًا للرزق، أو تحت ستار طلب الرزق إلى بعض دول الخليج العربي؛ إذ من المعلوم أنّ منطقة الخليج العربي أصبحت في العقود الأخيرة من أهمّ مناطق العالم المعاصر بالنسبة لجذب العِمالة من الخارج، نظرًا لظروفها الاقتصادية والاجتماعية التي تغيّرت تغيرًا جذريًّا في النصف الأخير من القرن العشرين، وأصبحت محلّ أنظار العالم كلّه شرْقِه وغربه، ويحاول الجميع أن يسعى إلى هذه المنطقة، إمّا طلبًا للرزق، وإمّا تحقيقًا لأهداف معيّنة هو يطلبها.

ولقد عُقد في بيروت في سنة ١٩٧٩م مؤتمرٌ نظّمتْه إحدى الهيئات التبشيرية، وكان من أهمّ ما عُرض في هذا المؤتمر، أو من أهم القضايا التي عُقد من أجْلها هو: عرْض أوضاع منطقة الخليج عرضًا كاملًا، وأن تبحث أوضاع هذه المنطقة بحثًا اجتماعيًّا وثقافيًّا وحضاريًّا، ودوْر العمالة المهاجرة إليها، وهل يمكن أن تنهض بالعبء الذي تُوظّف من أجْله أم لا؟ ولاحظتْ هذه الهيئة أنّ ثمانين في المائة من سكان هذه المنطقة هم في الأساس كانوا من العمالة المهاجرة. لا تنسَوْا أنّ هذا المؤتمر عُقد سنة ١٩٧٩م، يعني: منذ ما يقرب من ربع قرْن، لاحظت الجماعات التي تقدّمت ببحوث إلى هذا المؤتمر: أن نسبة عدد السكان الأصليِّين -وهم العرب- إلى نسبة المهاجرين إليها تساوي: واحد إلى خمسة، وثمانون في المائة من سكان هذه المنطقة كانوا في الأساس من العمالة المهاجرة، وأنّ أوضاع هذه العمالة تدعو للقلق، ولا بد من الاهتمام بها وبدوْرها الإيجابي في تغيير الشكل السكاني للمنطقة. وترتّب على هذا الموقف، وعلى القرارات التي انبثقت عن هذا المؤتمر: أن أعَدَّت هذه الهيئة دراسة مستقلة عن الشكل السكاني لمنطقة الخليج، وعن محاولة التعرف على نسبة العمالة المهاجرة إليها بشيء من الدِّقة، وعن الديانات المختلفة لهذه العمالة. وقام بعض القسس بتنظيم زيارات متكرّرة لبعض دول الخليج، والعمل على تأمين العمل لبعض القسس والمربِّين المسيحيِّين الذين يتكلّمون اللغة العربية لقيادة العِمالة المسيحية المهاجرة إلى هذه المنطقة، وأن تعمل تحت ظل هذه الكنيسة.

ولقد أعدّت أمانة السِّر المنبثقة عن مؤتمر الكنائس العالمي وثائقَ عن هؤلاء المهاجرين، ودرسوها بعناية فائقة، وبدؤوا يعملون على أساسها. وبناء على هذه الدراسة، أعلن مؤتمر الكنائس سنة ١٩٧٥م: أنه يجب على الكنائس أن تدافع عن حقوق هؤلاء العمّال المهاجرين إلى دول الخليج، وأن تسعى لدى الحكومات

القائمة لتحسين أوضاعهم. ولقد أنشأ هذا المؤتمر لجنة خاصة لمتابعة أحوال هذه العمالة، ومتابعة تنفيذ القرارات التي صدرت عن هذا المؤتمر بشأنها، ثم أجرى عملية استطلاع للرأي حول هذه الأمور الآتية:

١- مدى استجابة الأسرة الدولية لنداء مؤتمر الكنائس العالمي المنعقد في إفريقيا وفي آسيا وفي الشرق الأوسط بخصوص هذه العمالة المهاجرة، وبخصوص حقوقها التي نصّت عليها وثائق الأمم المتحدة المتعلِّقة بحقوق الإنسان.

٢- البحث عن أيسر السبل لمتابعة أحوال هذه العمالة المهاجرة في دول الخليج، ومحاولة الوقوف على بعض الصعوبات التي يشكون منها، والعمل على حلّ هذه الصعوبات عن طريق الاتصال بالحكومات القائمة.

٣- ثم البحث عمّا يأتي:

كيف يمكن للكنائس البروتستانتية والكاثوليكية والأرثودكسية أن تؤمِّن رسالة العمالة في منطقة الخليج لهؤلاء العمال. وقدّرت هذه الهيئة عدد العمال المسيحيين المهاجرين إلى منطقة الخليج رجالًا وإناثًا في جميع مستويات العمالة، ما بين عمالة فنية، وعمالة يدوية، وعمالة علمية أحيانًا، وجدوا أن هذه العمالة يتراوح عددها بين اثنيْن ونصف وثلاثة مليون مسيحي، معظمهم من دول آسيا وقليل منهم من إفريقيا.

ولقد أعدّت هيئة الأمانة العامة للهجرة في مؤتمر الكنائس العالمي وثائق عن هؤلاء المهاجرين لدراستها، والعمل على أساسها؛ لكي يكون العمل منظمًا. ثم قرّر المؤتمر العام للكنائس سنة ١٩٧٥م: أنه يجب على الكنائس المختلفة - خاصة التي لها فروع في بلاد الخليج العربي -: أن تدافع عن حقوق العمالة المسيحية المهاجرة إلى هذه المنطقة، والعمل على تحسين أحوالهم. ولا ننسى أننا تكلّمنا في لقاء سابق: أنّ أول إرسالية تبشيرية في دول الخليج كانت إرسالية بروتستانتية تعمل تحت حماية

الاحتلال البريطاني، وكان يشرف عليها الكنيسة البروتستانتية في أمريكا.

ثم صدر حديثًا كتابٌ مهمّ جدًّا عن منظمة عالمية مسيحية تعمل في باكستان، عنوان هذا الكتاب: "صلّ يوميًّا لنشر المسيحية في منطقة الخليج". ولتقوية الكنيسة بين العمالة المهاجرة، وخاصة القادمين إلى هذه المنطقة من باكستان، كان من بين الصلوات المطلوبة: أن يصلّوا من أجل فتح مركز للدارسين للإنجيل بالمراسلة من باكستان والهند لتنمية برامج الإذاعة الموجّهة إلى هذه المنطقة.

وممّا سهّل للمبشرين عملَهم في هذه المنطقة: أنهم كانوا يعتمدون في تنفيذ برامجهم على هذا العدد الضخم: ٢,٥ إلى ٣ مليون عمالة غير مسلمة، بالإضافة إلى أنّ آخر إحصائية لعدد المبشّرين في الشرق الأوسط قد بلغ ١٣٠٠ مبشّر يعملون في هذه المنطقة. ويذكر الإنجيليون: أنّ عدد المبشرين في منطقة الخليج وحدها تقريبًا حوالي أربعين في المائة من هذا العدد، موزّعين على المحميّات البريطانية المطلّة على الخليج التي انبثق عنها ما يسمّى بدول الخليج الآن. كما أن هناك عددًا كبيرًا منهم يعملون في المجالات الفنية والصناعية دون أن يعلنوا عن هويّتهم، وليس من السهل التعرف على طبيعة نشاطهم.

وقد تكلّمنا أيضًا في لقاء سابق: أنّ الكنيسة البروتستانتية في البحرين قد انبثقت عنها فروع في معظم الدول الخليجية المطلّة على الخليج العربي الواقع في شرق الجزيرة العربية.

هذه بعض الملامح العامة التي ينبغي أن تلفت نظرنا لأهمية هذه القضية؛ لأن العمالة الموجودة في دول الخليج، لا أقول كلّها، وإنما معظمها ليس القصد من حضوره في هذه المنطقة هو طلب الرزق، وإنما هناك أعمال أخرى معلّقة بوجود نوعيّة معيّنة من هذه العمالة، ويكفي أن نعلم -وأنا كنت واحدًا من الذين زاروا بعض الجامعات العربية في دول الخليج-: أن سيدات البيوت كنّ يستقدمْن العمالة من الفيلبّين، من

ماليزيا، من باكستان والهند، ثم تغيب عن البيت لحظة، وتحضر فجأة فترى أنّ العاملة الفلبينية أجلست أمامها أطفال البيت، وأخذت تعلّمهم وتعوّدهم على شعائر وطقوس العبادات المسيحية. بعضهم كان يعلّم الأطفال كيف يضع يده على جبهته ثم على صدره يمينًا ويسارًا، ثم يقرأ بعض التراتيل؛ بل إنّ البعض دخل في بيته فوجد العاملة أوقدت بعض النيران وجلست أمامها، وتعلّم الأطفال كيف تقدّس هذه النار، وكانت عاملة هندية.

إذن أنا أنبّه وألفت النظر إلى ضرورة -على الأقل- التحفظ في استقدام العمالة المهاجرة إلى هذه المنطقة، ومحاولة التعرف على نشاط هذه العمالة، خاصة الذين يعملون داخل البيوت، والذين يقودون السيارات لبعض الأُسَر ذات اليسار في هذه المنطقة. هذه نقطة كان لا بد أن أتوقّف أمامها.

النشاط التنصيري في مصر

أيضًا من الأمور التي أودّ أن ألفت النظر إليها: نشاط المبشّرين في مصر؛ لأن الاستعمار البريطاني بعد أن استقرت له الأمور في مصر ١٨٨٢م، وعرفنا أنّ الزعيم أحمد عرابي بعد أن جاءه بشارة تقلا وأخوه مؤسّسا جريدة "الأهرام"، وحدث منهم ما حدث من الشماتة في دخول الإنجليز مصر، وعدم استطاعة أحمد عرابي أن يصدّهم، قد استقر الأمر للإنجليز في مصر، ولم يغب عن ذهن الاستعمار البريطاني دوْر المبشّرين في هذه المنطقة؛ فنشط التبشير في عهد الاحتلال البريطاني في مصر نشاطًا ملحوظًا.

وكان من أبرز الشخصيات التي أسهمت في تنشيط أعمال المبشّرين في مصر: (اللورد كرومر) المندوب السامي البريطاني. وكان رجلًا يتميّز بالدهاء والعداء

للإسلام وللّغة العربية وللأزهر بصفة خاصة ؛ ولذلك منذ أن وطئت قدماه أرض مـصر بـدأ يعمـل عـلى تغريـب الحيـاة الثقافيـة والـسياسية والتعليميـة ، بـل والاجتماعية. وكـان لـه الـدور الأكبر في تثبيت دعـائم الاسـتعمار في مـصر. وقـد وضـع (كرومـر) مخطـط التبـشير والاسـتعمار في كتـاب أسـماه : "مـصر الحديثـة"، وضـمّن هـذا الكتـاب آراءه وأهدافـه مـن الوجـود البريطـاني في مـصر. ومـن أهـم القضايا التي أشـار إليهـا في هـذا الكتـاب : التركيـز عـلى ضرورة إظهـار أنّ سـبب تأخّر المسلمين يرجع إلى تمـسّكهم بالإسـلام ، بـدعوى أن تعـاليم الإسـلام تتنـافى تمامًا مع المدنيّة الحديثة ، ومع الحضارة الغربية ، ومع العلم.

ومن الأمور التي أشار إليها أيـضًا : أنـه لـيس أمـام المسلمين مـن طريـق إلى المدنيـة الحديثة إلا بـالتخلص مـن الإسـلام ومـن تعاليمـه. ومـن الأمـور الـتي نبّـه إليهـا : إرجـاع كـلّ مـشاكل التخلـف الموجـودة في العـالم الإسـلامي إلى تعـاليم الإسـلام.

ولعلكم تلاحظون هنا : أنّ هذه القضايا الثلاث هي التي تبنّاهـا سـلامة موسـى في كتابـه : "مـا هـي النهـضة؟" ، حيـث ركّـز عـلى ضرورة التغريـب ، بمعنـى : تحويـل الحياة السياسية والثقافية في مصر إلى حياة غربيـة مائـة في المائـة. وصـرّح في كتابـه : أن أسباب تخلف المسلمين هي تمسّكهم بالإسلام ، وأن الحديث عن الأمور الغيبيّة حديث خرافة ، ولا سبيل أمامنا إلاّ أن نقلِّد الغرب في كل شيء حتى ننهض كـما نهضوا ، وأن نتخلّص من كلّ ما هو إسلامي حتى نتخلّص من عوامل التخلف.

وامتد نشاط (كرومر) إلى لغة القرآن الكريم ؛ حيث نـادى بـضرورة إلغـاء هـذه اللغـة ، والأخـذ باللغـة العامية. وجعـل لغـة القـاهرة هـي اللغـة الرسـمية ، ونـادى بإحلالها محلّ اللغة الفصحى في الكتابة ، والدواوين الحكومية. وهـذا الـرأي طبعًـا قد عارضَه كثير من العلماء في مصر ، غير أنه قد وجد عنـد بعـض المستغربين أذنًـا صاغية ، فنادوا بالعامية من خلال الصحف ، خاصة صاحب جريدة "المقتطف".

ثم تبع ذلك مستشرق آخَر ومبشِّر في نفس اللحظة، وهو (ولمور) الذي كان يعمل قاضيًا في المحاكم المختلطة في مصر. هذا الرجل ألّف كتابًا أسماه: "لغة القاهرة"، ووضع قواعد للّغة العامية القاهرية، ونادى بوجوب إحلالها محلّ لغة القرآن. ثم أخذت هذه الدعوة المسمومة تنتقل إلى (وليم ولكوكس) المهندس البريطاني الذي كان يعمل بوزارة الزراعة في مصر؛ فدعا إلى هجْر الفصحى وإحلال العامية محلّها.

وأظن أننا قد أشرنا إلى شيء من ذلك في بعض نشاطات المستشرقين فيما سبق.

لكن ممّا هو جدير بالذّكر أيضًا: أن القسيس (دنلوب) المستشار البريطاني لوزارة المعارف البريطانية كان موجودًا في مصر، وعمل مستشارًا لوزارة التعليم في مصر، حاول هذا الرجل جاهدًا أن يجرِّد مناهج التربية والتعليم في مصر من سِماتها الإسلامية في كثير من المواد الدراسية؛ فأنشأ عددًا كبيرًا من المدارس الأجنبية تهافت عليها كبار القوم وعلية القوم. وكانت تدرِّس جميع المواد باللغة الإنجليزية، وكانت هذه المدارس تبدأ نشاطها المدرسي كلّ يوم بالصلاة في كنيسة ملحَقة بالمدرسة. ثم أوصى (دنلوب): أن تكون حصص المواد الشرعية وحصص اللغة العربية في المدارس الحكومية ترحل من أوائل الجدول إلى نهاية الجدول الدراسي كل يوم، بعد أن يكون التلميذ قد أصابه الملل والسآمة.

وظلت هذه المناهج الدراسية التي وضعها (دنلوب) لوزارة المعارف تعمل عملها في تخريج أجيال مبتوتة الصلة بالإسلام وقضاياه إلى وقت قريب جدًّا، إلى ما قبل الثورة المصرية بقليل. والتقَتْ أهداف (كرومر) وأهداف (دنلوب) في محاولة إبعاد الحياة الثقافية والتعليمية في مصر عن روح الحياة الإسلامية، مع ما يسعى إليه المبشِّرون من نشْر تعاليمهم ونشْر ثقافتهم وإبعاد الدولة المصرية في ذلك الوقت عن روح الإسلام وعن تعاليمه.

هذه أمور أودّ أن يعلَمها الشباب لأنها تفسِّر لنا كثيرًا ممّا يجري في المنطقة العربية الآن.

التنصير (٣)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	علاقة التنصير بالاستشراق	٢٥٥
العنصر الثاني :	علاقة التنصير بالاستعمار	٢٦٠
العنصر الثالث :	علاقة التنصير بالصهيونية	٢٦٥
العنصر الرابع :	مراحل التنصير	٢٧٠
العنصر الخامس :	مؤتمرات المنصرين	٢٧٣

علاقة التنصير بالاستشراق

نتنقل الآن إلى قضية أخرى من القضايا التي تدلّنا على كيفية التعاون بين أجنحة الغرب التي ترفرف والتي تعمل في منطقتنا العربية وفي العالم الإسلامي، وذلك من طرح سؤال لا بد من الإجابة عليه: هل هناك علاقة بين التبشير وأهدافه ومناهجه، وبين الاستشراق كظاهرة؟ لمحاولة التعرف على الشرق التي تحدّثْنا عنها فيما مضى. لا بد من الإجابة على هذا السؤال؛ لأنه من الملاحظ: أننا وجدْنا أنّ كثيرًا من المستشرقين كانوا رجال لاهوت مسيحي، وكانوا -بالإضافة إلى طلبهم علْم الشرق، واهتمامهم بقضايا الشرق ثقافة وديانة وحضارة- كانوا هم أنفسهم يباشرون عملية التبشير في الوطن العربي وفي البلاد الإسلامية. وهنا يمكن أن يقال: إن أهداف سياسة التنصير قد تلتقي مع أهداف حركة الاستشراق في كثير من الأمور، خاصة ما يتّصل منها بالأهداف الدينية والثقافية، وما وجدناه من إجماع الطرفيْن -المستشرقين من جانب، والمنصِّرين من جانب آخَر- على القول بمركزية الحضارة الإنسانية، وارتباطها بأوربا وشعوب أوربا.

هذا كان أحد المحاور الرئيسية التي يدندن حولها المستشرقون والمبشِّرون: فكرة أوْرَبة الحضارة الإنسانية، وليس خارج أوربا شيء يمكن أن يسمّى حضارة، هكذا يقول المبشِّرون. وهكذا قال قبلهم المستشرقون. وهذا ما نجده واضحًا في كتابات المستشرقين والمبشِّرين ومَن دار في فَلَكهم على سواء، خاصة من الكتّاب العرب الذين يقومون بدوْر الطابور الخامس في تحقيق أهداف المستشرقين والمبشِّرين على سواء، وأنّهم يعلنون في بلادهم القول بأوْرَبة الفكر الإنساني قاطبة، والقولَ بضرورة الأخذ بالنموذج الأوربي، واقتفاء أثر أوربا، وأن نسلك

مسالكهم حذو القذّة بالقذّة، إذا أراد المسلمون أن يعيشوا عصرهم وحضارتهم، وأن يتقدّموا كما تقدّم الأوربيون الآن.

وقد يكون مفيدًا أن نُنبِّه هنا إلى أنّ هاتيْن الظاهرتيْن تُعتبران وجهيْن لعُملة واحدة: ظاهرة التبشير، وظاهرة الاستشراق: وجهان لعملة واحدة هي: موقف الغرب من الإسلام والمسلمين، وماذا يريده الغرب من الشرق الإسلامي. لذلك لا نجد غرابة أنّ بيْن هاتيْن الظاهرتيْن وحدة في الهدف أحيانًا، ووحدة في الوسائل أحيانًا أخرى. فقد يكون بعض المستشرقين مشتغلًا بعملية التنصير صراحة، وقد يكون المنصِّر مستشرقًا متواريًا تحت ظلّ معرفة الثقافة العربية والثقافة الإسلامية كما هو معروف في عصرنا الحاضر في كثير من البلاد الإسلامية والعربية.

وهنا ينبغي أن أضع تحت أعْيُن حضراتكم ما بيْن هاتيْن الظاهرتيْن من أوجُه الاتّفاق وأوجُه الاختلاف؛ لكي نكون على بيِّنة من أمْرنا:

أولاً: من ناحية الوسائل: نجد أنّ وسائل الاستشراق تتمَحْور في معظمها على الجانب العلمي، على البحث العلمي، ككتابة البحوث والكتب والمقالات، وعَقْد الندوات وعَقْد المؤتمرات الدولية أحيانًا، وأحيانًا يلجؤون إلى المحاضرة. فنشاط الاستشراق عادة نشاط علمي وبحثي مجالُه: العلوم الإسلامية بفروعها المختلفة؛ ولذلك تجد بين المشتغلين بالاستشراق: المتخصّص في التفسير وعلومه، والمتخصِّص في الحديث وعلومه، والمتخصِّص في الفلسفة والتصوف، بل المتخصِّص في النحو، وعلم اللغة، والأدب، والشعر. وهذه التخصّصات كلّها قد وجدنا لكثير من المستشرقين مؤلّفات كبيرة جدًّا وكثيرة جدًّا تملأ هذه الفروع الثقافية المختلفة.

إذن نشاط المستشرقين غالبًا يركِّز على الجوانب الثقافية بنواحيها المختلفة.

أمّا التبشير فغالبًا ما يركز على الجانب الاجتماعي، يبحث عن منطقة الفقراء، منطقة الجهَلة، منطقة العمالة، المناطق التي يسود فيها الفقر والجهل، لاستغلال هذه الظواهر الاجتماعية كوسيلة مؤثِّرة في تحقيق الأهداف. فيؤسسون المستشفيات، والمستوصفات، والملاجئ، والنوادي الاجتماعية، وبعض المدارس التعليمية تحت ستار: نشر العلم والتربية الحديثة في هذه المناطق، استغلالًا لحالتها الفقيرة وجهلها. وعن طريق هذه المؤسّسات الاجتماعية، يباشرون نشاطهم في نشر تعاليم الإنجيل. هذه واحدة.

إذًا الاستشراق يركِّز على الجانب الثقافي، أمّا التبشير فيركِّز على الجانب الاجتماعي.

ثانياً: نجد أنّ معظم المستشرقين في نشاطهم الثقافي يركِّزون على إقامة علاقات شخصية مع المثقّفين في البلاد التي يعملون فيها. يحاول أن يتعرّف على المنطقة، ويتعرّف على أبرز الشخصيات المشتغلة بالثقافة في هذه المنطقة، ويكتشف ميوله النفسية، ميوله الثقافية، التعرف على مزاجه النفسي. وأيضًا لا بأس أن يتعرف المستشرق على أقطاب السياسة وأصحاب القرار السياسي في المنطقة التي يعمل فيها، والبحث عن أفضل الوسائل للتعامل مع هذه الشخصيات. وكان من وسيلتهم في ذلك: الكتاب، والمقال، والندوة، والصداقة الشخصية، خاصّة مع كبار المسؤولين عن القرار السياسي، المسؤولين عن القرار الثقافي، العائدين من البعثات التعليمية في دول أوربا، وخاصة من دولة فرنسا بالذات. وغالبًا ما تؤتي هذه الصداقات ثمارها في تنفيذ أهداف المستشرقين.

ولعل النظرة السريعة إلى خريطة توزيع الوظائف المؤثرة ثقافيًا وسياسيًّا في وطننا العربي تؤكد لك صدق هذه القضية: أنّ المستشرقين يركِّزون على شخصيات

معيّنة في المنطقة التي يعملون فيها: شخصية ثقافية، شخصية ذات تأثير في القرار السياسي. فمعظم العائدين من البعثات -خاصة من فرنسا- سرعان ما يتبوّؤون مراكز القيادة الثقافية في بلادهم، ومن خلال موقعهم الوظيفي يملكون اتخاذ القرار وتنفيذ القرار.

أما المبشِّرون: فيركّزون في خطابهم على الطبقات الدنيا والفقيرة في المجتمع، الطبقات التي لا حظّ لها من الثقافة، ولا حظّ لها من التعليم، ولا حظّ لها من الثراء، وتحاول أن تسدَّ رمقها وتروي ظمأها. والطريق إلى مخاطبة هذه الطبقة من المجتمع هو: تقديم لقمة الخبز للفقير، وكسوة العريان، والدواء للمريض. فكأنّ المستشرق يتعامل مع طبقة معيّنة في المجتمع، والمبشِّر يتعامل مع طبقة أخرى مختلفة تمامًا في المجتمع؛ ولا مانع أن يحدث تداخل بين الطبقتيْن، لكن هذا في الأعمّ الأغلب.

ثالثًا: من مناهجهم في العمل أيضًا: أنّ المبشِّر لا يلجأ إلى الطعن في الإسلام بطريق مباشر، وإنما يبدأ حواره مع المسلم بالحديث عن الجوانب الاجتماعية -ماذا يهمّه؟ ماذا يشغل ذهنه؟- والتي تمثّل نقطة الضعف في حياته. ممّ يعاني؟ ما هي الأزمات المالية أو الاجتماعية التي يبحث عن حلول لها؟ عكس المستشرق؛ فإنه من خلال ثقافته وتخصّصه نجده يلجأ مباشرة إلى النّيْل من الإسلام في مؤلّفاته وكُتبه، وفي مقالاته وبحوثه؛ فينال من الإسلام، ينال من الرسول، وينال من القرآن بشكل مباشر تحت ستار البحث العلمي، وتحت ستار الموضوعية في البحث. ولا يلبث أن يعلن رأيه بشكل مباشر وصريح، فيطعن في نبوّة الرسول ﷺ، ويطعن في ألوهية القرآن، وأنه من عند محمد.

ويمكن أن نُعرِّف التنصير من خلال المنهج الذي يسلكه هؤلاء المبشِّرون بأنه: محاولة للوصول إلى قلب هذه الطبقات الدنيا في المجتمع؛ لأن هذا يميّز عمل المبشرين عن عمل المستشرقين في هذه المنطقة من العالم بالذات. ولا ننسَ أن مهمّة التنصير بين المسيحيِّين ضرورية، ولا بد أن يتعاونوا للنهوض بها كأفراد وجماعات؛ هذا حسب ما توصيهم به التعاليم التي وجدوها مبثوثة في الأناجيل التي بين أيديهم الآن. ولذلك نجد كثيرًا ما يتردّد على ألسنتهم قولهم: "فلتذْهب إليهم" على لسان عيسى ~ ، يوصي أتباعه بهذه العبارة: "فلتذهب إليهم، وليكن لك أتباع بين جميع الأمم. ويجب أن يعمّ الإنجيل كلّ أمم الأرض".

هذه بعض المعالم التي يمكن أن نفرِّق بها بين وسائل ومناهج الاستشراق، ووسائل ومناهج التبشير.

أمّا الأهداف والغايات والمقاصد لكلٍّ منهما، فلا شك أنّها أهداف واحدة، وهي: تناول الإسلام أصوله وفروعه، تناول التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، بالتشكيك والتشويه في ذهن الأتباع، وتنفير الآخَرين منها.

هذه بعض النقاط التي أردت أن أضعها أمام حضراتكم فيما يتعلق بعلاقة التبشير بالاستشراق من جانب، ودَوْر العمالة المهاجرة في دول الخليج من جانب آخَر، ونشاط المبشرين في مصر، ومحاولة استغلال ظروف الاستعمار والعمل تحت حمايته لنشر أفكارهم في مصر.

علاقــة التنــصير بالاســتعمار

أنتقل الآن إلى طرح سؤال آخَر: هل هناك علاقة بين التبشير والاستعمار؟ أظن أننا طرحنا السؤال ونحن نتحدث عن الاستشراق. وقلنا: إنّ الاستشراق يُمثِّل الطليعة الطبيعية للاستعمار العسكري. لكن السؤال المطروح هنا الآن يتعلق بالتبشير، برجال الدين المسيحي. المفروض: أنّ عمَلهم دينيّ بحت، لكننا للأسف الشديد وجدنا أن المبشرين يقومون بدور استعماري إمّا بطريق مباشر، وإمّا بطريق رسم الخطط ومعاونة الاستعمار في تحقيق أهدافه؛ لأن طرح السؤال في هذه المرحلة من المحاضرات مهمٌّ جدًّا؛ لأن الذي يتابع الحالة السياسية في العالم المعاصر الآن، خاصة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بل لا نكون مبالغين أن هذه الظاهرة - ظاهرة ارتباط التبشير بالاستعمار، واستعانة الاستعمار بالمبشرين - ربما نجدها تمتد إلى بداية عصر الاستعمار الأوربي للشرق، وللهند أيضًا وباكستان؛ لأنه وجدنا أن استعمار أوربا لكثير من بلاد العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر والقرن العشرين قد أدّى إلى نشاط ملحوظ جدًّا في نشر المؤسسات التبشيرية في كل من إفريقيا وآسيا، وتمكّن المبشِّرون في ظل هذا الاستعمار من العمل بحرية، ودون خوف. وقد قامت الدول المستعمِرة بتوفير الحماية لهؤلاء المبشِّرين، كما عملت في الوقت نفسه على التضييق، بل والمعاقبة لكلّ من يقف في وجه المبشرين من الدعاة الإسلاميين، أو من المؤسسات الإسلامية. وقد قامت دول الاستعمار بذلك نصرة للمسيحية التي هي أصل من أصول الحضارة الأوربية، حتى وإن تمرّدت عليها الحكومات، ثم تحقيقًا للمصالح التي تتحقّق لهذا الاستعمار إذا ما انتشرت المسيحية في هذه البلاد. وقد لا تكون

هذه المصالح مصالح سياسية، بل إنها أيضًا تمتد لتشمل المصالح الاقتصادية والمصالح المادية أيضًا، وربما مصالح دينية تتشابك مع المصالح الاقتصادية لهذه الدولة أو تلك.

ولعل الدول المستعمِرة قد وجدت الفرصة سانحة لتردّ الجميل لعمل المستشرقين الذي بدأ بعد نهاية الحروب الصليبية مباشرة؛ لأننا قلنا في حديثنا الأول عن التبشير: أن أوّل من مارس هذه المهنة هو (ريمون لول) في القرن الثاني عشر الميلادي، وكان مبشرًا ومستشرقًا. وتكلّمنا فيما سبق عن علاقة الاستشراق بالاستعمار، فكأن الدول الاستعمارية أحسّت بشيء من الجميل تجاه الاستشراق وتجاه المبشرين من المستشرقين، فمن أجل ذلك بسطت عليهم الحماية في شتّى أنحاء المعمورة. لذلك وجدنا أنّ الاستعمار والتبشير، ورجال الاقتصاد ورجال المال، يتعاونون جميعًا على حساب مصالح البلاد الإسلامية وشعوبها. وقد تم الإفصاح عن هذا التعاون صراحة على ألْسنة الكثيرين منهم، حتى إننا نجد أنّ وعد (بلفور)، ولا يخفى على حضراتكم من هو (بلفور) صاحب الوعد المشؤوم، الذي يتضمّن وعدًا بمعاونة اليهود على إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين على حساب أهلها. ماذا كان يعمل (بلفور) هذا؟ كان رئيس شرف لمؤتمر تبشيري كبير عقد في إدنبرا باسكتلندا سنة ١٩١٠م. وقد صرّح هذا الرجل في ختام المؤتمر بقوله: "إن المبشرين هم ساعد لكلّ الحكومات الأوربية في أمور مهمة جدًّا، ولولاهم لتعذّر علينا أن نقاوم كثيرًا من العقبات؛ وعلى هذا فنحن في حاجة إلى لجنة دائمة يُناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين".

هذا (بلفور) الذي أعلن عن الوعد المشؤوم بإعطاء أرض فلسطين هدية لإسرائيل. ونجد وزير معارف هولندا افتتح مؤتمرًا للمبشِّرين والمسشرقين في ليدن

سنة ١٩٣١م افتتح خطابه بقوله: "إن اتّساع الأمّة الهولندية في الشرق لم يكن القصد منه المكاسب المادية؛ بل أكثر ما قصدتْه هولندا بذلك هو نشر فضائل النصرانية بين أهالي هذه الشعوب". ونجد من جهة أخرى: أن رئيس الغرفة التجارية في هامبورج يصرّح بقوله: "إن نموّ ثروة الاستعمار تتوقف تمامًا على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى هذه المستعمرات. وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمنية: إدخال الدين المسيحي في البلاد المستعمرة؛ لأن هذا هو الشرط الأساسي للحصول على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية".

هذه الفترة التاريخية قد شهدت فيها الدولة العثمانية بعض مظاهر الضعف، أو بدت عليها بعض مظاهر الضعف؛ فوجدنا أنّ البلاد العربية التي وقعت تحت الاحتلال أخذت تتأثر بدعوة الاستعمار عن طريق نشر فكرة القوميات، وبدأت تتأثر بهذه الأفكار، وبنشاط المبشرين في هذه البلاد. ووجدنا أن أحد المبشرين الكبار يكتب بصراحة عن العلاقة المتبادلة بين وظيفة المبشِّر ووظيفة المستعمِر، حتى إنَّ مبشرًا أمريكيًّا يسمى (جاك مندلسون) يصرِّح في أكثر من موضع من كتابه الذي وضعه عن تاريخ التبشير، يقول: "لقد تمّت محاولات نشيطة لاستعمال المبشِّرين لا لمصلحة المسيحية، وإنما لخدمة الاستعمار". ووجدنا (نابليون) المعروف -صاحب الحملة الفرنسية على الشرق- يصرِّح في منشوره الذي أعلنه في مجلس الدولة في فرنسا بتاريخ ٢٢ مايو ١٨٩٤م يقول: "إنَّ في نيّتي إنشاء مؤسّسة إرسالية تبشيرية؛ لأن هؤلاء الرجال المتديِّنون سيكونون عونًا لنا كبيرًا في آسيا وفي إفريقيا. سوف أرسلهم لجمع المعلومات عن هذه الأقطار. لماذا؟ لأن ملابسهم الدينية سوف تحميهم وتخفي أية نوايا اقتصادية أو سياسية أو استعمارية عن أعين الناظرين". هذا ما صرّح به كثير من المبشرين ومن السياسيِّين أنفسهم عن علاقة التبشير بالاستعمار.

بل أكثر من هذا: نجد أنّ البابا أكّد في كثير من المواقف على دعم بعثات التبشير في إفريقيا وآسيا، وأن تمدّ يد المعاونة عن طريق جمع المعلومات لحكوماتهم، حتى تستطيع أن تعمل في ظل هذه الحكومات. ولا يخفى على حضراتكم ما وجد في العصر الحديث -خاصة في أواخر القرن العشرين- ودعوى المبشرين في إفريقيا: أنهم أتوا إليها لقصد التنوير، ونشر التعليم، ونشر الثقافة؛ حتى إننا وجدنا أكثر من أربعمائة منظمة كنسية أمريكية تعمل في هذه المنطقة تحت هذه العناوين المزيّفة. وبعد أن انكشف أمر هذه المؤسسات التبشيرية وجدنا أبناء إفريقيا أنفسهم يصبّون لعناتهم وجام غضبهم على هذه المؤسسات؛ لأنها خدعتْهم خدعة كبيرة، وقدّمتهم لقمة سائغة لاستعمار عسكري سياسي اقتصادي نهبَ خيرات هذه البلاد، ابتداءً من فرنسا، وإيطاليا، وهولندا، وبلجيكا. هذه البلاد كلها وضعت يدها على هذه المناطق في وسط وقلب وشرق أفريقيا بعون من عمل المبشرين، وعن طريق المعلومات التي كان يغذّيهم بها المبشرون عن أهالي هذه المنطقة.

لا يكفي هذا حتى نبرهن على أنَّ التبشير كان يعمل في خدمة الاستعمار، ولكن سوف أضع أمام حضراتكم نصًّا في غاية الغرابة. يقول أحدُ رواد العمل السياسي في إفريقيا، وهو أحد قواد الحملة العسكرية التي أتت من البرتغال إلى هذه البلاد، ماذا يقول هذا الرجل؟ يقول: "لم نأتِ إلى هنا حبًّا للرب، ولكن حبًّا في البرتغال؛ لأنّ كل المبشرين الكاثوليك -وإن لم يسمّوا موظفين رسميِّين تحت إمرتنا- فإنهم يُعدُّون موظفين في الخدمة الخاصة للمصالح الوطنية والمدنية لصالح البرتغال. إن الأعمال الإرسالية في هذه المستعمرات تكفلها الحكومة، وتموّلها الدولة؛ فلا ينبغي أن يعملوا إلا لصالح الدولة".

ليس هناك ما هو أكثر تصريحاً عن علاقة التبشير بالاستعمار من هذا النص. وبالإضافة إلى ذلك نجد (مندلسون) يعقد لنا مقارنة بين عمل المبشرين في إفريقيا بالذات، وما فعلوه مع طلاب إفريقيا، والمصالح التي قدّموها للمستعمرين في هذه البلاد، ويقول: "إن المبشِّر الوحيد كان يقوم بخدمات جليلة أكثر من حامل البندقية وحامل السلاح في الحملة العسكرية".

لقد قدّم المبشرون خدمات جليلة لهذه الحملات العسكرية التي وطئت هذه البلاد، ولولا عمليات التبشير لما استغل وما استعمر هذه البلاد لا فرنسا ولا إيطاليا ولا بلجيكا بهذه السهولة واليسر التي وجدوها في هذه الحملات العسكرية.

هذه -إخوتي وأخواتي- بعض الملامح التي تبيِّن لنا علاقة الاستعمار بالتبشير. وتكلمنا -فيما سبق- عن علاقة الاستشراق بالاستعمار، وهنا يمكن أن نتصوّر مثلثًا له ثلاثة زوايا، لو وضعنا على زاوية الرأس الاستعمار، ووضعنا تحت في زاويتي القاعدة: الاستشراق من جانب، والتبشير من جانب آخَر، يمكن أن نتخيّل هذه المحاور الثلاثة: الاستعمار العسكري، الاستشراق، التبشير: هي التي تمثِّل محاور الهدم، محاور التغريب، محاور استعمار البلاد الإسلامية والبلاد العربية استعمارًا سياسيًّا وفكريًّا أولًا، ثم استعمارًا عسكريًّا ثانيًا. فيكون الاستعمار الفكري، أو الغزو الفكري، أو الغزو الثقافي، سواء تمّ على يد المبشرين أو علي يد المستشرقين يمثِّل طليعة ومقدّمة طبيعية للاستعمار العسكري.

هنا سؤال أيضًا لا بد أن أكمل به الدائرة، وهو: هل هناك علاقة بين التبشير والحركة الصهيونية؟ ربما نتكلّم عنها فيما بعد عندما نتحدث عن الصهيونية، ولكن أجد هنا السؤال مهمًّا لتكتمل الدائرة أمام حضراتكم: الاستعمار العسكري، الاستشراق، التبشير، الصهيونية. نعم نجد هناك علاقة قوية بين

حركة التبشير -أو ظاهرة التبشير- وبين الحركة الصهيونية العالمية. قد دلت على ذلك الوقائع التاريخية، والوثائق الرسمية التي دوّنها بعض المبشرين أحيانًا، وأعلنها أخيرًا بعض رجال السياسة الذين يعملون لحساب دولة إسرائيل في وقتنا الحاضر؛ لأن باكتمال هذه الدائرة تتّضح الرؤية أمامنا. لماذا هذا الإصرار على تجاهل الحقوق العربية والحقوق الإسلامية المتمثّلة في أرض فلسطين، والحرص كل الحرص على الانتصار والتزلف -بل والنفاق أحيانًا- لمصالح إسرائيل في هذه المنطقة؟ إن هذه الأسئلة لا بد مِن طرْحها علينا ونحن في هذه المرحلة من الدراسة؛ لأننا سوف نجد أنّ جميع المستشرقين إلاّ قليلاً منهم، وجميع المبشرين أيضًا إلاّ مَن أعلن إسلامه منهم، يمدّون يد العون للحركة الصهيونية العالمية. وقد استعانت بهم الحركة الصهيونية العالمية كثيرًا -خاصة بعد مؤتمر (بال) الذي عقده (هرتزل) وجدنا كلّ هذه الأيدي تتشابك وتتعاون فيما بينها، حتى ولّدوا دولة إسرائيل من التاريخ بولادة قيصرية غير شرعية.

علاقة التنصير بالصهيونية

قد طرحنا سؤالا أراه مهمًّا في هذا الظرف التاريخي الذي نعيشه ويعيشه معنا العالَم الإسلامي كلّه: هل هناك علاقة بين حركة التبشير -وبالتالي حركة الاستشراق- وبين الحركة الصهيونية العالمية، خاصة في عصورها المتأخِّرة؟ لأنه -كما قلت- هناك مجموعة من الأصابع أو من المحاور التي تعمل متعاونة فيما بينها لتحقيق حُلم إسرائيل على حساب الحقوق العربية والإسلامية والفلسطينية في أرض فلسطين.

فمنذ قرن ونصف تقريبًا، بدأت أوربا تضيق كلّها بالحركة اليهودية، خاصة الحركة الصهيونية؛ لأنه كما سوف نعرف فيما بعد أنّ الصهيونية شيء،

واليهودية كديانة شيء آخر.

حاولتْ أوربا منذ مطلع القرن التاسع عشر أن تقوم بنشر المسيحية بين بعض الطوائف اليهودية المقيمين في بعض أنحاء أوربا؛ ولذلك وجدناهم في سنة ١٨٠٩م قد أسّس الإنجليز في لندن جمعية تسمّى: "الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود"، وقد كانت آمال الأوربيِّين -أو انجلترا بالذات- عند تأسيس هذه الجمعية كبيرة؛ لأنهم كانوا يريدون ويأملون أن يكون العمل في هذه الجمعية يبدأ من منطلق أن يجمعوا اليهود المتفرِّقين في جميع أنحاء الأرض يسوقونهم سوقًا إلى أرض فلسطين؛ ولذلك بدؤوا يشجِّعون اليهود على الهجرة من هذا التاريخ، وعزموا على أن يبدؤوا التبشير بين الجاليات اليهودية الموجودة بينهم ابتداء من ذلك الوقت مباشرة، وينشروا بينهم هذه الفكرة -وهي فكرة قديمة جدًّا-: فكرة الالتفاف وتجميع اليهود في أرض فلسطين كفكرة صهيونية. ولكن بعد أن ضاقت أوربا باليهود المقيمين فيها، بدؤوا يشجّعونهم على العودة -كما يتوهّمون- إلى أرض فلسطين عن طريق تأسيس هذه الجمعية. وأخذ المبشِّرون يتفاءلون، ويظنّون أن هذه الفرصة فرصة سانحة لتحقيق هذا الهدف -هدف تجميع اليهود على أرض فلسطين-، ومن جانب آخَر: فكرة التخلص من اليهود في أوربا؛ لأنهم قد ضاقوا ذرعًا بهم تمامًا، خاصة إذا علمنا أنّ هذا الوقت كان محمد علي خديوي مصر قد أرسل ابنه إلى الشام -أظنه ابنه إبراهيم- واستولى على أرض فلسطين. وموقف محمد علي من الإرساليات التبشيرية كان موقف تسامح أكثر منه مواجهة، وكذلك موقف أبنائه مِن بَعده كان موقف تسامح أكثر من موقف مواجهة.

ووجدنا أنّ المبشرين انتهزوا هذه الفرصة ووضعوا كنيسة تسمّى: كنيسة

صهيون، وهي أوّل كنيسة بروتستانتية في الإمبراطورية العثمانية، وانتبه لهذه التسمية: "كنيسة صهيون"، ولكن فأل المبشرين قد خاب؛ لأن محمد علي انسحب انسحابًا كاملًا من الشام، ثم عاد الأتراك إلى موقفهم الشديد الأول من الإرساليات التبشيرية، فكأن الكنيسة هذه أسِّست في الوقت الذي كان محمد علي وابنه مسيطرين على هذه المنطقة. ولما رجع محمد علي مهزومًا إلى مصر مرة ثانية في ١٨٤٠م، عادت الخلافة العثمانية بموقفها الصلب، فألغت هذه الكنيسة تمامًا، وعاد الأمر إلى ما كان عليه. وهذه محاولة لها أثر عيْنيّ مازال موجودًا إلى الآن.

ثم حاول المبشِّرون مرة ثانية أن يستغلّوا القضية اليهودية في سبيل تحقيق أهدافهم التبشيرية، فوجدنا الملِك (فردريك ولْهُلم) الرابع ملك بروسيا حاول أن يكوّن ويَبْني مركزًا بروتستانتيًّا لإصلاح الكنائس الشرقية بصفة عامة، ولتنصير اليهود بصفة خاصة. ووجدْنا المبشِّرين مقتنعين جدًّا بهذه الفكرة؛ لأن جمع اليهود في أرض فلسطين يسهِّل لهم مهمّتهم في الوصول إلى المسلمين من جانب، وأن تتخلص أوربا من اليهود من جانب آخر. من أجل ذلك أرادوا أن يفتحوا أبواب فلسطين على مصراعيها لهجرة اليهود. وليس من المستغرب بعدئذٍ أن نجد سبعة وعشرين جمعية تبشيرية من مختلف الجنسيات الأوربية ومن مختلف الانتماءات الكنسية كانت تعمل -وبلا مَلَل- في قلب فلسطين.

ومن هنا، وجدنا أن العوامل الدينية المختلفة كانت من بين أهدافها أيضًا ليس نشر المسيحية حبًّا في المسيحية، وإنما معاونة اليهود ليرحلوا من أرض أوربا إلى أرض فلسطين. وكانت البابوية والبروتستانتية والصهيونية تتنافس فيما بينها في أرض فلسطين. ولعلّكم سمعتم عن المموِّل (روتشيلد) اليهودي؛ فقد تبرّع بالتمويل الكامل لكل هذه الجمعيات. ومع أنّ هذه الحركات كانت كلّها دينية في

ظاهرها، إلا أنها كانت سياسية في واقع الأمر.

وكانت الدول الأجنبية تريد أمريْن: العمل على تحطيم الإمبراطورية العثمانية من جانب -وقد أشرنا إلى ذلك-، ثم العمل على جمع اليهود من أوربا في أرض فلسطين من جانب آخَر؛ لكي تستطيع أن تبسط نفوذها على كل بلاد الشرق. ولقد لجأت الدول الأوربية إلى استغلال الأقليات الطائفية في الإمبراطورية العثمانية، كالأقلية اليهودية على الأخص، ثم الأقلية الأرمنية، أثاروا هذه الأقليات ضد الدولة العثمانية مرارًا؛ لإضعاف الدولة العثمانية في البلاد العربية؛ ليستقيم لهم نفوذهم، ويقوَى نفوذهم على هذه البلاد.

كل هذا يبيِّن لنا إلى أيّ حد كانت هناك علاقة قوية جدًّا بين العمل التبشيري وبين الحركات الصهيونية لتحقيق هدف الصهيونية من جانب، وتحقيق هدف أوربا في إجلاء اليهود عن أرض أوربا من جانب آخَر.

وفي الحقيقة، لم تكن الإرساليات التبشيرية وحدها صديقة، أو تعمل لتحقيق هذا الهدف في الساحة؛ بل إنّ الحكومة البريطانية -وهي التي قد أعلنت انتدابها رسميًّا على أرض فلسطين- قد ساعدت الإرساليات التبشيرية، وأمّدتْها بالمال، وأعلنت صداقتها لليهود، لكي تستغل النشاط التبشيري في تحقيق أهدافها من جانب، وتعمل على توطين اليهود عن طريق إشاعة الفكرة التبشيرية بينهم من جانب آخَر. ووراء هذا كله: تحقيق أغراض استعمارية توطّد أو ترسِّخ أو تثبِّت بريطانيا أقدامها في المنطقة؛ لأنها كانت وضعت يدها على العراق، وعلى الأردن، وعلى فلسطين، وعلى مصر.

ولعلَّ مما يدلّ على ذلك: أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وجدْنا أن إنجلترا أعلنت الوطن القومي لليهود في فلسطين قبل استيلائها على أرض فلسطين، وأنّ

المندوب السامي البريطاني في فلسطين السِّير (هربرت صموئيل) كان يهوديًّا، وكان تأسيس الدولة اليهودية أمرًا مقررًا ومعروفًا عند جماهير المبشِّرين، حتى إن أحد المبشرين، وهو -إذا لم تخُنِّي الذاكرة-: (جون فان إس) يذكر أنه في عام ١٩٤٣م علِم بقيام دولة إسرائيل، وأعلن حدودها. فيقول بأنها الدولة التي تمتد وتؤلَّف من معظم أراضي اليهود، من الجليل جنوبًا إلى خليج العقبة، ثم من الأردن، ويجعل القسم العربي من فلسطين مع شرق الأردن الحالية جزءًا مستقلاً، وتمتد من شرق الأردن إلى أرض سيناء بمصر. هذا الكلام سنة ١٩٤٣م قبل إعلان الدولة رسميًّا سنة ١٩٤٨م، وقبل قرار التقسيم، بل أثناء الحرب العالمية الثانية وقت أن كانت على أشدّها، أعلن هذا القرار، وأصبح معروفًا لدى جمهور المبشرين في أرض فلسطين وفي المنطقة العربية نبأ إعلان قيام دولة إسرائيل بهذه الحدود التي أشار إليها هذا الرجل. وأكثر من هذا: وجدنا أن بعض المؤرخين يضع أسماء محدّدة -ما زال بعضها على قيد الحياة- من المبشِّرين، ويذكر بالتحديد الخدمات الجليلة التي قدّموها للحركة الصهيونية في هذه الفترة التاريخية التي تُعتبر أسوأ الفترات التاريخية التي مرّت بالعالم العربي وبالمنطقة بصفة خاصة.

هذا يبيِّن لنا كثيرًا أنّ علاقة الحركة الصهيونية بالمبشرين من جانب، وبالمستشرقين من جانب آخر -كانت علاقة قوية جدًّا، وعلاقة تعاون بين هذه الجبهات الثلاث. ويذكر (لورانس براون) -وهو أحد المبشِّرين- سئل: لماذا يتعاونون مع الصهيونية ومع اليهود ضد الإسلام وضد المسلمين؟ فيصرّح هذا الرجل -في غرابة وبجرأة- ويقول: "إن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية اختلافًا كبيرًا؛ لأن المسلمين يختلفون عن اليهود في دينهم؛ لأن دعوة الإسلام تنتشر بين النصارى أنفسهم وبين غير النصارى، وأنّ المسلمين لهم كفاح طويل في أوربا، فأخضعوا أوربا في مناسبات كثيرة للنفوذ الإسلامي. ولكن الفارق الأساسي بين

المسلمين واليهود هو: أن المسلمين لم يكونوا يومًا ما أقلِّية موطوءة بالأقدام. إننا إذا نظرنا إلى العالم لم نر مكانًا يمكن أن يصبح المسلمون فيه أقلية مثل هذا، إلا فلسطين والهند. من أجل ذلك نرى أن المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين في فلسطين بدعوى أن اليهود أقلية في هذه المنطقة".

وربما صرّح بعضهم بما هو أكثر من هذا: أنّ بين التراث اليهودي والتراث المسيحي وشائج قوية. ويمكن أن نتعرض لهذه القضية بشيء من التفصيل ونحن نتحدث عن الحركة الصهيونية المعاصرة فيما بعد -إن شاء الله تعالى-.

مراحل التنصير

أنتقل الآن إلى أبرز نشاطات التبشير في عالمنا المعاصر، وهو نشاطهم عن طريق المؤتمرات والندوات الثقافية في العالم الإسلامي.

لقد قلنا -فيما سبق-: أن التبشير قد مرّ بمرحلتيْن:

مرحلة أولى تسمّى: مرحلة النشاط الفردي للمبشِّر. كان كل مبشِّر يجد في نفسه الكفاءة للقيام بهذه المهمة، يجنِّد نفسه لخدمة أغراضه، مستعينًا في ذلك بإمكانياته الخاصة. وهذه المرحلة مثّلتْ مرحلة تاريخية كبيرة في تاريخ الحياة التبشيرية المسيحية.

أما المرحلة الثانية: فبدأت ربما من منتصف القرن السابع عشر، أو بدأت مع عصر الاستعمار العسكري. وبعد ظاهرة الاستشراق بشيء يسير جدًّا من التاريخ، بدأ التبشير يأخذ شكلًا تنظيميًّا تُبنَى له مؤسسات، وتُعقد له اجتماعات، وتكوَّن جمعيات، وتؤسَّس مراكز، وتُبنَى معاهد. ثم تدخّلت الدولة بشكل أساسي للإسهام في هذه الألوان المتنوِّعة من الأنشطة التبشيرية. فبعد أن كان النشاط

التبشيري قائمًا على الفردية، أصبح يأخذ شكلًا جماعيًّا ومؤسسيًّا، وأيضًا يعمل تحت حراسة الدولة، أو تحت حماية الدولة، وبميزانية مرصودة له من الدولة. وابتداءً من هذا التاريخ بدأت عملية التبشير تأخذ شكلًا دقيقًا ومحكمًا لا يترك الساحة لعمل فردي، ولا للمصادفة، ولا يعتمد في العمل على العشوائية، بل كان هناك من يخطِّط ويدرس ويضع ما يمكن أن نُسمِّيه: ورقة عمل لكل إرسالية تذهب إلى ناحية معيّنة من نواحي العالم.

فكان يبدأ بجمع المعلومات الدقيقة عن البلاد والشعوب التي يسعى إلى تنصيرها، ثم يقوم هذا الجمع من المبشِّرين باختيار الدُّعاة الذين يتميّزون بكفاءة عالية ومعارف، للنهوض بهذه المهمة في المنطقة التي يريدون الذهاب إليها. ثم تحاول بعض هذه الجمعيات -عن طريق رجالها الذين يخطِّطون ويرسمون ويضعون أوراق العمل- أن يضعوا بين يدي هذه الإرساليات أو تلك المعلومات والإمكانات، وينبّهوهم إلى العقبات والمشكلات التي يمكن أن تصادفهم في المواقع التي يذهبون إليها.

إذاً انتقلت العملية من أعمال فردية تلقائية أشبه بالعشوائية، إلى عمل جماعيّ منظّم دقيق يأخذ شكل إرساليات، وجمعيات تخضع في عملها لنظام دقيق، وأوراق عمل أشبه بالسياسة المرحلية؛ ولذلك وجدنا أن العمل التبشيري كلّ مرحلة يعقد لها مؤتمرات يقوِّم من خلالها ما تم عمله في المرحلة التاريخية السابقة، ويطرح عدة أسئلة: ماذا يعمل في المرحلة التالية؟ ومن هنا عقد المبشرون كثيرًا من المؤتمرات في العالم الإسلامي لرسم الخطط التبشيرية المناسبة -كما قلنا-، وتقويم العمل في الفترات السابقة، ومحاولة معالجة القصور أو التقصير الذي شاب وعلق بالفترات الماضية. ثم يضع مؤلّفات مستقلة، وأوراق عمل مستقلة، وخريطة تشمل العالَم كله للتبشير على مستوى الشعوب غير المسيحية.

من المهم: أن ألفت نظر حضراتكم إلى أهمّ وثيقة موجودة تحت أيدي المؤرِّخين لحركة التبشير الآن: مجلّة تسمّى: "العالم الإسلامي"، هي عبارة عن بحث عن النشاط التبشيري وضَعَها المسيو (إل شاتيليه) باللغة الفرنسية. وهذه المجلة تُرجمت فيما بعد إلى اللغة العربية، وهذا العدد وُضع سنة ١٩١١م. عدد خاص بعملية التبشير، خطط التبشير، مؤتمرات التبشير. وتقريبًا لا يشمل هذا العدد إلاّ هذا البحث الخاص بقضية التبشير الذي كان يدور كلّه حول ما تقوم به الإرساليات التبشيرية، خاصة الإرساليات البروتستانتية في العالم الإسلامي.

مقدّمة هذا الكتاب تضمّنت الإشارة إلى عملية خطيرة جدًّا تقوم بها الكلية اليسوعية في بيروت، وهي: كلّية القديس يوسف اليسوعية. أشارت إلى ما تقوم به هذه الكلية في نشر تعاليم الإنجيل في سوريا ولبنان.

وبعد هذه المجلّة في الأهمية: كتاب اسمه: "تاريخ التبشير" للمستر (إدون بلس) البروتستانتي، تضمّن تاريخ التبشير في العالم الإسلامي حتى أواخر القرن التاسع عشر.

ومن أهمّ الشخصيات التي كتبت عن التبشير، والتي أيضًا كُتب عنها في تاريخ التبشير: القسّيس (صموئيل زويمر). هذا الرجل عقد كثيرًا من المؤتمرات، وأشرف على كثير من البحوث والمؤلّفات حول عملية التبشير. ومن أهمّ ما ألّف: كتابات (زويمر) في بحوثه العلمية التاريخية الموثقة بوثائق منه هو، التي تدل على أهداف (زويمر) في الالتفاف حول جزيرة العرب التي هي مهد الإسلام. وأشار في هذه المؤلّفات إلى ضرورة ربط المصالح الاستعمارية بمصالح المبشرين، ولفت نظَر المبشرين والمستعمرين إلى مكّة والمدينة اللتيْن أطلق عليهما اسم: "مهد الإسلام". كما كتب أيضًا عن أهمية التفكير في تقليص دور الأزهر في مصر.

مــــؤتمرات المنـــــصرين

سوف أختار من بين هذه المؤتمرات بعضها فقط ؛ لأنها مؤتمرات كثيرة جدًّا ؛ لنبيِّن ماذا دار في هذه المؤتمرات من تخطيط ، ووضْع برامج ، وأوراق عمل للمبشِّرين في العالم الإسلامي.

(أ) من أهم هذه المؤتمرات : المؤتمر الذي عُقد في مصر في سنة ١٩٠٦م. وهذا المؤتمر عُقد -كما يقول بعض المؤرخين- في مكان مهمّ جدًّا ، عُقد في منزل الزعيم الوطني : أحمد عرابي. في هذا المؤتمر اجتمعت معظم الإرساليات التبشيرية في منطقة الشرق الأوسط برئاسة (زويمر) الذي كان يُعتبر الرأس المفكِّرة وصاحب اليد الطولَى في النشاط التبشيري في المنطقة في هذا الوقت. وافتتح المؤتمر بتاريخ : ٤ أبريل سنة ١٩٠٦م. وقد بلغ عدد المندوبين عن الإرساليات التبشيرية في المنطقة ٦٢ مندوبًا ، كان منهم رجال ونساء. وتم انتخاب (زويمر) رئيسًا عامًّا للمؤتمر.

ومن أهم المسائل التي طرحت في هذا المؤتمر إيجاد إحصائية عامّة لعدد المسلمين على مستوى العالم : كم عددُ المسلمين في العالم؟ وكم عددُ المسلمين الذين يمثِّلون أقليات في البلاد التي هي غير إسلامية؟ لأنَّه بعد معرفة عدد المسلمين يمكن الحديث عن الإمكانيات المتاحة للمبشرين في هذه البلاد ، وكم يكفي؟ وما هي الإمكانيات اللازمة؟

ثم تحدّثوا أيضًا عن وضع الإسلام والمسلمين في شرق وجنوب شرق آسيا. تذكرون أنّ المبشرين قسّموا العالم الإسلامي إلى : قلب ، وأطراف ، وجعلوا مكة والمدينة والمنطقة العربية هي قلب العالم الإسلامي ، وشرق وجنوب شرق آسيا وغرب أفريقيا تمثّل الأطراف. وكانت الخطط التي وضعوها في هذا المؤتمر :

أساليب التعامل مع الأطراف تختلف عن أساليب التعامل مع قلب العالم الإسلامي.

ثم تساءلوا في هذا المؤتمر: كيف نتعامل مع المثقّفين غير المسلمين؟ ومع المثقّفين المسلمين؟ ثم كيف نتعامل مع المسلمين العوام؟ ثم وضعوا تخطيطًا مهمًّا للنهوض بدور المرأة في عملية التبشير، وكيف تنشط المرأة المبشرة في جذب وجلب الكثير من الفتيات خاصة المثقّفات منهن، ويخصون بالذكر المنتميات إلى المدارس الأجنبية والجامعات الأمريكية الموجودة في هذه المناطق.

ثم جمعوا أعمال هذا المؤتمر في كتاب مستقلّ نُشر باسم: "وسائل التبشير بالنصرانية بين المسلمين"، جمعه القسيس (فلمنج) الأمريكي، وكتب عليه من الخارج عبارة لها دلالة خاصة، هذه العبارة ماذا تقول؟ "نشرة خاصة" يعني: غير مسموح لها بالتداول، أو ليكون هذا الكتاب أو هذه النشرة يقتصر تداولها على فئة معيّنة من المشتغِلين بالتبشير.

وبعد أيام المؤتمر وما تمّ فيه من بحوث تضمن الكتاب بعض التوصيات التي رفعَها (زويمر) هذا إلى الحكومات المعنيّة في بلاده، ليس في بلاد المسلمين، وإنما رفع التوصيات إلى الحكومات الأوربية المهتمة بالإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي.

ومن أهمّ هذه الاقتراحات:

محاولة الالتفاف حول الأزهر في مصر؛ لأنه مفتوح لكل الطلاب من العالم كله. والأخطر من هذا -كما يوصي (زويمر)-: أنّ الأزهر لا يخضع في تمويله لأي حكومة؛ لأن أوقاف الأزهر تدرّ دخلًا كبيرًا يساعد العالِم والمتعلِّم، ولا بدّ من العمل على تقليص دوْره. ويوصي بأنّ مِن أهمّ وسائل تقليص الأزهر: منع

التمويل بأي وسيلة من الوسائل، ثم التوصية بإنشاء جامعة نصرانية تشارك في الإنفاق عليها جميع الكنائس المسيحية على اختلاف مذاهبها على مستوى العالَم كلّه؛ لأن في التخلّص من الأزهر مصلحة لجميع الكنائس بلا استثناء.

هنا نقطتان ألْفِتُ النظر إليهما: فكرة (زويمر) عن الالتفاف حول الأماكن المقدّسة: مكة والمدينة، ثم الالتفاف حول الأزهر، وتقليص دوْر الأزهر عن طريق منع التمويل أحيانًا، أو إنشاء جامعة نصرانية تقف أمامه من جانب آخَر.

وانبثق عن هذا المؤتمر خريطة سماها (زويمر): "خريطة تنصير العالم الإسلامي"، ووزّع أعدادًا كبيرة من هذه الخريطة على كبار المسؤولين في الحكومات الغربية، وكتب على كل نسخة منها: "نداء إلى المسؤولين" لعلّه يجد صدًى له في أوربا وفي أمريكا بالذات. ثم عرض هذه الخريطة على المؤتمر في اليوم الأخير، وضمّنها كتابه: "العالم الإسلامي اليوم" لأن الخريطة خريطة للعالم الإسلامي كله؛ ولذلك سمى الكتاب: "العالم الإسلامي اليوم" وفي داخله هذه الخريطة. وفي نفس الوقت قدّم هذا الكتاب وفيه نداء إلى الحكومات المعنيّة بالإرساليات التبشيرية.

وكان من أهم ما نصح به (زويمر) في هذا الكتاب، أو ما أوصى به المبشِّرين: التركيز على إثارة المشكلات الاجتماعية، وطرْحها من خلال الندوات واللقاءات الثقافية. مثْل ماذا؟ مثْل: مشكلة الطلاق بين الرجل والمرأة في الثقافة الإسلامية، ومثْل: مشكلة تعدّد الزوجات، ومثْل إرث المرأة، لماذا يكون المرأة نصيبها من الإرث نصف الرجل؟ ثم لماذا تكون شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟ هذه القضايا المتعلِّقة بالمرأة بالذات ركّز عليها (زويمر) في هذه الورقة؛ لأنه يعلم تمامًا أنه سوف يجد لها من يتبنّاها بين أبناء المنطقة، خاصة الذين يدينون بالمسيحية واليهودية من أبناء هذه المنطقة. صحيح هم قلّة لكن لهم أصوات مسموعة في

أجهزة الإعلام ؛ لذلك جعل من هذه القضايا ، وأظنّ أنه ما زالت هذه القضايا محلّ دندنة وأخْذ وردٍّ بين جبهات ثقافية وسياسية في كثير من بلاد العالم الإسلامي ؛ لأن نشر هذه الأفكار بين المسلمين على الأقل يثير نوعًا من البلبلة وعلامات الاستفهام حول تعاليم الإسلام. ومعلوم أنّ هذه القضايا قد حسمها القرآن الكريم بما لا يدَع فيها مجالاً للشك.

ومّما قدّمه هذا المؤتمر أيضًا -لأنني أعتبر أنّ مؤتمر ١٩٠٦م هذا من أخطر المؤتمرات الثلاثة التي سنتكلم عنها الآن- : تقرير أهداف التبشير الذي قدّمه إلى المؤتمر (زويمر) أيضًا في الهند ١٩١١م. أخذت أوراق هذا المؤتمر -وهو ١٩٠٦م- إلى مؤتمر آخَر عُقد في الهند. صرّح في هذا المؤتمر بعبارة خطيرة جدًّا -وهو المؤتمر الذي عُقد في الهند- يقول فيها : "ليس الهدف من التبشير هو تنصير المسلم فقط ، وإنما الأهمّ من ذلك التنكّر لتعاليم الإسلام. كيف نجعل المسلم يتنكّر لتعاليم الإسلام؟".

وكانت هذه العبارة هي شعار المؤتمر الذي عُقد في الهند سنة ١٩١١م ؛ ولذلك كانت كلّ الأوراق المقدّمة في هذا المؤتمر تدور حول القضايا التي أثارها (زويمر) في مؤتمر ١٩٠٦م، وهي المتعلقة بمشكلة الطلاق ، مشكلة التعدد ، مشكلة إرث المرأة ، مشكلة شهادة المرأة ، مشكلة عصمة المرأة : لماذا لا تكون بيد المرأة بدلًا من الرجل؟... إلخ.

هذا مؤتمر أنا أعتبره ورقة عمل للنشاط التبشيري تقريبًا في النصف الأول من القرن العشرين.

وهناك تقرير نشر في : ١٢ أبريل سنة ١٩٢٦م ، أشار فيه (زويمر) أيضًا إلى المجهودات الكبيرة التي بذلها المبشرون ، والنفقات الباهظة التي أنفقوها في إفريقيا وآسيا وأيضًا في جزيرة العرب ، لكن -للأسف الشديد- لم تُؤتِ ثمرتها المرجوّة. فطلع (زويمر)

على المبشِّرين بعبارة يلومهم فيها أشدّ اللوم، هو أشبه بتقرير نشَره على جميع المبشرين جاء فيه: "وعندي: أنه يجب قبل أن نَبْني النصرانية في قلوب المسلمين، يجب أن نهدم الإسلام أولاً في نفوسهم؛ حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهُل علينا أو على من يأتي بعدنا: أن يَبْنُوا النصرانية في نفوسهم".

تخطيط دقيق، وبرامج عمل، ومنهج يسيرون عليه، ومراجعة دائمة لهذا المنهج من وقت إلى آخَر. ماذا تم؟ ما هي العقبات؟ ماذا سيكون فيما بعد؟

(ب) هناك مؤتمر آخَر أنا أعتبره على جانب كبير من الأهمية، وهو مؤتمر القدس، الذي عُقد في سنة ١٩٣٥م. هذا المؤتمر كان اختيار المكان الذي عُقد فيه اختيارًا له دلالته. فقد عُقد في مدينة القدس. ولو راجعتم التاريخ: ١٩٣٥م، تجدونه محصورًا بين أهمّ حربيْن عالميتيْن حدَثتا في المنطقة: الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية. الحرب العالمية الأولى تمخّضت عن وعد (بلفور)، والحرب العالمية الثانية تمخّضت عن ميلاد دولة إسرائيل. وبين هاتين الحربيْن عُقد مؤتمر التبشير في القدس.

وقد حدثتكم فيما مضى بطرح سؤال: هل هناك علاقة بين التبشير والصهيونية؟ وقبله طرحت سؤالًا: هل هناك علاقة بين التبشير والاستعمار؟ هذا المؤتمر يأتي في هذه المنطقة، وفي هذه المرحلة التاريخية بالذات. عُقد أولًا تحت حماية الاحتلال البريطاني لفلسطين، وكانت بريطانيا تمثِّل الانتداب على هذه المنطقة. وكانت بريطانيا ومعها بلاد كثيرة من أوربا قد بدأت تنهش التركة العثمانية هي وفرنسا وإيطاليا؛ وضعَت كل دولة منهم يدها على منطقة من العالم الإسلامي.

وكان أبرز الشخصيات المتحمِّسة في هذا المؤتمر، والتي أعلنت صراحة أكثر من مرة في المؤتمر عداءها للإسلام وللمسلمين، وحرْصها على مصالح -لا أقول

اليهود- وإنما غير المسلمين هو: المبشِّر (زويمر)، الذي تحدّثنا عنه وعن نشاطه في مكانيْن مهمّيْن جدًّا في الإرسالية التبشيرية الأمريكية في البحرين، فكان هو أحد ثلاثة مع مؤسِّسها يمثِّلون أركان هذه الإرسالية في بداية القرن العشرين. ثم نشاطه الذي لم يبارِه فيه أحد في مؤتمر ١٩٠٦م الذي عقد -كما قلنا- في القاهرة في منزل الزعيم أحمد عرابي، هنا نجد نفس الرجل (زويمر) أعَدّ خطبة ألقاها في هذا المؤتمر على الحاضرين من المبشرين.

ويهمّني في هذا المؤتمر بالذات: أن نعرف ما جاء في هذا الخطاب، لنتعرّف: كيف التقَتْ مصالح التبشير ومصالح الاستعمار مع مصالح الصهيونية على أرض فلسطين، ليجمعهم هدف واحد هو: التخلص من الإسلام في هذه المنطقة، ومن المسلمين الموجودين في هذه المنطقة.

اسمعوا ما قاله "زويمر" في هذا المؤتمر! قال: "أيها الإخوان الأبطال، والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام؛ فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل. لقد أدّيْتم الرسالة التي نِيطت بكم أحسن الأداء. إنّني أقِرّكم: أنّ الذين دخلوا حظيرة المسيحية من المسلمين ليسوا بمسلمين حقيقيِّين. لقد كانوا -كما قلتم- أحد ثلاثة: إمّا صغير لم يكن له من أهله مَن يُعرِّفه ما هو الإسلام. أو رجل مستخِفّ بالأديان عمومًا لا يهتم بغير الحصول على قُوته، وقد اشتدّ به الفقر، وعزّت عليه لقمة العيش. أو ثالث يبغي الوصول إلى غاية شخصيّة". لعلّ هذه النماذج الثلاثة توضِّح لنا ما هي الفئات البشرية التي كان يتعامل معها المبشِّرون.

ثم يستمر (زويمر) فيقول: "إن المهمّة التي ندبَتْكم إليها دول المسيحية في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية؛ فإنّ في هذا هداية لهم وتكريمًا

لهم، وإنما مهمّتكم: أن تُخرجوا المسلم من الإسلام ليُصبح مخلوقًا لا صلة له بالله؛ وبالتالي لا صلة له تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها؛ وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام. وهذا ما أهنّئكم عليه، وتهنّئكم عليه دول المسيحية. لقد قبضنا -أيها الإخوان- في هذه الحقبة من التاريخ على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية. ونشرْنا في تلك الربوع مكامن التبشير، والكنائس، والجمعيات، والمدارس المسيحية الكثيرة التي تُهيمن عليها دول أوربا وأمريكا. أيها الزملاء، إنكم أعددتم في ديار الإسلام شبابًا لا يعرفون الصلة بالله، ولا يريدون أن يعرفوها، وأخرجتم بعضهم من الإسلام ولم تدخلوه المسيحية؛ وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده الاستعمار، لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة، ويميل إلى الكسل، ولا هَمّ له في دنياه إلا الشهوات؛ فإذا تعلّم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوّأ أسمى المراكز فللشهوات، وفي الشهوات وللشهوات يجود بكل شيء. باركَتْكُم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار. فاستمرُّوا في أداء رسالتكم. لقد أصبحتم -بفضل جهادكم- موضع بركات الرب".

هذا الخطاب -أيها الإخوة- كبير جدًّا، وإنما استقطعْتُ منه هذه الفقرات فقط؛ وهي ليست فقرات منتقاة انتقاءً منتزعًا من السياق، حتى لا يقال: إننا أخذنا عبارات من سياقها العامّ وقد يكون الخطاب يدل على غير هذا. لا! عليكم أن تراجعوا الخطاب كاملًا في كتاب: "المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام" للشيخ: محمد محمود الصواف، والكتاب نُشر أكثر من مرة، خاصة صفحات: ٥٨، ٥٩.

وقد تكررت الكتابة عن هذا المؤتمر في أكثر من مرجع ؛ لأنه من أخطر المؤتمرات التي وقعت بين الحربيْن العالميتيْن : الحرب الأولى والحرب الثانية. ونحن نعتبر (زويمر) هذا من أخطر الشخصيات التي كان لها نشاط ملحوظ وتخطيط رهيب في النشاط التبشيري في القرن العشرين ، وبالذات في النصف الأوّل من القرن العشرين.

وكان من الأمور التي وضعها هذا الرجل تحت أعْيُن الحكومات الأوربية من جانب ، والحكومات الإقليمية من جانب آخَر : الأزهر ، تقليص دوْر الأزهر. ولعلّكم لاحظْتم أنه لم يمض وقت طويل على هذا المؤتمر إلاّ وقد حلّ بالأزهر ما حلّ به من تقليص أحيانًا ، وتذويب لرسالته أحيانًا أخرى ، وتجفيف بعض منابع التمويل بالاستيلاء على أمواله وأوقافه التي كانت تموِّله وتجعل له صفة استقلالية عن ميزانية الدولة أحيانًا أخرى.

هذه أمور لا بد أن نعرفها ؛ لأنها تفسِّر لنا كثيرًا من الواقع الذي نعيشه الآن.

(ج) وهناك مؤتمر آخِر أخذ صِفة العالمية للتبشير في القرن العشرين أو في أواخر القرن العشرين ، وهو المؤتمر الَّذي عُقد في ولاية كولورادو في أمريكا في سنة ١٩٧٨م. هذا المؤتمر أخذ صفة العالمية لأنه جمع بين أعضائه ممثِّلين لمختلف مؤسسات التنصير في العالم. وكان من بينهم خبراء متخصِّصون في الدراسات الإسلامية ، وفي الإعلام ، وفي علوم الإنسان ، وشؤون العالم الثالث ، وشؤون الشرق الأوسط بالذات ، وعلم الأنثروبولوجيا. وقد أصدر المؤتمر بعد ذلك بعام واحد كتابًا ضخمًا تضمّن جميع البحوث والدراسات التي قُدِّمت في هذا المؤتمر. وطُبع هذا الكتاب بعنوان : "الإنجيل والإسلام" ، وتُرجم أخيرًا إلى اللغة العربية في حوالي تسعمائة صفحة. وطُبع بعنوان : "تنصير العالم الإسلامي".

وقد انتهى المؤتمر بعد أن ملأ المؤتِمرين فيه بروح الأمل، وشجّعهم على السّيْر نحو تحقيق الهدف الكبير؛ لأن وضْع العالم الإسلامي في سنة ١٩٧٨م كان غير العالم الإسلامي في سنة ١٩٣٥م، وغير العالم الإسلامي في سنة ١٩٠٦م؛ ولذلك نقرأ في مقدّمة هذا المؤتمر عبارات تدعو إلى الدهشة.

يقول أحد المؤتِمرين في هذا المؤتَمر: "لقد حان الوقت للخلاص من العالم الإسلامي. لقد نضج الحصاد، وربّ الحصاد ينادينا؛ فأين هم الحاصدون؟ يجب على الكنيسة ألاّ تتأخّر أكثر من ذلك". إلى أن يقول -متحدثًا عن منطقة الخليج-: "إن العالم العربي لم يَفتح أبوابه أبدًا أمام أهل الكتاب كما يفعل اليوم، فأين أنتم يا مبشرين؟". والمؤتمر تضمّن مجموعة بحوث، تقريبًا حوالي أربعين دراسة متعمّقة في أحوال الشرق الإسلامي، تناولوا العالم الإسلامي قطرًا قطرًا، وسكان كلّ قطر، عدد المسلمين، عدد المسيحيين، عدد النساء، عدد الرجال، كم طالب في الجامعة. كم عالِم متخرِّج من الأزهر. كم عدد المتمسِّكين بالإسلام. عدد المساجد. عدد الكنائس. وهذه الدراسات كلّها وضعوها كخطّة عمل للمؤتمر؛ ولذلك حين نقرأ عناوين البحوث التي وُضعت في هذا المؤتمر تدعونا إلى شيء من اليقظة، تدعونا إلى أن لا نغمض أعيننا بعد الآن. اقرؤوا عناوين البحوث الموجودة في هذا المؤتمر: أحدها بعنوان: "إبلاغ الكتاب المقدّس إلى المسلمين". آخر بعنوان: "استمالة المسلم عن طريق تجسيد شمائل المسيح". آخَر بعنوان: "تحليل المقاومة لدى الشعوب المسلمة"، "الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين"، "دور الإرسال الإذاعي"، "الوضع الحالي للمطبوعات بين أيدي المسلمين"، "مراجع مختارة للمنصّرين"، "كيف نعمل بين أيدي المسلمين". هذه كلّها عناوين لبحوث أُلقِيَت في هذا المؤتمر.

ثم انبثق عن هذا المؤتمر فكرة الحِوار بين النصارى والمسلمين، أو فكرة الحوار بين الأديان، أو الحوار المسيحي الإسلامي، وبدأ من هذا التاريخ تُعقد مؤتمرات تحت هذا العنوان في بلاد كثيرة من أوربا والعالم الإسلامي، تحت عنوان: "الحوار المسيحي الإسلامي". وطبعًا في هذا الحوار لا بدّ أن يُطرح الحديث عن التسامح، عن التعامل مع الآخَر، عن كذا، عن كذا... إلى آخِر المصطلحات التي نسمعها تتردّد على ألْسنة المتحدِّثين، وعلى أقلام الكتّاب كثيرًا بين المسلمين، ولا نسمع لها أثرًا عند غير المسلمين.

أيها الإخوة والأخوات، هذه نماذج من المؤتمرات التي عُقدت، ولن تكون المؤتمرات الأخيرة حول النشاط التبشيري ونشاط المبشِّرين، أردتُ بها أن أضع أمام حضراتكم تصوّرًا لما يجري في المنطقة العربية من نشاط استشراقي تبشيري. وعلينا أن نطرح على أنفسنا سؤالًا: ما هي عناصر المواجهة؟ كيف نحمي أنفسنا؟ والله من وراء القصد.

الصهيونية (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول : مدخل تاريخي عن علاقة اليهود بأرض فلسطين ٢٨٥
العنصر الثاني : الصهيونية: معنًى ودلالةً ٢٩٣
العنصر الثالث : الجذور التاريخية لحركة الصهيونية العالمية ٣٠٠
العنصر الرابع : تابع : الجذور التاريخية لحركة الصهيونية العالمية ٣٠٤
العنصر الخامس : مرحلة التأسيس للصهيونية المعاصرة ٣٠٧

مدخل تاريخي عن علاقة اليهود بأرض فلسطين

انتهينا فيما سبق من الحديث عن قضيّتي: الاستشراق، والتبشير؛ وهما مِن أقْدَمِ القضايا التي مثّلَتْ وجسّدت موقف النصرانية، أو -إن شئت- موقف الصليبية الغربية من الإسلام ومن الشرق. وانتهينا إلى: أن بيْن هاتيْن الظاهرتيْن وحدة في الهدف. وقد يكون بينهما وحدة في الأسلوب أحيانًا. وقد يكون بينهما نوع من الفروق في الأسلوب أحيانًا أخرى؛ لكن الهدف والغاية تتّحد عند هاتيْن الظاهرتيْن وهو: الموقف العدائيّ الرافض للإسلام كدِين سماوي، وللقرآن كوحي إلهي، وللنبيّ محمد ﷺ كرسول نبيّ.

ونريد أن نُكمل الدائرة بالحديث عن موقف اليهوديَّة من الإسلام. وإذا كان الاستشراق والتبشير يمثِّلان موقف الصليبية من الإسلام؛ فإننا نجد الحوار، أو الصراع -إن شئت- اليهودي للإسلام يتمثّل في ظاهرتيْن تاريخيتيْن قديمتيْن قِدَمَ الإسلام نفسه. هاتان الظاهرتان هما: الماسونية، والصهيونية؛ فكلتا الظاهرتيْن -الصهيونية والماسونية- تمثِّلان وجهيْن لعُملة واحدة هي: موقف اليهودية من الإسلام.

وأودّ في البداية: أن أفرِّق بين الصهيونية واليهودية. فاليهودية الصحيحة ديانة سماوية نزل بها وحيُ الله تعالى على نبيِّه موسى ~ ، ونزل بها كتابُه التوراة على سيِّدنا موسى ~ ، كما نزلت بها الألواح على موسى ~ . ونحن نؤمن بما صحّ من التوراة، وبما صحّ من الألواح، وبما صحّ منهما على نبيّ الله موسى ~ . والمسلم مطالَب -لكي يصحّ إيمانه وإسلامه- أن يؤمن بنبوّة موسى، كما هو مطالب أن يؤمن بنبوّة عيسى ~ ، ويؤمن في نفس الوقت بوحي الله الذي نزل على موسى

ممثلًا في التوراة، وبوحي الله الذي نزل على عيسى ممثلًا في الإنجيل.

وفي نفس الوقت، نحن نؤمن بأنّ هاتيْن الظاهرتيْن قد امتدّت أيديهما إلى هذيْن الكتابيْن بالتحريف والتبديل، كما صرّح بذلك القرآن الكريم. وعلينا أنّ نعرف من البداية: أنّ اليهودية شيء، والصهيونية شيء آخَر، كما سوف نعرف -فيما بعد- ما هي الصهيونية؟ وكما فرّقنا بين المسيحية الصحيحة والصليبية المعاصرة، ينبغي أن نفرِّق بين اليهودية الصحيحة والصهيونية المعاصرة.

فنحن مطالبون بالإيمان باليهودية الصحيحة، كما أنّنا نرفض وبشدّة الصهيونية المعاصرة. كما أننا مطالبون بالمسيحية الصحيحة، لكننا نرفض -أيضًا وبشدّة- الصليبيةَ المعاصرة لنا الآن، لأن الأولى منهما وحي سماوي، والثانية منهما صناعة بشرية.

هذه بعض النقاط التي ينبغي أن نضعها أمامنا منذ البداية، حتى تتضح الرؤية أمامنا، وحتى لا تختلط الأوراق في ذهن البعض؛ فيَخْلط بين الصهيونية واليهودية، كما حاول البعض أن يخلط بين الصليبية والمسيحية. لا! هناك فارق كبير بينهما.

المسيحية الصحيحة وحْي إلهي، لكنّ الصليبية المعاصرة صناعة وفكْر بشري. كذلك اليهودية الصحيحة وحْي إلهي، أمّا الصهيونية المعاصرة فهي صناعة وفكر بشري. والفارق كبير بين ما تقرؤه فيما نزل على نبي الله عيسى، وما نزل على نبي الله موسى، وما وضعَتْه وما حرّفَتْه عقول البشر في مزامير وفي دساتير الصليبية من جانب، والصهيونية من جانب آخَر.

ولعلّ من المفيد: أن نُلقي بعض الضوء على علاقة الإسلام باليهودية، كما ألقينا بعض الضوء على علاقة الإسلام بالمسيحية قبل حديثنا عن الاستشراق وعن التبشير. فمن المعروف: أنّ أوّل مَن ناصَبَ الرَّسول ﷺ العِداءَ بالمدينة المنورة هم:

اليهود. عادَوْه وعاندوه عمليًّا على مستوى الحرب، وعقليًّا وفكريًّا على مستوى الخديعة والمكر وإثارة الشبهات.

ولعلّ الذين يقرؤون السيرة النبوية وبداية تاريخ صدر الإسلام يؤمن تمامًا بقسوة الحوار، وقسوة العداوة التي أظهرها اليهود في المدينة المنورة للرسول ﷺ، التي بلغت في بعض المواقف حدّ التآمر عليه، ومحاولة قتله، إمّا بالسم أحيانًا، وإمّا بإلقاء الأحجار الثقيلة وهو جالس بجانب الجدار، من جانب آخَر.

في زمن الأمويِّين والعباسيين أيضًا، نجد علاقة اليهودية بالإسلام لا تختلف عن علاقة اليهودية بالرسول ﷺ؛ حتى إننا نجد أنّ بيْن الأمويِّين والعباسيِّين، وبين العصر الراشدي -عصر الخلفاء الراشدين- نجد أنّ التاريخ لم يتوقّف، بل كانت هناك مؤامرات حاكها عبد الله بن سبإ، وهناك مؤامرات ترتّب عليها قتْل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهناك مؤامرات ترتّب عليها قتْل الخليفة الزاهد عثمان بن عفّان، ولا نبرِّئ اليهود من الفتنة التي وقعت بين عليٍّ ومعاوية.

ولعلّ دوْر عبد الله بن سبإ كان من أبرز الأدوار التي أجّجت نار الفتنة بين هذيْن الصاحبيْن الجليليْن في بداية صدر الإسلام }.

في العصر العباسي والأموي، وجدْنا بعض اليهود يُعلنون الإسلام، وتولّى بعضُهم المناصب الإدارية في بلاط الأمراء، لكنهم أيضًا حاكُوا الفتَن، والدسائس؛ سواء في ذلك مَن وُجد منهم في بلاد الشام، أم في الأندلس، أم في مصر، أم في جنوب الجزيرة العربية، وحتى في شمال أفريقيا. لم تَخْلُ هذه المناطق من مكائد أظهرها اليهود للإسلام والمسلمين في هذا الوقت المبكِّر من تاريخ الإسلام.

وأمّا مَن بقي على يهوديّته ولم يُعلن الإسلام؛ فقد أصابهم بعض من

الاضطهادات في البلاد التي وقعوا فيها، وتفرّقوا في البلاد، لكنهم لم يَنسَوْا -لِلحظة من اللحظات- موقفهم من الإسلام، وأنَّ هناك وطناً يحبُّون أن يعودوا إليه -وهو: فلسطين-. وتمخَّضت تاريخيًّا هذه المواقف اليهودية التي لم يَخْلُ منها عصر من عصور التاريخ عن بلْوَرة هدفيْن أساسين يمثّل كلٌّ منهما غاية ومقصدًا لكلّ مَن يحمل الديانة اليهودية:

أمّا الهدف الأوّل فهو: إقامة دولة لليهود في أرض فلسطين، وبعض المناطق المجاورة لها بمضيّ الزمن.

أمّا الهدف الثاني فهو: محاولة السّيطرة على العالَم بأسره بعد أن تتحقّق لهم المملكة التي يحلُمون بها، لتكون لهم السيادة على أناس هم يؤمنون أنهم خُلقوا لخدمتهم فقط. يؤمن اليهود: أنّ غيرهم خُلق لخدمة اليهودي فقط. وتكونت جماعات كثيرة جدًّا أخذت تُبلْور وتجسِّد هذيْن الهدفيْن بوسائل من التزوير أحيانًا للتاريخ، ومن التزوير أحيانًا للكتب المقدسة، ومن التزوير أحيانًا لبعض الوثائق التاريخية.

وكان من أخطر هذه الجماعات أو الجمعيات: الصهيونية العالمية، والتي شكّلت خطرًا داهمًا على العالَم عامّة، وعلى الإسلام بصفة خاصة.

هذان الهدفان اللّذان يسعى إلى تحقيقهما تاريخ اليهود كلّه، أيضًا من المهمّ أن نلقيَ الضوء عليهما؛ لأن محاولة الصهيونية العالمية الدؤوب لتحقيق هذيْن الحُلميْن اعتمدت على مجموعة من الأساطير التاريخية ومجموعة من الأساطير الدينية، حاولَت الصهيونية العالمية أن تركّز على الأساطير الدينية بالذات لتبيِّن للعالَم كلّه أنّ هذيْن الهدفيْن -إقامة الدولة اليهودية في فلسطين، والسيطرة اليهودية على العالم- هما وعْد من وُعُود الرب -تبارك وتعالى- لأبناء إسرائيل، ولا بد من العمل على تحقيقهما تنفيذًا لوعْد الرب. وبناءً على ذلك -على أنّ

هذيْن الهدفيْن يعتمد كل منهما على أسطورة دينيّة- ، بدأت أيدي الصهاينة تمتدّ إلى الكتب المقدسة بالتزوير، بالإضافة أحيانًا، وبالحذف أحيانًا أخرى، وبالتبديل وبالتحريف أحيانًا أخرى، لتُبيِّن للعالَم أنّ هذيْن الهدفيْن نزلت بهما التوراة على موسى ~ .

ولكي يكون اليهودي يهوديًّا صادقًا، لا بدّ أن يعمل على تحقيق هذيْن الهدفيْن مهما كان موقعه الجغرافي، ومهما كانت الأرض التي يقف عليها؛ فلا بد أن يعمل، أو يساعد بما يستطيع على تحقيق هذيْن الهدفيْن.

وبدأت أسطورة الأرض تُحاك حولها المؤامرات، ويوضع لها النصوص الزائفة في المزامير، وفي الأسفار الملحَقة بالتوراة، والتي هي من صنع الصهيونية لتجسِّد قضية العودة إلى الأرض المقدسة في فلسطين؛ ولذلك أرى من المناسب: أن أضع أمام حضراتكم بعض الملامح التاريخية التي تُكذب هذه الافتراءات، وترفض هذه الافتراءات، من واقع التاريخ ومن واقع الحقائق التاريخية الواقعة أمامنا الآن، لِنبيِّن مدى تزييف التاريخ على أيدي هذه الجماعة الصهيونية، ومدى استعبادها لعقول الناس بمحاولة السيطرة عليها بالفكر الديني أحيانًا، وبالقوّة وبالبطش أحيانًا أخرى.

أوّلاً: ما هو معنى كلمة: "إسرائيل"؟ "إسرائيل" هذا هو: اسم من أسماء أبناء إبراهيم ~ . نحن نعلم: أنّ إبراهيم ~ وُلد له: إسماعيل الذبيح، ثم إسحاق، ثم يعقوب. أطلق لفظ "إسرائيل" على نبيّ الله: يعقوب. وكلمة "إسرائيل" تعني: شعْب الله، أو ابن الله.

ولعلّكم تلاحظون معي: أنّ الاسم له دلالة دينيّة. كلمة: "إسرائيل": اسم نبي. وهذه الدلالة الدينية إذا سمعها اليهودي أو الصهيوني يُحدث عنده من التَّداعي: أنّ هذه دولة دينيّة أيّدها الرب بوعْده في التوراة، ولا بدّ من مناصرة هذه الدولة.

وأيضًا ممّا ينبغي أن نعرفه من وجْه المقارنة بين كلمة "إسرائيل" وأيّ اسم لأيّ دولة إسلامية: لا نجد أي دولة إسلامية تحمل اسم نبيّ، ولا رسول، ولا صاحب، ولا صدِّيق، لأن التاريخ يؤكّد أنّ اسم هذه الدولة يحمل معه معنى العصبية، ومعنى العنصرية التاريخية كما سنرى فيما بعد.

التاريخ يؤكِّد لنا: أن بني إسرائيل قد دخلوا أرض فلسطين بوسيلة الغزو من الخارج، دون أن يكون لهم أيّ جذور تاريخية، أو أي تاريخ إقامة في هذه المنطقة. وقد صوّر جمهور المؤرخين دخولهم إلى أرض فلسطين على أنه انقضاض مجموعة من الرّعاة الجياع الذين يبحثون عن مرعى لإبلهم وأغنامهم ليستقروا حولها، فتأكل الماشية ويأكلون ويعيشون، ثم ينتقلون إلى مكان آخَر فيه رعْي جديد وهكذا...

فلم يكن دخولهم فيها للإقامة، وإنما بحثًا عن الرعي، بحثًا عن الكلإ؛ بحيث إذا انتهت مصادر الرعْي ومصادر الكلإ لإبلهم وماشيتهم تركوها وانتقلوا منها إلى مكان آخر. وكان هذا الوجود في أرض فلسطين يمثِّل في بعض جوانبه المظهر الأوّل لجماعة من بني إسرائيل على مسرح التاريخ بوصفهم جماعة من البدو الرُّحّل الذين يبحثون عن المرعى وعن الكلإ، ولا قرار لهم في أيّ مكان يقيمون فيه، وإنما يتنقلون وراء الرعي ووراء الأمطار. هذا كان أوّل دخول لبني إسرائيل إلى أرض فلسطين.

أيضًا، لا يعرف التاريخ أبدًا ولم يذكر التاريخ أنّ بني إسرائيل كانت لهم إقامة أو استقرار في أرض فلسطين؛ ولكن السكان الأصليِّين كانوا يقيمون بها وينتمون إلى بني كنعان من الكنعانيِّين العرب. ويقول المؤرِّخون: إنّ اليهود لم تَقُم لهم قوّة في هذه المنطقة إلاّ فترة خمسين سنة فقط. وحتى في هذه الخمسين سَنة، كانوا مُحاطين بممالك أكثر قوّة وأرقى مدنيّة وحضارة، كالمملكة المصرية القديمة،

ومملكة فارس...إلخ.

والمدة التي أقاموا فيها أيضًا لم تكن إقامة على سبيل الاستقرار، وإنما كانت إقامة طلبًا للرعي، وبحثًا عن الرزق. وهذه الظاهرة -ظاهرة الإقامة في أرض فلسطين- كانت أشبه بحياة رجل أصرّ على الوقوف وسط ميدان صاخب؛ فكان مصيره أن دهَمَتْه السيارات. هذا الوصف يَذكُره المؤرِّخ (ويلز) وهو يؤرِّخ لحياة العبرانيِّين في أرض فلسطين.

كان حولهم من كل جانب ممالكُ قويَّة؛ ولذلك لم يستطيعوا أن يقيموا في هذه الأرض إلاّ ريثما توجد حياةٌ رعويَّة، توجد أمطار، ويوجد عشب، فترعى الماشية، ويَنعمون بهذه الظاهرة، ثم ينصرفون منها إلى غيرها.

ومِن ناحية العلاقة بالأماكن والأمم المجاورة لهؤلاء البدو، كانت علاقة عداء ولم تكن علاقة مؤاخاة ولا حُسن جوار؛ وإنما كما يؤرِّخ لهم (ويلز) في كتابه عن "قصة الحضارة": أن علاقتهم بالمجاوِرين لهم كانت علاقة عداء، كموقفهم من السلوقيِّين في سوريا، والبابليِّين في العراق، والمصريِّين، والرومان، وفارس؛ فهؤلاء جميعًا ناصبوهم العداء، ودمّروهم تدميرًا.

ثم جاء التدمير التاريخي الأول على يد بُختنَصّر الذي جعل مملكة يهودا ولاية تابعة لبابل. وهذا الملك قد غزا هذه المنطقة أكثر من مرّة، وكان أكثرها شدّة وقسوة تلك التي حدثت في عام ٥٨٧م، حين استولى على أورشليم، وأحرقها على آخرها، وهدم الهيكل، وأسَر جميع سكان المدينة، وأخذهم أسرى إلى بابل.

وبعد فترة زمنية قد تبلغ نصف قرن تقريبًا، استعان لهم ملك الفُرس (قورش)، وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين بعد أن احتلّ هو مملكة بابل، وسمح لهم بالعودة إليها، ولكن كثيرين منهم فضّلوا البقاء بعيدًا عن أرض فلسطين. ووقع من عاد منهم

تحت السيادة الفارسية، ولم تكن لهم دولة ولا مملكة، ولا إقامة مستقلة، وإنما كانوا عبيدًا لـ(قورش)؛ فهم انتقلوا من أسْر بابل إلى أسْر الفُرس بقيادة (قورش).

ثم تعرّضت المدينة للتدمير الثاني بعد ذلك؛ فقد دُمِّرت على يد (بطليموس الأوّل) الذي كان يحكم مصر. فقد هدَم القدس، ودكّ أسوارها، وأخذ منهم عشرات الآلاف من الأسر. وكان ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد تقريبًا. ثم تكرّر الغزو بعد ذلك. ومن يقرأ تاريخ هذه المنطقة، يجد أنه لا يمضي قرن -وربما أقلّ- إلا ويغزوها أحد جيرانها ويدمّرها، ويدمّر كل ما فيها؛ حتى إنهم في سنة ٦٣ق. م. دخل الجيش الروماني المدينة واستباح هيكلها، وفتَك بسكّانها.

وفي عهد القائد الروماني (تيطوس)، تم تدمير أورشليم وتدمير الهيكل تدميرًا كاملًا، وذبح اليهود فيها، وأسر من أسر من شعبها. ومنذ ذلك التاريخ، انقطعت صلة اليهود تمامًا بفلسطين، فلم تقم لهم بها دولة، ولم يتأسّس لهم بها حُكم. وقد تفرّقوا في أقطار الأرض شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا. واستمرت هذه المرحلة التي تُسمّى: "مرحلة الشّتات" أكثر من سبعة عشر قرنًا من الزمان.

وظلّ الأمر كذلك إلى أن بدأ التفكير في العودة مرّة أخرى إلى فلسطين. وشهد القرن التاسع عشر الميلادي نشاطًا ملحوظًا حول تحقيق هذا الحُلم لأسباب تاريخية، ذكرنا بعضها ونحن نتحدث عن الاستشراق والتبشير، وعن دَوْر المستشرقين ودوْر أوربا في هزِّ كيان الخلافة العثمانية ومحاولة القضاء عليها-، لأنه لم يتمّ إقامة هذه الدولة، أو التفكير فيها بشكل عملي إلاّ بعد أن وصلت الخلافة العثمانية بسبب المؤامرات التي حيكت حولها إلى مرحلة من الضعف الذي هيّأ لأحد الصهاينة أو مؤسس الصهيونية المعاصرة وهو (تيودور هرتزل) أن يقابل السلطان عبد الحميد ليتفاوض معه على تأسيس دولة لليهود في أرض فلسطين،

كما سنعرض لذلك فيما بعد.

هذه فكرة موجزة عن قضية الأرض، وقضية وجود إسرائيل في هذه المنطقة من العالم وجودًا تاريخيًّا، وهل لها أصول أو حقوق تاريخية؟ أو ليس لها حقوق تاريخية؟ وقد يزداد الأمر تفصيلًا فيما بعد -إن شاء الله تعالى-.

الصهيونية: معنى ودلالة

ونأتي الآن إلى الحركة الصهيونية، أو الصهيونية العالمية. ما معنى كلمة: "الصهيونية"؟ ما سبب هذه التسمية؟ ما دلالتها؟ ومتى ظهرت على السطح الثقافي، والسياسي والعالمي؟ لأن هذه الأسئلة تقِفنا على التاريخ الحقيقي لهذه الحركة الصهيونية.

كلمة "الصهيونية" هي: نسبة إلى جبل أو تلّ موجود في جنوب بيت المقدس يسمّى: جبل صهيون، وتنسب إليه الحركة. وأحيانًا تطلق كلمة "صهيون" على القدس كلّها، ليس على الجبل الذي يقع في جنوب بيت المقدس فقط، وإنما قد يطلق أحيانًا على القدس كلها. وأحيانًا يُطلق على الجزء الجنوبي من بيت المقدس؛ ولذلك سميت هذه الحركة بالحركة الصهيونية نسبة إلى هذا الجبل. لماذا؟

لكثرة الأساطير التي حاكها أبناء صهيون حول هذا الجبل، وحول أكذوبة: أنّ الرب قد وعد إسرائيل وأبناء إسرائيل؛ -بل أكثر من هذا-: قد وعَد نبيّ الله إبراهيم وذريّته من بعده: أن يهب لهم هذه الأرض وما حولها. وهذه إحدى الأساطير الدينية التي أسّس بنو صهيون دولتهم عليها: أسطورة الوعد الإلهي بالأرض المقدسة.

إذا كانت التسمية نسبة إلى جبل صهيون، فما معنى كلمة الصهيونية؟ هل هي جماعة؟ هل هي جمعية؟ هل هي مدرسة فكرية؟ يعرِّف المؤرِّخون الحركة الصهيونية ربما بأنها جمعية لم تؤسّس بشكل شرعي، وإنما مجموعة من المفكِّرين -كما تقول "دائرة المعارف البريطانية"-.

تقول: "إن اليهود في طول التاريخ وعَرْضه يتطلّعون إلى افتداء إسرائيل، وإلى اجتماع الشعب اليهودي في فلسطين، واستعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء الهيكل، وإقامة عرش داود في القدس مرة ثانية، وأن يتولّى إمارتها أمير من نسل داود". "دائرة المعارف البريطانية".

وهي تشرح فكرة تأسيس الجمعية الصهيونية: أنّ اليهود يتطلّعون إلى افتداء إسرائيل، واجتماع الشعب اليهودي من شتّى بقاع العالم في أرض فلسطين، ليستعينوا بما شاؤوا على إعادة الدولة اليهودية، ويقوموا ببناء الهيكل وإقامة عرش داود في القدس، وأن يتأمّر أو يتولّى إمارتها أمير من نسْل داود.

فيمكن من هذا التحليل أن نعرِّفَ الحركة الصهيونية بأنها: حركة سياسية دينية، تستخدم الوسائل المختلفة لتجميع اليهود من شتّى أنحاء العالم على أرض فلسطين؛ ليعملوا على إقامة الدولة العبرية اليهودية، وبناء الهيكل، واستعادة مجد بني إسرائيل مرة ثانية.

وعند قراءتنا لتاريخ هذه الحركة، سوف نرى: أنها تستخدم الوسائل غير المشروعة أكثر من الوسائل المشروعة لتحقيق هذا الحُلم.

والبعض يُعرِّفها بأنها: حركة قومية يهودية، ينتمي إليها يهود الشتات من العالم، ولا علاقة لهذه الحركة العنصرية باليهودية الصحيحة إطلاقًا. لماذا؟ لأنهم يرَوْن: أنّ اليهودية الصحيحة تعتمد على نصوص من التوراة، أما الحركة الصهيونية

المعاصرة فإنها تعتمد، وتستمد عقائدها من (التلمود) وتحاول أن تجد لها نسبًا تاريخيًّا في التوراة عن طريق تحريف النصوص أحياناً، واختلاق الأسفار أحيانًا.

وبعض المفكِّرين يحاول التخلّص من هذه الحركة العنصرية، ويرى: أنها حركة لا إنسانية؛ لأنها تحاول أن تزيِّف الحقائق الدينية لصالح الأهداف السياسية. وقد يزداد الأمر وضوحًا فيما بعد.

إذاً يمكن أن نختصر التعريف في عبارات موجَزة: أن الحركة الصهيونية: جمعية كوّنها وشكّلها بعض مفكِّري اليهود الذين حاولوا أن يجمعوا اليهود من الشتات، ويعملوا على إقامة الهيكل مرة ثانية، وإقامة دولة إسرائيل مرة ثانية، وأن يحكم هذه الدولة أحدُ أبناء داود. وتقوم هذه الأفكار التي يلتفّون حولها على مجموعة من المبادئ والأساطير التي اختلقوها ونسبوها إلى (التوراة).

وسوف أتلو على حضراتكم بعض النصوص الزائفة التي يحتكم ويرجع إليها بعض الصهيونِّيين، تأييدًا لأكذوبة أو أسطورة: أنّ الحركة الصهيونية حركة دينيّة ينبغي أن يلتفّ حولها كلُّ من ينتمي إلى اليهودية.

فهذه التسمية إذاً لها بُعْدٌ دينيّ، كما أنّ تسمية دولة إسرائيل بـ"إسرائيل" أيضًا لها بُعْدٌ دينيّ. عليكم -أيها الأخوة- ألا تَنسوا هاتيْن الحقيقتيْن: كلمة "صهيون" نسبة إلى جبل مقدّس، وكلمة "إسرائيل" نسبة إلى نبيّ الله وهو مقدّس؛ فكأنّ التسميتيْن تحملان معهما دلالة دينيّة. ويستدلّون على ذلك بنصوص من التوراة، كما سنرى فيما بعد.

كلمة "صهيون" هذه اعتبرها اليهود أو الحركة الصهيونية تعتبرها كلمة مقدّسة؛ لأنها تعبِّر عن مكان مقدّس. ويستدلّون على تقديس هذا المكان بكثير من

النصوص التي ألصقوها بالتوراة، وخاصة بعض الأسفار التي ربما يجد القارئ لكلّ من هذه الأسفار -لأوّل وهلة- أن هذا الكلام الموجود فيها يستحيل أن يُنسب إلى الرب تعالى. وتعالى الله عما يقولون علوًا كبيراً.

مما جاء في "سِفر أشعياء" سفر ٥٢ من ١ / ٧، بالنسبة لأرض صهيون، أو جبل صهيون بالذات، دلالة على أن هذا الجبل تقدّسه الحركة الصهيونية، ماذا جاء في هذا السفر يقول هذا عن الله ﷻ، وحاشا لله أن يقول ذلك: "استيقظي! استيقظي! البَسي عزّك يا صهيون! البَسي ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة! لأنه لا يعود يَدخلك فيما بعد أغلف، ولا نجس". الأغلف، والنجس يَعنون بهما: النصراني، والمسلم. "انتفضي من التراب! قومي! اجلسي يا أورشليم! انحلّي من رباط عنقك، أيتها المسبيَّة ابنة صهيون! ما أجمل على الجبال قدمَي المبشِّر المخبر بالسلام، المُبَشِّر بالخير، المخبر بالخلاص، القائل لصهيون: قد ملَك إلهُكِ الأرضَ. وعندما قالت صهيون: قد تركني الرب! وسيِّدي نسيَني! كان رد الرب عليها -كما يدّعي اليهود-: حيٌّ أنا يا صهيون! إنك تلبَسين كلّهم كحُلِيٍّ، وتنطقين بهم كعروس! هكذا قال السيّد الرب: ها أنّي أرفعُ إلى الأمم يدي، وإلى الشعوب أُقيم رايتي؛ فيأتون بأولادك في الأحضان، وبناتُك على الأكتاف يُحمَلن إليك يا صهيون!".

وفي أخبار الأيام الأولى، ورَد: أنّ الفلسطينيِّين قد انتصروا على (شاؤول) ملك اليهود وقتلوه وسائر ولده، فولّى بنو إسرائيل داود ملكًا عليهم متوسِّلين به أن يقبل ذلك حتى يتمكّنوا مِن قتْل الفلسطينيِّين؛ وقد استجاب داود لطلبهم، واتخذ من جبل صهيون حصنًا له.

تقول التوراة: "جبل صهيون هو جبل الرب، ومسكَنه، ومستقرّ بيته، وبه الهيكل، وبه يمثل جزء من عقيدتهم القائمة على خصوصية الإله". ففي إطار الحديث عن داود ~ في العهد القديم، ورد: أنّ داود أراد أن يبني بيتًا للرب، ولكنّ الله نهاه عن ذلك لكثرة حروبه وإراقته للدماء وعدم أهليّته لهذا العمل. كما أخبره بأن ولدًا من نسْله يختاره الرب يكون له أبًا، ويكون الولد له ابنًا هو الذي سيبْني ذلك الهيكل. وقد بنى سليمان بيت الرب هذا تحقيقًا لوعد الإله، ليجلس على كرسي مملكة الرب على إسرائيل.

هذه كلها نصوص تبيِّن مدى التصاق الفكرة الصهيونية بالعقيدة الدينية التي يختلقون لها الأكاذيب، ويلصقونها بالتوراة.

ورد في "سفر أشعياء": "ارفعي عينيْك يا صهيون! ارفعي عينيْك حواليك! انظري! قد اجتمعوا كلّهم. جاؤوا إليك! يأتي بنوك من بعيد، وتُحمل بناتك على الأيدي! حينئذ تنظرين، وتنيرين، ويخفق قلبك ويتّسع؛ لأنه تتحول إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غنم الأمم. هكذا تكلم الرب إله إسرائيل قائلًا: اكتب كلَّ الكلام الذي تكلمتُ به إليك في سفر؛ لأنّه ها أيام تأتي يقول الرب: وأرد سبيَ شعبي لإسرائيل ويهوذا، وأُرجعهم إلى الأرض التي أعطيت آباءهم إياها؛ فيمتلكونها من البحر إلى النهر".

أيضًا، نصوص تُصرِّح بأن هذه الأرض محرّمة على غير اليهود، ونصوص تصرح بأنَّ جبل صهيون جبل مقدّس، ونصوص تصرِّح بأن هذه الأرض لإسرائيل لا لغيرها.

فورَد في "سفر هوشة": "لأنَّ بني إسرائيل سيقعدون أيامًا كثيرة بلا مَلِك، وبلا

رئيس، وبلا ذبيحة، وبلا تمثال، بعد ذلك يعودُ بني إسرائيل ويطلبون الرب إلههم وداود ملِكهم، ويفزعون إلى الرب، وإلى جوده في آخر الأيام؛ فتُعطى لهم الأرض. ترنَّمي! افرحي يا بنت صهيون! لأني ها أنا ذا آتي، وأسكن في وسطك! -هكذا يقول الرب-. فيتّصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم، ويكون لي شعبًا؛ فأسكن في وسطك، فتعلمين أن رب الجنود قد أرسلني إليك. والرب يرث يهوذا نصيبه في الأرض، ويختار أورشليم. واسكنوا يا كل البشر قدّام الرب؛ لأنه قد استيقظ من مسكن قدسه في جبل صهيون".

هناك نصوص كثيرة في الحقيقة لا تجد فيها روح إله يتكلّم، ولا معاني ربوبية تحنو على عبادها؛ وإنَّما هي روح عنصرية سياسية، وربما اقتصادية حاكها هؤلاء؛ لينسجوا في ضوئها أسطورةَ الأرض وأسطورة العودة إلى جبل صهيون؛ حتى إنك تقرأ أمثال هذه العبارات:

ورد في "سفر عويدا" مثلًا: "وأمّا جبل صهيون، فتكون عليه نجاة، ويكون مقدسًا، ويرث بيت يعقوب مواريثهم. وسبيُ هذا الجيش من بني إسرائيل يرثون الذين هم من الكنعانيِّين، وسبي أورشليم الذين هم في صفارد يرثون مدن الجنوب. ويصعد مخلصون على جبل صهيون ليدينوا جبل عيسو، ويكون المُلك للرب". إشارة إلى حدود الدولة الصهيونية من الشمال والجنوب والشرق والغرب.

أيضًا، نجد في هذه النصوص بعض الأفكار العنصرية التي بَنى عليها مؤسّس الحركة الصهيونية السياسية المعاصرة أسطورة: شعب الله المختار، وأسطورة: أن إسرائيل اصطفاهم الله دون سائر البشر؛ حتى إن الوعد في بعض النصوص يرد أنه لأولاد إبراهيم، ويَنسى مؤسس الحركة الصهيونية أنّ العرب أيضًا هم من ولد

إبراهيم، ويجعل الوعد خاصًا بنسل إبراهيم من أبناء يعقوب فقط!

أيضًا نجد في هذه النصوص -لا أريد أن أقرأها لأنها كثيرة جدًا، وهي للأسف الشديد لا نجد فيها روح النص الديني الصحيح، وإنما هي -كما قلت- مّما حرفتْه أيدي الصهيونية، ونسبَتْه إلى التوراة- نجد فيها فكرة: أن أرض فلسطين لا يوضع لها حدود، أو أرض إسرائيل لا يوضع لها حدود نهائيًّا. وإنما نجد في النصوص حيث يوجد قدمك -أيها الجندي-؛ فهي آخر مُلكك.

ونجد فيها نصوص أنهم لا يسمحون لغير اليهود بالإقامة في وسط هذه الأرض؛ لأنهم سيكونون كالمناخيس في ظهورهم. فكرة العداء، وفكرة القهر، وفكرة السيطرة، ينطق كلّ حرف من أحرف هذه النصوص بمعاني الغدر والخسّة والنذالة، والسطو على أموال وعلى أرزاق الآخَرين.

هذه بعض النصوص -كما قلت- التي تؤيِّد الأسطورة الدينية التي بُنيت عليها قضية العودة إلى الأرض وقضية نسبة الحركة إلى جبل صهيون باعتباره جبلًا مقدسًا.

إذاً نستطيع أن نقول:

إنّ هذه الحركة تأسّست على فكر دينيّ عقائدي، تخلّل هذا الفكر الديني أهداف سياسية، وتخلّل هذا الفكرَ الديني أفكارٌ عنصرية، وتخلّل هذا الفكر الديني بعضُ ملامح الوقوف. ونستطيع أن نلمح في هذه النصوص موقفَ الحركة الصهيونية من أصحاب الديانتيْن التاليتيْن: المسيحية، والإسلامية؛ حيث يصِفون المسيحية والإسلامية بالنجس والغلف، إشارة إلى هاتيْن الديانتيْن ومن يدين بهما.

الجذور التاريخية لحركة الصهيونية العالمية

هل هناك عام محدّد أو عقد محدّد من الزمن، يمكن أن نعتبره بداية طبيعية لهذه الحركة السياسية، أو الصهيونية؟

في واقع الأمر من الصعب أن نجد عامًا نستطيع أن نجعله بداية طبيعية لهذه الحركة كحركة تاريخية؛ لكن يمكن أن نحدّد بداية طبيعية للصهيونية السياسية والقومية بالذات، ونحن نتكلم عن (تيودور هرتزل) مؤسِّس الصهيونية المعاصرة. لكن الصهيونية التاريخية لم تكن وقفًا على (تيودور هرتزل)، وإنما يأتي هذا الرجل ممثلًا حلقةً في سلسلة امتدّت تاريخيًّا إلى ما قبل ذلك بقرون وقرون.

ولذلك أودّ أن أنبِّه هنا إلى: أنّ هناك رباطًا تاريخيًّا، وربما قد أشرت إلى ذلك بين الماسونية العالمية والصهيونية العالمية، الماسونية العالمية كحركة يهودية، والصهيونية العالمية حركة يهودية، أيهما أسبق؟

ربما تكون الماسونية من ناحية الجانب التاريخي، وربما أيضًا تكون الصهيونية من واقع العمل والنشاط التاريخي. ولعل كثيرًا من المؤرّخين يروْن أنّ الحركتيْن قد نشأتا ربما في وقت واحد، ولهدف واحد، وإن اختلفت التسميات، واختلفت حقول النشاط، ووسائل النشاط كما سنرى فيما بعد.

لكن على أية حال، نحن نجد أن بعض المؤرِّخين ينبِّه: أن تاريخ الصهيونية يمكن تقسيمه إلى مراحل أربع، خاصة أننا نجد هذا التقسيم عند أشهر المؤرِّخين اليهود وهو: (ليفي أبو عسل). يقول في تأريخه للحركة الصهيونية: "نحن إذا أمعنّا النظر جيدًا، نرى: أن تاريخ الصهيونية يتناول أربعة أزمنة مختلفة:

الأوّل هو: زمن التوراة.

والثاني هو: الزمن السابق على (تيودور هرتزل).

والثالث: الزمن المعاصر لـ(تيودور هرتزل)، والذي ينتهي بنهاية الحرب العالمية الأولى.

أما الزمن الرابع: فربما يمتدّ ليشمل وعد (بلفور)، وربما يمتد إلى وقتنا الحاضر الآن".

هذا التقسيم ليس تقسيمًا دقيقًا، لكنه تقريبي على كل حال. وكان أوّل من شيّد صرْح الصهيونية، ووطّد دعائمها، ونشر مبادئها.

وقد أثبت الواقع: أنّ الصهيونية ليست في عهدنا سوى حلقة من سلسلة متّصلة الحلقات بعضها مع بعض. أقول: أوّل من شيّد الحركة بشكل منظّم، وربما شكل مؤسسي هو: (تيودور هرتزل) الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد. إنما قبل هذا التاريخ، كان النشاط الصهيوني ربما يميل إلى الفردية أكثر منه إلى الجماعية، ولم تعرف الصهيونية روح العمل الجماعي إلاّ في القرن التاسع عشر، وربما في بعض عقود متأخِّرة من القرن الثامن عشر. وما قبل ذلك، كانت عبارة عن جهود فردية آمَن بها المحافِظون، وعملوا على تنشيط الدعوة إلى أفكارهم، وأعلنوا فكرة العودة إلى أرض فلسطين التي تسلّلت هذه الدعوة، والتفّ حولها الصهيونية المنظمة فيما بعد.

ولكثرة الخلافات حول تاريخ هذه الحركة، نجد أنّ بعض المؤرِّخين يُغالي أحيانًا فيصِل بتاريخها إلى نبيّ الله موسى ~ . ونجد أن (ليفي أبا عسل) مؤرّخ هذه الحركة يقول: "إنّ موسى ~ كان أوّل مَن شيّد صرْح الصهيونية، ووطّد دعائمها، ونشر مبادئها"؛ لكن الواقع أثبت أنّ الصهيونية -كما نقرأ تاريخها- ليست إلاّ حلقات في سلسلة لا يمكن العودة بها إلى نبيٍّ الله موسى -عليه السَّلام-.

كما نجد بعض المؤرخين في "دائرة المعارف البريطانية" أيضًا يمدّ هذه الحركة بجذورها،

ويحاول أن يضع لها حلقات أو مسافات تاريخية ترتبط كلّ مسافة بشخص معيّن. فيبدأ بحركة المكابيِّين التي أعقبت العودة من السبي البابلي، والتي كان من أوّل أهدافها: العودة إلى صهيون وبناء هيكل سليمان. وهذه العودة تمّت على يد (قورش) ملك الفرس، يجعل هذه حركة، أو إحدى الحلقات في تاريخ الصهيونية.

والحركة الثانية يؤرَّخ لها بـ(باركوخيا) الذي أثار الحماسة في بني قومه، وحثَّهم على السَّعي للتجمّع في أرض فلسطين، وإقامة الصلاة فوق جبل صهيون.

ثم تمتدّ الحركات رويدًا رويدًا إلى أن يصل بنا إلى حركة منشئة بني إسرائيل التي تمت سنة ١٦٠٤م، وكانت تدعو إلى توطين اليهود في بريطانيا، توطئةً لإعادتهم إلى أرض فلسطين. ويبدو أن هذه الحركة كانت النواةَ الأولى للصهيونية الحديثة التي وجَدت لها أرضًا خصبة في بريطانيا. ترعرعت، ونمَت، واستطاعت في مدى ثلاثة قرون أن تُسخِّر جميع القوى الإنجليزية لتحقيق أهداف اليهود في فلسطين.

ويبدو أنّ هذه الفترة التاريخية هي التي شهدت حركة الإصلاح الديني على يد (مارتن لوثر)، والتي شهدت أيضًا انتقالاً نوعيًّا للعلاقة بين المسيحية واليهودية من جانب على يد (مارتن لوثر)، والتي بدأت تشاهد أو تزامن قضية الإحساس بضرورة الخلاص من اليهود من أوربا، من كل دول أوربا. وبدأت حالة الكراهية لليهود في أوربا، والعمل على تجميع شملهم في أرض فلسطين مستعينين أيضًا بالأساطير الدينية التي أسّستها الحركة الصهيونية قبل ذلك.

وكثير من المؤرِّخين يعتبرون هذه الفترة أخصب الحركات التي تجمّعت حولها عواطف الأوربيِّين خاصة المثقّفين منهم، لتشحذ هِمَم وعقول الأوربيِّين بالتعاطف مع الحركة الصهيونية، ودعوة اليهود من الشتات، ومناداتهم بالعودة

إلى أرض فلسطين، إحياءً للمملكة الداودية والعمل على إعادة بناء الهيكل في أرض فلسطين، وبالذات على جبل صهيون.

تحدثنا عن بعض المواقف في تاريخ هذه الحركة، وأنّ كل حركة كانت قد ارتبطت باسم عَلَم من أعلام هذه الحركة في فترتها التاريخية. وعند التدقيق، لا نجد قرنًا من الزمان خلا من حركة على يد مفكِّر صهيوني يعمل على تحقيق أهداف الصهيونية العالمية. وإذا كنا قد أشرنا إلى قليل من هذه الحركات، فإننا من المهمّ أن نشير إلى بعض الحركات التي ارتبطت بأسماء معيّنة، حتى نصل إلى مؤسِّس الحركة الصهيونية السياسية العالمية، والذي أعطاها بعدًا تاريخيًّا على مستوى العالَم، وهو: (تيودور هرتزل).

قبل مرحلة (تيودور هرتزل)، هناك أيضًا بعض الحركات التي أُكمِل بها ما بدأناه. فعلى سبيل المثال: وجدْنا حركة (شبتاي ليفي) في سنة ١٦٧٦م، تاريخ وفاة هذا الرجل. هذه الحركة تولّى قيادتها هذا المفكر (شبتاي ليفي)، وكانت من أشدّ الحركات الصهيونية في وقتها عنفًا وتعصبًا، في نهاية القرن السابع عشر تقريبًا؛ حتى إنّ هذا الرجل ادّعى أنه المسيح المنتظر.

وما لبثت هذه الحركة أن أحدثت ردَّ فعلٍ عكسيّ؛ فجاء (مندلسون) يدعو اليهود والمنتمين إلى الحركات الصهيونية أن يتقبّلوا العيش مع جيرانهم في البلاد التي يعيشون فيها، وأن يكتفوا بالجانب الروحي من الديانة اليهودية، ويُهملوا الجانب السياسي. هذه العبارة مهمّة جدًّا في هذه المرحلة من التاريخ؛ لأنها تدلّنا على: أنّ أهداف الحركة الصهيونية -وإن تشبّثت بنصوص دينيّة- إلاّ أنها لم تكن دينيّة خالصة، وإنما كان لها أهداف سياسية ربما كانت هي الأغلب فيما بعد.

تابع: الجذور التاريخية للحركة الصهيونية العالمية

وأيضًا من الحركات التي كان لها أثر كبير الحركة الصهيونية التي قادها (نابليون بونابرت) قائد الحملة الفرنسية على مصر وعلى الشرق. هذا القائد الذي زُوِّرَت حملته على أنَّها جاءت إلى مصر بقصد التنوير، وبقصد نشر الحضارة، وبقصد نشر العلم، ولكن الأهداف الحقيقية لهذه الحملة قد أعلن عنها (نابليون بونابرت) نفسه في وثائق أدعوكم إلى قراءتها في الكتاب العظيم الذي جمعه وطبعه -وهو في شكل وثائق تاريخية- الصحفي محمد حسنين هيكل في كتاب بعنوان: "الوثائق السرية لإسرائيل".

في هذه الوثيقة، اعترف (نابليون) بأنه كان على علاقة باليهود، وأنه صاحب دعوة، أو وجّه الدعوة إلى المجلس الأعلى اليهودي في سنة ١٨٠٦م للاجتماع بهم لإثارة حماستهم وأطماعهم، وتحريضهم على مساندته في احتلال الشرق العربي، واعدًا إياهم بمنْحهم أرض فلسطين، في الوقت الذي كان اليهود فيه في فرنسا كانوا قد بدؤوا نشاطًا إيجابيًّا منذ ١٧٩٨م، يوم أكثر كتابُهم وخطباؤهم من إثارة الحماسة اليهودية لإعادة بناء الدولة في أرض فلسطين.

وقد استغلّ (نابليون) عواطف اليهود، فحرّضهم على جمع الأموال لتمويل حمْلته على مصر. وقد ألقى أحد حكماء اليهود خطابًا خطيرًا في هذا الاجتماع، كانت كلماته كلّها عبارة عن مادة لكتاب ظهَر -فيما بعد- بعنوان: "بروتوكولات حكماء صهيون"؛ حيث حثّ الفرنسيِّين فيه أو اليهود بالذات، على التضحية بالمال من أجْل العودة، وبناء الدولة، وبناء هيكل أورشليم. كما

حثّهم على تشكيل مجلس ينتخبه اليهود المقيمون في البلدان التالية -وحدد هذه البلاد ابتداءً من إيطاليا، وسويسرا، والمجر، وبولونيا، والسويد، وألمانيا، وتركيا-، مجالس منتخبة في هذه البلاد على أن تتولّى تلك اللجنة في كل بلد دراسة وسائل العودة لليهود المقيمين في هذه البلاد إلى أرض فلسطين.

تأمّلوا معي هذه الملاحظة؛ لأنها على جانب كبير من الأهمية في هذا الاجتماع الذي دعاهم إليه (نابليون بونابرت). وقف أحد حكماء صهيون على مرأى ومسمع من (بونابرت) الذي ادّعى أنه جاء لنشر التنوير والحضارة والعلْم في الشرق. ماذا قال هذا الرجل؟ كان من أهمّ ما دعا إليه: أن يؤسّس في كل بلد أوربي جمعية أو مجلساً ينتخبه اليهود المقيمون في هذا البلد أو ذاك، تكون مهمّة هذا المجلس: العمل على جمع اليهود المقيمين في هذا البلد، وإثارة حماستهم، وأن يبحثوا معًا وسائل العودة لهؤلاء اليهود إلى أرض فلسطين.

لو استقرأتَ أسماء البلاد الأوربية التي ذكَرها هذا المفكّر في هذا اللقاء، تجدها شملت جميع دول أوربا بلا استثناء. مجلس يؤسّس في كل بلد أوربي، يبحث عن أفضل الوسائل لعودة اليهود إلى أرض فلسطين.

بل ذكر ما هو أنكى وأدهى من هذا:

صرّح بهذه العبارة: دراسة تلك اللجنة لأفضل الوسائل المتاحة للعودة إلى أرض فلسطين، للاستيلاء على مقدّرات العالَم بعد وضْع السُّبل المؤدّية إلى ذلك. وتكون قرارات هذه اللجنة ملزِمة لجميع يهود العالم.

ثم بدأ هذا المفكِّر في هذا الاجتماع أيضًا يُحدِّد المناطق الجغرافية المؤسّسة لدولة

إسرائيل. فهي تبدأ من الوجْه البحري في مصر حتى يتمكّنوا من السيطرة على البحر الأحمر وعلى مياه النيل، ثم يتعاونون مع أثيوبيا والحبشة وهي البلاد التي كانت تُقدّم للملِك سليمان الذهب والعاج والحجارة الكريمة. كما أنَّ الإقامة بفلسطين سوف تسهّل الاتصال بفرنسا من جانب، وإيطاليا وأسبانيا عن طريق البحر الأبيض من جانب آخَر.

ثم بدأ يتحدّث عن مزايا موقع فلسطين ومواردها، وأثر ذلك في قوة الدولة المرتقَب ميلادها. تأمّلوا معي مليًّا ما جاء في هذا الخطاب من تحديد جغرافيٍّ للدولة، ومن دعوة اليهود الموجودين في أوربا قاطبة للعودة إلى فلسطين، ودعوة (نابليون) نفسه، واستعانته باليهود لكي يؤسِّسوا ويموِّلوا حملْته على الشرق!

وهنا سؤال مهم جدًّا: هل بعد ذلك يصحّ لمؤرخ أن يدّعي زورًا: أن حملة (نابليون) على مصر كانت هي بداية عصر التنوير في مصر، وأنّ القصد من هذه الحملة كان هو نشر العلم والمدنية في أرض مصر؟ أظنّ بعد هذه التصريحات لم يَعُد هناك مبرِّر لتزييفٍ أكثر في تاريخ المنطقة وفي تاريخ هذه الحملة بالذات.

بعد حركة (نابليون) نجد في مَسيرتنا التاريخية الحركة القوية التي قادها رجال المال اليهود بقيادة عائلة (روتشيلد). فقد قدّموا الأموال الطائلة لشراء الأراضي في فلسطين، وبناء المستعمرات منذ أواسط القرن التاسع عشر. وساعدهم على ذلك بعض اليهود الذين تظاهروا بالنَّصرانية حتى وصلوا إلى رئاسة الوزراء في بريطانيا، مثل اللورد (بكسون فيلد) رئيس وزراء بريطانيا في عهد الملكة (فيكتوريا)، ومثل صاحب وعد (بلفور) فإنّ أصله يهودي أيضًا.

مرحلة التأسيس للصهيونية المعاصرة

ثم نصِل بعد ذلك إلى الحركة الكبرى التي قادها المؤسِّس الحقيقي للصهيونية المعاصرة وهو الصحفي النمساوي: (تيودور هرتزل) الذي وُلد في سنة ١٨٦٠م وتوفي ١٩٠٤م. وسوف أتكلّم عن هذا الرجل بشيء من التفصيل فيما بعد؛ لكن الذي يهمّني هنا هو: أن نجعل هذا الرجل، وهذه الفترة التاريخية التي نحن بصددها هي المؤسس الحقيقي للصهيونية المعاصرة، أو لصهيونية ما بعد (هرتزل)؛ فيمكن اعتبار ما قبل (هرتزل) مجموعة حلقات أدّت كلّها -وبطبيعة البعد التاريخي- إلى تزايد نشاط الحركة الصهيونية جيلًا بعد جيل، وقرْناً بعد قرن، إلى أن وصلَت إلى قمّتها في عهد (تيودور هرتزل). وقبل أن أتكلّم عن هذا الرجل، وعن نشاطه، علينا أن نضع هذا التاريخ أمام أعيننا ١٩٠٤م، أواخر عهد الدولة العثمانية، السلطان عبد الحميد. وقلنا -ونحن نتكلم عن الاستشراق والتبشير-: أنَّ ممّا تعاون عليه الاستشراق مع الاستعمار مع التبشير هو: العمل على سقوط الدولة العثمانية، وأنّ ممّا تعاون عليه الاستشراق والتبشير والاستعمار وحالفهم فيه الصهيونية المعاصرة: أن أتوا بمصطفى كمال أتاتورك الماسوني الصهيوني اليهودي الذي تربّى في أحضان يهود الدّونمه، وربّوْه في نوادي ألمانيا على الفكر القومي، وتولّى بنفسه قيادة حركة "الاتحاد والترقي" التي عملت على إسقاط الخلافة العثمانية.

إذاً، كأنَّ (تيودور هرتزل) كان على موعد مع هذا الظَّرف التاريخي الذي هيَّأ له فرصة ساعدَتْه على أن يحقِّق أحلام الصهيونية المعاصرة، فدعا إلى مؤتمر عُقد في (بال) بسويسرا، وطَرح فيه مجموعة من الأفكار لتأسيس هذه الدولة التي سُمِّيت فيما بعد: "بروتوكولات حكماء صهيون". وقد صرّح هذا الرجل بعد المؤتمر

بقوله: "اليوم وُلدت الدولة اليهودية، وبعد خمسين عامًا سيراها العالم بالتأكيد".

هذا الكلام تم في سنة ١٨٩٥م تقريبًا. وصرح أنّ الدولة الإسرائيلية أو الدولة الصهيونية سوف يراها العالَم بعد خمسين عامًا. ولو راجعنا التاريخ، سوف نجد أنّ ميلاد الدولة الحقيقي كان في ١٩٤٨م قرار التقسيم والمسافة الزمنية المحصورة بين مؤتمر (بال) بسويسرا تاريخ ميلاد الدولة تقريبًا استغرق هذه الفترة التي أشار إليها (تيودور هرتزل).

ومن المهمّ: أن أشير إلى الأمور التي تضمّنها هذا المؤتمر، والتي تمخّض عنها هذا المؤتمر؛ لكي أضع هذه البنود أمام إخواننا العلمانيِّين الذين يتهاونون في العناصر المكوِّنة للهوية العربية الإسلامية. عليهم أن يرَوْا الآن وصايا (تيودور هرتزل) لِبَني قومه، ويتأمّلوا في أنفسهم ماذا يطرحون على أبناء جلدتهم الآن؟!

بعضهم ينادي باللغة العامية مكان الفصحى، وبعضهم ينادي بإلغاء الإعراب، وبعضهم ينادي بفصل الدِّين عن الدولة، وبعضهم، وبعضهم...

أدعوهم أن يتأمّلوا وصايا (هرتزل) في هذا المؤتمر، ماذا قال (هرتزل) بعد أن صرّح بميلاد هذه الدولة بعد خمسين عامًا؟

لقد تمّ الاتفاق في هذا المؤتمر على: أنّ أوّل ما يَعمل به أبناء صهيون: التنشيط المستمر، والدعوة التي لا تنقطع على تعليم اللغة العبرية لأبناء اليهود، وإحياء الآداب اليهودية في مضمونها اللغوي الكلاسيكي التي كانت قد ماتت واندثرت منذ عشرات القرون؛ لكنه لكي يؤسِّس دولة، لكي يَبني قوميّة، لكي يضع نقطة يلتفّ حولها أبناء صهيون، عليه أن يُحيي هذه اللغة التي تُمثِّل في نظره وفي نظر بني جلدته رمْزَ الوحدة الصهيونية، رمز الالتفاف حول الكتاب المقدس: اللغة العبرية، والآداب اليهودية.

ثم ماذا؟ إنشاء صندوق تمويل للمشاريع اليهودية يموّل عن طريق الجهود الذاتية، مع وضع المنهج الأمثل للانتفاع بتلك البقعة المباركة من كافّة جوانبها.

كما تمّ الاتفاق في هذا المؤتمر على تكرار عقد المؤتمرات، لتحقيق الآمال المرجوّة لليهود في أرض فلسطين.

وقد توجّه الصهيوني (هرتزل) بعد ذلك إلى السلطان عبد الحميد لكي يفاوضه في تأسيس الوطن القومي لليهود على أرض فلسطين. ونحن نعلم: أن هذه البقعة المباركة كانت تحت ولاية السلطان عبد الحميد، باعتبارها إحدى دول الخلافة العثمانية. وتوهّم (هرتزل): أنّ السلطان عبد الحميد بمقتضى الحالة المَرَضية -كما أسموها، وكانوا يسمّون الخلافة العثمانية بـ"الرجل المريض"- بمقتضى إحساس (هرتزل) بهذه الحالة المَرَضية للدولة العثمانية، كان قد توقع بأن السلطان عبد الحميد سوف يتهاون ويتنازل عن هذه البقعة المباركة للصهيونية. وظن ذلك (تيودور هرتزل)، وأخذ يرسل رسُله إلى السلطان عبد الحميد لكي يحدد له موعدًا للقائه ليتفاوض معه على أن يقطعه هذه الأرض لإقامة الدولة الصهيونية عليها. وكان يحمل معه بعض الإغراءات المالية والاجتماعية ليقدّمها هدية للسلطان عبد الحميد ليستجيب له في تحقيق رغباته.

تكرّرت هذه العروض ثلاث مرات بين (تيودور هرتزل) وبين السلطان عبد الحميد. كان اللقاء الأول في يونيه ١٩٠١م، واللقاء الثاني في فبراير ١٩٠٢م، واللقاء الثالث في يوليه ١٩٠٣م. وكانت المغريات التي حملها (هرتزل) ليعرضها على السلطان عبد الحميد كرشوة أو جُعْل في مقابل تنازله عن أرض فلسطين ما يلي:

أولًا: عرَض عليه أن يُسدِّد ديون تركيا كلّها؛ وكانت ديونه كثيرة. ثم عرَض عليه تطوير

الصناعة بتركيا، والتجارة؛ وذلك من خلال إنشاء بعض البنوك التي يَملكها اليهود، ويمولونها برأسمالهم هُم. ثم عرَض عليه بعد ذلك إقامة جسور للسكك الحديدية عبر القارات المتّصلة بها. وبعد ذلك عرض عليه أن يقوم بحملة إعلامية عالمية تدافع عن السلطان عبد الحميد، وعن سياسته في المنطقة العربية في مواجهة الدول الأوربية، لعِلْمِه أن الدول الأوربية كانت قد تمالأت كلّها على السلطان عبد الحميد.

بل إنّ في هذا التاريخ كانت بعض الدول وقعت فريسةً للاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي في بداية القرن العشرين. ثم عرَض عليه بعد ذلك أن يُنشئ في المملكة أو في الخلافة جامعة عصرية لتعليم الشباب العلوم الحديثة بدلًا من أوربا. ثم عرض عليه هدية مالية قدرها مائة مليون جنيه ذهب، فضلًا عن وعود أخرى مقابل السماح فقط بإنشاء -لم يقل بإنشاء دولة- وإنما إنشاء شركة يهودية في فلسطين تشتري الأراضي الصحراوية غير المزروعة، وتوطّن فيها اليهود.

وقد قوبلت طبعًا تلك المطلب من السلطان عبد الحميد بالرفض والزجر. وصرّح السلطان عبد الحميد بأن الهدف هو: إيجاد حكومة لليهود في فلسطين، وليس مجرّد قطعة أراض صحراوية لا زرع فيها ولا ماء. ثم قال عبارته الشهيرة: "ولن يكون ذلك إلاّ على أجسادنا". هذه هي عبارة السلطان عبد الحميد الذي ظلمه التاريخ. صرّح بهذه العبارة في وجْه من؟ في وجْه (تيودور هرتزل): "لن يكون ذلك" وهو: السماح لليهود بإقامة شركة لشراء الأراضي في أرض فلسطين. قال: "لن يكون ذلك إلا على أجسادنا".

ثم تألّف وفْد آخَر من اليهود من ثلاثة أشخاص، وقابلوا السلطان عبد الحميد بعد ذلك، فأبى مقابلتهم، ووكل أمرهم إلى أحد موظفي الخلافة وتقريبًا هو: تحسين باشا. وقد تبيّن من المقابلة: أنهم يرغبون من الدولة العثمانية أن تسمح بزيارة

الأماكن المقدّسة في فلسطين، وبإنشاء مستعمرة قرب القدس، وذلك مقابل المغريات التي حملَها (تيودور) في المرة الأولى، وكذلك في المرة الثالثة. وكان لتلك المحاولات أثرُها في إصدار قرار بقانون الجواز الأحمر، وكان خاصًّا بكل يهودي يدخل أرض فلسطين بقصد السياحة أو الزيارة. كما أنّ الحكومة منعت امتلاك الأراضي لليهود، أو استيطانهم فيها؛ فكان كلّ يهودي يريد أن يدخل أرض فلسطين للزيارة له جواز خاص بالزيارة فقط؛ بحيث لا يُسمح له بالإقامة فيها.

هذه المقابلات التي تمّتْ بين (هرتزل) والسلطان عبد الحميد كانت البداية الطبيعية لتأسيس الجمعية الصهيونية، أو الدولة الصهيونية، أو الدولة العبرية إن شئتم، بشكل منظّم في حراسة الدول الأوربية وحراسة المال اليهودي، مستغِلّين في هذا الظرف التاريخي ضعف الخلافة العثمانية.

هذه هي مراحل تأسيس الحركة الصهيونية تاريخيًّا، يُمكن -كما سمعنا الآن- أن نُقسِّمها إلى مراحل: مرحلة ما قبل (هرتزل)، وقد مرّت بحلقات متتالية، كان أهمّها من وجهة نظري على الأقل: مرحلة أو حركة (نابليون بونابرت). ثم حركة (روتشيلد) التي تولّت جمع المال. والمرحلة الثانية -وهي الأخطر والأهم- هي: مرحلة (تيودور هرتزل) وما بعد (هرتزل).

الصهيونية (٢)

عناصر الدرس

العنـــــــــــصر الأول :	ماهية الحركة الصهيونية	٣١٥
العنـــــصر الثـــــاني :	تابع ماهية الحركة الصهيونية، والنشاط السياسي للحركة الصهيونية في أوربا وفي أمريكا بعد مؤتمر (بال)	٣٢٥
العنـــصر الثالـــــث :	رؤساء أمريكا يتعهّدون بالوطن القومي لليهود ومناصرته	٣٣٧

ماهية الحركة الصهيونية

نأتي الآن إلى دراسة الحركة الصهيونية من حيث هي، ما طبيعة هذه الحركة؟ هل هي حركة دينية خالصة؟ كما يدعي البعض ويحاول أن يتصيّد لها النصوص الدينية من التلمود ومن التوراة، وهي نصوص زائفة كما قلت.

هل هي حركة قومية تنادي بأفضلية الجنس اليهودي، وأنّ ما عداه خُلق لخدمة الجنس اليهودي؟ وقد يؤيدون هذا القول بنصوص أيضًا من التوراة ومن التلمود توضِّح: أن اليهود هم "شعب الله المختار"، وأنّ ما غير اليهود هم من سلالة حصان نجس، وأنهم أميُّون خُلقوا لخدمة اليهود، وأنهم لا يستحقون أن ينتسبوا ولا يصاهروا ولا يتزوجوا ولا يزوّجوا أحدًا من اليهود؛ فتكون الحركة عنصرية قومية.

هل هي حركة سياسية لها أهداف سياسية تبغي من ورائها تأسيس حكومة عالمية تحكم العالم كلّه، وتستأثر بخيراته، وتستولي على مصادر ثروته تحت سمع وبصر مجموعة من النصوص التي تتولّى تنفيذها شركات عالمية تخصّصت في صناعة الأسلحة، واستخراج معادن وخيرات الأرض من باطنها، وجمع الثروات العالمية في أيديهم، ثم تحاول السيطرة على العالم من خلال حكومة واحدة تحكم العالم؟

ما طبيعة هذه الحركة؟

لا شك أن هذه المحاور الثلاثة: كوْنها حركة دينيّة، كونها حركة قومية عنصرية، كونها حركة سياسية، هذه الأبعاد الثلاثة -كما قلنا- لها من يؤيِّدها ويدافع عنها، خاصة إذا وجدنا أنّ من الصهاينة أنفسهم مفكِّرين يتبنّون هذه القضية أو

تلك ويحاولون أن يوظّفوا لخدمتها بعض نصوص من الأسفار التوراتية، وبعض نصوص من التلمود، ويحاولون أن يُزوّروا التاريخ ويُطوّعوه لتفسير وتأييد وجهة نظرهم من أنها حركة دينية أو قومية أو سياسية.

وإذا أردنا أن نوضّح القول حول هذه المحاور الثلاثة عن طبيعة هذه الحركة الصهيونية، نجد أنّ الكلام فيها قد يتداخل؛ بحيث نجد أن آراء المفكّرين الذين يفضّلون القول بأنها قومية ينصّون أيضًا على أنها لا تخلو من أهدف سياسية. كذلك الذين يُنصّون على أنّ الحركة الصهيونية حركة سياسية يقولون إنها لا تخلو من أهداف قومية دينية. فهناك تداخل؛ لكن المعلَم الأساسي للحركة بعد (هرتزل) يأخذ بُعدًا سياسيًّا قوميًّا عنصريًّا.

ومن هنا نستطيع أن نوضّح أو نلقي الضوء على كلّ رأي من هذه الآراء بشيء من الإيجاز؛ لأن الإيديولوجية الصهيونية التي تميل إلى القول بأن الحركة هي في أصلها حركة قومية، يعتمدون على نصوص وضعوا أيديهم عليها في "سفر التكوين". مثلًا: يقولون معتمدين على هذا النص في أن الأرض حق لإسرائيل، وأنّ الجنس جنس إسرائيل، وأنّ الذي يسكن القطعة هم من بني إسرائيل وليس من غير بني إسرائيل: جاء في "سفر التكوين" ما يلي: "في ذلك اليوم، قطع الرب مع إبرام -سيدنا إبراهيم عليه السلام- ميثاقًا قائلًا له: لنَسْلِك أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير -نهر الفرات-".

فمن هذا المنطلق الديني، أعلن الزعماء الصهاينة: أن فلسطين قد أُعْطِيَت لنا من الرب؛ وذلك دون أن يسألوا أنفسهم عن مضمون هذا العهد، وعمّا إذا كان الاختيار غير مشروط، أو له شروط، وبصَرْف النظر عن أنّ العرب من نسل إبراهيم، أم ليسوا من نسل إبراهيم. ثم يؤيِّدون هذا بنصوص أخرى: فإنّ

بعضهم يستدل بقوله أو بما جاء في نصوص التوراة أيضًا: "إن هذه الأرض أعطِيَتْ لنا وعدًا من الرب، ولنا عليها حق".

فبدأت الحركة الصهيونية تقرأ الكتاب المقدس -كما يقول بعض المؤرِّخين- قراءة انتقائيَّة، يضعون أيديهم على نص ويَبْتُرونه من السياق العام، ويستدلّون به على ما يريدونه من أفضليّتهم كجنس، ومن أحقِّيّتهم بالأرض دون غيرهم. ولذلك نجد مثلًا على سبيل المثال: أن الرجوع إلى الكتاب المقدس عند "حزب العمل" أو عند "الليكود" إنما يراد منه تدعيم سياسةٍ مؤدّاها: أن فلسطين خاصة بالصهيونيِّين وحْدهم بموجب منحة موقّع عليها من الرب؛ فأيّ جنس غير صهيوني غير يهوديّ يدخل هذه الأرض يكون معارضًا لإرادة الرب.

لقد قال الرب لموسى في نص "سِفر العدد": "كلِّمْ بني إسرائيل وقُل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتَطردون كلّ سكان الأرض من أمامكم، وتمحون جميع تصاويرهم، وتُبيدون كل أصنامهم المسبوكة، وتخربون جميع مرتفعاتهم. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم، يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها؛ فيكون أنِّي أفعل بكم كما همِمْتُ أن أفعل بهم".

لاحظ النص: طرْد، تخريب، قتْل أيِّ دم غير يهوديّ بنص التوراة عندهم التي حرّفوها. يقولون: إن القتل والتخريب وهدْم البيوت سياسة توراتية كلّفَهم بها الرب. هذه النصوص -أيها الأخوة- موجودة في "سِفر العدد".

أمّا "سِفر التثنية" فلا تقتصر النصوص على أن تطلب من الصهاينة اغتصاب الأرض فقط، ولا طرد أصحابها فقط؛ بل إنها تطلب منهم: المذبحة. يقول النص: "متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها،

وعليك أن تطرد شعوبًا كبيرة من أمامك، ودفَعهم الرب إلهك أمامك، وضربتهم، فإنك تحرمهم الإقامة في الأرض. لا تقطع لهم عهدًا، ولا تُشفق عليهم، ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء".

هل هذا نص إلهي؟ هذا من "سفر التثنية"!

و"سِفر يشوع" وهو "سفر المذابح" لا يؤخذ على أنه نص كلاسيكي عندما يدرس في المدارس الإسرائيلية، ولكن هو كذلك وسيلة إلى الإعداد النفسي للمجنّدين في الجيش. هذا السِّفْر الذي يسمّى عندهم: "سِفر المذابح"، يدرِّبون الجنود في الجيش على قراءة وحفظ وتنفيذ ما جاء في هذا السِّفر. والوعاظ العسكريّون الربانيّون منذ غزو لبنان يدعون إلى الحرب المقدسة، وقد حدّد لهم موضوع الأساس أحد الكهنة الربانيّين برتبة "كابتن" بقوله: "إننا لا ينبغي أن ننْسَى المنابع الكتابية التي تُبرِّر هذه الحروب، والتي تُبرِّر وجودنا هنا. إننا نؤدِّي وجودنا الديني اليهودي بوجودنا هنا. لقد كُتب علينا أداء هذا الواجب الدِّيني التعبوي وهو: أن نغزو الأرض ونحارب العدو".

ونجد أنّ التلاعب بالنصوص ابتداءً من مجال علم الآثار، حتى الكتب المدرسية هي القضية التي يتنافس فيها الأحبار، والمفكّرون الصهاينة، التلاعب بالنصوص العقائدية إما من التلمود أحيانًا، أو من أسفار التوراة أحيانًا أخرى.

هنا نستطيع أن نقول: إنّ الذين يفسِّرون الحركة على أنها حركة قومية يجدون لذلك مبررًا في نصوص التوراة التي تنادي بأفضلية الجنس، وأحقية الأرض، وتنادي في نفس الوقت بعدم جواز إقامة أي فرد غير يهودي على أرض فلسطين؛ فيجعلون هذه الحركة حركة قومية تنادي بأفضلية الجنس اليهودي، وأحقية الجنس الصهيوني أو اليهودي بالإقامة في هذه الأرض بمقتضى وعْد

الرب. وهي أسطورة -كما قلنا- أو إحدى الأساطير التي أسّس عليها اليهود قضيّتهم أمام العالَم.

بينما يرى البعض الآخَر: أنّ هذه الحركة هي حركة دينية نابعة من الفكر الديني اليهودي الخالص، بمقتضى النصوص التي نجدها أحيانًا تحت دعاة القائلين بأنها حركة قومية، والنصوص التي نجدها تحت أيدي القائلين بأنها حركة سياسية. هؤلاء معهم نصوص وأولئك معهم نصوص. فوجدنا فريقًا من المحلِّلين يرى: أن هذه الحركة حركة دينية نابعة من الفكر الديني اليهودي التوراتي الزائف، وما يتضمّنه هذا الفكر من نظريات وعقائد يأتي في مقدمة هذه العقيدة: فكْرتهم عن المسيح المخلِّص الذي سيأتي في آخر الزمان، أو في الألفية الثالثة لِيُنقذ اليهود من الاضطهاد الذي وقع عليهم، ويحرِّرهم من الشتات.

ثم تأتي بعض الأفكار الأخرى التي ترتقي عندهم إلى مستوى العقائد، كاعتقادهم بأنهم شعْب الله المختار. والنصوص في التوراة موجودة، والاعتقاد بالأرض والعودة إلى الأرض، والنصوص موجودة. ويشكِّل هذا كلّه مزيجًا يفعل فعْله في وجود ونشاط هذه الحركة الصهيونية عند أصحاب هذا الرأي القائلين بأنها حركة دينية. القائلون بأنها حركة قومية معهم نصوص، والقائلون بأنها حركة دينية معهم أيضًا نصوص.

لكنّ التحليل الأخير لهذه الحركة يرى: أنها حركة سياسية، وإن كانت لا تخلو من أهداف ونوازع، أو مستندات ووثائق دينية، لكن أهدافها أهداف سياسية بالدرجة الأولى، سعى أصحابها إلى تنفيذ فكْرهم السياسي. ولا مانع أن يستغلُّوا المواقف العلمانية ليستفيدوا بالفكر العلماني في تنفيذ مخططاتهم؛ فيعملوا على استغلال الظُّروف السياسية، ويحاولوا إقناع اليهود بأنهم أمّة لها حق تقرير

المصير. ولكنهم استندوا في التنفيذ إلى أفكار دينيّة مستقاة من التراث الديني اليهودي، لِما للفكر الديني من تأثير في إثارة المشاعر، وحشْد القوى، وإثارة الطاقات الكامنة في النفوس، لتنفيذ وعْد الرب بالأرض وبأفضلية الشعب.

ويتلخَّص رأي هؤلاء القائلين بأنها حركة سياسية في: أن الحركة الصهيونية هي في جوهرها حركة علمانية لا تستند إلى أي فكر ديني عند الحاجة؛ لكنها في وسائلها، وتخطيطها، ومؤتمراتها، ووسائلها العملية علمانية مائة في المائة، أضافت على هذا النشاط العلماني طابعاً دينياً لما له من تأثير في النفوس كما قلنا من قبل.

ويستدل أصحاب هذا الرأي على: أن الحركة الصهيونية حركة سياسية: بأن تاريخ الزعماء كلّه تاريخ علماني. ولعل من أوضح الأدلة على صحة هذا الرأي: أقوال زعماء الحركة الصهيونية أنفسهم التي تدل على هذا الطابع العلماني دلالة واضحة؛ حتى إن (هرتزل) أكبر مؤسسي هذه الحركة قد قال: "إنني لا أنقاد لأي دافع دينيّ". ونقرأ في كتابه "الدولة اليهودية" الذي يُنظر إليه على أنه أحد الكتب المقدسة لهذه الحركة لّما تحدث عن شكل الحكومة التي ستحكم الدولة عند قيامها، تساءل قائلًا: "هل سننتهي إلى حكومة دينيّة؟"، ثم أجاب قائلًا: "لا، بالتاكيد! إن العقيدة تجمعنا، والمعرفة تمنحنا الحرية؛ ولذلك سنمنع أيّ اتجاهات دينيّة تتصدّر قيادتنا من جانب الكهنوت بالذات. سوف نحصر كهنوتنا داخل المعابد، كما سينحصر الجيش داخل الثكنات، وسينال كلّ منهما ما يليق به من احترام رفيع، ولكن لن يسمح لهما بالتدخل في شؤون الدولة؛ لأن ذلك سيجلب علينا صعوبات في الداخل والخارج".

هذا النص صرّح به (تيودور هرتزل) كدستور للحركة الصهيونية ونشاطها -فيما بعد؛ وهذا ما جعل كثيرًا من المفكِّرين يرَوْن أنّ الحركة الصهيونية هي حركة سياسية

في أهـدافها ومقاصـدها، وإن تـستّرت أحيانًـا بـبعض النـصوص الدينيـة. وعنـدما زار (هرتزل) القدس قبيل وفاته، انتهك العديد من الـشعائر الدينيـة اليهودية، ليؤكّـد أن قضيّته منفصلة عن العقيدة الدينية تمامًا. وكان صديقه في هذه الزيارة (ماكسنوردو) في سنة ١٩٢٣م، وهو أحد الزعماء الـصهيونيين، وكـان ملحدًا يُجاهر بالإلحاد. وقد وصل إلى حد القول: "أنه سيأتي اليوم الذي يحتلّ فيه كتاب (هرتزل) مكانة تساوي مكانة الكتاب المقدس ذاته، حتى بالنسبة للمتديِّنين بالديانة اليهودية".

ولا نعجب إذا وجدنا (حاييم وايزمان) أوّل رئيس لدولة إسرائيل يتلذّذ في بعض الأحيـان بمـضايقة الحاخامات -رجـال الـدِّين- بـشأن الطعـام المباح شـرعًا وغير المباح. هذا كلّه يدلّ على: أنّ الحركة -كما أرادها (هرتزل)- هي حركة سياسية. ثم إن موقف رجال الدين اليهودي والمتديِّنين منهم -من هـذه الدولـة التي سـعَت الحركة الصهيونية إلى إقامتها- قابلوها بـالرفض المطلـق منذ أن كانت مـشروعًا في عقولهم، واستمرّوا على رفضها حتى بعد إقامتها.

وقـد انعقـد مـؤتمر في مدينـة مونتريـال بكنـدا للحاخامـات الأمـريكيّين بالـذات في سـنة ١٨٩٧م وهـو نفـس العـام الـذي انعقـد فيـه المؤتمر الأوّل للحركـة الـصهيونية برئاسـة (هرتزل)، وقد أصدر هؤلاء الحاخامات قرارًا برفض مشروع (هرتـزل)، كـما رفـضوا أيّ مـشروع لإقامـة الدولـة اليهوديـة. وعبّـر بعـضهم عـن مخـاوفهم مـن الإيديولوجيـة العلمانية التي تسعى الصهيونية لنشرها؛ بل إنّ بعضهم عبّر عن تخوفه قائلًا: "إن إقامـة دولة يُعدّ اقتلاعًا لليهودية من جذورها". بل إنه نظر إلى الـصهيونية وإلى دولـة إسـرائيل بوصفهما من تعاليم الكفار التي نشرها المرتدّون أقطاب الفكر الصهيوني. لمـاذا؟ لأنهـم من وجهة نظر الحاخامات: علمانيّون، وليسوا رجال دِين.

وزيادة على ذلك، فإن الحركة الصهيونية لا يمكن تصنيفها ضمن الحركات الدينية

اليهودية ؛ لأنها لا تملك رؤية دينية من جانب، كما أنها لا تمتلك برنامجًا دينيًّا تبتغي نشْره بين اليهود ؛ ومن ثمّ نجد المؤرخين للحركات الدينية لا يذكرون هذه الحركة ضمن الحركات اليهودية الخالصة ؛ بل إننا نلاحظ أنّ الحركة الصهيونية تؤكِّد على القيَم المادية، وتميل إلى ترجمة القيَم الدينية إلى مفاهيم مادية. فكل شيء روحي يُترجَم في إسرائيل إلى قيمة مادية، ممّا يدل على: أنّ الحركة حركة علمانية، وليست حركة دينية.

وإذا علمنا أنّ رواد هذه الحركة قد نشؤوا في ربوع أوربا، نستطيع أن نقول إن الصهيونية قد ورثت هذا الطابع العلماني من البيئة الأوربية نفسها ؛ لأن أقطاب الفكر الصهيوني تربّوْا في أوربا. وهذا لا يعني أن الحركة -وإن كانت علمانية- قد قطعت علاقتها التامة مع الموروث الديني ؛ لا، هذا غير واقع وغير متوقع أيضًا ؛ لأن الفصل بين الحركة السياسية القومية وبين الدِّين يُعدّ نوعًا من الغباء السياسي الذي يحرص زعماء الحركة الصهيونية على عدم الوقوع فيه ؛ لأنهم بذلك سوف يستثيرون رجال الدين والمخلصين من اليهود في كل وقت ضدّهم.

لذلك فهُم أحيانًا يتسترّون بالستار الديني، وأحيانًا يعلنون شعارهم العلماني.

كان دعاة الحركة الصهيونية أيضًا على علْم بما للدِّين من قوة في تحريك الجماهير وجذْبها إلى ساحة الكفاح، وإخراجها من عزلتها إلى حيِّز العمل ؛ ولذلك نجد أنّ هذه الحركة إذا وجدت في الاستعانة بالدِّين فائدة ونفعاً لجؤوا إليه، وإذا لم يكن فيه نفع ولا فائدة بالنسبة للواقع التاريخي نفضوا أيديَهم منه. ولا تعجب أنّ جنود الحرب في حرب ١٩٦٧م، وحرب ١٩٤٨م، وحرب ١٩٧٣م كان بين كلّ كتيبة يهودية بعض أحبار اليهود الذين يقرئونهم التوراة، ويعلّمونهم ما فيها من أوامر ربانية تأمرهم بقتل كلّ ما هو غير يهودي، أو تذبحه، أو تنفيه من الأرض.

هذا من حيث علاقة الحركة كحركة سياسية بالفكر الديني.

وإذا علمنا أنّ قادة الحركة أيضًا يتكوّن لديهم إحساس بأن الدِّين وحْده هو القادر على أن ينتزع اليهود من البلاد التي يعيشون فيها، ليتركوها ويهاجروا إلى أرض فلسطين، لجؤوا إلى النصوص الدينية التي تدعو كل يهودي أن يترك مكانه ووطنه الذي يعيش فيه ويهاجر إلى أرض الميعاد.

فتلاحظ معي: مع أنها حركة علمانية سياسية كما يرى هؤلاء، إلاّ أنها تلجأ إلى الدِّين لتستفيد بما فيه من نصوص، إمّا لإثارة قضية العودة والإحساس بالحاجة إلى أرض الميعاد، أو لإثارة الجنود الصهيونيِّين واليهود ضدّ من هو غير يهودي، أو لإثارة قضية شعب الله المختار عندهم.

وأيضًا كان للدين أثر كبير في ربط هذه الحركة في الكتب المقدسة ليعطيهم بُعدًا تاريخيًّا؛ لأن الدِّين هو الذي يُعطي المواطن الذي يعيش فوق هذه الأرض قيمته المقدّسة المستمَدة من النصوص التي امتلأت بها التوراة، والتي تكررت في أسفار العهد القديم بالنبوءات الكثيرة التي كتَبها اليهود في فترات هزيمتهم وغربتهم وشتاتهم، والتي قد اكتسبت بمرور الزمن قوّة العقيدة، وأصبحت تحيا في وجدان اليهودي، وتحرِّكه لتحقيق كلّ ما هو أمْر للعودة إلى الأرض، ولمحاربة غير اليهودي، والاعتزاز بنفسه كواحد من أفراد شعب الله المختار.

فقضية استغلال الدِّين كانت قاسمًا مشتركًا بين مَن يُفسِّر الحركة بأنها حركة سياسية، ومن يُفسِّر الحركة بأنها حركة قومية. وقد سعى قادة الحركة الصهيونية إلى استثمار هذه الفكرة أكثر من غيرهم في أي وقت مضى خاصة في العصر الحديث؛ حتى إننا نجد واحدًا منهم يصرِّح بهذه العبارة: "لو ألغينا مفاهيم الشعب المختار الموجودة في نصوص الكتاب المقدسة، ولو ألغينا قضية الوعد بالأرض الموجودة في نصوص

الكتاب المقدس، لو ألغينا هذه وتلك لانهارت الصهيونية من أساسها".

وعندما سأل (بلفور) صاحب الوعد المشهور، عندما سأل (وايزمان)، ومعروف من هو (وايزمان) أحد أكبر زعماء الحركة الصهيونية بعد (هرتزل) والرئيس الأوّل لإسرائيل بعد قيامها، سأله (بلفور) قائلًا: "لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا مثلًا؟".

وكانت هذه فكرة مطروحة في مؤتمر (بال): أن تقام الدولة في أوغندا أو في مكان آخر غير فلسطين، فأجابه (وايزمان): "إن الأمر الوحيد الذي يجمع كلّ شتات اليهود، ويُجمع عليه اليهود كأساس للحركة الصهيونية هو: فلسطين، وفلسطين وحدها". وقلت: حتى لو أنّ موسى نفسه جاء يدعو لغيرها لما اتّبعه أحد. وأن أي ابتعاد عن فلسطين يشكِّل نوعًا من الكفر.

ونجد (موشي ديان) نفسه -وكان وزيرًا للحربية الإسرائيلية- كان يخاطب الجنود قائلًا: "إذا كنا نحن أصحاب التوراة، وإذا كنّا نعتبر أنفسنا شعب التوراة، فينبغي لنا أن نمتلك كذلك أرض التوراة". لاحظوا معي: الربط بين الفكر الديني والمتمثل في نصوص التوراة، والفكر السياسي المتمثل في امتلاك الأرض.

ولم يكن مهمًّا بالنسبة لـ(بن جوريون) مثلًا -وهو أحد قادة إسرائيل المعاصرين-: أن يكون الله قد أعطى لليهود أو لأنبيائهم عهدًا بإعطاء أرض فلسطين، لكن المهمّ في نظره: أن تظل هذه الأسطورة مغروسة في الوجدان اليهودي؛ ولذلك يجب أن تبقى سارية المفعول، حتى بعد أن يثبت أنَّ الوعد المقطوع به وهو الوعد بالأرض، والوعد بأنهم شعب الله المختار، أن يثبت أنَّه مجرّد أسطورة من الأساطير الشعبية التي ليس لها مصدر إلهيٌّ.

إلى هذا الحدّ يتشبّث قادة إسرائيل المعاصرين، كما تشبّث أجدادهم في الماضي

بالنصوص الدينية لكي يؤكِّدوا قضيّتهم، ويجعلوا من باطلهم حقًّا في نظر العالَم. وعن طريق هذه النصوص، استطاعوا أن يقنعوا أوربا بأنهم أصحاب الأرض، وأن يقنعوا مفكِّري العالَم بأنهم شعب الله المختار، وأن يقنعوا العالم كلّه بأسطورة الأرض، وأسطورة الميعاد، وأسطورة عودة المسيح إلى أرض فلسطين، لِيحكم العالم في الألفية الثَّالثة التي تأسّس بها، والتي تأسّست عليها فكرة الصُّهيونية الصليبية المعاصرة الَّتي تأسست في أمريكا لمناصرة الصهيونية في أرض فلسطين.

تابع: طبيعة الحركة الصهيونية، والنشاط السياسي للحركة الصهيونية في أوربا وفي أمريكا بعد مؤتمر (بال)

هرتزل ودوره في تسييس الحركة:

هذه بعض الآراء التي قيلت حول تحليل الحركة الصهيونية: هل هي حركة دينية خالصة؟ هل هي حركة سياسية خالصة؟ هل هي حركة قومية خالصة؟

وقد وجدنا أنّ هذه الآراء الثلاثة مطروحة في تحليل الحركة الصهيونية، وأصبح النص الديني قاسمًا مشتركًا بين هذه التفسيرات كلّها.

تحدثنا سابقاً عن تاريخ الحركة الصهيونية، وعن طبيعة هذه الحركة، وعن الجذور الدينية التي تتشبَّث بها والتي تستغلُّها وتجعل منها أسطورة تحاول أن تسيطر بها على الأرض وتجعلَ منها شعبًا مصطفًى ومختارًا من الله على سائر العباد.

وانتهينا بحديثنا إلى القول بأنَّ المفكرين تضاربت أقوالهم أو تنوَّعت أقوالهم حول تحليل هذه الظاهرة: هل هذه الظاهرة في طبيعتها تمثِّل حركة دينية؟ هل الحركة

الصهيونية حركة قومية؟ أم حركة سياسية؟ وقلنا: إنّ هذه الآراء كلٌّ منها له وجهة نظره، ويحاول أن يؤيِّد وجهة نظره بنصوص يتشبّث بها روّاد الحركة الصهيونية.

وبذلك لا نميل إلى القول بأن رأيًّا معيّنًا هو الصواب وما عداه خطأ؛ وإنَّما نرى: أنَّ كل هذه الآراء كلّ منها له وجهة نظر، وله ما يُبرِّره في النصوص التي يستدلُّون بها على أنَّ هذه الحركة قومية أحيانًا، دينية أحيانًا، سياسية أحيانًا أخرى؛ لكنَّنا بالتأكيد نميل إلى القول بأنَّ هذه الحركة -خاصة بعدما تأسَّست بشكل رسميّ مؤسَّسيٍّ على يد (هرتزل) بدأت تأخذ شكلًا سياسيًّا قوميًّا، وربَّمَا تحتاجُ إلى تأييد بعض مواقفها باستغلال بعض نصوص من التوراة أو التلمود كما سوف نرى. ولذلك فإنَّ مظهر هذه الحركة على امتداد القرن العشرين، وبالتَّحديد من يوم أن ظهر على المسرح السِّياسي (تيودور هرتزل) بدأت هذه الحركة تأخذ بُعدًا سياسيًّا قوميًّا على امتداد القرن العشرين بأكمله. كما يرى المؤرِّخون أنَّ المؤسِّس الأوَّل للصُّهيونية السياسية بهذا المَعنى الَّذي نريدُه هو (هرتزل)، سواءٌ نحا هذا المنحى في كتابه الَّذي أسماه: "الدَّولة اليهوديَّة" الذي ظهر عام ١٨٩٥م أو ما قرَّره في المؤتمر الأوَّل الَّذي عُقد في سويسرا في مدينة (بال) في عام ١٨٩٧م. في هذين العمَلين: كتاب الدولة اليهودية، والمؤتمر الأوّل الذي عقده في سويسرا، نجِد: أنّ هذيْن العمَليْن يُمكن أن نستنتج منهما معًا الفكرَ السياسي الصهيونيَّ لهذه الحركة، الذي يهدف (هرتزل) من ورائه إلى السيطرة الكاملة على الأرض، مستغلًّا أسطورة الوعد وأسطورة الشعب، وأيضًا السيطرة على العالم من خلال خلْق ما يسمّى بالحكومة الواحدة التي تَحكم العالم. ولا غرابة في ذلك لأننا نجد (هرتزل) نفسه يعترف بمحض إرادته بأنّ فكرة الصهيونية عن عودة اليهود إلى أرض فلسطين ليست جديدةً على الفكر اليهوديِّ. وهو يذكر في صحيفته: أنَّ أحد

أصدقائه واسمه: (شيف) قال له في ١٧ يونيو ١٨٩٥م: "إنَّها شيء حاول أحدُ الناس تحقيقه"؛ لكنَّ هذا الرجل كان مسيحيًّا زائفًا.

ودون أن نذهب بعيدًا، فإن نفس الموضوع قد عولج على يد كثير من الكتّاب الذين سبقوا (هرتزل) ونادَوْا بضرورة عودة الشَّعب إلى الأرض الموعودة من خلال لقاءاتٍ كثيرة تمّتْ قبل (هرتزل)؛ لكن الجديد على يد (هرتزل): أنَّه صاغ القضية في شكل عبارات أشبه بالقضايا المنطقية أو القضايا الرياضية. فعندما صاغ (هرتزل) هذا الشعار: "نحن شعب، وفلسطين وطننا التاريخي الذي لا يُنسى"، فإنه لم يفعل في هذا الشعار إلاّ أنه تناول ما أطلق عليه هو نفسه "الأسطورة العظيمة التي نطلقها صرخة مدوِّية لتجميع قوى العالم حول الحفاظ على حقوقنا التاريخية التي ندّعيها".

هذه القضية بهذا الشكل نقَلها (هرتزل) من بُعد دينيّ إلى بُعد سياسي. ونحن نعرف أنَّ (هرتزل) حينما التقى بالسلطان عبد الحميد أو حاول أن يلتقي بالسلطان عبد الحميد، حاول أن يأخذ منه وعدًا بتأسيس وطن لإسرائيل في أرض فلسطين. وتكلَّمنا عن هذا اللقاء بالتَّفصيل في لقاء سابق، وقلنا: إنَّ السلطان عبد الحميد رفض مقابلة الرجل، وحاول أن يُنيب عنه رجلًا من موظّفي حكومته يسمّى: تحسين. وتم اللقاء بين تحسين و(هرتزل)، وعرض عليه مغريات كثيرة تكلّمْنا عنها فيما سبق كان مِن أهمِّها تسديد الديون، وإعطاء أموال ذهبية، وإنشاء جامعة، وإنشاء سكّة حديد... إلى آخره. لكن لما رفض السلطان عبد الحميد هذه العروض، أضمر (هرتزل) في نفسه ضرورة القضاء على الخلافة العثمانية، ليتسنَّى له إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين.

وبعض المحلِّلين يرى: أن هذه الفكرة التي هيْمنت على (تيودور هرتزل) تُشبه

تمامًا نفس الفكرة التي طبّقها بعضُ دعاة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا ؛ ولذلك يلمِّح أو يشير بعض الكتّاب إلى أن (هرتزل) أراد أن يطبِّق في الشرق وفي أرض فلسطين بالذات السيناريو الذي حقّقه (سيسل روديس) في أفريقيا الجنوبية. وربما أشار إلى أنّ (هرتزل) قد صرّح في بعض لقاءاته أنه متأثّر بهذا الرجل، وأنّ مهمّة (تيودور هرتزل) هي: تطبيق نفس المنهج الذي طبّقه (سيسل روديس) في جنوب أفريقيا. ولذلك طلب (هرتزل) من (سيسل روديس) في ١١ يناير ١٩٠٢م مسانَدَته في تحقيق حُلمه في إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين كما فعل هو في جنوب أفريقيا. ولذلك أرسل له يقول: "أرجوك أرسل إليّ نصًّا يقول: إنك فحصت برنامَجي، وإنك توافق عليه، وأنه يتوافق إلى حد كبير مع برنامجك الذي احتلّت به جنوب أفريقيًا".

وعلى ذلك استطاع (هرتزل)، بناءً على هذا التفكير: أن ينظِّم المؤتمر الصهيوني الأول في (بال) ١٨٩٧م. وكان يحلم بأن يعقده في (ميونخ)، غير أنّ كثيرًا من المفكِّرين المعاصرين له عارضوا هذا الأمر، ورأوا أن يعقد في (بال) بسويسرا. وترتّب على هذا المؤتمر: أن صاغ (هرتزل) برنامجاً كبيراً جدًّا يمكن أن يسمّى ببرنامج (بال)، أو يسمّى: ورقة عمل لـ(هرتزل)، أو ورقة العمل للمنظمة الصهيونية العالمية خلال القرن العشرين. وفعلًا يمكن أن يسمّى هذا: "ورقة عمل"؛ ففي أغسطس ١٨٩٧م افتتح (هرتزل) مؤتمر (بال) ووضَع برنامجه للتنظيم الصهيوني العالمي على النحو الآتي:

افتتحه بقوله: "إنَّ الصهيونية تستهدف أن تُنشئ للشعب اليهودي وطنًا في فلسطين، مضمونًا بوساطة القانون العام". القانون العام هنا ربما يشير به إلى ما ظهر فيما بعْد بالأمم المتحدة ومجلس الأمن، أو قانون الدولة العظمى التي كانت

مسيطرة في هذا الوقت وهي: بريطانيا العظمي التي كانت لا تغيب عنها الشمس كما يقولون؛ ولذلك نجد: أن هذا القانون العام تمثّل تمامًا في احتضان بريطانيا للحركة الصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناء الحرب العالمية الأولى إلى أن تمخَّض عنها وعد (بلفور) ١٩١٧م.

وكتب (هرتزل): "إنَّ تحقيق هذا الهدف يتطلّب الآتي". ووضع مجموعة من الخطوات التي يراها ضرورية لإنشاء هذا الوطن القومي في فلسطين:

أولًا: نادى بتطوير استعمار فلسطين على أحسن وجْه، وأرشد إلى ضرورة تهجير المزارعين والمهنيِّين والتجار اليهود وأصحاب رؤوس الأموال، لتكتمل دائرة الحركة اليومية في استصلاح الأرض وزراعتها والتجارة بالمنتجات الزراعية.

ثانيًا: ثم نادى بتنظيم يهودي في كلّ دولة أوربية، وأن هذا التنظيم ينبثق عنه مجلس قومي يهودي في كل بلد أوربي، تكون مهمّته: تقوية الشعور القومي لدى اليهود المقيمين في هذا البلد أو ذاك. وحثّهم على ضرورة الهجرة إلى أرض فلسطين: أرض الميعاد، أرض الأجداد، الأرض المقدّسة.

ثالثًا: ثم المناداة بتنظيم اليهود وتوحيدهم على مستوى العالم في شكل مجلس عالمي، هيئة عالمية، وكالة دولية تجمع شتات اليهود في أنحاء العالم، حتى إذا ما احتاج إليه الأمر يمكن الوصول إليهم في أيّ بقعة من العالم.

رابعًا: ثم تقوية الشعور القومي عند اليهود وتوعيتهم بأنهم قومية مفضّلة، وأنهم شعب مختار، ولهم حقوق إلهية على العالم.

خامسًا: ثم ضرورة المساعي التحضيرية للحصول على موافقة الحكومات التي هي ضرورية لبلوغ الهدف لبناء الدولة الصهيونية. ومهمّة الحصول على موافقة

الحكومات تُناط بالمجالس اليهودية التي تؤسَّس في هذه البلاد.

وقد ظلَّ هذا البرنامج دستور الحركة الصهيونية حتى عقد المؤتمر الثالث والعشرين الصُّهيوني عام ١٩٥١م، حيث صيغت الأهداف بطريقة جديدة، وصيغ هذا البرنامج تحت عنوان: برنامج أورشليم الذي أعقب برنامج (بال).

يمكن أن نستوعب الفترة أو المساحة الزمنية بين المؤتمر الصهيوني الأوّل على يد (هرتزل) والمؤتمر الصهيوني الثاني بعد تأسيس الدولة وميلاد الدولة الذي عُقد في أورشليم سنة ١٩٥١م، ونتأمّل ماذا وقع في هذه الفترة الزمنية من ١٨٩٧م إلى ١٩٥١م. نلاحظ ما يأتي:

أ- تمّ إسقاط الخلافة العثمانية.

ب- تم وضْع معظم أو جميع البلاد العربية باستثناء المملكة العربية السعودية تحت الاحتلال. فاحتلت بريطانيا: الأردن، فلسطين، العراق، مصر، السودان، والإمارات المطلّة على الخليج العربي. واحتلت فرنسا: المغرب، الجزائر، تونس، سوريا، ولبنان. واحتلت إيطاليا ليبيا. لو وضعت أمامك الخريطة الجغرافية للوطن العربي، لأبصرتها كلّها واقعة تحت الاحتلال الأوربي في الفترة ما بين مؤتمر (بال) الأول ومؤتمر أورشليم الثاني.

وفي خلال هذه الفترة الزمنية أيضًا، عليك أن تتذكر أنه تمّ ما يسمى بالاتفاق الوِدِّي بين فرنسا وبريطانيا، وتم توقيع ما يسمّى بمعاهدة (سايكس بيكو)، وتمّت الحربان العالميتان التي انتهت الأولى منهما بوعد (بلفور)، وانتهت الثانية منهما بميلاد الوطن القومي لليهود عام ١٩٤٨م.

هذه أمور ينبغي أن نضعها أمامنا لنعرف كيف تتحرّك الصهيونية، وكيف نظّمت

نفسها، وكيف بلْورت أهدافها، وكيف تُعدّ البرنامج إثر البرنامج خطوة خطوة، لتصل في النهاية إلى تحقيق هذا الهدف الذي تسعى إليه.

إذا كانت هذه الخطوات تتعلق ببرنامج (بال) على يد (هرتزل)، فقد صيغ برنامج أورشليم على النحو التالي: إن أهداف الصهيونية هي وحدة الشعب اليهودي على أن تكون إسرائيل مركزه وحياته وموطن تجمّع الشعب اليهودي، واعتبارها وطنًا تاريخيًّا، واعتبار أنّ الهجرة إليها من جميع البلاد عمل إلهيّ تنفيذًا لوعد الرب؛ لأن ذلك يعمل على تقوية دولة إسرائيل المؤسسة على المُثل العليا النبوية للعدالة والسلام. ولا بد من المحافظة على شخصية الشعب اليهودي، وتطوير التربية اليهودية، عن طريق تعليم اللغة العبرانية والآداب اليهودية، وإحياء الأساطير الشعبية المبثوثة في ثنايا التوراة، وكذلك بالقيم والثقافة اليهودية حماية لحقوق اليهود في كل مكان.

ولا ننسى أن (هرتزل) قد قَبِلَ في مؤتمر (بال) بنوع من المواءمة بين صيغة "وطن قومي" في فلسطين، ولم تتردّد كلمة: "دولة يهودية"؛ لكن نحن وجدنا في المؤتمر الثاني كلمة: "دولة يهودية" التي هي عنوان كتاب (هرتزل) نفسه، كأنَّ الكتاب الذي وضعه (هرتزل) حمل معه عنوان الدولة، مع أنه في قانونه أو في برنامجه قال: "وطن قومي لليهود".

ونريد من هذا: أن نستشعر ضخامة العمل الذي قام به هذا الرجل في غيبة من الوعي العربي، بل في حضور من الخلافات العربية ونسيان ما يُسمّى بالهويّة العربية والهويّة الإسلامية التي تمثّل جدار الصد لهذا الهجوم الصهيوني على العالم العربي. ونجد أن التعبير بكلمة: "وطن قومي" أو "دولة" أخذ شكلًا أشبه باللعبة الفلكلورية بين كُتاب الحركة الصهيونية. ففي حين أن (هرتزل) طالب بإقامة وطن قومي، وأنّ وعد (بلفور)

طالب بإنشاء وطن قومي، إلّا أنه قد بذلت جهود كثيرة لإقناع هؤلاء بأن المطلوب هو: دولة يهودية في فلسطين. ولكن صرّح (هرتزل) بقوله: "إننا يجب أن نلجأ إلى التعمية للتعبير عنها في صيغة تتحاشى أن تثير قادة الأتراك في الأرض التي نطمع فيها، واقترحنا عبارة: "وطن قومي" مرادفة لكلمة: "دولة"؛ لأن "وطن" يعني: قطعة نقيم عليها وطناً، أمّا كلمة "دولة" فتعني من الاتساع ما تعنيه حسب تفسيرات المجتهدين والمفسِّرين والمحلِّلين السياسيِّين.

ولذلك نجد أن هذه الصيغة الغامضة كانت تعني لدى (هرتزل) واقعًا محدّدًا أعلنه للناس، ولكنها في نفس الوقت لم تكن هي الغاية التي يسعى إليها (هرتزل)؛ فقد كتب في صحيفة ٣ سبتمبر ١٨٩٧م في صحيفته التي كان يتولّى رئاستها: "إنه إذا كان واجبًا أن ألخِّص أعمال المؤتمر في كلمة واحدة، كنت أمسكت عن نطقها علنًا. فهذه الكلمة هي: أنني في (بال) أسّست الدولة اليهودية، بيْد أن هذا شيء لا يقال بصوت عال". إلى هذا الحد كان يعلن شيئاً ويضمر شيئاً آخَر.

ونفس القضية في وعد (بلفور): فإن نفس الصيغة هي كانت إنشاء وطن قومي لليهود التي قد قيلت في مؤتمر (بال)، لكن الإعلان النهائي لـ(بلفور) فإنه لم يتكلم عن كل فلسطين، بل عن إقامة وطن قومي فقط للشعب اليهودي. والواقع أن العالَم كلّه استعمل كلمة "وطن" في هذه المرحلة، لكن ترجم فيما بعد على أنّ كلمة "دولة" هي المقصود، وأن هذا ما كان يعنيه (هرتزل).

وكتب كثيرون حول تحليل هذه الظاهرة، وكلمة "وطن" استُبدل بها كلمة "دولة" في تاريخ ميلاد إسرائيل ١٩٤٨م، وأصبحت هذه الدولة معترفاً بها عالميًّا الآن، مع أن المقصود في الطلبات التي قُدِّمت للخلافة العثمانية هي: "وطن قومي"، ووعد (بلفور) كان "وطناً قومياً"، ولم يكن المصرّح به أو المعلن كلمة: "دولة لليهود".

من المهمّ: أن نلقي الضوء أيضًا على النشاط السياسي للحركة الصهيونية في أوربا وفي أمريكا بعد مرحلة مؤتمر (بال)؛ لأن تقريبًا نحن نعتبر بأن هذه الفترة الزمنية من وجهة نظر المؤرخين لدولة إسرائيل وللحركة الصهيونية العالمية تُعتبر هي أخصب الفترات في تاريخ الحركة الصهيونية العالمية؛ بل ربما يرى البعض أنّ هذه الحركة قد وصلت إلى نهايتها وبدأت فيما يسمّى بالانحدار أو الانهيار التاريخي.

نجد أن تفرّق اليهود في بلدان أوربا، وأنّ ما أشار به (تيودور هرتزل) في مؤتمره من ضرورة تأسيس مجالس يهودية في بلاد أوربا، تكون مهمتها: العمل على الحصول على موافقة الحكومات المعنيّة على ما نريده منها من مساعدات، وفي نفس الوقت تنمية الشعور اليهودي لدى المواطنين اليهود في هذه البلاد، ثم محاولة الزحف الهادئ المنظّم للاستيلاء على مناصب قيادية سياسية وثقافية في هذه البلاد. وهذا ما تمّ فعلًا في معظم بلاد أوربا وأمريكا بلا استثناء؛ ولذلك أرى من الضروري أن نلقي الضوء على مدى تغلغل النفوذ الصهيوني، تنفيذًا لبرنامج (هرتزل) الذي تمخّض عنه مؤتمر (بال) ١٨٩٧م. وسوف نمرّ على بعض البلاد الأوربية بشيء من الإيجاز، لنرى كيف تسللت الصهيونية إلى مناطق التأثير في هذه البلاد.

ففي بريطانيا مثلًا، تسللت الحركة الصهيونية في أجهزة الحُكم حتى كان منهم رئيس الوزراء (دزرائيل) في عهد الملِكة (فيكتوريا). كما استطاعوا أن يحصلوا على الأغلبية في عضوية مجلس الشورى للبلاط الملكي البريطاني، فضلًا عن مجلس العموم، ومجلس اللوردات، والمجالس البلدية، والجمعيات الخيرية، والأحزاب السياسية في بريطانيا.، كما استطاعت الصهيونية مع مطلع القرن العشرين: أن يُسيطروا على مقدّرات البلاد الاقتصادية متمثِلة في البنوك، والشركات الصناعية والتجارية، والمناجم، وأسهم شركات البترول على سبيل

المثال في إيران والعراق والكويت.

وفي مجال الصحافة في بريطانيا، وجدْنا أنّ جريدة (تايمز) اللندنية أُسِّست عام ١٧٨٨م بمال يهودي، ولم تَخْل منذ تأسيسها حتى الآن من صهاينة يحتلّون بها مراكز متقدمة. وقد أخذت تلك الجريدة -بعد أن آلت إلى شركة مالية كان أبرز أعضائها من اليهود- على عاتقها مهمّة الترويج للفكر الصهيوني على مستوى العالم كلِّه. كما أنشأ اليهود جرائد "الديلي تلجراف" في عام ١٨٥٥م، واشتراها اليهوديان: (ليفي) و(ليفي لاوش). هذا في بريطانيا استولوا على الصحافة، استولوا على البنوك، استولَوْا على شركات الأموال. تسلّلوا إلى مناطق التأثير السياسي من خلال المناصب القيادية كمنصب رئيس الوزراء، وعضوية مجالس الشيوخ، ومجالس العموم، ومجالس اللوردات، بحيث كانوا أغلبية حتى إذا حدث تصويت على أيّ شيء يستطيعون أن يكونوا بأصواتهم أغلبية أو يؤثروا ليحصلوا على الأغلبية.

في فرنسا مثلًا، وجدنا أن اليهود قد لعبوا دورًا بارزًا في قيام الثورة الفرنسية، سواء تحت ستار الماسونية العالمية والشعارات التي رفعوها حينذاك شعار: حرية، إخاء، مساواة، وكان تمويل هذه الثورة بواسطة اليهود من إنجلترا، منهم على سبيل المثال: (بنيامين جولد سميد) وأخيه (أبراهام) و(موسى) وصهره السير (موسى مونتفري). ومن ألمانيا جمعوا لها أموالاً يهودية من هناك، وبدأ تغلغل الحركة الصهيونية في مناصب الدولة في فرنسا حتى وجدنا في النصف الأول من القرن العشرين عدّة مناصب هامّة تولاها أفراد ينتمون إلى الحركة الصهيونية السياسية بفكرهم وأعمالهم. ووجدنا رئاسة الجمهورية، ورئاسة الوزراء، ورئاسة الحزب الشيوعي، وكثيراً من الوزارات يتولاها أفراد ينتمون إلى الفكرة

الصهيونية. هذا في مجال السياسة في فرنسا.

في مجال الصحافة، أنشأت الحركة الصهيونية عدّة صحف ركّزت على تضليل الرأي العام فيما يتّصل بحركة اليهود في أرض فلسطين، وإظهار أن اليهود مغلوبون على أمرهم، وأنهم مستضعفون في الأرض، وأنهم مطرودون، وأن العرب يعاملونهم بقسوة و... و... إلى آخره. وزيّنت بعضَ الأشخاص حتى تولّوا مناصب حسّاسة خدموا من خلالها الحركة الصهيونية في فرنسا. واستطاعت هذه الحركة أن تحوّل باريس إلى مدينة الترف واللهو والدّعارة. وكثرت فيها بيوت الأزياء والخمارات باعتبار أن هذا اللون من السلوك أفضل وسيلة من وجهة نظر الصهيونية، ليستذلّوا من خلالها الشخصيات السياسية والقادة والمسؤولين بصورة غير مباشرة. وعن طريق الإغراء بالمرأة من خلال هذه الوسائل، كسروا أعناق كثير من المشتغلين بالفكر السياسي في فرنسا.

إذا انتقلنا إلى ألمانيا، نجد أنّ اليهود تمكّنوا من مناصب حسّاسة وبخاصة في الوزارات، كما لعبوا دورًا هامًّا في هزيمة ألمانيا في الحرب الأولى؛ لأنها لم تستطع أن تعطيَهم فلسطين وطنًا خالصًا لهم في الحرب العالمية، ولأن (هتلر) أراد أن يطهِّر ألمانيا من سلطة الصهيونية، ولم ينسوا موقف (هتلر) والساسة الألمان من الحركة الصهيونية، وحركة المحارق والأفران التي نصبها لهم (هتلر)، وموقف الحركة النازية من اليهود. ونستطيع أن نقول: إن هناك أكثر من وزارة في ألمانيا كان يهيمن عليها أفراد صهاينة. وزارة المالية كان يهيمن عليها (شفرو برنشتين)، وزارة الداخلية هيمن عليها (بروس فرند)، وزارة العدل كانت يهودية مائة في المائة. وفي مقاطعات أخرى من ألمانيا، كانت الحركة الصهيونية تسيطر عليها بكثير من أبنائها.

في روسيا لم تغمض أعين الصهيونية عن المدّ الروسي في القرن العشرين، ولذلك

أخذت تعمل في أحضان القيصرية الروسية على نشر الفكر الصهيوني في ربوع روسيا. وعملوا على قلب نظام الحكم ونسبة ذلك إلى اليهود حتى يتحقق لهم ما يريدون. وكانت لهم يد طولى في الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م. وتولّى زمام الحُكم في هذه البلاد اليهود لفترة من الزمن. ونستطيع أن نرصد في الأيام الأولى للانقلاب العسكري عدد الوزراء الصهاينة الذين تولّوا هذه المناصب في الاتحاد السوفيتي أو روسيا آنذاك، حتى إنَّه لم يمض عامٌ على الانقلاب البلشفي في سنة ١٩١٧م حتى وجدنا نفوذ اليهود في روسيا على النحو الذي يلفت النظر؛ بحيث نجد أنّ أوّل حكومة بعد الثورة مباشرة كان عدد وزرائها ٢٢ وزيراً كان منهم ١٧ صهيونيًّا، وكانت لجنة الشؤون الداخلية ٦٤، كان منهم ٤٥ صهيونيًّا. لجنة الشئون الخارجية كانوا ١٧، كان منهم ١٣ صهيونيًّا. لجنة الشؤون المالية ٣٠ عضواً، منهم ٢٦ صهيونيًّا. ولو أخذنا نستقرئ اللجان الحزبية في الحزب الشيوعي الروسي واللجان الداخلية لهذا الحزب، نجد أنَّ معظم لجان هذا الحزب كانوا إمّا يهودًا وإمّا صهاينة، لنعلم مدى تغلغل النفوذ الصهيوني في الاتحاد السوفيتي.

وقد كتب بعض المحلِّلين لهذه الظاهرة: أنّ نسبة اليهود في الوظائف المهمّة في روسيا كانت نحو ٨٠٪ من الوظائف. وظلّ هذا النفوذ اليهودي الصهيوني قائمًا في روسيا حتى أسقطها (غورباتشوف) في نهاية القرن العشرين. وما زال نفوذ الصهيونية قائمًا فيها حتى الآن.

وما نلاحظه من تأييد لبعض الحقوق العربية، أو بعض الحقوق الفلسطينية، أو محاولة إظهار العداء لإسرائيل، أو معارضتها في مجلس الأمن، ما هو إلا ضرب من التضليل للرأي العام، وللتمكين للنفوذ الشيوعي في بلاد العرب، ولاستنزاف موارد المسلمين من ناحية، حتى إذا كُشف النقاب عن حقيقة الموقف

الروسي، فلا ننسى أبدًا أنها الدولة الأولى التي اعترفت بإسرائيل لحظة ميلادها بعد أمريكا مباشرة؛ بل إن البعض يرى أنها اعترفت بميلاد الدولة الصهيونية قبل أمريكا. هذا في روسيا.

رؤساء أمريكا يتعهّدون بالوطن القومي لليهود ومناصرته

ماذا نجد في الولايات المتحدة الأمريكية؟ وحديثنا عن النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية الآن سوف نركّز فيه على: كيف تسلّلوا إلى الاستيلاء على المناصب. أما عن نشاط الحركة الصهيونية بشكل عام في أمريكا، فهذا له موطن آخَر.

نستطيع أن نلحظ في عهد الرئاسات المتوالية في الولايات المتحدة الأمريكية: أيّ مدًى استطاعت الصهيونية أن تؤثِّر على القرار السياسي في أمريكا من خلال استيلائها على المناصب القيادية في هذا البلد.

ففي عهد الرئيس (ويلسون)، كان مستشاره للشؤون الاقتصادية: اليهودي الصهيوني (برناردو باروخ)، وكان مستشاره للشؤون المالية: اليهودي الصهيوني (هنري مورجانتو)، وكان مستشاره للشؤون السياسية: اليهودي الصهيوني الكولونيل (مانديل)، وكان مستشاره في القانون الدولي: اليهودي الصهيوني (ولتر ليمان)، ومستشاره القضائي: اليهودي الصهيوني (جيمس لويس). وأكثر من هذا: كان كبير المستشارين السياسيِّين: المليونير اليهودي الصهيوني (فرانكفورت). هذا في عهد الرئيس (ويلسن).

وفي عهد (روزفلت)، كان اليهودي (برنارد باروخ) مستشاره الاقتصادي، و(هنري مورجانتو) مستشاره المالي... إلى آخره.

نجد أن الهيئة الاستشارية لـ(روزفلت) تقريبًا كانت هي هي نفس اللجنة الاستشارية التي كانت في عهد (ويلسون)، والذي تغيّر أو استبدل فيهودي استبدل بيهودي وصهيوني استبدل بصهيوني. ولا ننسى أن الرئيس (روزفلت) نفسه كان يهودي الأصل صهيوني السلوك؛ ولذلك جمَع في عهده أكبر عدد ممكن من اليهود في دوائر الحكومة الأمريكية، ويسّر لهم كلّ سُبل العيش وسُبل السيطرة على اقتصاديات البلاد في أمريكا. كما أخذت نجمة داود وسليمان تحتلّ مكانتها في الدوائر الأمريكية، وخاصة على الطابع البريدي، وعلى أختام البحرية الأمريكية، وعلى طبعة الدولار الجديد، وميدالية رئيس الجمهورية، وغطاء الشرطة، وإشارة الصدر التي كان يضعها العمدة في كثير من المناطق.

هذه ربَّما تكون أشياء لا تلفت النظر، لكن لها دلالتها المهمة جدًّا.

(روزفلت) رئيس أمريكي، ما علاقة أمريكا بالحركة الصهيونية حتى تتَّخذ من نجمة داود شعارًا للدوائر الحكومية، وتجعلها شعاراً على الطابع البريدي، وعلى أختام البحرية الأمريكية، وعلى طبعة الدولار، وعلى ميدالية رئيس الجمهورية، وعلى غطاء الرأس للشرطة، وإشارة الصدر التي يضعها العمدة في كثير من الولايات الأمريكية ما علاقة هذا بذاك؟ أليست هذه أمور، وإن كانت تبدو في نظر البعض هينة، إلّا أنها تدلّ على ما في قلب (هرتزل) من ولاء وعقيدة صهيونية يحاول أن يُشعر بها بني وطنه، ويلفت نظرهم إلى ضرورة التمسك بهذه الشعارات والولاء للحركة الصهيونية.

إذا انتقلنا إلى (ترومان) الذي جاء بعد (روزفلت)، نجد أنه كان يهودي الأصل صهيوني السلوك، تظاهر بالمسيحية ولكنه لعب دورًا بالغًا في التمكين لليهود في أمريكا، وخاصة في وزارات الدفاع، ووزارة الخارجية، ووزارة الاقتصاد، وفي

(CIA) المخابرات الأمريكية. كما أنه وضع كثيرًا منهم خبراء له في السفارات الأمريكية في البلاد الخارجية.

ثم جاء (أيزنهاور) وهو من سلالة يهودية، كما أنه كان عضوًا في جمعية "بنايبرس" الصهيونية، وصديقًا لجماعة "شهود يهوه" الصهيونية، كما نال الدرجة ٣٣ من الماسونية العالمية؛ وهي أسمى الدرجات في تلك الحركة الماسونية. ولا تنسوا أننا قلنا في لقاء سابق: إن الماسونية والصهيونية وجهان لعملة واحدة. وقد تمكَّن اليهود في عهد كلّ من (روزفلت) و(ترومان) و(أيزنهاور) و(كينيدي) و(جونسون): أن يشرفوا على النشاط الذري في الولايات المتحدة الأمريكية، وأن يكونوا أعضاء عاملين في نوادي وجمعيات ومؤسّسات النشاط النووي في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولا شك أنّ رؤساء أمريكا المعاصرين قد تأثّروا بالصهيونية وتضامنوا معها إلى حد كبير، وأجدُني مضطرًّا إلى أن أضع أمامكم هذه القضية.

في عصرنا الحاضر، نجد أن بعض الرؤساء الذين ما زالت أسماؤهم وأصواتهم تتردّد في أجهزة الإعلام العربية والإسلامية والصهيونية، يعلنون ولاءهم للحركة الصهيونية، مع أنهم يعتنقون الديانة المسيحية والمذهب البروتستانتي.

وجدنا الرئيس الأمريكي السابق (جيمي كارتر) وهو أحد ممثِّلي الاتجاه الصهيوني الصليبي، نجده في كثير من المواقف الأمريكية المعاصرة يعلن ولاءه للحركة الصهيونية ولإسرائيل. وكان يرى كرئيس دولة: أن إسرائيل هي أولًا، وهي قبل كل شيء، وأنّ عودتها إلى الأرض التوراتية التي أُخرجوا منها منذ مئات السنين هي مهمّة أمريكية بالدرجة الأولى. أرأيتم؟!

"إن إنشاء دولة إسرائيل -هكذا يقول (كارتر)- هو إنجاز للنبوءة التوراتية"؛

ولذلك كانت سياسة (كارتر) قائمة على أساس أن فلسطين هي الأرض التي وعد الله بها اليهود. وأقرَّ بأن عليه التزمًا كاملًا ومطلقًا نحو إسرائيل كرئيس أمريكي وشخص متديِّن مؤمن بالنبوءة الواردة في التوراة حول ضرورة عودة إسرائيل إلى أرض الميعاد. وكانت فكرته عن السلام تدور حول الأمن الدائم أولًا لدولة إسرائيل، ولا يَعنيه بعد ذلك شأن الفلسطينيِّين أو حقوق الفلسطينيِّين.

وفي زماننا هذا أيضًا، نُدرك بوضوح: مدى التعاطف القائم بين السَّاسة الأمريكان مع اليهود ضد العرب، تلبيةً للضغط الصهيوني الموجود في هذه البلاد. وإن بدا التظاهر بالعداء أو الخلاف السياسي والإيديولوجي، فهو لون من التضليل. وبناء المستوطنات الذي يتمّ أمام أعيننا الآن تُجمع له الأموال الأمريكية، وتُهجر إليه اليهود من أمريكا ومن روسيا.

ثم بضغط أمريكي في عهد الرئيس (ريجان)، نجد أن الاستنزاف واستثمار الأموال اليهودية في أرض فلسطين وفي دولة إسرائيل عملٌ مقصودٌ، وتسعى إليه أمريكا ورجال الأعمال الأمريكان؛ حتى إنَّ الشركات المالية في أمريكا باتت تهدِّد أصحاب القرار السياسي في أمريكا بطلبات وتلبية طلبات إسرائيل فورًا ودون إبطاء. نجد أن (ريجان) صرّح في بعض المواقف بأنه يشارك الصهيونية تراثًا توراتيًّا، وأن بيْنه وبين إسرائيل تراثًا مشتركًا في النبوءة التي تتذرَّع بها إسرائيل بعودة المسيح إلى أورشليم ليحكم العالم.

هذه بعض مظاهر دون دخول في التفصيلات، فكرة موجزة عن النشاط الصهيوني في دوائر الحُكم، دوائر القرار السياسي في بلاد أوربا وفي أمريكا. ونستطيع أن نلحظ منها: مدى هذا التغلغل في دوائر القرارات السياسية التي يستطيعون من خلالها الضغط على الحكومات الأوربية والحكومات المتوالية في

أمريكا، لتلبية مطامع إسرائيل، وتأييد مطالب إسرائيل في المحافل الدولية، والوقوف ضدّ أي حق عربي فلسطيني في المحافل الدولية وفي مجلس الأمن، وفيما يستجدّ من تحالفات دولية؛ لأن الحقيقة: أنّ مجلس الأمن وما تمخّض عنه من قرارات لم يخدم أبدًا أيّ قضية لا للعرب ولا للمسلمين تحت هذا الضغط الصهيوني في دوائر الحُكم في بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا.

نستطيع أن نلحظ من خلال هذا التغلغل الصهيوني في دوائر الحُكم في دول أوربا وأمريكا: التعاطف العالمي الأوربي بالذات والأمريكي بصفة خاصة مع دولة إسرائيل، حتى إذا ما دخلت إسرائيل في أيّ أزمة أو في أي حرب مع البلاد العربية ولاحت فيها بوادر النصر للعرب، نجد أنه سرعان ما تتدخَّل هذه القوى لصالح الدولة الصهيونية.

حدث ذلك مرارًا. ولو استقرأنا تاريخ الحروب بين إسرائيل والعالم العربي ابتداءً من عام ١٩٤٨م إلى ١٩٧٣م، نجد أنه كلما بادرت أو لاحت بوادر النصر للجيوش العربية، بدأت أمريكا بالتهديد، أو بريطانيا أو دول أوربا، إما باستصدار قرار من الأمم المتحدة، أو من مجلس الأمن، أو التدخل المباشر والتهديد المباشر كما حدث في حرب ١٩٧٣م حيث كانت دبابات أمريكا تنزل من الطائرة إلى ميدان المعركة مباشرة. هذا التعاطف الذي لا يخفى على أحد، أوجد هذه الدولة على هذه البقعة من الأرض بميلاد غير شرعي أشبه بميلاد اللّقطاء؛ لكنه متعاونًا مع الاستعمار الأوربي ومستعينًا بالنفوذ الأمريكي، استطاع أن يحقِّق في هذه المنطقة حلمًا طالما راود خيال الحركة الصهيونية منذ ثلاثة قرون أو أكثر من ذلك.

وبنظرة سريعة نلقيها على الخريطة الجغرافية للمنطقة العربية بعد ميلاد هذه الدولة ميلادًا غير شرعي، يتبيّن لنا الآتي:

أنه قد تم فعلًا الفصل الجغرافي بين شرق العالم العربي وغرْبه وشماله وجنوبه؛ فبعد أن كان العربي يسير من مصر باعتبارها دولة عربية أفريقية إلى الأردن دولة عربية آسيوية أو إلى السعودية أو إلى سوريا مرورًا بدولة عربية هي فلسطين، أقيمت الحواجز دون هذا المشوار. وبعد أن كان العربي المسلم يأتي من سوريا وتركيا إلى السعودية جنوبًا أو إلى اليمن جنوبًا مرورًا بفلسطين، أقيمت دونه الحواجز. وبدأ الفصل الجغرافي بين شرق العالم العربي وغربه وشماله وجنوبه، وترتّب على هذا محاذيرُ ومخاطر كثيرة نحن نجني ثمرتها الآن. وهذه إحدى مساوئ إقامة هذه الدولة بمعونة أمريكا والاستعمار الغربي.

ثم ترتّب على قيام هذه الدولة: أنّ الدول الإسلامية أصبحت بصفة دائمة في حوار ساخن مع الدول الأوربية؛ لأنها تناصر اليهودية على حقوق العرب والمسلمين في فلسطين، خاصة أنها تتذرَّع لهذا بأسباب واهية كالنصوص الواردة في التوراة وما إلى ذلك...

إن يقظة المسلمين ضارة بالصليبيِّين لا شك؛ فما اتّحد المسلمون إلّا وقويَت دولتهم؛ فهُم إمّا فاتحون أو محرِّرون لبلادهم. لكن هذه اليقظة دونها خرط القتاد؛ لأن إسرائيل والحركة الصهيونية فتحت أعينها تمامًا على تفتيت الحركة الإسلامية، وإثارة الفتن والصراعات بين كل دولة عربية وأخرى، وكل دولة إسلامية وأخرى، حتى لا تتحقق هذه الوحدة، ولو في أدنى صورة منها.

فكان من تأسيس أو من قيام هذه الدولة: أن بعدت عوامل التوحّد بين شرق العالم الإسلامي وغربه وشماله وجنوبه. ثم تحكّم اليهود في الدعاية العالمية إلى حدّ أن أقنعوا العالم بأنهم أصحاب حق، وأن العرب كانوا مغتصبين لأرضهم وحقوقهم. وبدأت هذه الحركة تتحكّم في كثير من القرارات الدولية من خلال النفوذ

الأمريكي في مجلس الأمن أو الأمم المتحدة. وترتّب على هذا: انهيار اقتصادي رهيب في موارد العالم العربي. فبعد أن كانت موارد العالم العربي الاقتصادية توظّف للتنمية وللنهوض وللقيام بحركة نهضوية عامة وشاملة في جميع أنحاء العالم العربي، أصبحت هذه الموارد تستنزف لحروبٍ ما كان أغنانا عنها لولا وجود هذه العلة المرضية في جسد الأمة العربية. وقد اضطرّت بعض البلدان إلى كثير من الديون نتيجة تسليح الجيوش من بلاد أوربية؛ فكان بعضُ البلاد يوافق على توريد السلاح، والبعض الآخر يمتنع مجاملة لهذه الحركة الصهيونية.

هناك آثار سيئة كثيرة جدًّا نتجت عن ميلاد هذه الدولة على أرض فلسطين، ولعب التمكّن الصهيوني دوْره في عدم استقرار المنطقة لا سياسيًّا ولا اقتصاديًّا ولا حتى ثقافيًّا. ووجدنا أنّ معظم هذه البلاد العربية بدأت تلعب فيها أصابع الموساد الإسرائيلي الصهيوني بإثارة الفتن الطائفية في بعض البلاد التي يسكنها نصارى ومسلمون، كما حدث في لبنان أكثر من مرة، وكما حدث في مصر أكثر من مرة. وإثارة فتن بين بعض القبائل وبعضها الآخَر، كما في بعض بلدان الإمارات العربية المطلّة على الخليج العربي أو الخليج الفارسي؛ لأن الحركة الصهيونية من وسائلها في السيطرة على العالَم العربي: محاولة إضعاف العالم العربي بكل وسيلة، إما باستنزاف خيراته وموارده في الحروب، وإمّا بإثارة القلاقل والفتن بين الحاكم والمحكومين، أو بإثارة الصِّراعات الداخلية والفتن الطائفية بين أهل الملل والمذاهب، كما حدث في كثير من البلدان العربية. المهم: أنّه لا يهدأ لها بال ما دامت الأمة العربية أو الوطن العربي في حالة هدوء أو استقرار.

الصهيونية (٣)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	النشاط اللوبي الصهيوني في أمريكا ومظاهره	٣٤٧
العنصر الثاني :	علاقة الصليبية بالصهيونية	٣٥٠
العنصر الثالث :	وسائل أمريكا لتضليل الرأي العام تحت شعار محاربة الإرهاب	٣٦٤
العنصر الرابع :	اهتمام الحركة الصليبية الصهيونية بمستقبل إسرائيل، ومواقف أمريكا المتصلّبة ضدّ العرب	٣٧١

النـشاط اللـوبي الـصهيوني في أمريكـا ومظـاهره

فلقد تأسّس في أمريكا ما يسمّى بـ"اللُّوبي الصهيوني" منذ فترة، وهذا اللوبي الصهيوني يعمل على جبهات متعدّدة، ودائمًا ما نجد أثره واضحاً في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ حتى أنَّه في سنة ١٩٧٥م تقريبًا، وقبْلها بفترة حدث نوع من الخلاف في وزارة المالية حول مظاهر الفساد المالي في هذه الوزارة، وشُكِّلت لجنة للتحقيق في هذا الفساد. ما أسبابه؟ مَن الذي يتولى إثم هذا الفساد؟ ما هي الأصابع التي تحرِّك منافذ وروافد هذا الإفساد في وزارة المالية؟ فشُكلت لجنة في ٢٩ من مايو، وبدأت تباشر نشاطها في التحقيق حول الفساد المالي في هذه الوزارة وفي غيرها من الوزارات.

واتَّضح من لجنة التحقيق: أنَّ التَّنظيم الصهيوني أو أنّ اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية استطاع أن يستصدر قرارًا بأن جميع المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية تُعفى من الضرائب في جميع الأموال التي تَجمعها لتمويل دولة إسرائيل. ثم أظهرت شهادات لجنة التحقيق بمجلس الشيوخ الأمريكي المُعدّة لهذا الغرض بيّنت: أن في نشاطات التنظيم الصهيوني أن الأمر لا يقتصر على وقائع جمع المال، بل إن التنظيم الصهيوني لم يقنع بأن اعتبر نفسه مؤسسات إنسانية تُعفى من الضرائب؛ بل إنه أخذ في نشاط سياسي لحساب قوة خارجية يجمع لها الأموال من دافعي الضرائب في أمريكا، وأن هذه الأموال مجهولة المصدر والمنبع كما أيضًا هي مجهولة بنود الصرف.

واستطاعت لجنة التحقيق أن تضع يدها على أنّ اللّوبي الصهيوني الإسرائيلي هو الذي أفسد فيها النظم المالية وسياسة المال في هذه الفترة.

ثم وضع رئيس لجنة التحقيق مذكّرة بيّن فيها: أنّ هذا اللّوبي قد شكّل جماعات

ومؤسسات وجمعيات تباشر نشاطها الصهيوني وتموّل بأموال أمريكية، وأنّ هذه المؤسسات وهذه الجمعيات هي السبب وراء هذا الفساد المالي في أمريكا.

وجدنا رئيس هذه اللجنة -رئيس لجنة التحقيق- يطرح العديد من الأسئلة، واسمه معروف: السناتور (فلبرايد) اسمه معروف الآن. ولما أراد أن يتثبّت بيقين من أن اللّوبي الصهيوني وراء هذا الفساد المالي، كان جزاء هذا الرجل أن أُوقِف من عمله بوسائل الضغط الصهيوني على أصحاب القرار السياسي في أمريكا.

ويقول أحد المحقِّقين في هذه اللجنة: إنّ هناك مذكرة رسمت الخطوط العريضة للجنة الميزانية العامة في سنة ١٩٦٢م و ١٩٦٣م، وبدأ يطرح بعض الأسئلة عمّا إذا كان هناك مثال واحد من هذه المذكرة موجود يبيِّن لنا هذا الفساد المالي أو ليس موجوداً، فأجابه الرجل المسؤول عن هذه المذكّرة، واسمه: (هملي): "نعم يا سيدي. هو موجود وموجود في ملفّاتنا". وأخرج محضر التحقيق ومعه مذكّرة، وتبيّن في هذه المذكّرة ما يأتي:

أنّ هناك لجنة تسمّى: "لجنة المجلات". وطالبت الحركة الصهيونية بزرع المحرّرين وإثارة ونشر مقالات مناسبة في المجلات ذات الانتشار الواسع، وإعادة طباعة النصوص وتوزيعها، وهي النصوص التي تبدو مؤيِّدة للنشاط الصهيوني في المنشورات التي صدرت في هذه الفترة. هذه المجلاّت كانت تموّل بأموال من وزارة المالية الأمريكية دون علم المسؤولين.

ووضعت المذكّرة أمام المسؤولين عن الحركة الصهيونية بعض البنود تطالبهم بضرورة تنفيذها. فعلى مستوى التلفاز والإذاعة والأفلام، طالبتهم بأن ينظِّموا أحاديث إذاعية وتليفزيونية وأفلاماً تزرع فيها شخصيات موجّهة لإثارة بعض القضايا ضد الإسلام والمسلمين، وضد العالم العربي، وإنتاج برامج تُسوَّق يبيّن فيها حقوق إسرائيل وعدوان العرب والمسلمين على إسرائيل، وإظهار العرب

والمسلمين بمظهر الوحشية وإسرائيل بمظهر الحَمَل الوديع.

ثم هناك تنظيمات دينيّة مسيحية طالبوا بأن يُزرع فيها قادة يؤمنون بفكر الحركة الصهيونية، وأن يتولّوْا كتابة مقالات مؤيّدة في الصحافة البروتستانتية والكاثوليكية، وتقاوم كل من ينادي بحق فلسطين في الأرض، وأنّ الأرض هي أرض المعاد لإسرائيل.

وفي الأوساط الجامعية تولّوا كذلك العمل على نشر هذه الأفكار الصهيونية بين الطلاب، عن طريق إقامة الحلقات النقاشية، والمؤتمرات، وحفلات الرقص، وإخراج بعض الأفلام الاستعراضية، وأفلام تتولّى عرض شخصيات إسلامية في شكل كاريكاتوري، عملًا على تهجين هذه الشخصيات، وإظهار العربي والمسلم بصورة الإنسان غير المتحضِّر.

هذا فضلًا عن الصحافة اليومية، والكتب، والمحاضرات، والمشروعات الاقتصادية، ومحاولة العمل على نشر فكرة السّفر إلى إسرائيل، وإعانة الذين يطلبون السفر إلى إسرائيل حتى يروْا ما في أرض إسرائيل وأرض الميعاد من تحضّر يعود سببه إلى أنه ذو جذور أوربية أمريكية، ويرى واقع الشعب الفلسطيني الهمجي ليرى الفَرْق بين هذا وذاك.

هذه بعض ملامح للنشاط الصهيوني على مستويات متعدِّدة في أمريكا في عصرنا الحاضر، وهذا كلّه كان بمثابة تنفيذ لورقة العمل التي وضعها (تيودور هرتزل) في برنامجه الأول الذي عُقد في ١٨٩٧م.

هذا بعض ملامح ما يمكن أن نطلق عليه: الصهيونية الأمريكية؛ لأن الصهيونية العالمية تأخذ ملمح البلد الذي تعيش فيه. وسوف نجد أن هذه الحركة الصهيونية أخذت بُعدًا دينيًّا آخَر في أمريكا، بالإضافة إلى هذيْن البعديْن: البعد السياسي والبعد الاجتماعي. أخذت بُعدًا آخَر يسمَّى: بُعداً دينياً، سوف نوضِّحه لكم فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

علاقة الصليبية بالصهيونية

من المعروف تاريخيًّا: أن الكنيسة الكاثوليكية ظلّت ألْفَي عام تتّخذ موقفًا من اليهود يقوم على: أنّ اليهود هم الذين قتلوا يسوع المسيح، وأن اليهود بقتْلهم المسيح ~ قد قتلوا الرب؛ فكأنّ الشعب اليهودي في نظر المذهب الكاثوليكي بالذات يسمَّى عندهم: قاتل الرب أو قاتل الإله. وأصبح الشعب المختار عند الكاثوليك ليس هو اليهود، وإنما هو الكنيسة. وأصبح العهد القديم تجسيدًا رمزيًّا للعهد الجديد.

هذا هو موقف الكاثوليكية المسيحية من اليهود: أنهم قتَلة الرب، وأن الشعب المختار ليس هو اليهود وإنما هو الكنيسة. وأدّى هذا التفسير في نظر الكاثوليك إلى تصوّرهم أنّ اليهود حين رفضوا الاعتراف برسالة المسيح وأنه رسول من قبل الرب فلم يهتدوا، فإنهم بذلك قد قطعوا صِلَتهم بالأمّة الإبراهيمية، وصاروا - بصرف النظر عن كونهم الشعب المختار أو غيره- محكومًا عليهم باللعنة. لماذا؟ لأنهم قتلوا الرب من جانب، ولم يعترفوا برسالة عيسى من جانب آخَر؛ فعاقبهم الله ﷻ بأنْ طرَدهم من فلسطين ودفَعهم سبايا إلى بابل، وعاقبهم بالنوازل التاريخية التي مرّت بهم على طول التاريخ اليهودي. وأصبحت أورشليم في نظر الكاثوليك ليست بذات قيمة تاريخية. وتولّد عن هذا: أنْ ظهرت فكرة معاداة السامية، هذا المبدأ الذي يُعتبر مبدأً مسيحيًّا من الناحية النوعية؛ لأنه قد اعتَبَرت الكنيسة الكاثوليكية حتى منتصف القرن العشرين: أنّ الكنيسة هم شعب الله المختار، وأنَّ اليهود هم الشعب القاتل للرب إلى منتصف القرن العشرين تقريبًا؛ وهذه الفكرة مسيطرة على الكنيسة الكاثوليكية.

وفيما يتعلّق بالحالة الخاصة لهذه الكنيسة وعلاقتها بالتاريخ اليهودي، فإنها قد فسرت: أن عودة صهيون إلى أحضان بني صهيون أو إسرائيل من الناحية الرمزية تُشبه إلى حدٍّ كبير عودةَ المسيحي إلى نقائه وصفائه. يعني: كأن اليهود قد تابوا وأنابوا وعادوا إلى الرب وصالحوا الرب، فعادت إليهم أرض صهيون. بهذا التفسير الأسطوري، نجد أنّ العلاقة بين الكاثوليك واليهود تأخذ هذا المنحى التاريخي: شدّ وجذْب، لِين أحيانًا وقسوة أحيانًا: علاقة اعتراف، وعدم اعتراف أحيانًا أخرى.

إلّا أنّ القضية قد أخذت بُعدًا مختلفًا تمامًا عن هذا الاتجاه على يد المصلح البروتستانتي الشهير المُسمى بـ(مارتن لوثر)، هذا الرجل الذي تحرّك في القرون الوسطى تقريبًا ١٥٠٠م وكذا ليقضي على هذا التقليد الكاثوليكي. ولا ننسى أن هذا الرجل كان أصله صهيونيًّا، وكان له في هذا الصدد موقفان: فهو كان في البداية متعاطفاً مع الفكرة الصهيونية، ويرى أنّ الأرض في فلسطين أرض صهيونية، ويجب أن تعود إلى أحضان الصهاينة؛ لكن هذا الموقف تغير تمامًا، وتحوّلت محبّته للصهيونية إلى عداء. وأخذ يقود حركة تطهيرية يحاول من خلالها أن يتخلّص من اليهود في أوربا قاطبةً، ليس حبًّا في عودتهم ولكن حرصًا على التخلص من وجودهم في أرض أوربا كلها.

هذا المسيحي "مارتن لوثر" قائد الحركة التطهيرية أو قائد حركة الإصلاح، -والتي كانت في أصلها أو كان في أصله ينتمي إلى الفكر الصهيوني-، قاد هذه الحركة. وأخذت حركته تمتد في ربوع أوربا تحمل معنييْن: معنى التخلص من العنصر الصهيوني في أوربا، والمعنى الآخَر تنادي بعودتهم إلى الأرض -كما قلت- ليس حبًّا في تحقيق النبوءة، ولا حبًّا في الصهيونية، ولكن محاولة للتخلص من العنصر اليهودي الموجود في أوربا.

من هنا يمكن أن نقول: إنَّ حركة الإصلاح التي قادها (مارتن لوثر) في هذا القرن السادس عشر، مثّلت علامة فارقة في تاريخ العلاقة بين اليهود والمسيحيِّين؛ فقد أكد المصلحون على أهمّية العودة للكتاب المقدس كمصدر وحيد للوحي، وأكّدوا أيضًا على أهمية التفسير الحر دون التقيّد بالتفسير الحرفي الذي يدّعيه أبناء صهيون؛ وبذلك أعاد المسيحيون اكتشاف الجذور اليهودية للمسيحية.

وقد أُثر عن (مارتن لوثر) قوله في كتاب له نشر في سنة ١٥٢٣م بعنوان "المسيح وُلد يهوديًّا": "لقد كانت مشيئته: أن يكون إنعامه على العالَم بالدِّين من خلال اليهود وحْدهم دون سائر البشر؛ لكن اليهود كانوا يمثِّلون أبناءه المحبَّبين لديه، وأمَّا نحن..." -وهو يقصد: أن المسيحيّين البروتستانت ليسوا إلّا ضيوفاً غرباء على مائدة اليهود".

هذا الرأي سرعان ما تغيَّر على يد (مارتن لوثر)، وتراجع عن هذا الموقف، وسجّل تراجعه عن هذه الفكرة في كتاب له صدر عام ١٥٤٤م بعنوان: "عن اليهود وأكاذيبهم". لاحظ معي عنوان الكتاب الأول: "المسيح ولد يهوديًّا"، الكتاب الثاني بعنوان: "عن اليهود وأكاذيبهم". صرّح (مارتن لوثر) في هذا الكتاب: "مَن ذا الذي يمنع اليهود من أن يعودوا إلى أرضهم في يهوذا؟ لا أحد. بل وإننا على أتمّ استعداد لأن نزوِّدهم بكل ما قد يحتاجونه في رحلتهم إلى أرضهم المقدسة".

واسمع معي هذه العبارة: "لمجرّد أن نتخلّص منهم، فهم عبء ثقيل ومصيبة حلّت بنا". هذا تعبير (مارتن لوثر) للموقفين:

الموقف الأوّل يربط بين المسيحية واليهودية في كتابه: "المسيح ولد يهوديًّا". وموقف آخر يختلف تمامًا، على النقيض من الموقف الأوّل، ينادي فيه بضرورة

التخلص من اليهود.

ولقد فطن (مارتن لوثر) حين اكتشف أنّ اليهود قد يكونون استطاعوا أن يؤثِّروا في حركة التاريخ قبل مجيئه إلى التاريخ؛ ولكن جعل من مهمّته تصحيح التاريخ الذي زيّفه اليهود، وأنه كيما تتحقّق النبوءات التي يدّعونها ويكون المجيء الثاني للمسيح، ينبغي أن يكون تجمّع اليهود ليس في أوربا وليس في ألمانيا، وإنما هناك بعيدًا عن دولة أوربا كلّها. ولا بد من تحويلهم بعيدًا عن الأرض الألمانية، وعن الأرض الأمريكية أيضًا. لماذا؟ لأننا سوف نجد أن (مارتن لوثر) هذا قد تولّدت عن حركته تلك حركة تسمّى: "حركة الأطهار" التي هاجرت إلى أمريكا فيما بعد، والتي فسّرها البعض بأنها ميلاد جديد للدولة الأمريكية، كما أنّ هجرة اليهود إلى إسرائيل أو إلى فلسطين ميلاد جديد للدولة العبرية. وكان ذلك هو الحل الذي طرَحه بعض علماء اللاهوت، وهو عضو المجلس العمومي البريطاني السير (توماس برايتمان) حين طرح في مطلع القرن العشرين ونادى به المتطهِّرون: أنه لا بد من أن نعمل على هجرة اليهود من ألمانيا وأوربا إلى أرض المعاد.

وهذا المعنى قد صرّح به الأصولي الصهيوني (وليم بليكستون) في كتابه الذي طبعه بعنوان: "المسيح قادم". وبات هذا الكتاب أشبه بالكتاب المقدّس للإنجيليِّين في أمريكا. ومن هذا التاريخ -تاريخ نشر هذا الكتاب الذي هو "يسوع آت" أو "المسيح قادم"- بدأت في أمريكا تتأسّس حركة بروتستانتية صليبية صهيونية تعمل على تجميع ما يسمّى بالصهيونية الصليبية تحت مضمار واحد في ربوع أمريكا. وعلى طريق هذه الجمعية -جمعية الصُّهيونية الصليبية- بدأت تتأسّس حركة جديدة في أمريكا كان لها أثرها البالغ الخطورة في مسار التاريخ الأمريكي إلى وقتنا الحاضر.

نجد أن (لوثر) إذاً تصدّر الدعوة إلى تجميع اليهود في فلسطين وإعطائهم الدّعم المسيحي لتعود فلسطين وطنًا لهم. فليس حبًّا فيهم -كما قلنا-، وإنما محاولة للتخلّص من اليهود. كذلك نجد السبق الذي كان للبروتستانتية والإنجيلية التي تولّدت في أمريكا تعمل على تكوين ما يسمّى بالصهيونية اليهودية؛ وهو سبقٌ تاريخيٌّ اختلطت فيه التصورات والأهواء والعواطف والرموز الدينية/ لتجعل لحركة التَّطهير التي هاجرت من أوربا إلى أمريكا ما يُمكن أن يسمّى بالرمز لعودة اليهود إلى أرض فلسطين. وبدأ البعض يقارن بين هجرة المتطهّرين من أوربا إلى أمريكا وهجرة اليهود من شتّى أنحاء العالم إلى إسرائيل، وكأنما هناك تاريخ مشترك بين تأسيس الدَّولتيْن؛ حتى إننا نجد أنَّ بعض رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية كـ(جيمي كارتر) مثلًا يعلن بصراحة: "إننا والشعب الإسرائيلي كلّنا من الشعوب المهاجرين الرُّوَّاد".

هذه بعض الملامح عن هذه الحركة التطهيرية التي بدأت على يد (مارتن لوثر) في ألمانيا.

ونجد أنّ هذه الحركة بعد أن ترتّب عليها هجرة أوربية إلى أمريكا، بدأت نظرية جديدة تظهر في الأفق البروتستانتي؛ هذه الفكرة مضمونها أو ملخّصها: أن السيد المسيح سوف يظهر في الألفية الثالثة لِيحكم العالَم، وأنّ هذا الظهور سوف يكون على أرض فلسطين، ولن يتمّ هذا الظهور إلّا بعد إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين. نظرية تسمّى: النظرية الألفية، أو نظرية المُلك الألْفي.

بدأت هذه النظرية تأخذ ظهورًا تاريخيًّا شيئًا فشيئًا في بعض الكتابات البروتستانتية، وهي تعني -مضمونها يعني-: أنه عندما يجتمع اليهود من الشّتات في أرض فلسطين، ستقوم معركة عالمية بين قوى الخير والشر، ويعود

المسيح لتنتصر قوى الخير، ويقيم مملكته على الأرض، والتي ستدوم ألْف عام، مع خلاف بين المسيحيين بعضهم مع بعض؛ إذ يعتقد بعضهم أنهم ليسوا مطالبين بالعمل لعودة اليهود من الشتات إلى فلسطين حتى يتحقق الملك الألفي؛ لأن هذا سوف يحدث من وجهة نظرهم بفعل إرادة الله، ودون تدخّل من أحد. وكان هذا أصل ظهور نظرية المُلك الألفيِّ.

لكن بعد نكبة أو بعد حرب يونيه ١٩٦٧م قُلبت الموازين. ومن الأهمية بمكان ونحن نحاول الوقوف على هذا الدور الذي لعِبَتْه الصهيونية البروتستانتية في تمكين الصهيونية العالمية من تنفيذ مشروعها فيه على مستوى العالم العربي -بالذات في فلسطين-، نجد أنّ إسرائيل رفعت مظلّة الحماية البالغة الشَّراسة التي حمَل لواءها الشعبُ الأمريكيُّ والسياسة الأمريكية ممعِنةً في العنف الدموي، فوق تلك المظلة التاريخية مستعينة بهذه النبوءة والترويج لهذه النبوءة، حتى إنَّه من الأهمية بمكان، ونحن نحاول أن نُظهر أثر هذه النبوءة، نجد أن هناك منطلقات كثيرة جدًّا في مواقف الصهيونية المسيحية في أمريكا.

وفي محاولة لتفسير النشاط البروتستانتي الصهيوني في أمريكا، نجد أنَّ زعماء هذه الحركة إذا تكلّم الواحد منهم، فإنه يتكلم وكأنما يُخبرنا عن الله، أو يتكلّم بصوت الله، أو يُسمعنا صوت الله، وأنّ سُلطته مستمدّة من الله، وأنه حين يتكلّم عن هذه النبوءة فإنما يخبرنا أيضًا بوعْد الله، وكأنما قضيّة النبوءة الواردة في التوراة أصبحت تأخذ وضْعها الطبيعي بين كتّاب اللاهوت البروتستانتي كما أنّ نبوءة الشعب المختار ونبوءة الوعد بالأرض لفلسطين أخذت أيضًا تأخذ مكانها في كتابات بعض مفكِّري اللاهوت اليهودي. وبدأ البعض يقارن بين النبوءتَيْن: أسطورة الوعد بالأرض وأسطورة الشعب المختار، بأسطورة النبوءة الإلهية

الـواردة في التـوراة بعـودة المسيح لـيحكم العـالم مـن أرض فلـسطين، وأنّ هـذه العودة لا تتم إلّا بعد قيام دولة إسرائيل.

ولذلك نجد أنه قد ازداد ميل المهاجرين الأوربيِّين المسمّوْن بالأطهار أو المتطهِّرين، أو المخلصين، أو سمِّهم ما شئت فإن كل هذه الأسماء تتردّد حول الذين هـاجروا من أوربا ليسكُنوا أمريكا تحت حركة التَّطهير التي قام بها (مارتن لوثر)، ازداد مـيلُهم إلى إسبـاغ الهويـة اليهوديـة علـى أنفـسهم. بـدؤوا يتخلَّـصون مـن الفكـرة الكاثوليكية التي تميـل إلى اعتبـار أن اليهـود قتَلة الـرب. لا. بـدؤوا يتخلّـصون مـن هذه الفكـرة تمامًـا، بـل أكثـر مـن هـذا: ازداد ميْلـهم إلى أن يُـسبغوا علـى أنفـسهم الهوية اليهودية، وإن شئت اليهوديَّة الصهيونيَّة إلى حدِّ أنهم أقنعوا أنفسهم بـأنهم العَبرانيون الحقيقيُّون، وأنهم شعب الله المختار فعلًا. وفي اقتناعهم بذلك ذهبوا إلى حدّ التخلي عن مبادئ الرحمة والاعتدال والمغفرة، في صوْغهم لطريقة حياتهم الخاصـة والـتي نـزل بهـا المـسيح ~ لطريقة أخرى أضـافتها علـيهم ميولُهم إلى الحياة العبرانية.

هذا ما نجده واضحًا في سلوك هؤلاء المتطهِّرين في هذه الفترة من التاريخ: انتقال مـن سلوك وحالة اجتماعية وانتمـاء دينـيّ، إلى انتمـاء آخـر وسـلوك آخـر وهويّة أخـرى. ولذلك لا نعجب أن نجد أنّ هؤلاء قد أطلقوا على أنفسهم أو أطلق عليهم المؤرِّخون اسم: "الصهيونية الصليبية". البعض يسمّيهم: "الصهيونية المسيحية"، لكنني أرفض هذا؛ لأن المسيحية الصحيحة ترفض ما عليه هؤلاء.

هذا الميْل والولاء الذي بدأ يظهر شيئًا فشيئًا في سلوك ما يسمّى بالمتطهّرين إلى الحركة الـصهيونية والـشعب الإسـرائيلي -هـو الـذي يفـسِّر لنـا أن كتابـات الـساسة الإنجليز عمومًا من القرن التاسع عشر بدأت تأخذ لونًا من التعاطف مع اليهـود ومع الحركة

الصهيونية، كما نجد دعوة عالمية لإعادة اليهود إلى فلسطين تتردّد في كتابات الساسة الإنجليز. هذه الاتجاهات التي ظلّت تعمل عملها إلى أن ولدت لنا وعد (بلفور) ١٩١٧م، والذي يحلِّله المؤرِّخون للحركة الصهيونية بأن (بلفور) هذا نفسه قد تربّى في أيام صباه على دراسة العهد القديم تحت دفْع حثيث من والدته المتديِّنة تدينًا عميقًا، والذي ينتمي إلى أسرة من المتطهّرين الذين آمنوا بالولاء للفكرة الصهيونية.

هكذا نرى الأطهار رأوا أنّ أمريكا أيضًا بالنسبة لهم هي أرض الميعاد التي هاجروا إليها؛ بل إنهم كانوا يروْن أنهم هم الكنعانيون الجُدد على أرض أمريكا؛ لذلك كانت هجرتهم الأولى تحمل معها نزعة عبرية ظهرت آثارها في الحضارة الأمريكية الأولى في هذا العهد. هذه الحضارة التي بُنيت أصولها على أفكار مسيحية يهودية التراث. لماذا؟ لأنه قد رأى المتطهّرون الأوائل أنّ أمريكا هي أرض الميعاد، وفسروها هذا التفسير، أي: هي الأرض التي سيقيم فيها الله، ويقيم فيها وطنًا ومملكة للخير، وهم روادها -أي: الأطهار-. وهذه الرؤية الدينية هي التي جعلت من الأرض الأمريكية أرضًا لها طبيعة دينية خاصة، وهي التي جعلت المهاجرين الأوائل من الأطهار يتميّزون بحالة إيمانية خاصة. فأرض الميعاد هي لأصحاب الميعاد، كما أن أرض التوراة لأصحاب التوراة؛ لذلك بدأ يظهر بين الأمريكيِّين الأصوليِّين الأوائل شعور بأنهم شعب الله المختار، أو شعب مميّز، أو شعب أرقى من بقية الشعوب. وهذا الشعور ما كان له أن يتأكّد إلا من خلال التّوحّد مع الثقافة والحضارة اليهودية كتصوّر لما جاء في الكتاب المقدس، وكشعب يوجد بالفعل. لقد رأى الأطهار الأوائل من أنفسهم شعبًا يهوديًّا جديدًا، أو هو امتداد للشعب اليهودي الذي يبحث عن وطن له.

في هذا المناخ، نستطيع أن نقول: إنَّ الجذورَ الأولى للمجتمع الأمريكي هي التي

تأثّرت بهذا الفكر اليهودي الجديد إلى حد كبير، ممّا جعل المجتمع الأمريكي مخترَقًا من قِبل الفكرة اليهودية. وهذه العبارة: "مخترَقًا من قِبل الفكرة اليهودية" تكرّرت في كتابات كثير ممّن أرّخوا للحركة الصهيونية. يقولون: إن المجتمع الأمريكي أصبح مخترَقًا من قِبَل الفكرة الصهيونية والفكرة اليهودية. وفي بداية نشأة المجتمع الأمريكي رحّب الأمريكيون الأطهار بقدوم اليهود، ووجدوا فيهم شعبًا يُماثلهم أو أمّة تُماثلهم. فهم مهاجرون إلى أمريكا، واليهود مهاجرون أيضًا إلى أمريكا. وتوجَّهوا بشيء من التبشير البروتستانتي في هذا المجتمع اليهودي الجديد. ولعلّ المعنى يكون واضحًا من وراء ذلك. فهو تعبير عن رغبة عميقة للتوحّد بين الأصولية الأمريكية اليهودية والأصولية البروتستانتية التي تمثّلت في قدوم الأطهار إلى هذه المنطقة.

وأيضًا هو توحّد فكري يتوّج بتحوّل اليهود إلى المسيحية، والمسيحية البروتستانتية إلى اليهودية، وتصبح أمريكا في هذا الوقت من التاريخ هي أرض الميعاد لكلّ من اللّونيْن، ويصبح اليهود والأصوليون الأمريكيون هم شعب الله المختار معًا. إلى هذا الحدّ كانت التحليلات العلمية لظاهرة قدوم الأطهار أو المتطهّرين من أوربا وهجرة بعض اليهود إلى هذه المنطقة من العالم، ومحاولة التوحد فكريًّا وثقافيًّا وعقائديًّا بين المتطهرين القادمين من أوربا واليهود المهاجرين إلى أمريكا.

ومع مرور الوقت كان يتّضح أن ما كان الأطهار الأوائل ينظرونه بعين لم يتحقّق؛ فقد أصبحت أمريكا دولة لا دينية يسود فيها الفكر الليبرالي الإلحادي، عكس ما كان يرجو المتطهرون في بداية عهدهم بأمريكا.

ولعلنا نجد أنه في منتصف القرن العشرين، ظهر في هذا المجتمع نوع أطلق عليه المحلّلون اسم: "الرجاء الجديد" أو "أرض المعاد الجديدة". فالرجاء هو: عودة اليهود إلى

فلسطين، وأرض الميعاد هي: فلسطين، ولكنها أرض رمزية لن يرحل إليها الأمريكيون بل يرحل لها اليهود، فتحلّ بركات المعاد على أرض أمريكا، ويتوحذد الأصوليون مرة أخرى مع اليهود. كيف؟ نجد أنه منذ نهاية الحرب العالمية الأولى بدأ - لا نقول: اللوبي الصهيوني وإنما- الأصولية الصهيونية الصليبية بدأت تحت ما يسمى بـ "رجاء العودة" تعمل على دفع أصحاب القرار السياسي شيئًا فشيئًا إلى العمل على ميلاد دولة فلسطين، خاصة أنها قد خرجت من الحرب العالمية الأولى منتصرة، وبدأت تتولّى زمام الأمور على مستوى العالم، فبدأت الأصولية الصهيونية الصليبية البروتستانتية تعمل تحت ما يسمّى بعامل الرجاء بعودة اليهود إلى أرض فلسطين، والعمل على لمّ شتات اليهود من أنحاء العالم إلى هذه الأرض المقدَّسة. ويحدث في هذا الرَّجاء نوعٌ من التوحُّد مرة أخرى بين المتطهّرين أو البروتستانت أو الصليبية الصهيونية والصهيونية اليهودية من جانب آخر. تتمثَّل هذه الوحدة في ماذا؟ في أنّ الشعب الأمريكي يتأثر بدعوة البروتستانت في مساعدة اليهود لإقامة دولتهم، فتحلّ عليهم البركة وتكون أرض المعاد الجديدة -التي هي فلسطين- أشبه بأرض الميعاد القديمة التي حلّ بها المتطهرون من قبل. ويصبح شعب الله المختار هو الشعب اليهودي الصهيوني الذي حلّ بأرض فلسطين، كما كان شعب الله المختار هو التوحد الصهيوني الصليبي الذي تمّ على أيدي الأطهار أو المتطهرين، وعلى يد اليهود منذ قرن أو أكثر من قرن من الزمان.

هذا الانتماء الصهيوني قد سرى في طريقة الحياة الأمريكية، وتسلّل نسيجها بعد ظهور قضية الرجاء، وأخذ هذا الولاء يظهر أثره شيئًا فشيئًا في جميع القرارات الأمريكية التي تتعلّق بالشرق الأوسط. ويُفصح عن مدى ذلك التغلغل: ما أظهره الجمهور الأمريكي العريض من تحمّس بالغ للانتداب البريطاني على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، ثم إدانة أمريكا العالمية لصوت وسياسة

بريطانيا في فترة ما بين الحربين تجاه فلسطين. كلّما بدا أن تلك السياسة خرجت عن خط وعد (بلفور)، وقفت لها أمريكا بالمرصاد.

ثم جاء عام ١٩٦٧م، فمثّل تاريخًا جديدًا له دلالة خاصة في الظاهرة الدينية في أمريكا بالذات، خاصة في فكر جماعة الصهيونية الصليبية البروتستانتية بالذات؛ لأن هزيمة العرب في ١٩٦٧م قد أدّت إلى تحول الأصولية الإسلامية من تيّار نخبوي قليل العدد إلى تيّار شعبي عمّ المسلمين قاطبةً. وأصبحت الجماعات الإسلامية بديلة عن الحكومات الإسلامية في نظر الشعوب. وأدّى الانتصار بالنسبة لإسرائيل إلى تقوية الأصولية اليهودية؛ إذ فسّرت هذا الانتصار بأنه دليل على أن الله معها، وأنّ عوامل التاريخ التي تُمهّد لنزول المسيح في إسرائيل قد بدأت بوادرها، وأنّ الأصولية الصهيونية الصليبية في أمريكا قد بدأت تَجني ثمرات النبوءة التي بشّرت بها في أمريكا وهي النبوءة القائلة بأن المسيح سوف ينزل ليحكم العالم من أرض فلسطين.

كما أدّى انتصار إسرائيل إلى دعم أفكار الأصولية المسيحية في أمريكا من جانب آخَر، ومنها إلى العالم كلّه. هذه الأفكار المتعلقة بعودة اليهود، وانتصارهم تمهيدًا لقدوم المسيح ~ ، ممّا غلّب التيار المتطرف الصهيوني في فلسطين وفي أمريكا، وجعل صوته عاليًا ومؤثرًا في القرارات السياسية الأمريكية بل والأوربية أيضًا.

وهناك عامل آخر ترتّب على انتصار إسرائيل في ١٩٦٧م: أنه فتح الطريق لازدهار الصهيونية المسيحية أو الصهيونية الصليبية؛ فقد قارن الشباب الأمريكي بين هزيمتهم في فيتنام مثلاً وانتصار اليهود في ١٩٦٧م، وفسّروا ذلك بأن الله لم يكن معهم في فيتنام لكنه كان مع اليهود في ١٩٦٧م لأنهم شعب الله المختار.

وفي عام ١٩٧٠م نجد أنّ بعض المفكّرين الصهيونيين كتب كتابًا بعنوان "الراحل

كوكب الأرض العظيم"، وبعد عشرين سنة من الطبعة الأولى لهذا الكتاب وصلت مبيعات هذا الكتاب إلى أكثر من ١٨ مليون نسخة. وبذلك يمكن أن يقال: إنّ هذا الكتاب كان أكثر الكتب رواجًا في أمريكا في هذه الفترة بالذات. لماذا؟ لأن الكتاب أخذ يشرح تاريخ العالم من وجهة نظر عقائدية بحتة، وهذه النظرة العقائدية هي نظرة صهيونية صليبية بروتستانتية مائة في المائة.

فهو أخذ يشرح ماضي التاريخ في ضوء الاتفاق التام مع نبوءات الكتاب المقدس بعهديْه: العهد القديم، والعهد الجديد. ومن ثمّ يمتد بالتاريخ من الماضي إلى المستقبل، ليُقنع العالم أنّ ما سيحدث في المستقبل سوف يكون أيضًا طِبقًا لنبوءات الكتاب المقدس بحسب فهْمه لها. لماذا؟ لأنّ ما تنبّأ به الكتاب المقدس وقع في الماضي.

إذاً ما جاء في الكتاب المقدس من نبوءات تتعلّق بالمستقبل سوف يقع في المستقبل أيضًا. يقيس المستقبل على الماضي؛ وهذا من وجهة نظره. والرؤية التاريخية التي عرض لها المؤلف في مجملها تدور حول قوى الشر وقوى الخير في العالم، وكيف سيبدأ العدّ التنازلي لنهاية العالم من خلال تجمّع اليهود من الشتات في دولتهم في فلسطين، ثم تتجمّع قوى الخير ممثّلة في أمريكا لتحارب قوى الشر العالمي في معركة عالمية تسمّى معركة "هرمجدون". وفي هذه المعركة تنتصر قوى الخير على قوى الشر. ثم يأتي المسيح ليحكم العالم كلّه لمدّة ألْف سنة.

وخلال صفحات هذا الكتاب، يتعرّض المؤلف إلى الدول المختلفة ليصنِّفها: إمّا تنتمي إلى محور الخير أو إلى محور الشر. فروسيا مثلًا ضِمن قوى الشر، والعرب والمسلمون قاطبةً ضِمن محور الشر؛ ولذلك فإنّ انتصار إسرائيل في حرب ١٩٦٧م يمثِّل في نظر المؤلّف جزءاً من الخطة الإلهية لانتصار قوى الخير، وقيام إسرائيل الكبرى من النِّيل إلى الفرات ليتجمّع فيها كلّ شعب الله المختار حتى عندما تقوم الحرب الأخيرة ويموت فيها

أغلب اليهود حسب رواية يوحنا اللاهوتي، وحسب النبوءة الواردة في التوراة التي تقول: "لا يبقى من اليهود سوى ١٤٤٠٠٠ لا يزيدون ولا ينقصون".

حين يحدث هذا، يأتي المسيح ويعطي لشعبه المختار المتبقِّي فرصة أخيرة حتى يقبلوه كمخلِّص للعالم. فاليهود إذن في النهاية هُم شعب الله المختار، وهم الذين يأتي إليهم المسيح ليؤمنوا به، وعن طريقهم يخلص العالم من كل الشرور. ومن هنا يصل المؤلف إلى أن اليهود كشعب مختار قد ضل الطريق، ولكن الله لم يتخلّ عن شعبه المختار؛ لذلك تظلّ له مكانة خاصة، وتظلّ له ما يسمِّيه بالفرصة الأخيرة؛ لأنّ كل قوى الشر سوف تتحطّم في معركة "هرمجدون"، ويذهب الأشرار إلى الجحيم. وكل من رفض المسيح كمخلص للعالم يذهب إلى الجحيم، أمّا شعبه المختار الذي رفضه أولًا وأعطاه الرب فرصة أخرى حتى يَقبله فهو الذي ينزل إليه المسيح ليأخذ بيده ويقود العالم نحو الله مرة ثانية.

هذه أفكار بعض الصهيونيين الذين كتبوا في ضوء النبوءات الواردة في التوراة حول تاريخ العالم الماضي والمستقبل. ومن العجيب: أن بعض الساسة الأمريكان كان يؤمن بهذه النظرية؛ فوجدْنا مثلًا: الرئيس (رونالد ريجان) كان من أنصار الصهيونية المسيحية أو الصهيونية الصليبية المتحمِّسين لهذه النبوءة المؤمنين بها والمصدِّقين بها. فقد قرأ هذا الكتاب وتأثّر به تأثّرًا شديدًا. وقد صرّح الرئيس (ريجان) لجريدة "الواشنطن بوست" في ١٨ أبريل سنة ١٩٨٤م بأنه كان يشعر عند الانتخابات بأن المسيح يأخذ بيده، وأنه سوف ينجح ليقود معركة "هرمجدون" التي يعتقد أنها ستقع خلال الجيل الحالي في منطقة الشرق الأوسط.

لا تعجبوا! بل أكثر من هذا عجبًا، بل لعلّه من الطريف: أنه في الوقت الذي ظهر خبر في الصحافة المصرية يقول: إن أحد سياسيِّي البيت الأبيض، كشف في مذكراته أن: (نانسي ريجان) حرَم الرئيس (ريجان) كانت تستشير عرَّافة في نفس

هذا الوقت، كانت هذه العرافة والتي ليس لها إلّا نصيب من التبشير بالأصولية المسيحية، كانت تأخذ عطاءها من البيت الأبيض وتقيم حفلاتها التعبدية داخل أحد الفنادق الكبرى في القاهرة. ولم يلفت أحد إلى هذه المقابلة الطريفة التي تمّت برغم ما فيها من دلالة. فزوجة رئيس أكبر دولة في العالم تحدِّد لزوجها طريقه من خلال الرؤى والنبوءات الدينية، ومن خلال مواعظ امرأة أصولية بروتستانتية كان لها شرف إرشاد الرئيس وسيّد البيت الأبيض إلى القرارات التي يجب عليه أن يتّخذها بشأن قضية الشرق الأوسط.

وكان الرئيس (ريجان) يطلق على الاتحاد السوفيتي لقب: "إمبراطورية الشر"، وكان يتمنّى أن يقضي على هذه الإمبراطورية وهو في الرئاسة. وهذا التعبير ليس مجرّد وصف؛ بل هو سرد كامل للنبوءات، وانتظار لتحقيق هذه النبوءات، وهو نفس التفسير الذي قال به (ريجان)؛ فإن إمبراطورية الشر هي التي ستقود كل قوى الشر من العرب والمسلمين، وتزحف حتى منابع البترول وتصل إلى أرض فلسطين، وهناك سوف تقابل أمريكا في معركة حامية الوطيس، أمريكا التي هي شعب الله المختار التي تقود كلّ قوى الخير لتقضي بها على كل قوى الشر الذي هو الاتحاد السوفيتي وما معه من الدول العربية والدول الإسلامية.

ولكن -والحمد لله- سقط الاتحاد السوفيتي قبل أن تقوم هذه المعركة لأبيِّن لكم -أيها الأخوة- مدى شناعة الأساطير التي أسّست عليها الفكرة الصهيونية؛ وبالتالي قامت على أساسها الدولة الإسرائيلية على مرأى ومسمع من العالم كلّه. ولكن سقوط الاتحاد السوفيتي لم يجعل (ريجان) يتوانى عن استعداده لخوض المعركة الكبرى في "هرمجدون"؛ فهي ليست الأمل الذي يمكن التنازل عنه لأنّها انتصار لقوى الخير العالمية على قوى الشر العالمية. وكان سقوط إمبراطورية

الشر في نظر (ريجان) يعني ضياع الحلم الذي كان يعيش من أجْله، أو الذي كان يراود نفسه بأن يعيشه عملًا وواقعًا كما عاشه نظريًّا. ولكن كان سقوط هذه الإمبراطورية -التي هي إمبراطورية الشر روسيا- كان انتصارًا مرحليًّا لقوى الخير قبل وقوع معركة "هرمجدون"، فإذا كانت الإمبراطورية الكبرى للشرق قد سقطت فهذا لا يعني من وجهة نظرهم أن الحرب لم تقع. لا. هم يؤمنون بأنها واقعة لا محالة ونحن وهُم في انتظارها. وإلى أن تقوم معركة "هرمجدون" بين قوى الخير التي تدَّعي أمريكا أنها تمثِّله وقوى الشر التي تصنِّف أمريكا أنها تشمل العالم الإسلامي كلّه، نحن في انتظار هذه المعركة، وربما كان المأزق الذي تعيشه أمريكا في العراق هو البداية الطبيعية للهزيمة الكونية التي بدأت تعيشها أمريكا من الآن، وبقية الهزائم آتية إن شاء الله.

وسائل أمريكا لتضليل الرأي العام تحت شعار محاربة الإرهاب

انتهينا بالحديث عن أن الصهيونية الصليبية قد تجذّرت في المجتمع الأمريكي، وأخذت تطفح على السطح الثقافي على كلّ المستويات الطبقية للمجتمع، ممّا جعل المجتمع الأمريكي كلّه مخترقًا من قِبل الفكرة اليهودية، ومن قِبل الفكرة الصهيونية على السواء.

وقلنا أيضًا: إنّ بعض الرؤساء الأمريكيِّين تبنّوْا هذه القضية واعتنقوها وآمنوا بها، ووجدْنا الرئيس (ريجان) يُقسِّم العالَم إلى محوريْن أو قطبيْن: قطب للشر بزعامة الاتّحاد السوفيتي، وقطب للخير بزعامة أمريكا والحركة الصهيونية المعاصرة. ووجدنا انطلاقًا من هذا التقسيم، بدأ (ريجان) يُعدّ العُدّة ليقود حركة النور أو الأنوار أو أهل النور، ليقابلوا أهل الظلام أو أهل الشر في معركة

فاصلة، التي أشرنا إليها فيما مضى بأنها معركة "هرمجدون".

ولكن وجدنا أنّ التاريخ والواقع التاريخي قد أثبت كذِب هذه النبوءات من أوّلها إلى آخِرها؛ فقد سقط الاتحاد السوفيتي ولم تقم أو لم تقع معركة "هرمجدون". ومعنى أن سقوط إمبراطورية الشر -التي هي الاتحاد السوفييتي- لا يعني انتهاء أهل الشر في العالم، أو نهاية إمبراطورية الشر في العالم؛ هكذا فسّر (ريجان) وفسّر أنصار الاتجاه الصهيوني الصليبي في أمريكا. فحوّروا القضية من معركة "هرمجدون" إلى ما يسمّى بمحاربة الإرهاب العالمي.

وأخذ مصطلح "الإرهاب" يحل محلّ معركة "هرمجدون"، ورُفع في أمريكا شعار: الحرب العالمية ضد الإرهاب. وانتهى من على ألْسنة السّاسة الأمريكيِّين مصطلح معركة "هرمجدون". وأخذوا يقولون: "إن روسيا إذا كانت قد سقطت أو سقط الاتحاد السوفييتي، فإن ذلك ليس إلّا مرحلة تاريخية من مراحل الصراع بين قُوَى الخير وقُوى الشر؛ ولذلك نقلوا المعركة بكاملها من مواجهة بين الخير والشر في معركة "هرمجدون" إلى معركة تاريخية جديدة بدؤوا يرفعون لها شعارًا جديدًا وهو شعار: "الحرب العالمية ضد الإرهاب".

أبنائي وبناتي طلاب هذه الجامعة، أرجو أن نَعِيَ تمامًا الواقع التاريخي ونحن نفسِّره ليس تفسيرًا عاطفيًّا، ولكن من واقع الكتابات التي ظهرت في أمريكا تحت التأثر بالفكر الصليبي الصهيوني، وتحت فكرة أنّ أمريكا هي رسول الله إلى العالَم، لتحارب الشر في العالم، ولتعمل على سيادة الخير في العالم. وجدْنا انطلاقًا من هذا التفكير الأسطوري في سنة ١٩٨٦م، لعلّكم تذكرون -أن أمريكا قد قامت بضرب ليبيا في هذا التاريخ ١٩٨٦م، وكان السبب الذي ظهر في الإعلام الأمريكي تبريرًا لهذا الموقف الأمريكي من ليبيا -أنّ ليبيا بلد إرهابي،

وأنّ أمريكا تحاربها من منطلق أنها مسؤولة عن محاربة الإرهاب في العالم. ولكن الواقع التاريخي أثبت خلاف ذلك تمامًا؛ فلقد صرّح الرئيس الأمريكي (ريجان) - وهذا التصريح أيضًا مُعلَن في الصحف الأمريكية، ونُشر في صحيفة "سان دييجو ماغازين"، ونشرَتْه بعددها الصادر في أغسطس عام ١٩٨٥م. بماذا صرّح ريجان؟ صرّح بالآتي: قال: إن (ريجان) كره ليبيا لأنه يرى أنّ ليبيا واحدة من أعداء إسرائيل الذين ذكرَتْهم النبوءات الواردة في الكتب المقدسة، وأنها عدوّة لشعب الله المختار، وبالتالي يجب ضربها وإبادتها انتصارًا لشعب الله المختار، وتحقيقًا للنبوءات الواردة في الكتب المقدسة. لماذا؟ لأنها عدوّة لله. وجدنا هذا التصريح نُشر في حديث صحفي أجْرته مع الرئيس (ريجان) صحيفة "سان دييجو ماجازين" ونشرته كما قلنا في عددها الصادر في أغسطس ١٩٨٥م.

يقول الصحفي الذي أجرى هذا التحقيق مع (ريجان): "لقد انتحى بي (ريجان) جانبًا أثناء حفل العشاء، وأخذ يتحدّث إليّ عن النبوءات الواردة في الكتاب المقدس، وعن حتمية نشوب حرب مع الاتحاد السوفييتي؛ لأن السوفييت في نظره هم يأجوج ومأجوج الذين ورد ذكْرهم في الكتاب المقدس، وأنّ هذه الحرب سوف تكون آخِر حرب كبرى يشهدها العالم، وأنّ (ريجان) هو المؤهّل لقيادة هذه الحرب". ثم التفت إلى الصحفي بحدّة وقال له: "إنني قرأت في الإصحاح ٣٨ من "سفر حزقيال": "أنّ أرض إسرائيل سوف تتعرّض لهجوم تشنُّه عليها جيوش الأمم الكافرة، وأنّ ليبيا سوف تكون من بين تلك الأمم". هذا ما صرّح به ريجان لهذا الصحفي، وبناءً على هذا التصريح، وجد عنده المبرّر الذاتي لضرب ليبيا، ثم ظهر على العالم بأنه يضرب ليبيا. لماذا؟ لأنها دولة إرهابية. هذه هي السياسة الأمريكية المتأثِّرة بحركة الصهيونية الصليبية في أمريكا.

وإذا انتقلنا من الرئيس (ريجان) إلى الرئيس (جيمي كارتر)، وجدنا أنّ هذا الرئيس قد

نجح إلى حدّ ما في أداء بعض الواجب المقدّس عليه الذي يؤمن به تجاه إسرائيل ؛ حيث أمّن لها السيادة وحيازتها لكل الأرض المتعاقد عليها أو التي أبرم الله الوعد بيْنه وبين أنبياء بني إسرائيل من أجلها. وفرح بذلك فرحًا شديدًا، واعتبر نفسه أنه بذلك قد حقّق النبوءات التي سيسود تبعًا لتحقيقها سلام إسرائيل في العالم كله. وصرّح الرئيس (جيمي كارتر) بذلك في بعض المناسبات، وأعلن أنه إنما فعل ذلك لأن بيْنه وبين إسرائيل تاريخًا مشتركًا وتراثًا مقدّسًا مشتركًا. وهو يقول بينه وبين إسرائيل، لا يعني بينه وبين شخصه أو بين شخصه وبين إسرائيل، ولكن بين القوّة الصهيونية الصليبية التي يقودها والتي يمثّلها في أمريكا بين هذه الحركة وبين إسرائيل تراثٌ مشتركٌ وهو: النبوءات الواردة في التوراة عن نزول المسيح في أرض إسرائيل.

وإذا انتقلنا إلى الرئيس (بوش) الابن الموجود حاليًا، نجد أنه هو الآخَر لم يكتف بما فعلَه الرئيس (ريجان) ولا بما فعله (بوش) الأب. ومن المفيد أن نذكر هنا: أنّ (بوش) الأب بعد حرب الخليج الثانية وبعد أن تمّ تحرير الكويت، أعلن في مؤتمر أو في حفل تحرير الكويت: أنه بذلك يعلن النظام العالمي الجديد الذي تقوده أمريكا في المنطقة. تابعوا معي هذه التصريحات وهذه التواريخ لأنها على درجة كبيرة من الأهمية، لنعلم كيف تدير أمريكا وإسرائيل الحركات الانقلابية وحركة التاريخ في المنطقة العربية.

جاء (بوش) الابن -كما قلنا- ورأى أن (كارتر) لم يَقم بواجبه تمامًا تجاه إسرائيل، وأخذ يعلن ويصرّح أنه سوف يأخذ على عاتقه التمهيد الكامل لسيادة إسرائيل وسيادة أبناء النور على أبناء الظلام في المنطقة وبالتالي في العالم كلّه. وأبناء النور -كما ذكرنا من قبل- هم: الأمريكيون واليهود، وليس كلّ الأمريكيّين للأسف الشديد، بل كلّ الأمريكيين الذين وُلدوا ولادة ثانية بعد هجرة أبناء النور من أوربا إلى أمريكا.

هذه كلّها مسائل يؤمنون بأنّ التوراة قد تنبّأت بها، وأنّ مهمّة أمريكا المعاصرة -بما أنّهم يمثلون أبناء النور- الأساسية هي: القضاء على أبناء الظلام، على محاور الشر، وأنّ محاور الشر تتمثل عندهم في العرب وفي المسلمين بعد سقوط الاتحاد السوفيتي من أمامهم، وأنّ القضية -قضية سقوط روسيا أو الاتحاد السوفيتي- لا تعني انتهاء محاور الشر، وإنّما تعني مرحلة من مراحل المواجهة بين قوى الخير التي تمثّلها أمريكا، وقوى الشر التي تتمثّل في العرب المعادين لإسرائيل.

ولا يخفى على حضراتكم: أنّ هذا التفسير التاريخي كلّه يصبّ في صالح إسرائيل وضدّ فلسطين وضد العرب، وأمريكا الأمّة التي جعلت نفسها حامية للخير ومحارِبة للشر أعلنت: أنّ الرب قد حمّلها هذه الرسالة، وخصّها بها دون سائر الأمم. وما الذي يمكن أن تفعله إزاء هذا الاختيار الإلهي؟ هي أعلنت: أن الله اختارها لهذه المهمّة، وأنّ الرب قد قرّر ذلك، وهي لا تملك مخالفة مشيئة الرب، ولن تكفّ عن البر وتحقيق ما وعد الرب به، ولا بد من مواجهة محاور الشر وعوامل الظلام في العالم. ولتكُن البداية من المنطقة العربية. لماذا؟ لأنها تريد أن تقعّد وترسي وتضع جذور إسرائيل في المنطقة كما نبّأ بذلك العهد القديم؛ ولذلك نجد أنّ نصوص التوراة التي تردّدت على ألسنة المسؤولين من الطبقة الحاكمة أو الثلة الحاكمة لأمريكا الآن تتردّد وتدور كلّها حول النبوءات الواردة في التوراة، حول ضرورة الانتصار لله ممثلًا في الانتصار لإسرائيل، وحول تحقيق وعْد الله بتحقيق قيام دولة إسرائيل، وأنّ الصيغة التي استخدمتها التوراة وصرّح بها الرب في التوراة لا بدّ أن يُحققها أبناء النور الذين هم الشعب الأمريكي.

أبنائي وبناتي، لا أريد أن أترك هذه الأمور حتى أوضّح لكم تمامًا: أنّ الواقع الذي نعيشه يحتاج إلى نظرة فاحصة في تفسير الواقع، وتفسير السياسة الأمريكية في المنطقة؛

لأن أمريكا من منطلق النبوءات الواردة في التوراة تعتقد اعتقادًا خطيرًا جدًّا أنّ المعارك القائمة في المنطقة العربية بين إسرائيل وأمريكا من جانب، وبين العرب والمسلمين وفلسطين من جانب آخَر هي معركة بين الرب والشيطان. ولذلك تجد في أسفار العهد القديم يأخذون منها هذه النصوص ليجعلوها شعارًا لمعاركهم ضدّ العرب يقولون: "حرّموهم بالسيف!" يعني: اذبحوهم! يعني: اذبحوا العرب! "لا تأخذكم بهم شفقة! اذبحوهم رجلًا رجلًا، وامرأة وشيخًا، وطفلًا رضيعًا!". وفي المرات التي تقاعس فيها الشعب لأسباب متعلّقة بالكسب المادي أو انصراف بعض المسؤولين عن تنفيذ أوامر الرب كانت مشيئة الرب عليهم أن ينهزموا؛ لأنهم فرطوا في أوامر الرب. ولكي يعيدوا الأمور إلى نصابها، لا بد أن يأخذوا الدرس والعبرة، فلا يفرّطوا في أوامر الرب أبدًا. ولذلك هم الآن يرفعون شعار: أنّ معارك الرب يُديرها الرب بنفسه من أعلى، ولا بد أن يتحقق النصر فيها لشعبه المختار. وأمريكا عندما تحلّت بروح التوراة وسارت على هدْيها في التعامل مع الهنود الحمر، انتصرت. وكذلك تُلقّن إسرائيل الدرس: أنها لا بد أن تتمسك بتعاليم التوراة لكي تنتصر على العرب كما انتصرت أمريكا على الهنود الحمر. ولكي تأخذ أرض العرب كما أخذت أمريكا من الهنود الحمر أرضها، ولكي تطرد العرب من أرضهم وتقتلهم وتقتل نساءهم، كما قتلت أمريكا الهنود الحمر وسبت نساءهم وجعلتهم عبيدًا في المزارع والمصانع.

هكذا نرى الواقع يشير ويؤكِّد أن العقيدة الدينية، أن الأصولية الصليبية، قد أصبحت من أهمّ العوامل المؤثرة في سياسة البيت الأبيض الأمريكي عبْر (جيمي كارتر) و(رونالد ريجان) و(جورج بوش) الأب و(جورج بوش) الابن. هذه أمور أصبحت من الوضوح والبيان بحيث لا نحتاج معها إلى أدلّة، وكلّ وقائع التاريخ المعاصر، وكلّ تصريحات الرؤساء السابقين والحاليِّين تؤكِّد لنا أنهم يتعاملون مع المنطقة من منطلق إيمانهم بهذه النبوءات. وليس أدلّ على ذلك من أن أحب

الاستشهادات إلى قلوب المسيحيّين الصليبيّين -أقول: الصليبيين الصهيونيّين، ولا أقول المسيحيّين، لأن المسيحية براء ممّا تفعله الصليبية الصهيونية- أقول: أحب الاستشهادات إلى قلوبهم هو: الاستشهاد الذي لا يَملّون من تكراره، الموجود في سفر التكوين ٢/ ١٢ و ٣/ ١٢ وهو الذي يعلن فيه الرّب: أن الله سيجعل إسرائيل أمّة عظيمة يباركها، ويعظّم اسمها، ويجعلها بركة، ويبارك مباركيها، ويلعن لاعنيها، وتتبارك فيها جميع قبائل الأرض.

هذا النص أشبه بالدستور الديني الذي تعامل به (جيمي كارتر) و(ريجان) و(بوش) الأب و(بوش) الابن مع القضية الفلسطينية ومع شعب إسرائيل ومع الحركة الصهيونية العالمية؛ فلا نجد القضية الفلسطينية مطروحة في مجلس من مجالس الأمن أو الأمم المتحدة، إلّا بمعارضة من أمريكا ومن السياسة الأمريكية والبيت الأبيض، لدرجة أنّ البيت الأبيض قد استخدم حق الفيتو -حق النقض- ٨٧ مرة ضد فلسطين، ولم يستعمله مرة واحدة ضد إسرائيل. ولذلك نجد أن سيطرة الفكر الصهيوني والحركة الصهيونية على البيت الأبيض وعلى القرار السياسي في البيت الأبيض لا تحتاج إلى دليل أكثر من النظر إلى الواقع الذي يؤكِّد ما قلناه، ويؤكّد اعتصام البيت الأبيض بالنبوءات الواردة في التوراة ضد المسلمين والعرب، ولصالح إسرائيل وصالح شعب الله المختار.

ولعلكم تلاحظون معي، على سبيل التمثيل بأمثلة واقعية عندما يفجِّر فلسطيني نفسه دفاعًا عن أرضه وعرضه ووطنه وحريّته يسمّى: إرهابيًّا، تقوم الدنيا ولا تقعد بواسطة الإعلام الأمريكي ضدّ هذا الشخص الفلسطيني. ولكن عندما تغتال الحكومة الإسرائيلية شعبًا بأكمله وأرضًا بكاملها ووطنًا بكامله يسمِّيه (بوش) الابن دفاعًا عن النفس. هل رأيتم إرهابًا أكثر من هذا؟ يسمِّيه: دفاعًا مشروعًا عن النفس. وحين يزداد الصلف الإسرائيلي والغارات الوحشية على

الفلسطينيّين، أقصى ما تفعله أمريكا هو: أن تناشد الفلسطينيِّين بهدوء النفس وضبط النفس. تناشد الفلسطينيين ولا تناشد إسرائيل. وطبعًا المقصود بضبط النفس هنا: ألّا يدفعهم الاعتداء الوحشي إلى المقاومة، وإنما يستسلموا. هل رأيتم إرهابًا أكبر من هذا؟ يلومون الحَمل ولا يلومون الذئب، يلومون الفريسة ولا يلومون المفترس. هذه هي السياسة الصهيونية ضد العرب وضد فلسطين.

اهتمام الحركة الصليبية الصهيونية بمستقبل إسرائيل، ومواقف أمريكا المتصلّبة ضدّ العرب

عندما غزا الجيش الإسرائيلي لبنان، وقف الصهيوني الصليبي (جيري فلويل) يدافع عن هذا الغزو، ويعلن أنّ الأرض التي وعد الله بها إسرائيل تمتدّ من النيل إلى الفرات. ففي ٦ فبراير سنة ١٩٨٣م، صرّح هذا الرجل لصحيفة "كورير تايمز تليجراف" التي تصدر في ولاية تكساس بأنه يؤيد أخذ الإسرائيليِّين للأراضي العربية من العراق، وسوريا، وتركيا، والسعودية، ومصر، والسودان، وكل لبنان، والأردن، والكويت. أما فلسطين كل فلسطين التي كانت تحت السيطرة الإسرائيلية أساسًا، فهذه مسألة منتهية؛ لأنها كلّها ملْك لليهود أصلًا، وهي التي أبرم الله وعْده مع أنبياء بني إسرائيل أنها ملْك لإسرائيل ولأبنائه من بعده. أرأيتم هذه الأساطير؟

وكان هذا مناسبة تظهر فيها ثنائية الموقف الصليبي الصهيوني في أمريكا، وربّما في أنحاء العالم؛ لأن الصليبية الصهيونية في أمريكا كانت تراوغ أحيانًا وتدّعي أنها لا تناصر إسرائيل، ولكن بعد هذه التصريحات أصبح الموقف الأصولي الصليبي واضحًا لا يحتاج إلى مراوغة.

ومن هنا وجدنا التناقضات في الموقف الصليبي الصهيوني؛ فبعد أن كان هدفهم

هـو تبـشير اليهـود بالمـسيحية، تنـازلوا عـن رسـالة التبـشير وأخـذوا يعاضـدون الأهـداف الـصهيونية لتحقيـق حُلـم إسرائيل. وبعـد أن كـان هـدفهم نـشر تعـاليم المسيح بين غير المسيحيّين، أخذوا يروّجون لما يسمّى بالألفية الثالثة التي تقـع فيهـا معركة "هرمجدون" أو المعركة الفاصلة بـين قـوى الخير وقـوى الـشر. بعـد أن كـانوا يعتقدون أنّ اليهود هم قتَلة المسيح، انقلبت الآية وأخذ الصليبي الصهيوني يـضع اليهـود في المرتبـة الأولى ثـم المسيحي الأصـولي في المرتبـة الثانيـة، بعـد أن كـانوا يعتبرون الشعب اليهودي ملعون ومطرود من رحمة الله لأنه قتل المسيح.

بعـد أن كـان العـرب يمثّلون فئة مـن فئـات البـشر عنـد الـصليبية الـصهيونية، بـدأ الأصولي الصهيوني والأصولي الصليبي يعتقد أنّ العرب من قوى الـشر وليـست من قوى الخير، ونسي أن العرب فيهم المسلم وفيهم اليهودي وفيهم المسيحي. إلى هذا الحد طغت قضية التعصب للفكر الصهيوني على الأصولية الصليبية فأعْمَتْهـا عـن الحقـائق التاريخيـة تمامًـا، وقلَبـت المـوازين وأخـذت تـسنّم ذُرى الإعـلام الأمريكي لتروّج لدعاياتها ضدّ العرب وضـدّ المسلمين وضـدّ القـضية الفلـسطينية عمومًا.

أبنائي وبناتي، لا أريد أن أترك هذه القضايا دون أن أضَع أمـامكم بعـض الوثـائق التاريخية التي تؤكّد ما نقول؛ حتى لا يكـون كلامنـا مرسـلًا بـدون دليـل تـاريخي. لكـي نوضّـح لكـم قـوّة هـذه الـصلة وأثرهـا في الـسياسة الأمريكيـة وفي موقـف الصليبية الـصهيونية عمومًـا، أذكـر لكـم إعلانًـا قـام بـه أعـضاء الـسفارة الـصليبية الدولية في القدس. سوف أورد فقط فقرات من هذا الإعلان؛ لأنـه إعـلان طويـل جدًّا، لكـن فقـط سـوف أضـع أمـام حضراتكم بعـض الفقـرات الـتي تبـيّن مـدى الصلة وقوّة هذه الصلة، بل اهتمام الحركة الصليبية الـصهيونية بمستقبل إسرائيل ومستقبل الصهيونية اليهودية العالمية في العالم.

مما جاء في هذا الإعلان: "نحن الممثِّلون للمؤتمر المسيحي الصهيوني الدولي الثاني المنعقد في القدس العاصمة الأبدية لإسرائيل". هكذا العاصمة الأبدية لإسرائيل، كأنهم معترفون بإسرائيل ومعترفون بأنّ القدس هي العاصمة الأبدية لإسرائيل. ومعنى هذا: أن قوانين الأمم المتحدة وقوانين مجلس الأمن ضربوا بها عرض الحائط. "نعلن في ١٤ إبريل ١٩٨٨م في مناسبة الذكرى الأربعين لاستقلال إسرائيل"، لأن إسرائيل كان ميلادها سنة ١٩٤٨م بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعقد هذا المؤتمر ١٩٨٨م، فتكون الفترة الزمنية هي: أربعين عامًا. "ننتهز هذه الفرصة لنعلن سيادة الله وعصمة كلمته المقدسة بأنّ خطّته للفداء سوف تقيم السلام والبركات في النهاية في الشرق الأوسط ولكلّ البشرية من خلال وُعوده الميثاقية الأزلية لإسرائيل. إن المسيحية الصهيونية هي صهيونية كتابية تؤمن بالكتاب المقدس، وتعلن تحقُّق أهدافه النبوئية والتي تتجمع في عودة المسيح إلى القدس".

هذه هي النبوءة التي يدورون حولها؛ لهذا نحن نفهم من الكتاب: أن الله أحبّ شعبه، وقد أعطاهم الحق في تحمّل المسؤولية، وأعطاهم الحق في امتلاك وبناء الأرض الموعودة، وأعطاهم الحق في أن يحكموا المسكونة -المسكونة يعني: العالم-؛ وبالتالي من خلال كلمته. "لهذا نحن نعلن حبّنا لإسرائيل والشعب اليهودي". من الذي يعلن هذا؟ هم: الصليبيون المتصهينون. وأين أعلنوها؟ في السفارة الصهيونية الصليبية في القدس. ومتى أعلنوها؟ في مناسبة الاحتفال بمرور أربعين عامًا على قيام دولة إسرائيل.

"ونعلن تأكيدنا للحق الكتابي للشعب اليهودي كي يعيش بحرية في كامل أرض إسرائيل، والتي تشمل: يهوذا، والسامرة، وغزة كدولة يهودية. ونعلن تشجيعنا لعودة كلّ اليهود من الشتات إلى الأرض، كاستجابة لدعوة الله القوية والمحبة لشعب إسرائيل، والتي عَبَّر عنها أنبياؤه. إننا ندعو كلّ الدول العالمية كي تعترف

وتحترم قداسة وعْد الله للشعب اليهودي". أقرأ هذه العبارة مرة ثانية: "إننا ندعو كلّ الدول العالمية كي تعترف وتحترم قداسة وعْد الله للشعب اليهودي بإعطائهم أرض كنعان كمِلْكية نهائية، وفي نفس الوقت كي يؤمنوا بوعوده الخاصة بكلّ ذرية إبراهيم". والغريب: أنهم نسُوا أنّ العرب من ذرية إبراهيم.

"نحن نتحدى الكنيسة كي تتوب عن كلّ معاداة للسامية في الماضي والحاضر، وعن أيّ عقائد تجاهلت أو بدّلت الحقيقة الكتابية لوجود إسرائيل، وعن أيّ خطايا بالتعهد أو إسقاط العهد ضد الشعب اليهودي". التوبة المذكورة هنا هي: توبة الكنيسة عن اتّهامها لليهود بقتل مَن؟ بقتل السيد المسيح.

وترتّب على هذا: إعلان البابا يوحنّا الثاني -الذي انتقل إلى العالم الآخر منذ فترة قليلة- إعلانه تبرئة اليهود من دم المسيح. هذه هي التوبة التي تطلبها الصليبية الصهيونية من الكنيسة: أن تتوب عن كلّ معاداة للسامية في الماضي أو الحاضر.

"ونحن ندعو الكنيسة إلى أن تصوم وتصلّي باجتهاد من أجل سلام أورشليم القدس، وندعو الكنيسة أن تتوسّط من أجْل إسرائيل، ومن أجْل سكّانها، ومن أجْل كلّ اليهود في كل مكان. وندعو الكنيسة أن تعبّر عن الحب والدعم لإسرائيل وللشعب اليهودي في الفكر والكلمة، والعمل حسب التوجيهات التي أعطاها الرب. هذه النصوص اقتبسها الإعلان من "سِفر أشعياء ٥٨، ٦٢. هذا الإعلان تبنّتْه السفارة الصليبية في القدس -كما قلنا- سنة ١٩٨٨م كتعبير عن الموقف التاريخي والموقف النهائي والكنسي من إسرائيل، ومن احتلالها للأرض، ومن طرْدهم للشعب الفلسطيني، ومن اغتصاب تاريخ فلسطين من المنطقة، ومن موقفهم من المسلمين بصفة عامة.

هذه نصوص، وغيرها كثير، لم أرد أن أزحم المحاضرة بها، لكنّها موجودة في كثير من المراجع التي سوف نضعها بين أيديكم فيما بعد، لكي تكون مصدرًا

لكل المعلومات التي أوردناها في هذه المحاضرات المتصلة بالحركة الصهيونية.

هـذا التعـاطف -أيها الأبنـاء- ، وهـذا التـضافر والتعـاون التـاريخي بـين الحركـة الصهيونية اليهودية والصهيونية الصليبية قد أضفى على القضية الفلسطينية نوعًا من الغشاوة أو الضباب، وعدم وضوح الرؤية في نظر الساسة الغربيِّين وبعض المثقّفين الغربيّين، ولم يروا القضية على حقيقتها ؛ وإنما رأوها من واقع الإعلام الـصهيوني الـذي تعاونـت كـلّ مؤسساته في كـل دول أوربـا بـلا اسـتثناء علـى التعـاطف مـع القـضية الـصهيونية ضـدّ القـضية العربيـة والقـضية الفلـسطينية. واستطاعت الصهيونية العالمية بوسائل إعلامها المختلفة أن تهيِّئ العقلية الغربية بقبول فكرة دولة إسرائيل على أرض الميعاد، وهي أرض فلسطين التاريخية.

وتضافرت جهود مؤسسي هذه الحركة مع رجال المال والصحافة والإعلام وقادة الرأي السياسي كي تنجح هذه الفكرة، واستطاعت بمضيّ الزَّمن أن تحوّل حُلم الحركة الصهيونية العالمية إلى واقع، واقع يقف ضدّ حركة التَّاريخ. وقف العرب والمسلمون ضدّه، ولكن العالم الغربيّ تعامل مع القضية للأسف الشديد بمنطق القوّة وليس بقوّة المنطق ؛ فاستطاعت أجهزةُ الإعلام أن تثبِّت هذه الأكاذيب في العقليَّة والذهنيَّة الغربية بصفة عامة، بعد أن تبنّتْها السياسة الأمريكيَّة. وانطلاقًا من هذا التَّآزر الغربي الأوربي الأمريكي مع الحركة الصهيونية اليهودية بواسطة الصهيونية الصليبية، وضعوا العرب والمسلمين في مآزق كثيرة، وأوقفوا عجلة النمو والتطور في المنطقة العربية كلها بل في العالم الإسلامي كله، وزرعوا دولة إسرائيل في المنطقة العربية أشبه بالزرع غير الطبيعي، نموّ غير طبيعي. دولة يهودية دينية عنصرية صليبية مائة في المائة تطرُد شعبًا بأكمله، وتُزرع في المنطقة العربية، فتَفصل بين شرق العالم الإسلامي وغرْبه، وبين شماله وجنوبه، وتقف كحجر عثرة ضدّ النمو الاقتصادي والثقافي والاجتماعي لهذه المنطقة.

ترتّب على ذلك: أنّ كلّ الاقتصاد العربي توقّف عن النمو، وأصبح موجّهًا لمواجهة إسرائيل في الحروب التي بدأت من سنة ١٩٤٨م إلى الآن. وإسرائيل وراءها أمريكا وأوربا، والعرب لا سنَد لهم إلّا الله. تَحكّم اليهود في الدعاية العالمية، وفي المقابل لم يكن للعرب ولا للمسلمين أيّ جهاز دعائي في الغرب ولا في أمريكا. وترتّب على هذا: أن الباطل الذي تدعو إليه الحركة الصهيونية أصبح حقًّا في نظر أوربا وأمريكا، وأنّ الحق التاريخي الذي يدعو إليه العرب وفلسطين والمسلمون أصبح باطلًا؛ لأنهم لا يَملكون وسائل الإعلان ولا وسائل الدعاية العالمية التي تمتلكها الحركة الصهيونية. ومن جانب آخر أصبح التّحكّم في اتّخاذ القرار في بلدان العالم الإسلامي محكوماً بالفيتو الأمريكي في مجلس الأمن، فأيّ قرار يتّخذه العرب ويطرحونه على مجلس الأمن لصالح القضية الفلسطينية تُبطله أمريكا بحقّ الفيتو.

هذه المواقف المتصلّبة من أمريكا ضدّ العرب وضدّ فلسطين أنهكت الاقتصاد العربي والاقتصاد الإسلامي، فوقفت عجلة النمو تمامًا؛ وبالتالي ظهرت مشكلات اجتماعية واقتصادية في العالم العربي نتيجةَ توقّف عجلة الاقتصاد وعجلة النمو الاقتصادي، في الوقت الذي تقف فيه أمريكا باقتصادها كلّه ودوَل أوربا باقتصادها وراء الحركة الصهيونية ووراء إسرائيل.

ومن جانبٍ آخَر أخذت الحركة الصهيونية تخترقُ كثيرًا من البلاد العربية والإسلامية بأجهزة الإعلام المرئيَّة والمسموعة، عن طريق القنوات الفضائية، فاغتالت القيم الأخلاقية في نفوس الشباب، وحطّمت كلّ معنى نبيل في عقول الشَّباب عن طريق الجاسوسية والصحافة والأندية والبث المباشر.

ترتّب أيضًا على هذا الموقف: أن كثيرين من أبناء الشعب الفلسطيني أُكرهوا على ترْك أرْضهم وديارهم إلى أرض أقاموا فيها شبْه لاجئين. ولهذه اللحظة لم يستطع

العالم أن يَحُلّ هذه المشكلة. ونجد أن نفس الحركة الصهيونية الآن تبذل كلّ جهد للقضاء على كلّ محاولة للتقدم في العالم العربي، فضربت المُفاعل النووي العراقي في فترة حروبها مع إيران، وعارضت كثيرًا من صفقات الأسلحة التي تُباع للدول العربية من قِبَل الغرب ليظلَّ للحركة الصهيونية التفوّق العسكري على جميع البلاد العربية المحيطة بها، مع أنّ العرب منذ عام ١٩٧٣م بادروا بعملية السلام وأخذوا يَمدّون أيديهم للحركة الصهيونية بالسلام، ولكن كالعادة اليهودية ليس لليهود وعْد ولا عهد ولا ذمّة.

ترتّب على هذا أيضًا: أنّ الحركة الصهيونية أصبحت لها دولة واقعية على الخريطة الجغرافية للعالم، واعترف بها جميع البلاد الأوربية وأمريكا طبعًا، وأصبحت الدول العربية تحاول أن تقتنص بعض الحقوق المشروعة من هذه الدولة، تقف أمامها أمريكا سدًّا منيعًا بحقّ الفيتو أحيانًا، وبالمراوغات السياسية مرة أخرى.

ولم تنته هذه الحركة إلى الآن، بل نجحت في أنها صاغت ما يُمكن أن يسمّى بالحكومة الواحدة أو الحكومة التي تصدر قرارًا واحدًا تحكم به العالم من شرْقه إلى غرْبه. فالّذي يتأمّل الواقع المعاصر لنا الآن، يجد أنّ القرار الصهيوني أو القرار الأمريكي هو الذي يحكم حركة العالم من شماله إلى جنوبه ومن شرْقه إلى غربه؛ وبذلك تحقق أمر لم يكن في الحسبان وهو: إقامة الحكومة الواحدة التي تحْكم العالم بقرار واحد مصدره: النفوذ الصهيوني في أمريكا.

الصهيونية (٤)

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول	:	إستراتيجية إسرائيل للتعامل مع العالم العربي بعد عام ١٩٧٣م	٣٨١
العنـــــصر الثـــــاني	:	العقيدة الدينية للحركة الصهيونية	٣٨٩
العنـــــصر الثالـــــث	:	سبل مواجهة الحركة الصهيونية	٣٩٨

إستراتيجية إسرائيل للتعامل مع العالم العربي بعد عام ١٩٧٣م

توقّفنا بالحديث عن الحركة الصهيونية، وأنها حاولت أن تسيطر على الإعلام العالمي، وقلبت حق العرب في نظر العالم باطلًا، وجعلَتْ باطلها في نظر العالم حقًّا. والواقع الذي نعيشه الآن يُملي علينا: أن نطرح على حضراتكم الإستراتيجية الإسرائيلية التي وضعتْها كخطة طويلة الأجَل للتعامل مع العرب ومع القضية الفلسطينية؛ لأن الواقع: أنّ مصر قد عقدت معاهدة صلح مع إسرائيل، وبدأ العالم العربي بفعل الضغط الأمريكي يتسابق في عقد معاهدات صُلح مع إسرائيل، وكم نتمنّى أن يسود السلام في العالم، وأن يسود السلام بين العرب وإسرائيل؛ لكن أن يكون سلامًا عادلًا، وليس على حساب الشعوب، وليس على حساب الحق والتاريخ.

توقّفت المدافع والصواريخ، لكن الخطط والاستراتيجيات التي وضعتْها إسرائيل للتعامل مع المنطقة تؤكّد لنا أن إسرائيل ليست على العهد الذي أبرمَتْه مع العالم العربي أو مع مصر بالذات، وإنما وضعت هناك خططاً للتعامل مع مصر ومع الدول المجاورة تحت شعار أنّ كل موضع تدوسه بطون أقدامكم هو لكم أعطاه الرب.

هذا الشعار يَدين به كلّ جندي صهيوني يحمل السلاح في أرض إسرائيل. أكرر لكم هذه العبارة مرة ثانية: هذا نص موجود في الكتاب المقدس: "كلّ موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطاه الرب، أو لكم أعطيت".

ولذلك نجد أنّ بعض القادة الإسرائيليِّين بعد نهاية كلّ معركة تاريخية مع العرب يقولون في مؤتمراتهم: "إنّ هدف هذه الحرب هو الإعداد للحرب القادمة". وقد أعلن ذلك صراحة البروفيسور (ليبيوتيز) في مؤتمره الصحفي في ١٤ يونيه عام

١٩٨٢م. يعني: بعد معاهدة الصلح مع مصر بحوالي تسع سنوات، أعلن في القدس: أن هدف هذه الحرب هو الإعداد للحرب القادمة. وأعلنوا هذا شعاراً للتعامل التاريخي: "كل موضع تدوسه بطون أقدامكم هو لكم أعطاه الرب".

هذا هو مفهوم إسرائيل الكبرى. هذا هو الهدف الثابت والدائم للحركة الصهيونية السياسية التي بشّر بها (هرتزل) في عام ١٨٩٧م. وهذا الهدف قد أعلنه الرئيس أو الجنرال الاحتياطي (جازيت) رئيس جامعة (بنجوريون) في بئر سبع، وهو يذكِّر طلابه والحاضرين معه بالأهداف الجوهرية للحركة الصهيونية فيما يتعلّق بالصراع الإسرائيلي العربي؛ حيث قال: "يجب أن تكون أرض إسرائيل يومًا ما بكاملها تحت السيطرة الإسرائيلية؛ بل وأكثر من ذلك: يجب أن تكون مندمجة في دولة يهودية. وعلى إسرائيل أن تعترف بالضرورة الملحّة لإيجاد حلّ راديكالي لمشكلة الوجود العربي على الأرض التاريخية لإسرائيل".

هذا ما أعلنه (جازيت) رئيس جامعة (بنجوريون) في صحيفة "بديعوت أحرنوت" في عددها الخامس عشر في يناير عام ١٩٨٢م. وأكّد في هذا التصريح: أنّ طرْد العرب من فلسطين داخليًّا، والعمل على تمزيق البلاد العربية خارجيًّا، ينبغي أن يكون هذا وذاك جناحَي المشروع الصهيوني للمرحلة القادمة.

معي أبنائي بناتي: اسمعوا هذه العبارة لأنها تمثّل جوهر الاستراتيجية الصهيونية أو الهدف الأساسي للمشروع الصهيوني في المرحلة التي أسموها بالحرب الباردة. نحن نسميها في عالمنا العربي: مرحلة سلام. وبدأ البعض يتكلم عن ثقافة السلام، ومشروع السلام العربي الإسرائيلي؛ لكن هُم يسمّونها عندهم: مرحلة الحرب الباردة. جناحا هذا المشروع الصهيوني هو: طرد الفلسطينيِّين الذين هم داخل إسرائيل، وهم ما يُسمَّوْن بعرب ٤٨ من أرض إسرائيل. والجناح الثاني هو: تفكيك

المنطقة العربية إلى ما يشبه بالفسيفساء، قطَع صغيرة على الخريطة الجغرافية للعالم.

وقد نشر (جازيت) مقاله في مجلة "كيفونيم" الذي نشَره التنظيم الصهيوني العالمي بالقدس في عدد ١٤ فبراير عام ١٩٨٢م. لَمَّح هذا الجنرال -وهو (جازيت) رئيس جامعة (بنجوريون)- في هذا المشروع إلى نقاط على جانب كبير من الأهمية، سوف أطرحها على حضراتكم لأنها تنفّذ الآن يومًا بعد يوم على أرض الواقع. يَعرض استراتيجية إسرائيل في المرحلة القادمة. وهذه الإستراتيجية -أيها الإخوة- أتمنّى أن يقرأها العالَم، وأن يقرأها كلّ شباب يريد أن يعرف حقيقة المنطقة وما يجري فيها بين إسرائيل والعرب لأنها تُعرّي الكيان الصهيوني وتُعرّي السياسة الإسرائيلية، وتُعرِّي وتكشف عن زيف وتضليل الإعلانات التي يُعلنها ساسة إسرائيل عن أنهم يريدون السلام مع العرب ومع فلسطين.

وفي هذه المقالة عرضت الخطوط العريضة للاستراتيجية الصهيونية للتعامل مع العرب، وجاء فيها:

إنّ أحد الأهداف الرئيسية للاتحاد السوفييتي هو: أن يلحق الهزيمة بالغرب. كانت هذه الوثيقة سنة ١٩٨٢م. وذلك بأن يملك التحكم في الموارد الهائلة للبترول في الخليج الفارسي وفي جنوب أفريقيا، حيث تركّزت أغلبية الموارد العالمية. ونحن نستطيع تصوّر أبعاد هذه المواجهة على مستوى البسيطة، وهي المواجهة التي سوف نعيشها في المستقبل. روسيا كانت -حسب ما يتصوّرون- تريد السيطرة على موارد النفط في الخليج العربي، فلا بدّ من العمل على حرمانها من الحصول على هذا الهدف. وقد وقع فعلًا؛ فعملوا على تفكيك الاتحاد السوفيتي، ووقعت حرب الخليج الأولى والثانية، ثم تم لهم السيطرة الكاملة على مواقع النفط وآبار النفط في الخليج العربي.

وقد يصل المشروع الصهيوني إلى نتائجه بعد أن تمّ لأمريكا تمامًا وضْع يدها على

العراق، وبالتالي على مواضع أو آبار النفط في منطقة الخليج. وهذا كان يمثِّل الهدف الأول في استراتيجية الحركة الصهيونية في المنطقة في مرحلة ما بعد حرب ١٩٧٣م أو ما يسمّى بالحرب الباردة. هذا بالنسبة إلى موقفهم من الاتحاد السوفيتي.

نأتي إلى موقفهم من العالم العربي. من المعلوم: أن مصر قد استعادت سيناء، لكن هذا الموقف لم يرضِ الحركة الصهيونية؛ فكان لا بد من العمل على استعادتها مرة ثانية. ولذلك جاء في هذه الوثيقة ما يلي: "إن استعادة أرض سيناء بمواردها الراهنة هدف ذو أولوية، تحول دون الوصول إليه حتى الآن اتفاقية "كامب ديفيد" واتفاقيات السلام؛ وبذلك حُرمنا من البترول ومن الموارد التي تصدر عنه، وتحمّلنا نفقات باهظة في هذا المجال. ويجب علينا أن نعمل حتى نستعيد الوضع الذي كان في سيناء قبل زيارة أنور السادات للقدس والاتفاق التعيس الموقّع عليه عام ١٩٧٩م".

هذا هو البند الثاني في هذه الإستراتيجية الإسرائيلية، هو: موقفها من مصر. يضاف إلى ذلك بالنسبة إلى مصر بالذات: نصّت الوثيقة على ما يلي: إنّ الحالة الاقتصادية في مصر وطبيعة نظامها وسياستها القومية العربية سوف تُسفر عن موقف يفرض على إسرائيل أن تتدخّل، ومصر بفعل صراعاتها الداخلية لم تَعُد تمثل بالنسبة إلينا أيّة مشكلة استراتيجية. ولسوف يكون من اليسير: أن نردّها إلى الوضع الذي عاشتْه والذي كانت عليه عقب حرب يونية ١٩٦٧م في أقلّ من ٢٤ ساعة".

يعني: يريدون أو يشيرون إلى ضرورة الاستيلاء على سيناء والوصول إلى قناة السويس مرة ثانية إذا لزم الأمر في أقلّ من ٢٤ ساعة. ثم يبرّرون ذلك بأن الأسطورة القائلة بأنّ مصر هي زعيمة العالم العربي قد فقدت هذه الأسطورة قيمتها في مواجهة إسرائيل خاصة بعد هزيمة ٦٧، وربما استطاعت أن تفيد على المدى القصير من استعادة سيناء،

ولكن ذلك لن يغيِّر تغييرًا عميقًا علاقة القوة بمصر. فمصر من حيث هي جسد مركزي قد صارت جثّة هامدة، ولا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار المواجهة التي تتزايد قسوتها بين المسلمين والأقباط. إن انقسامها إلى أقاليم جغرافية منفصلة يجب أن يكون هدفنا السياسي خلال التسعينات، وخلال الألفيّة الثالثة.

انقسام مصر إلى إقليميْن: جنوب وشمال، أو ديانتين: مسلمين وأقباط. ولا يخفى على حضراتكم: أنّ كلّ حركة تتّصل بالفتنة الطائفية تقع في المنطقة العربية -عمومًا ولا أقول في مصر فقط- عليك أن تبحث عن أصابع الصهيونية وراءها.

ثم تكمل الوثيقة بما يلي: "فإذا ما تصدّعت مصر على هذا النحو، وحُرمت من أي سلطة مركزية في العالم العربي، فإن بلادًا أخرى مثل: ليبيا والسودان، وما هو أبعد منهما كالجزائر وتونس والمغرب سوف تواجه نفس الانفصال. فإنشاء دولة قبطية في صعيد مصر، وإنشاء دويلات أخرى إقليمية ذات أهمية ضعيفة هو مفتاح التطور التاريخي الذي أرجأه حاليًا اتفاقية السلام في "كامب ديفيد"؛ لكن ينبغي أن نعلم أن هذا أمر محتوم لا بدّ منه على المدى الطويل".

ثم ماذا؟ إذا انتقلنا إلى موقف الوثيقة من لبنان، ماذا تقول هذه الوثيقة؟

تقول: "إن تقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم تعطينا مقدّمًا صورة واقعية عمّا سوف يحدث في مجموع العالم العربي. فتفجير سوريا والعراق إلى أقاليم محدودة على أساس مقياس عِرقي أو ديني يجب أن يكون هدفًا أساسيًّا على المدى الطويل، وأن يكون هدفًا ذا أولوية بالنسبة لنا. والمرحلة الأولى التي لا بدّ أن نبدأ بها هي: تدمير القوة العسكرية لدى هذه الدول".

ثم ماذا بالنسبة لسوريا؟

تقول الوثيقة: "إن البنية العرقية لسوريا تُعرِّضها لتفكّك قد ينتهي بها إلى إنشاء دولة شيعية على طول الشاطئ، ودولة سُنِّية في منطقة حلب، ودولة أخرى في دِمشق، ثم وحدة درزية يمكن أن تطمح إلى إنشاء دولة لها ربما على أرض الجولان وهي تتكامل في كل حال مع شمال الأردن. إن دولة كهذه سوف تكون على المدى الطويل ضمانًا لسلام إسرائيل، وضمانًا للأمن في المنطقة، وهي هدف مقرّر في موضع اهتمامنا. هذا بالنسبة لسوريا.

ماذا بالنسبة للعراق؟

تقول الوثيقة: "أمّا العراق الغني بالبترول، وبالصراعات الداخلية العرقية والطائفية والدينية، فهو على خط التسديد الإسرائيلي -كلمة "التسديد" أكثر من كلمة "المواجهة"، يعني: هو أمام أعيننا لا يغيب عنا- فتفكيكه بالنسبة إلينا أعظم أهمّية من تفكيك سوريا. لماذا؟ لأنه يمثِّل على المدى القصير أعظم تهديد بالنسبة إلى إسرائيل؛ ولذلك إن حربًا سوريّة عراقية سوف تفيد في تذويبه من الداخل قبل أن يكون، بحيث يندفع في صراع واسع ضدنا.

إنّ كل شكل من أشكال المواجهة بين العرب بعضهم وبعض هو يفيدنا كثيرًا، وهو يعجل بساعة التفجير، وبساعة الانتصار الأخير. ولقد تؤدي هذه الحروب الداخلية بين البلدان العربية بعضها وبعض، أو بينها وضدّ إيران، إلى التعجيل بهذه الظاهرة المعبّرة عن الاستقطاب وعن الانتصار الأخير لحركتنا الصهيونية، والاستيلاء على أرض الميعاد".

لاحظوا معي: أن الوثيقة تناولت البلاد العربية بلدًا بلدًا. أريد -أيها الإخوة-: أن تطّلعوا على هذه الوثيقة، وأن تجعلوها أمام أعينكم، لأنها تفسِّر لنا الآن ما يجري في الواقع العربي بالنسبة لإسرائيل، وما تفعله أمريكا أو ما تفعله إسرائيل

بالسلاح الأمريكي وبالجند الأمريكي على الأرض العربية.

ماذا تقول الوثيقة بالنسبة للجزيرة العربية؟ تقول الوثيقة : "أما شبه الجزيرة العربية ، فهي مهيأة بأكملها لتحلُّل من هذا النوع ، بفعل الضغوط الداخلية. وتلك هي بخاصة حال المملكة العربية السعودية ؛ فإن تعاظم الصراعات الداخلية ، وسقوط النظام هما جزء من منطق البنيات السياسية الراهنة. وقد تتيح لنا الحركة الداخلية في شبه الجزيرة العربية بيْن سكان الولايات أو الإمارات بعضهم ببعض قد يؤجل لنا التدخل المباشر ؛ لأنها قد يقضي بعضها على بعض. هذا بالنسبة للجزيرة العربية".

أمّا الأردن ، فهو هدف إستراتيجي عاجل ، وهو على المدى الطويل لن يكون بوسْعه أن يشكل تهديدًا لنا ، ولا بأس أن نُرجئ موقفنا منه إلى نهاية الطريق ، لأنّ في النهاية قد نجده قد تحلّل عرقيًّا ؛ فنهاية الملك حسين ونهاية الذرية الحسينية ونقْل السلطة إلى أيدي الأغلبية الفلسطينية الموجودة في الأردن قضية تاريخية ، إذا لم تتحقق الآن فإنّ التاريخ سوف يعجل بها في المستقبل. وينبغي أن تتوجّه إلى ذلك سياستنا الإسرائيلية ، تتوجّه إلى محاولة نقل السلطة من الأسرة الحسينية إلى الأغلبية الفلسطينية الموجودة في الأردن. وهذا التغيير يعني : حلّ مشكلة الضفة الغربية ذات الكثافة السكانية العربية ، وبالتالي سوف يحلّ لنا مشكلة عرب ٤٨ القابعين في أرض إسرائيل.

إن تهجير هؤلاء العرب إلى الشرق في ظروف سلام أو على أثر حروب ، وتجميد نموّهم الاقتصادي والسكاني فيه ضمان لنا. ويجب أن نعمل كلّ ما في وسعنا لتعجيل هذه العملية. يجب أن نرفض خطة الاستقلال الذاتي وأية خطة قد تستتبع تسوية سلمية في المنطقة ، أو اشتراكًا في الأراضي مع فلسطين ، أو تضع عقبة في طريق انفصال الأمّتين ، وهي شروط لازمة لتعايش سلمي حقيقي".

هذه -أيها الإخوة- بعض الفقرات المتعلّقة بالبلاد العربية التي يمكن أن نسمّيها: بلاد الطوق المحيطة بإسرائيل -كما ترَوْن- تناولتها الوثيقة بلدًا بلدًا، وفصّلت القول فيما ينبغي على إسرائيل أن تفعله مع هذه البلاد أو تلك. وقد بدأت فعلًا بالعراق، والموقف العراقي يمهّد له منذ أوائل التسعينات. ولعلّ حرب إيران والعراق كان مقدّمة طبيعية لإنهاك القوّتين لصالح إسرائيل، ولصالح الأهداف الصهيونية في المنطقة.

ثم كان التدخل والاحتلال الأخير للعراق بداية لمرحلة استعمارية جديدة بدأت بها الألفية الثالثة في المنطقة، ربما من وجهة نظرهم تحقيقًا للنبوءات التي يدّعونها، وربما لأهداف اقتصادية وراء البترول الموجود في المنطقة، وربما لصالح الحركة الصهيونية العالمية. على أية حال، نحن نقرأ في الواقع أمامنا الآن تطبيقًا عمليًّا لهذه الوثيقة التي وضعها (جازيت) رئيس جامعة (بنجوريون) والتي تعتبر بمثابة ورقة عمل للسياسة الإسرائيلية في المنطقة الآن، أو إن شئتم الدقة: للسياسة الأمريكية التي تنفّذ لصالح الحركة الصهيونية في إسرائيل وفي العالم.

ثم تختتم الوثيقة بقولها: "إن على العرب الإسرائيليِّين الذين هم أصلًا فلسطينيون: أن يفهموا أنهم لن يكون لهم وطن إلاّ في الأردن، وأنهم لن يعرفوا الأمن إلاّ إذا اعترفوا بالسيادة اليهودية بين البحر ونهر الأردن. فلم يعد ممكنًا إذًا ونحن ندخل العصر النووي ونتأهل لاستعماله: أن نقبل أن يتجسّد ويتكدّس ثلاثة أرباع الشعب اليهودي على ساحل مكتظّ ومعرّض للخطر. ولا بد من توزيع هؤلاء السكان، وأن يكون توزيعهم هدفًا في سياستنا الداخلية؛ يوزّعوا على يهوذا والسامرة والجليل والجولان وبقية أراضينا التي وعدَنا بها الرب، والتي تمتدّ من النيل إلى الفرات، حتى يُعاد توازن المنطقة على المستوى السكاني

والاستراتيجي والاقتصادي. هذا هو مطمحنا الذي نسعى إليه، والذي لا بدّ من تحقيقه إن لم يكن في جيلنا ففي الأجيال القادمة.

هذه -أيها الإخوة- الوثيقة التي تلوْت على حضراتكم بعضَ ما جاء فيها، والتي تنفّذ الآن على أرض الواقع بندًا بندًا. وما يجري في العراق يُعدّ لنظيره في بقية البلاد العربية.

ولعلكم تلاحظون معي: أن أصابع الحركة الصهيونية تلعب الآن في دارفور، وفي جنوب السودان، وتلعب الآن في لبنان. وما يجري في لبنان ليس ببعيد عن أعيننا. وتؤهل سوريا لدخولها على خريطة الاهتمام الصهيوني. ولعلّكم تلاحظون: أن الحركة قد بدأت تمدّ يدها إلى بعض البلدان الهادئة نسبيًّا لتحرّك ما فيها من مياهٍ راكدة.

العقيدة الدينية للحركة الصهيونية

يبقى أمامنا نقطتان مهمّتان:

النقطة الأولى: تتعلق بالنصوص المقدّسة التي يؤمن بها هؤلاء، والتي تجسِّد العقيدة الدينية للحركة الصهيونية في تعاملها مع العرب ومع غيرهم عمومًا.

أما النقطة الثانية: فتتعلّق بطرح سؤال: ما العمل؟ كيف يواجه العرب والمسلمون هذه الهجمة الصهيونية الشرسة على الإسلام وعلى المسلمين، وعلى أرض فلسطين عمومًا؟

أمّا بالنسبة للنقطة الأولى: التي تتعلّق بالنصوص المقدّسة، فسوف أقتصر فيها على الجانب الذي يتعلّق بأخلاقيات الحركة الصهيونية، الأخلاقيات التي تمثِّل العقيدة السلوكية في تعاملهم مع الغير، وتعاملهم مع الله. أمّا العقيدة الدينية التي تمثّل علاقتهم

بالله واليوم الآخِرِ وما إلى ذلك، فربّما لا نحتاج إليها في مثْل هذا المقام؛ ولذلك سوف أركِّز على أخلاقيات الحرب عند اليهود والحركة الصهيونية، وأخلاقيات التعامل بين الصهيوني أو اليهودي وغيره. وهذه النصوص موجودة في الأسفار في العهد القديم، وقد مثّلتْ ما يُشبه بالمتن في التلمود، ويتعبّد بها أبناء صهيون إلى الآن.

أمّا بالنسبة لآداب أو أخلاقيات الجهاد أو الحرب، فليس عندهم مصطلح "جهاد"، وإنما عندهم "حرب"؛ فيبدؤون من مسلّمات، هذه المسلّمات هي: أنّ الرب أمَرَهم بالدفاع عن الأرض المقدسة. وكان شعارهم -كما قلنا في لقاء سابق-: "أنّ كلّ مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان، من النهر -نهر الفرات- إلى البحر الغربي، يكون تخمكم لا يقف إنسان في وجهكم". معنى هذا: أنّ النص المقدّس رسَم لهم خريطة الأرض التي لا بدّ أن يستوْلُوا عليها ويجعلوها أرض ميعاد لهم. هذا النص موجود في سفر التثنية ١١/ ٢٤.

ثم أمَرهم موسى بتحقيق ذلك؛ حيث جاء في الأسفار ما يلي: "كفاكم قعودًا في هذا الجبل! تحوّلوا وارتحِلوا وادخلوا جبل الأموريين، وكل ما يليه من الأرض العربية، والجبل والسهل، والجنوب وساحل البحر، وأرض الكنعانيين، ولبنان إلى النهر الكبير -نهر الفرات-! انظروا! قد جعلتُ أمامكم الأرض! ادخلوا وتملّكوا! تملّكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولِنَسْلهم من بَعْدِهم!". هذا النص في سفر التثنية ١/ ٦. معنى هذا: أن الحرب عقيدة صهيونية يهودية للاستيلاء على هذه الأرض.

أباحت لهم النصوص أيضًا: إبادة كلّ حيّ، وقطْع كلِّ أخضر، وحرْق كلِّ يابس من أجْل الاستيلاء على هذه الأرض. وكان ذلك كلّه يمثِّل عقيدة وأمرًا إلهيًّا. فقد جاء في "سِفر التثنية" في الإصحاح ١٢ ما يلي: "أن الرب أمَر يشوع بحرب وحرْق

مدينة عاي. ورسَم له خطّة الحرب، وكيفية إعداده لكمين قويّ يقتل فيه الرجال والنساء. وقد استجاب يشوع لهذه التعاليم، ثم الاستيلاء على الأرض وتقسيمها، مع طرْد السكان أو قتْلهم وأسْرهم".

ورد في "سِفر العدد" حيث جاء: "وكلّم الرّب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلًا: كلِّمْ بني إسرائيل وقُل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كلّ سكان الأرض من أمامكم، وتَمْحون جميع تصاويرهم، وتُبيدون كلّ أصنامهم المسبوكة، وتُخرجون جميع مرتفعاتهم وتملكون الأرض، وتسكنون فيها؛ لأني قد أعطيْتكم الأرض لكي تَمْلكوها وتقسمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم، يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها؛ فيكون أني أفعل بكم كما همَمْت أن أفعل بهم".

لاحظ النص يا أخي الكريم: "وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم، يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها". فكأنّ المطلوب بمقتضى الأمر الإلهي: إبادة جميع السكان أو طرْدهم. إذاً هي حرب عقائدية. هذا النص جاء في "سفر العدد"، إصحاح ٣٣، من ٥٠ إلى ٥٦.

"فإذا ما سلمت المدينة نفسها لكم، فإنّ الحاكم مخيّر في أمْرها بين القتل والسّلب والنّهب والاسترقاق". يؤكِّد ذلك: ما جاء في الأسفار حيث ورد ما يلي: "الاستعباد حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، استدْعِها للصلح؛ فإن أجابتك للصلح وفتحتْ لك فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبد لك،

ثم قتْل الرجال وحرْق المُدن والحقول، واسترقاق النساء والأطفال، وأخْذ الأموال غنائم. فتَجنّدوا على مديان كما أمر الرب، وقتّلوا كل ذكَر وملوك مديان! قتِّلوهم فوق قتلاهم، واسبُوا نساءهم وأطفالهم! وانهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكلّ أملاكهم! واحرقوا جميع مُدنهم بمساكنهم وجميع حقولهم بالنار! وخذوا كلّ الغنيمة وكلّ النهب من النساء والبهائم!". هذا النص في "سفر العدد"، إصحاح ٣١، من ٨ إلى ١٢.

ثم التمثيل والوحشية حين القتل، حيث ورد في "سفر صموائيل": "وأخرج داود الشعب الذي فيها ووضعهم تحت المناشير، ونوارج من حديد وفؤوس من حديد، وأمرهم في أتون. وهكذا صنع بجميع مدن عمون". "أتون" -يعني: في أفران للحرق-. ثم قتل الجميع الرجال والنساء والأطفال. ورد في "سفر العدد". وبذلك لا يرى اليهود أيّ حرج حين القتل، لا يحول بينهم وبين تحقيق أغراضهم أيّ قيمة أخلاقية ولا إنسانية؛ لأنهم حسب هذه العقيدة ينفِّذون تعاليم الرب.

هذه هي العقيدة الأخلاقية للحرب التي تَدين بها الحركة الصهيونية في تعاملها مع أرض فلسطين، ومع أهل فلسطين الآن؛ لذلك لا عجب أن ترى الجندي الإسرائيلي يقتل الطفل والمرأة ويحرق البيت، ويهدم البيت، ويخلع الزروع ويحرقها، ويوقدون النار في منازل الفلسطينيِّين؛ لأنهم بذلك ينفِّذون تعاليم الرب.

والسؤال: هل يؤمن عقلٌ: أن هناك ربّ يأمر بهذه التعاليم، ويجعلها عبادةً وعقيدة يدين بها عباده؟ أترك الإجابة للمستمعين لكي نعلم أنّ القرآن الكريم حين يقصّ علينا أنّ التوراة حُرِّفت وبُدِّلت يأتي الواقع ليؤكِّد صِدْق ما قصّه القرآن علينا.

أنتقل الآن إلى الجانب الأخلاقي في تعاملات اليهود: وأوّل ما نلحظه في هذا الجانب: أنها أخلاق في التعامل تَدين بالعنصرية، عنصرية العِرق والدم والجنس، لأنهم يؤمنون بمبادئ في منتهى السوء. ويمكن إيجازها فيما يلي:

المبدأ الأوّل: أنهم يؤمنون بأفضليّتهم على سائر البشر. وهذا المبدأ الذي يَدينون به يستندون فيه إلى نصوص وردت في أسفار التوراة؛ حيث ورد ما يلي في "سفر التثنية" في الإصحاح السابع: "إياكِ قد اختار الرب إلهك لتكون شعبًا -وهو شعب إسرائيل- أخصّه من جميع الشعوب الذين على وجْه الأرض. ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم؛ لأنكم أقلّ من سائر الشعوب، بل من محبة الرب إياكم، وحفْظه القَسَم الذي أقسم لآبائكم. أخرجكم الرب بيد شديدة وفداكم من العبودية لّما اصطفاهم، ليس لأكثرية العدد، ولا لأقلية العدد، بل من أجْل محبة الرب إياكم".

ثم جاء في "سِفر الخروج" ما يلي: "فإنّ لي كلَّ الأرض، وأنتم تكونون لي مملكة كهَنة وأمّة مقدّسة". هذه هي الكلمات التي تكلّم بها الرب مع بني إسرائيل: "تكونون لي مملكة وكهَنة وأمّة مقدّسة". ثم: "وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعبًا خاصًا به كما قال لك، وتحفظ جميع وصاياه، وأن يجعلك مستعلياً على جميع القبائل التي عملها في الثناء، وأن تكون شعبًا مقدسًا للرب إلهك". هذا في "سفر التثنية" إصحاح ٢٦، ١٩.

"وأتخذكم لي شعبًا، وأكون لكم إلهًا؛ فتعلمون أنّي أنا الرب إلهكم الذي يُخرجكم من تحت أثقال المصريِّين".

ويمكن الرجوع إلى الأسفار المقدسة لتقرؤوا فيها هذه النصوص التي لا حصر لها، والتي تدلّ وتنطق بالعنصرية القاتلة التي تجعل الأفضلية صفةً مميّزة لهذا الشعب على سائر شعوب العالم.

ومن المهمّ أن أشير هنا إلى نقطة: أن الله ﷻ قد ذكَر في القرآن الكريم أنه فضّل إسرائيل على جميع الشعوب حين كانوا يستحقّون هذه الأفضلية؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم أن الله تعالى يُذكِّرهم بهذه النعمة، ويقول لهم: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧]. لكن هل هذه الأفضلية خصوصية للعِرق والدم والجنس، أم أنها كانت جزاء لسلوك معيّن تضمّن تنفيذ تعاليم الإله ﷻ أمرًا ونهيًا؟ هذا هو السؤال.

ظن بنو إسرائيل خطأً: أن هذه الأفضلية مِيزة استحقّوها وخصّهم الله بها دون سائر شعوب الأرض وصارت خاصية لهم على طول التاريخ، وأخذوا من ذلك أنه يُمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤوا ممّا يغضب الرب ومع ذلك يظلّون أفضل الشعوب، وأخصّ الشعوب. لكن نجد القرآن الكريم يُبيِّن لنا: أن هذه الأفضلية لها ثمن وهو: تنفيذ أوامر الله ﷻ: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، نجد القرآن الكريم يبيِّن لنا: أنّ هذه الأفضلية لّما زال سببها زالت لأنها ليست خصوصيّة لا لأمة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لفرد، وإنما هي نتيجة لعمل؛ فمَن سارع بالعمل حاز هذه الأفضلية؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم: ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ ﴾ [النساء: ١٦٠]. ظلْم. ونجد في القرآن الكريم: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾ [المائدة: ٧٨]، لماذا لُعنوا؟ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ

﴿يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]. العصيان والظلم والاعتداء. ثم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]؛ فصار المنكر عُرفًا والعُرف منكرًا أو المعروف منكرًا. بدّلوا وغيّروا، فاستحقوا الطّرد واللّعن من رحمة الله ﷻ. فكأن الأفضلية كانت ميزة لهم حين استحقّوها بعملهم، فلمّا نكصوا واعتدَوا وظلموا وشاع بينهم المنكر والفاحشة طُردوا من رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾. ولذلك ليست هذه الأفضلية خاصية، وإنما هي نتيجة لعمل -كما قلت-؛ مَن بادر بالعمل حاز الأفضلية، يهوديّ أو غير يهوديّ.

هذه النصوص انعكست على التلمود، فوجدنا أنّ نصوص التلمود تُصرِّح بما هو ألعن وأخزى وأسوأ ممّا في هذه النصوص؛ حيث نجد: أن التلمود يُحدِّد قرابة اليهودي لليهودي بأنها ميزة يجب أن يعامل مِن منطلقها معاملة أحسن من غير اليهودي. وترتّب على هذا: أننا وجدنا في التلمود أن النطفة المخلوق منها اليهودي نطفة خاصّة، أمّا النطفة التي خُلقت منها بقية الشعوب هي نطفة حصان. وعندهم: أنّ الكلب أفضل من الأجنبي؛ لأنه مصرَّح لليهودي في الأعياد أن يُطعم الكلب، وليس مصرَّحاً له أن يُطعم الأجنبي.

هذه نصوص موجودة في التلمود. وقريب اليهودي هو اليهودي، أمّا باقي الناس فهي حيوانات في صورة إنسان. هم حمير وكلاب وخنازير؛ فإذا ضرب أمّي إسرائيليًّا، فكأنه ضرب العزة الإلهية. إذا ضرب أمّي إسرائيليًّا، فالأمّي يستحق الموت. ولو لم يُخلق اليهودي لانعدمت البركة من الأرض، ولما خُلقت الأمطار والشمس.

هذه نصوص يتعبّد بها اليهودي في تعامله مع غير اليهودي، ومعاملة الربا، قال

المرابي (مناحم): "أيها اليهود، إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله، وأمّا باقي الأمم فليست كذلك لأن أرواحهم مصدرها الروح النجس". هذا أيها الإخوة موجود في "الكنز المرصود في الحديث عن التلمود".

ومن مبادئهم أيضًا: أن الغاية تُبرّر الوسيلة؛ ولذلك نجد على طول امتداد الحركة الصهيونية: أنهم لا يحترمون العهود ولا المواثيق. وقد صرّح القرآن الكريم بذلك، وأكّد الواقع هذه القضية. ونجد في نصوص العهد القديم ما يؤكِّد هذا؛ فلا اعتبار لخُلق ولا دين عندهم؛ لأن الغاية هي تُبرِّر الوسيلة. ولذلك ظلموا الأنبياء والمرسلين، ونسبوا إليهم أسوأ الأفعال وأقبح الأخلاق. ولا نجد في وصفهم لله ولليهود وللأنبياء ما يُنبئ عن ذرَّة من العقل أو مُسكةٌ من الخُلق. فيزعم اليهوديُّ: أنَّ إبراهيم قد تاجر بزوجته من أجْل كسب مادي؛ وقد تكرر ذلك مرّتين. وأنه طرد هاجر بولدها لينال رضى سارّة. وهذا موجود في "سِفر التكوين". يزعم اليهود: أن ابنتَي لوط قد سقَتا أباهما خمرًا من أجْل الحصول على ولد منه. يعني: ولد الزنى. وهذا موجود في "سِفر التكوين" آية: ١٩.

لا أريد أن أطيل في ذكْر هذه النصوص، ولكن سوف أجتزئ بعض النصوص التي تبيِّن: أنّ ما يفعله الصهيوني المعاصر يفعله مِن واقع نصوص هو يؤمن بها ويَدين بها ويعتقد صحّتها. فعندهم: "أن يعقوب قد خدع أباه مستغلًّا عماه، لينال منه حقّ البكورية؛ وذلك بارتدائه جلد ماعز حول ذراعيه، وتقليد أخيه عيسو في صوته ليتحقّق له ما يريد". وهذا موجود في "سِفر التكوين"، إصحاح ٢٧، آية: ١٣.

يؤمن اليهودي بأنَّ الفاحشة مع غير اليهودية لا تُعدّ فاحشة لأنها غير مؤمنة؛ بل عنده: أنها غير إنسانة. وهناك نصوص وردت على ألْسنة علمائهم تؤيِّد ذلك:

"إنّ لليهودي الحق في اغتصاب النساء الغير مؤمنات" أي: غير اليهوديات. وعندهم: أن الزنى بغير اليهوديات ذكورًا كانوا أو إناثًا لا عقاب عليه؛ لأن الأجانب من نَسْل الحيوانات.

لا ضير على اليهودي: أن يَكذب أو يحلف كذبًا إذا تعارض ذلك مع مصلحته، مِن منطلق: أنّ الغاية عندهم تُبرِّر الوسيلة. لا ضير على اليهودي: إذا قتل غير اليهودي لأنه لا حرمة له. وقد حصر بعض الباحثين عددَ مَن ذَبَحهم اليهود في عيد الفصح في بعض السنوات، فوجدهم عددًا هائلًا جدًّا. وذكَر البعض: أن اليهود يتقرّبون إلى الله بقتْل غير اليهودي. فجاء من نصوص التلمود: "اقتلوا الصالح من غير الإسرائيليِّين! ومُحرّم على اليهودي: أن يُنجي أحدًا من باقي الأمم من هلاك، أو يُخرجه من حُفرة يقع فيها؛ لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيِّين. من العدل: أن يقتل اليهودي بيده كلّ كافر -يعني: غير اليهودي- لأنّ من يسفك دم الكافر يتقرّب إلى الله".

هذه النصوص -أيها الإخوة- تؤكِّد لنا: أنّ أخلاقيات التعامل بين اليهودي وغير اليهودي، من الغش، والتعامل بالربا، وارتكاب الفواحش، بل العمل على إشاعة الفاحشة بين الشعوب هم يقومون بها من منطلق فكْر عقائدي، وتنفيذ لوصايا هم يؤمنون بها ويدّعون أنها نزلت على أنبياء الله في كتبهم المقدسة؛ وهذا كله دليل على التزييف والتبديل والتحريف، وسبحان الله أن يقول شيئًا من ذلك، وحاشا لله أن يُنزل من وحْيه أو يوحْيه على بعض أنبيائه شيئًا من ذلك؛ بل صدق الله حين يقول: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٦]. ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٧٩].

سبُل مواجهة الحركة الصهيونية

أنتقل بعد ذلك إلى النقطة الأخيرة في هذا الموضوع وهي: طرْح السؤال الآتي: ما هي وسائل المواجهة لهذه التيارات وهذه المواقف الصهيونية من العالم الإسلامي ومن الإسلام؟

للإجابة عن هذا السؤال: أرى أنه من الإنصاف أن نصارح أنفسنا بعيوبنا أولًا، وبعِلَلنا وأمراضنا أولًا؛ لأن العالَم الإسلامي يحتاج إلى مَن يكاشفه بعِلَله وأمراضه، فإذا ما صحّ وصْف العِلل وصدَق تشخيص المرض، فهذا يَختصر لنا الطريق للبحث عن العلاج الناجح.

وأوّل العلل والأمراض التي نواجهها هي: حالة التشرذم والتّفرّق والتحزّب التي يعيشها العالم الإسلامي. هذه الحالة من التشرذم والتّفرّق والتّحزّب ينبغي أن نواجهها بما أمَرنا به دينُنا من الوحدة والاعتصام بأمر الله؛ فكل شيء في ديننا يدعو إلى الوحدة. ليس القصد من الوحدة: مواجهة الآخَر، وإنما القوة الذاتية: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ففي الوحدة القوة، وفي الوحدة بداية عوامل النصر، وفي الوحدة مؤازرة ومناصرة لأصحاب الحقوق. وهذا ما أمَرنا به دينُنا. كلُّ شعائرنا الدينية تدعونا إلى الوحدة.

ففي صلاتنا نتّجه إلى قِبلة واحدة. في صيامنا نصوم شهرًا واحدًا، ونفطر في وقت واحد، ونمتنع عن الطعام والشراب في وقت واحد. في زكاتنا نتعامل بمعيار واحد. في كلّ شعائرنا رمْز من رموز الوحدة. فلماذا لا نتّحد كما أمَرنا دينُنا وكما أشارت إلينا شعائرنا وطقوسنا الدينيّة؟ الوحدة -أيها المسلمون-: اعتصام بأمر الله؛ وهذا هو بداية الطريق: الوحدة والعودة إلى الله.

النقطة الثانية: أنه لا بدّ مِن نقْل القضية الفلسطينية من حيِّزها الفلسطيني وحيِّزها العربيّ إلى وضْعها الطبيعي. فهي قضية إسلامية بالدرجة الأولى، ليست قضية إقليمية تخصّ شعبًا بمفرده -الشعب الفلسطيني-، وليست خاصّة بالأمة العربية وحْدها؛ وإنما هي قضية إسلامية؛ لأنها تخصّ أولى القبْلتين وثالث الحرميْن الشريفيْن. وهي مقرٌّ ومعبَد دينيٌّ: ((لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى))؛ ولذلك فإنّ زيارة المسجد الأقصى شعيرة دينيّة يؤمن بها كل مسلم في شرق العالَم وغرْبه.

النقطة الثالثة: ينبغي أن نعود إلى كتاب ربِّنا لنستقي منه أخلاقيات اليهود التي يعاملوننا بها الآن، والتي أكّدها الواقع، والتي أكّدتْها المواثيق التي تلوْتها عليكم في المحاضرات السابقة. فإنّ مِن صفات اليهود ومِن خصائص اليهود، ومِن أخلاقيات اليهود: التطاول على الله، والتطاول على الأنبياء، وتحريف كلام الله ووحْيه، واحتقار الأمم الأخرى والعدوان عليها، ثم إثارة الفتن والقلاقل والحروب والإفساد في الأرض: ﴿ أَوۡقَدُواْ نَارًا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ ﴾ [المائدة: ٦٤]. ونحن كمسلمين نسالم مَن يُسالمنا، ونمدّ يد السلام لكلّ مَن مدّ يد السلام إلينا. والواقع الذي نعيشه الآن: أن العرب في حالة سلام مع الحركة الصهيونية، لكنّ الوثيقة التي تلوْتُها عليكم تؤكِّد غير ذلك.

الماسونية (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الماسونية: معنًى، وتاريخًا	٤٠٣
العنصر الثاني :	طبقات الماسونية	٤١٢
العنصر الثالث :	درجات الماسونية ورموزها وأهمية الدرجة ٣٣	٤١٧
العنصر الرابع :	موقف الماسونية من الأديان عموما	٤٢٠
العنصر الخامس :	المبادئ المشتركة بين التنظيم الماسوني والصهيونية العالمية	٤٢٥

الماســونية: معنًــى، وتاريخًــا

ننتقل الآن بالحديث إلى الجناح الآخَر من النشاط اليهودي العالمي في العالم، هذا الجناح هو: ما يسمّى بالماسونية العالمية؛ لأن الماسونية والصهيونية هما وجهان لعُملة واحدة هي: اليهودية، هي: النشاط اليهودي العالمي، هي: موقف اليهود من العالَم ككلّ من الآخَر، من حركات التمرد العالمية التي دبّرتْها الصهيونية والماسونية العالمية ضد الحكومات المناوئة والمعارضة للفكر اليهودي والفكر الصهيوني والماسونية العالمية. ولذلك سوف نجد أنّ حديثنا عن الماسونية يُشبه إلى حد كبير ما سبق أن قلناه عن الحركة الصهيونية العالمية.

فإذا كانت الصهيونية حريصة على أن يكون نشاطها محاطًا بنوع من السرية والكتمان أحيانًا، والإعلان والإفصاح أحيانًا أخرى، فإننا نجد الماسونية العالمية كلّ نشاطها محوط بالسرية والكتمان الشديد، لدرجة أنّ جميع المؤرِّخين بلا استثناء قد ساوَرهم الشك في تاريخ هذا النشاط الماسوني؛ فلم نجد مؤرِّخًا يتّفق مع مؤرِّخ آخَر حول تحديد النشأة التاريخية للنشاط الماسوني العالمي، ولا لِمن يعتبر أوّل مَن مارس هذا النشاط أو نظّمه أو أعدّ له، وإنما هي كلها آراء تقريبية؛ لأن مِن شرط النشاط الماسوني نفسه هو الكتمان والسرية وعدم الإعلان، حتى إننا نجد الماسونيِّين الملتحقين بالمحافل الماسونية أنفسهم لا يطّلعون على أسرار الماسونية إلا بعد أن يجتازوا مراحل عدّة، وينتقلوا من مرحلة إلى مرحلة حتى يسمح لهم بالإفصاح عن بعض الأسرار التي تتعامل بها الماسونية. ومن هنا نجد أنّ الكتمان والسرية والتخوّف يمثِّل الغلاف الجوي لهذا النشاط الماسوني.

وإذا أردْنا أن نبدأ الطريق من أوّله، فلا بدّ مِن طَرْح سؤال: ما هي "الماسونية"؟ ما معنى كلمة "ماسونية" من حيث الدلالة اللغوية أوّلًا؟

نجد أنّ هذا المصطلح الماسوني ظهر في تاريخ الحركة الماسونية في القرن الثامن عشر، وبعضُهم يحدّد ظهوره في سنة ١٧١٧م بالتحديد، كما سوف نأتي على ذلك فيما بعد. أمّا نشاط الماسونية قبل ذلك، فكان يمارَس تحت مصطلح آخَر، اختارته اللجنة المؤسِّسة لهذا النشاط في أوّل مجلس لها أو في أول عهدها بممارسة هذا النشاط. اختارت أن يكون نشاطها تحت مسمّى: "القوة الخفيّة". أمّا مصطلح "الماسونية" فهي كلمة فرنسية مركّبة من مقطعين: المقطع الأوّل هو: "ماسون"، بمعنى عامل البناء، ومنه أخذت الماسونية. أي: البنّاؤون. وأضيفت إليها كلمة: الأحرار.

وهي -كما قلنا-: اسم حديث أُطلِق نيابة أو بديلًا عن الاسم القديم الذي هو: "القوّة الخفية". فمن حيث الدلالة اللغوية إذاً نجد أنّ هذا اللفظ أصله فرنسي مركّب من مقطعيْن، هو: "فرنك" أو "فرنت"، التي تعني في اللغة الفرنسية: الحاذق أو الصادق أو الحرّ، و"ماسون" التي تعني: البَاني. وتصبح الدلالة اللغوية للكلمة بمقطعيْها "الماسون" هو: الباني الحرّ أو الباني الصادق. والجماعة "الماسونية" هم: البناؤون الصادقون أو البناؤون الأحرار.

وقد يرِدُ على الذهن، ولا بدّ أن يرِد على الذهن: ما معنى كلمة: "البناؤون الأحرار"؟ هذا المعنى يصِل بنا مباشرة إلى الهدف أو العمق التاريخي لهذا المصطلح؛ لأن كلمة "البنّاؤون الأحرار" تُطلق على الجماعة الذين عُهد إليهم بناء أو إعادة بناء الهيكل السليماني، أو هيكل اليهود، أو الهيكل الذي يُقام في أرض فلسطين مكان هيكل سليمان ~ . فكأنّ العلاقة التاريخية بين كلمة

"ماسونية" وكلمة "الهيكل" علاقة تاريخية قوية جدًّا ؛ فاسم "البنّاؤون الأحرار" أو "الماسونية" أو "الباني الصادق" أو "الباني الحُر" هي ممتدة تاريخيًّا لتنطلق من فكرة إعادة بناء الهيكل أو بناء هيكل سليمان ~ . هذا من الناحية اللغوية، أو من ناحية اشتقاق الكلمة.

أمّا إذا أردنا الحديث عن الجذور التاريخية لهذه الحركة، فنجد أن جميع المؤرِّخين -كما قلنا- وقعوا في حيرة شديدة جدًّا، من حيث الحديث عن أوّل ظهور هذه الحركة التي كانت تسمّى فيما مضى بـ"القوّة الخفيّة". من هو الذي أسَّسَها؟ ما هي الجمعية الأولى التي تولّت تنظيم "البنّائين الأحرار" أو "الماسونية" أو "القوّة الخفيّة"؟ حول البحث عن هذه القضية نجد كثيرًا من الآراء لا تتعارض لكن ربّما تتكامل، ولا نجد بعضها ينفي البعض الآخَر؛ وإنما نجد أنّ كل باحث قد وضَع يده على ما تحت يده من مراجع ومصادر تاريخية فمال إليها وأيّدها. وكلّ هذه المصادر أو هذه المراجع تختلف حول النشأة والفترة التاريخية لهذه النشأة، وحول مَن هو المؤسِّس؟ وما هي الجمعية التي أسَّست هذا التنظيم؟ لكنها مع هذا الاختلاف الكبير تتَّفق فيما بينها على: أنها نشاط يهودي، بدأ على أيدٍ يهودية وجمعيات يهودية ومنظّمات يهودية، بقصد إعادة بناء الهيكل أو بناء هيكل سليمان ~ . لذلك ليس من اليسير أن يعثر أيّ باحث على منطلقات تاريخية محدّدة تتّصل بتأسيس هذه المنظّمة، أو من هو أوّل من أسّسها، أو التاريخ المحدّد لهذه القضية.

ولذلك سوف نتغاضى عن الآراء المشتّتة والكثيرة التي دارت حول تأسيس ونشأة الحركة الماسونية، وسوف نكتفي بمصدر واحد ربما نميل إلى الوثوق به عن غيره من المواثيق أو المصادر الأخرى، لِما يكتنفه من بعض التوثيقات التاريخية التي

تؤكِّد إلى حد كبير صحّة ما جاء فيه. هذا المرجع هو: ذلك الكتاب الذي ترجمه عن الفرنسية أحد المشتغلين بالبحث عن تاريخ الماسونية، وهو يسمى: عوض الخوري. هذا الرجل وضع كتابًا أسماه: "تبديد الظلام"، أو ترجم أحيانًا باسم: "أصل الماسونية"، وإن كان مترجماً عن لغة فرنسية تحمل هذا العنوان: "القوة الخفية". فكأنّ عوض الخوري ترجم الكتاب عن العنوان القديم أو عن المصطلح القديم الذي كانت تعمل تحته التنظيمات الماسونية وهو: "القوة الخفية"، ترجمه من اللغة الفرنسية تحت عنوان: "تبديد الظلام" أو "أصل الماسونية".

يقدّم المترجِم في هذا الكتاب تاريخًا لنشأة الحركة الماسونية يختلف عن كثير من الآراء الأخرى، ويختلف عن الافتراضات التي تنقصها الموضوعية أحيانًا وتحتاج إلى دليل تاريخي يؤكِّد صحّة ما جاء فيها أحيانًا أخرى.

يعرض المترجم في هذا الكتاب ما يدلّ دلالة موثّقة على نسبة العمل الماسوني ومنظماته إلى اليهودية العالمية، ودورْها في مَسخ وتشويه التاريخ الإنساني كلّه، ومحاربة الأديان عمومًا ابتداءً من محاربتها لليسوعية أو المسيحية بعد ميلاد المسيح بنصف قرن تقريبًا؛ ولذلك سوف نجد أن في هذه الوثيقة من أسباب تأسيس هذا التنظيم أو التفكير في تنظيم يسمّى: "القوّة الخفية" هو: القضاء على ما أسموه باليسوعيِّين، أو القضاء على المسيحية، أو على السيد المسيح وأتباع المسيح.

وتطوّرت هذه الفكرة من محاربتها للمسيحية إلى محاربة الأديان عمومًا.

ملخّص ما جاء في هذا الكتاب: أنّ المترجِم يقول: "إنّ هذا الكتاب لا يرجع الفضل فيه إلى الجهد الجبار الذي بذلْته -وإن كان هذا الجهد كبيرًا ومضنيًا-، وإنما يرجع الفضل فيه إلى رئيس جمهورية البرازيل وهو: الدكتور (برودنتي) الذي كان مفوّضًا إلى أسرار خاصة بالفكر الماسوني، وكتب عنهم كثيرًا. فهو

الذي عرَّفني بهذا التاريخ، وعرّفني بهذا المخطوط الذي هو "القوة الخفية". كان هـذا المخطـوط مخطوطاً باللغـة العبريـة، وفي حـوزة رجـل يـسمّى: (لـوران بـن جورج). هـذا (اللـوران بـن جـورج) أحـد أحفـاد تـسعة مـن الآبـاء الـذين تسلسل نسبتهم من الأب الأول يُعتبر المؤسس الحقيقي للمنظمات الماسونية، حتى ينتهي إلى "لوران" هذا باعتباره الابن التاسع للمؤسِّس الأول للحركة الماسونية.

يقول: إن هذا الكتاب -الذي هو: "القـوة الخفيـة"- كـان باللغـة العبرية، وانتقـل مـن الأب الأوّل إلى ابنـه إلى حفيـده، إلى حفيـده، إلى حفيـده، حتـى وصـل إلى "لوران" هذا، وكان باللغة العبرية كما قلت.

ويحكـي لنـا عـوض الخـوري ناقلًا عـن (لـوران) هـذا: البدايـة التاريخيـة للنـشاط الماسوني العالمي، يقـول عـلى لـسان (لـوران بـن جـورج) هـذا: "أنـا (لـوران) بـن (جـورج)، بـن (صـموئيل) بـن (جونـاس)، بـن (صـموئيل لـوران)، الروسـي الأصـل، آخِـر حفيـد أحفـاد أحـد أصـحاب هـذا التـاريخ". هـذا يُطلعنـا عـلى أنّ الأصل العرقي لـهذا التاريخ روسي. يقول (لـوران): "ورثـت عـن أبـي وأجـدادي نسخة خطية، تأليف أجدادنا في اللغة العبرانية، ومترجمـة مـن أحـدهم إلى اللغـة الروسـية، ثـم ترجَمهـا آخـر منهم إلى الإنجليزيـة. ثـم إن جـدّنا (جونـاس) أدخـل عليها بعض حقائق، وأضاف ما وجبت إضافته؛ بحيث أصبح هذا التاريخ مؤلفًا منه ومن أجداده. وكان يعرفه بعد أن رتّبه بنوع ما، وقسّمه إلى قسميْن، وأراد أن يطبعـه وينـشره، ولكـن حالـت دون تحقيـق رغبتـه موانـع، منهـا صـحية، ومنهـا مالية، ومنها سياسية. ثم مات متحسرًا لعدم استطاعته تحقيق تلك الأماني؛ لأنـه هو وزوجته (جانيت) هما اللّذان ابتكـرا فكـرة نـشر هـذا التـاريخ ليعرفـه العـالم، لكنهما ما تمكّنا من إبرازها إلى العمل فأوصيا بطبعـه ونـشره. أوْصَـيا ابنهمـا الـذي

هو جدِّي (صموئيل) الذي ورثه عنهما. وهذا جدّي (صموئيل) هو ابن (جوناس) بن (صموائيل لوران). وها هو يخاطب ابنه والدي (جورج)".

ثم يحكي لنا على لسانه خطاب (لوران) هذا الجد إلى (جورج) أبي (لوران) الحفيد الذي هو رقم ٩. ويحكي قصة هذا التنظيم، وأصله، وعدد الأشخاص الذين اشتركوا فيه، إلى أن يقول: أن (جانيت) التي هي زوجة جدّه الأخير تقول: "اعلم يا بنيّ: أن هذا التاريخ سيكون له أيضًا شأنٌ عظيم عند المرأة؛ ولذلك أنا أوجِّه كلمة إلى المرأة. أيتها المرأة، بما أنَّ لك أعظم التأثير وأعلى النفوذ في الكون كما يشهد التاريخ بذلك منذ أبينا آدم الذي كان سقوطه بالمخالفة بواسطة المرأة، وكما تشهد أقوال العلماء والفلاسفة والرجال العظماء؛ فمِن قولهم: إن المرأة تهز السرير بيمينها وتهزّ العالم بيسارها. ومن قولهم: ما تريده المرأة يريده الله إن كان خيرًا، ويريده الشيطان إن كان شرًّا. ومن قولهم: كم أحبّت النساءُ يسوعَ؛ لأنهن عرفْن جِدَّه، وفهِمْن عطفه الإلهي، ثم ضعفهنّ. ومن قولهم: إنَّ العالم قد هلك على يد المرأة، والله يحبُّ أن يكون الخلاص للعالم على يد المرأة...".

ثم تسترسل إلى أن تقول: "كما كنتُ أنا المؤثِّرة العظيمة على صاحبة بعلي (جوناس) بعد أن تنصّر وتزوّجني، وكنت مبتكرة للفكرة الأولى لطبعة هذه الوثيقة ونشرها، فعليكنّ أنتنّ أن تُنفِّذن بالقول والفعل، وتستعملن كل ما لديكنّ من الوسائل في سبيل إقناع الرجال: أن الماسونية يهوديّة بحتة، هي التي زعزعت أركان الكون، وهي التي دكّت عروش الملوك والسلاطين، وهي التي حطّمت التِّيجان، وهي التي أذلَّت وحقرت الأديان، وهي التي بدهائها اليهودي أسالت أنهُر دم الأبرياء. واعلمْن: أنّ كلّ عمل مُخِلّ بالأديان إنما مصدره منها؛

لأنها بمبالغتها في تفسير الكلمات الثلاث: حرية، مساواة، إخاء، قد أفلتت الأعنّة إلى البشر. وهي التي بثّت روح التّمرد في رؤوس النساء غير الفاضلات".

ثم تقول: إنّنا نرى في سائر البلاد التي انتشرت فيها الماسونية، نرى مشاهد وأعمال قد لاشت الدين وأنهَته، وتعرّضت للشرف وقضَت عليه، وقضَت على الأدب والذوق. تلك هي بليّة عظيمة تُهدّد المجتمع الإنساني..." إلى آخر ما تقول هذه الزوجة -التي هي (جانيت)- باعتبارها أسهمت إلى حد كبير في طبع هذه الوثيقة.

وعلينا أن نعلم: أنّ النسخة الأولى كانت عبرية، ثم تُرجمت إلى الروسية والإنجليزية والفرنسية. والتي ترجمها عوض الخوري كانت من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. إذاً هذا هو الأصل التاريخي الذي صرّحت به أهم وثيقة بين أيدينا أو تحت أيدينا عن هذا التنظيم الماسوني العالمي.

أمّا تاريخ نشأته متى؟ وكيف بدأ؟ فإنّ معظم المراجع تختلف أيضًا في تحديد التاريخ المعيّن؛ لكن كثير من هذه المراجع يعود بها إلى تاريخ اليهود، وعلاقتهم بالسيد المسيح، وبالديانة المسيحية. كان يسمونها باليسوعية، أو منذ نزل المسيح على الأرض داعيًا إلى المحبة وإلى السلام، ورأوا أنه جاء ليقضي على عرشهم، ويقضي على دولتهم، ورأوا في مجيء المسيح إلى الأرض نهاية المُلْك اليهودي؛ ومن هنا فكّروا في تأسيس جمعية للقضاء على هذا الدِّين الجديد.

ولذلك نجد أن بعض الماسونيين القدماء وهو: (حيرام أبيود) هذا الاسم يتردّد كثيرًا في المصادر الماسونية، باعتباره علَم أعلام الماسونية القدماء، وكان يعمل مستشارًا للملك (هيرودس أكريبا)، يكشف عن البداية العملية والممارسة الفعلية لعمل الماسونية المنظّم حين تمّ تأسيس الجمعية الماسونية. كان أول تأسيس في

أورشليم القدس في يوم ٢٤ حزيران، في سنة ٤٣ بعد ميلاد المسيح ~ . هذا التاريخ اتّفقت حوله كثير من المصادر التي بين أيدينا: أنّ أوّل تنظيم للماسونية يرجع إلى هذا التاريخ. وسببه الأساسي هو: مواجهة الديانة المسيحية الجديدة التي ظنَّ الماسون أنها جاءت لتقضي على اليهودية؛ فكان لا بد من عمل تنظيم يسمّى: "القوة الخفية" للقضاء على هذه الديانة.

يقول (حيرام) هذا: "لما رأيت أنّ رجال الدّجال -والدجال هنا يعني به: السيد المسيح عليه السلام- يسوع وأتباعهم يكثرون ويجتهدون بتضليل الشعب اليهودي بتعاليم كثيرة، مثلت أمام موالي جلالة الملك (هيرودس أكريبا)، واقترحت عليه تأسيس جمعية سرية هدفها محاربة أولئك الضالين المُضلّين، على أنّنا نبذل كلّ جهد ما عزّ وهان للقضاء عليه، ولأجل إحباط مساعيهم الفاسدة، وإبادتهم إذا أمكننا ذلك. فنِلْت في عيْن الملك، وقال لي: تكلّم يا (حيرام)! فقلت: مولاي الملِك، لقد تأكّد لجلالتكم وللملإ: أنّ ذلك الدجال يسوع استمال بأعماله وتعاليمه قلوب كثيرين من الشعب اليهودي -أي: شعبكم-، وما يظهر من أن أتباعه يَنْمون ويزدادون يومًا بعد يوم.

فمنذ نشأته حتى موته ومنذ موته حتى الآن -حتى الآن يعني: سنة ٤٣ ميلادية-، لم نستطع سبيلًا إلى مقاومة أولئك الذين ينبغي أن نسمِّيهم أعداءنا، وملاشاة كل ما يبثّونه في قلوب الناس من التعاليم التي لا نعتبرها نحن إلاّ فاسدة ومُضِلّة، ومخالِفة لديننا". وبدأ يتلو على الملِك (هيرودس) كلامًا كثيرًا، ليشجِّعه على تأسيس هذه الجمعية الخفية لمقاومة الدِّين الجديد؛ ولذلك نجد فيما بعد في تأسيس الجمعية الماسونية هذه: أن الملِك (هيرودس) أوْكَل إلى (حيرام) تأسيس الجمعية الأولى. وافتتحها الملك (هيرودس) بخطاب طويل صرّح فيه بأن مستشاره

(حيرام) هـذا أشـار إليـه بهـذا التأسيس للجمعيـة أو الماسـونية أو القـوّة الخفيـة، ليواجه المسيحية الجديدة التي أرادت أن تقضي على عز اليهود وملْك اليهود.

وأخذ يخاطب إخوانه بكثير من الأساليب التي تستحثّهم للانضمام لهذه الجمعية، إلى أن أنهى الاجتماع بتأسيس هذه الجمعية الـتي تُسمّى: "جمعيـة القـوة الخفيّـة". وهـي أول جمعيـة تأسَّست في هـذا التَّـاريخ، وإليهـا ترجـع جميـعُ التنظيمـات الماسونية، وتنبثق عنها على امتداد التاريخ إلى الآن.

في آخِرِ هذه الجمعية يقول (حيرام): "هل يحسن في رأي سيّدي ومـولاي -الـذي هو الملـك (هيرودس)-: أن يكـون اسـم الجمعيـة: "الاتحـاد اليهـودي الأخـوي"؟ فأجابه المِلِك: "كلاّ يا (حيرام)، لقد هيّأتُ لها اسمها أمس وهو: "القـوّة الخفيّـة". أفلا تستحسنونه؟". فأجابوه جميعًا مستحسِنين. وسجّل الاسـم. وبـدأ هـذا الاسـم يشُقُّ طريقه في التاريخ الإنساني إلى سنة ١٧١٧م؛ حيث تحوَّل الاسـم مـن "القـوّة الخفيّة" إلى "الماسونية العالمية".

وبعـد انتهـاء هـذه الجمعيـة الأولى، اتّفـق الجميـع علـى قَسَمٍ يكـون بمثابـة دسـتور للتنظيم اليهودي، ولكـلِّ مَـن يرغـب في الانـضمام إلى التنظـيم اليهـودي. وصـيغة هذا القسم ما يلي: "أنـا فـلان بـن فـلان، أُقسِم بـالله، وبـالتوراة وبـشرفي، بـأنّني حيث قـد صـرت عـضوًا مـن التـسعة الأعـضاء المؤسِّسين لجمعيـة "القـوّة الخفيّـة": أتعهّـد ألاّ أخـون إخـواني أعـضاءها بـشيء يـضرّ بشخـصيته، ولا بكـلّ مـا يعـود لمقرّرات الجمعية. أتعهّد أن أتبـع مبادئهـا وأتّمـم كـل مـا تقرّره باتفاقنـا نحـن التـسعة المؤسِّسين بكلّ دقة وطاعـة وضـبط، وبكـل غـيرة وأمانـة. أتعهّـد أن أجتهـد بتـوفير عدد أعضائها. أتعهّد بمناهضة كلّ من يتبع تعاليم الدجال يسوع، ومحاربـة رجالـه حتى الموت. أتعهّد ألاّ أبوح بأي سـرّ مـن الأسـرار المحفوظة بيننا نحن التسعة لأيٍّ

كان من الخارجين أو من أعضائها". -لاحظ ! يعني : لا يبوح بالسر، لا لمن هو خارج الجمعية، ولا لأحد من أعضاء الجمعية، كأنهم أيضًا فيما بينهم يُسرّون أسرارهم عن بعضهم البعض-. "وإذا خُنت بيميني هذه، وثبَتَتْ خيانتي بأنّي بُحت بأي سِرّ أو بأيّة مادّة من موادّ قانونها الداخلي المحفوظ لنا ولخلفائنا، فيحقّ لهذه العهدة ولهذا العدد الثمانية رفقائي أن تُميتَني بأيِّ طريقة كانت. -هذا هو الجزاء، جزاء من يبوح بالسر: أن يُميتوا من يبوح بالسر بأي طريقة كانت-.

هذا القَسَمُ تلاه التسعة المنظِّمون أو المؤيِّدون أو أعضاء اللجنة التأسيسية للقوة الخفية، في هذا التاريخ المتقدم من تاريخ الماسونية ؛ وبذلك يكون قد تأسّس أوّل محفل ماسوني في أورشليم من هؤلاء التسعة. وبدؤوا من هذا التاريخ يمارسون نشاطهم الماسوني في العالم.

طبقـــــات الماســــــونية

ننتقل بعد ذاك إلى الحديث عن التنظيم الماسوني وطبقاته ؛ لأنّ الماسونية حين وُضع تأسيسها بهذا الشكل وضعوا تنظيمًا طويلاً جدًّا ومتعدّد الخطوات. لا أريد أن أدخل في تفصيلاته، وإنما فقط سوف نأخذ بكثير من الإيجاز الحديث عن الأركان الأساسية في هذا التنظيم. ومِن أهمّ هذه الأركان هو : طبقات الماسونية.

تنقسم الماسونية التاريخية إلى طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى تسمّى : الماسونية العامّة، أو الماسونية الرمزية. وهذا المستوى من التنظيم أو هذه الطبقات مُتاحة لجميع الأجناس، ولجميع الأديان والملل. وهي تبدو في مظهرها على أنها جماعة إنسانية تدعو إلى نشاط اجتماعي وخدمات اجتماعية. ومن أهمّ مظاهرها الإنسانية : أنها تدعو إلى عدم الاعتداء على الغير

بأيّ صورة من الصّوَر العدوانية. وتتستّر بالنشاط الاجتماعي والخدْمي، وتظل هكذا متستِّرة بهذا النشاط الاجتماعي إلى وقت طويل جدًّا. ثم يبدأ المنظِّمون يضعون تحت الملاحظة أفرادَ هذا المستوى من التَّنظيم، مَن يصلح منهم لأن يرتقي إلى المستوى الآخَر ومن لا يصلح.

وسُمِّيت هذه الجماعة بالرمزية لأنها تضمّ في مراسمها رموزًا كثيرة؛ كلها تشير إلى أحداث تاريخية ورَد ذكْرها في التوراة. والنظام المحفلي لهذه الجماعة الرمزية نظام إقليمي؛ فالمحفل الأعظم بفرنسا مثلًا كان يَتبعه محفل الشرق الأعظم في مصر. وهذا المحفل كان يتبعه عدّة محافل في المحافظات المصرية. والمحفل الأعظم في تركيا مثلًا كان يتبعه بمصر المحفل الثالث الماسوني. والمحفل الأعظم في إنجلترا كان يَتبعه المحفل الأكبر الوطني المصري الذي كان يُشرف على عدّة محافل ماسونية في المحافظات. وهذه المحافل في تركيا وفرنسا وإنجلترا لا تتصل ببعضها البعض، وقد لا يعرف بعضهم بعضًا، حتى إن أعضاء المحافل الإقليمية في البلد الواحد -كما في مصر مثلًا، أو في تركيا مثلًا- لا يعرف بعضهم بعضًا. وفي هذا المستوى من التنظيم الذي هو الماسونية الرمزية، يبدأ العضو مبتدئًا، ثم يتحوَّل بعدها إلى ما يسمّى بشغَّال. ثم يرتقي إلى درجة أستاذ، ثم أستاذ محترم. ثم يبدأ توشيحُه بالصليب الورديِّ، ثم بعدها يصعد إلى درجة الأستاذ المحترم الأعظم.

وتتكوَّن المراتب الماسونية في هذا المستوى الرمزي الذي هو المستوى الأول من ٣٣ درجة، تتدرج صعودًا صعودًا حتى مرتبة الأستاذ الأعظم التي هي رقم ٣٣. ومن يحصل على هذه الدرجة أو على هذه المرتبة يصبح عضوًا في العقد الملوكي.

هذا هو المستوى الأوّل من مستويات التنظيم الماسوني، الذي هو الطبقة الرمزية، أو الماسونية الرمزية التي تنتهي بدرجة ٣٣.

الطبقة الثانية تسمّى: الماسونية الملوكية، أو العقد الملكي. وتُعرف هذه الطبقة بالماسونية المُلوكية أو العقد المُلوكي، ويُطلق على محافلها محافل العقد المُلوكيِّ؛ لأنَّ أعضاءها يكوِّنون من جملتهم العقد المَلكي الذي يرمز إلى إبطال للسَّبي اليهودي في بابل. أرجو أن تتنبهوا إلى هذا: العقد المُلوكي. أعضاؤه يُكوِّنون من جملتهم ما يسمّى بالعقد الملوكي، الذي يرمز إلى إبطال السبي اليهودي في بابل، ونحن نعرف السبي اليهودي في بابل كان في سنة ٥٩٧ قبل الميلاد، حين أغار بختنصذر ملك الكلدانيين فاستولى على أورشليم القدس ودمرها، وأحرقها، وهدم الهيكل، وأخذ ملكهم وأخذ خمسين ألف أسير إلى بابل. وسُمِّيت هذه الفترة في التاريخ اليهودي بتاريخ السّبي البابلي.

إذن المستوى الثاني من مستويات التنظيم، وسمّيت بالعقد الملوكي؛ لأن أعضاءها يكوِّنون من جملتهم العقد الملوكي الذي يرمز إلى أبطال السبي اليهودي، وهؤلاء الأبطال في نظرهم هم: (نحميا)، و(عزرا)، و(يوشع). وهناك أسماء كثيرة غيرهم. هؤلاء يُرمز بهم إلى الأبطال الذين شكّلوا سبايا اليهود في بابل؛ وعلى هذا نجد أنّ هذه الطبقة تأخذ شيئًا من التقديس؛ لأنها ترمز إلى هؤلاء الأبطال، وتقدّس كل ما جاء في التوراة؛ لأنَّ معظم أعضائها من اليهود، ولا يدخل هذه الطبقة إلا يهوديٌّ أو متنصِّر من المسيحية إلى اليهودية. يعني: إما أن يكون يهوديَّ الأصل، أو كان نصرانيًّا ثم ترك النصرانية واعتنق اليهودية. ولذلك هم يُصطفون من الدرجة ٣٣ من المستوى الأول، الذين يأخذون لقب

"الأستاذ الأعظم" أو "الأستاذ المحترم الأعظم"، الـذين هـم مـن المحافـل الرمزيـة الذين أخلصوا للماسونية وقاموا بتقديم العون والمال إليها، على ألاّ يتجاوزوا فيها مرتبة الرفيق، وهي أدنى مراتبها.

ويرأس المحفل الملوكي: الرفيق الأعظم، الـذي يتوشّح بالعِقـد المُلوكي المقدّم لأورشليم. وهذا العِقد عبارة عن قلادة عليها عشائر الأسباط الإسرائيليين الـذين أُسروا في بابل. وعليها أيضًا صورة بخيمة الاجتماع المقدس لدى اليهود.

ومن التعاليم السائدة لدى الماسونية الملوكية: أن الهيكل في المحفل الملوكي هـو: هيكـل سـليمان، والنـور هـو: النـور الـذي كـان يتجلّى الله فيه لموسـى ~ . أما البناية التي يرمز بها في هذا المستوى فهي "بناية الهيكل". والأنوار السبعة الموجودة في هذه البناية هي السنوات السبع التي أتم فيها سليمان هيكله الـذي يـراد أن يعـاد بنـاؤه. هنـا نلاحـظ أن هـذه الطبقـة -الـتي هـي الطبقـة الملوكيـة- تأخـذ شـيئًا مـن التقديس يتـصل بالأعـضاء الـذين يـشكّلونها، وتأخـذ شـيئًا مـن التقـديس لـبعض نصوص التوراة، ويتّخذون من بعض الرموز الماسونية شعارًا لشخصيّاتهم -كما قلنا الآن-: شعار النور، وشعار البناية الحرة، والأنوار السبعة، هذه الأسماء لم نجدها في الطبقة الأولى التي هي الماسونية الرمزية.

الطبقة الثالثة هي: الماسونية الكونية. وتُعرف هذه الماسونية بالكونية؛ لأنها تتكون مـن رؤسـاء محافـل العقـد الملـوكي. وهـي محفـل واحـد جميـع أعـضائه مـن اليهـود الـصهاينة الخلـص، وهـؤلاء الأعـضاء يتوشّـحون في المحفـل الكـوني بالوشـاح الصهيوني، والمحفل الكوني لا يعرف مقره ولا رئيسه الملقّب بالحاخام الأعظم

غيرُ المشهورين فقط. لاحظوا حضراتكم هذا التسلسل التصاعدي من المحفل: من الطبقة الرمزية، إلى الطبقة الملوكية، إلى الطبقة الكونية، يعني في تدرج من أدنى إلى أعلى. نجد إن أعضاء الطبقة الثانية هم صفوة الطبقة الأولى، وأعضاء الطبقة الثالثة هم صفوة الطبقة الثانية.

والماسونية الكونية تضمّ حكماء بني إسرائيل الذين يسمّوْن بورثة السر الأعظم. وهم الذين يتصرّفون بالمحافل الماسونية في العالم كله عن طريق الشروق، تصرفًا يعود على اليهود وحدهم بالمصلحة وعلى غيرهم بما يسوء ويضر أحيانًا، وبما يصلحهم أحيانًا، غير أن الذي يراعى في كل تصرف هو: مصلحة اليهود ومصلحة الصهاينة.

ويطلقون على الابتدائيين من جميع الأمم لفظ: "عميان" ولفظ: "صغار" وعلى الملوكيين الذين هم في الطبقة السابقة الوسطى -التي هي الطبقة الثانية- "عميان كبار"، أما الطبقة الثالثة فهم الصفوة المختارة من جميع هذه الطبقات الثلاثة. ويعتبرون العميان الابتدائيين أحيانا بالماسونية الرمزية العامة، أحيانًا يطلقون عليهم رمز: "عبيد الدرجات"، ومع ذلك فهم معرّضون لتجربة الترقي. يعني: يعرضونهم على امتحانات؛ فمَن ثبتَت سلامة قلبه وإخلاصه للماسونية، يرقي إلى الدرجة التالية، ومن لا يُثبت إخلاصه يُستبعد. وما إلى ذلك.

درجـات الماسـونية ورموزهـا وأهميـة الدرجـة ٣٣

درجات الماسونية:

وبعد ذلك يأتي نظام آخَر يُسمّى: نظام الدرجات، درجات الماسونية، أو درجات القوة الخفيّة في عصر تأسيسها. وهي تسير بنفس الخط التدرجي الذي سار عليه نظام الطبقات:

-الدرجة الأولى: يُسمّونها درجة جسّ النبض، ويعقبه تمهيد وتوجيه وتحرٍّ وكتمان، التي هي مرحلة الاختبارات للشخص الذي تقدّم للدرجة الأولى، يمرّ بالدرجة الأولى التي هي درجة الاختبارات.

-الدرجة الثانية: يَليها درجة أخرى تسمّى: شرح الأخطار، أو الأسرار الخطرة، التي سيتعرض لها الهيكل إذا سادت المسيحية، هما القصد من التنظيم: القضاء على المسيحية. فيأخذون الأعضاء الذين ينضمُّون إلى الدرجة الأولى، ويلقِّنونهم ويعلّمونهم أنّ المسيحية إذا سادت العالم فإن الهيكل السليماني في خطر وسيزول؛ ولذلك لا بد من القضاء على المسيحية. هذه هي الدرجة الثانية.

-الدرجة الثالثة: أن يأخذوا عليهم العهود والمواثيق على ضرورة سحْق المسيحية ولو باغتيال معتنِقيها، دون تفريق بين ذكر وأنثى، ورجل وامرأة، وطفل وعجوز. وأخذت درجات القوة الخفية على كل من يتقدم لهذا التنظيم؛ بحيث إذا مرّ بهذه المراحل الثلاث يُسمح له بالالتحاق بالطبقة الأولى.

يأتي بعد نظام الدرجات ما يسمّى بنظام الرموز، ممّا يدلّنا على: أن التنظيم كلّه مغلّف بأسرار. هناك سبعة رموز يطلُقها الماسونيون ويتداولونها فيما بينهم:

الرمز الأول: يسمّى: "اللمسة" وهو: أن يضغط بإبهامه على عقدة إصبع مصافحه المسماة بالشاهد ثلاث مرات. يصافحه، ثم يضغط بإبهامه على إصبع المتقدّم الجديد ثلاث مرات.

الرمز الثاني: ثم بعد ذلك: "الإشارة" وهي: أن تمرّ يد الطالب اليمنى أمام عنقه من اليمين إلى اليسار كأنه يحاول ذبْح نفسه، كما تضع يدك اليمنى أمام رقبتك كمن يحزّ بالسكين. هذه تسمّى: "الإشارة".

الرمز الثالث: هي كلمة السر وهي: "بوعز".

الرمز الرابع: هو العصر الرمزي، أو العمر الرمزي لهذه الدرجات وهو: ثلاث سنوات.

الرمز الخامس: ثم خطوات هذه الدرجات.

الرمز السادس: ثم الطّرقات الثلاث متتالية، يدقّ ثلاث مرات على مطرقة.

الرمز السابع: ثم التصفيقات ثلاث مرات مع ترديد كلمات: حرية، مساواة، إخاء.

هذه هي الرموز السبعة التي يستعملونها عند كلّ مَن يريد الالتحاق بالطبقة الأولى، التي هي الماسونية الرمزية. أكررها ثانية: "اللمسة"، "الإشارة"، كلمة السر وهي "بوعز"، "العمر الرمزي"، خطوات هذه الدرجة يتقدّم ثلاث خطوات إلى الأمام، ثم الدق أو الطّرْق ثلاث مرات متتالية، ثم التصفيق ثلاث مرات متتالية مع ترديد كلمة: حرية، إخاء، مساواة.

وقبل أن أترك الحديث عن هذا الشكل التنظيمي للمحافل الماسونية، أودّ أن أضع تحت أيديكم أن الدرجة (٣٣) لها أهمية خاصة في هذا التنظيم؛ ذلك أنّ المنتسب

أو المنضمّ بعد أن يحصل على لقب الدرجة (٣٣) يأخذ لقب: "الأستاذ الأعظم"، وبعد أن يمنح هذه الدرجة يطلب منه أشياء كثيرة جدًّا، منها: أنه يقسم على التوراة، ويفوز ببراءة مخطوطة يأخذها من الأستاذ السابق عليه، ثم يُطلب منه في شكل عهد وميثاق أنه يقوم بالأمور التالية:

الأمر الأول: أن يؤمن بالتوراة ويَكفر بما عداها، وما عدا التوراة طبعًا هو: الإنجيل والقرآن، وليس هذا هو فقط؛ بل يؤمن بأن التوراة هي الكتاب الإلهي الوحيد الصالح لقيادة البشرية حتى أصحاب الأديان الوضعية.

الأمر الثاني: الإيمان بأنّ الإنجيل والقرآن مأخوذان من التوراة.

الأمر الثالث: الإيمان بأن المسيح ~ وأنّ محمدًا ~ هم العدوّان اللّدودان لعقيدة الماسون، وأنهما وحدهما سوف يقضيان على الهيكل.

الأمر الرابع: يؤمن الطالب بموسى وهارون، ويُعلن -والعياذ بالله- أنّ المسيح ومحمد عدوّان لموسى. الإيمان بالرب هو رب إسرائيل فقط، وأنّ الرب لم يؤيِّد إلا موسى وإلاّ بني إسرائيل. وبهذا يكون الحاصل على لقب (٣٣) قد نجح في الامتحان إذا أعطى العهد والمواثيق على هذه الأشياء الخمسة. ثم يضاف إليها: العمل على نشر هذه المبادئ الخمسة بين كلّ مَن يعرف.

بعد أن ينجح في الامتحان ويُفهم منه أنه يحفظ هذا السر وقادر على كتمانه، يحصل على هذه الدرجة التي هي (٣٣)، وعندئذٍ يُخاطَب بلقب: "الأستاذ الأعظم"، ويُطلب منه: أن يكون كُفُؤًا لهذه الدرجة، في سلوكه، وفي حرصه، وفي جهاده لخدمة الماسونية. ولا بد أن يسمعوا من الطالب أو من هذا العضو كلمة الموافقة بعبارة: "نعم؛ سأكون كما تريد الماسونية".

ويكفي في هذه الدرجة أن نعلم على سبيل اليقين: أن التنظيم الماسوني بهذا الشكل هو عدوّ للمسيحية والإسلام أولًا، ولجميع الأديان مرة ثانية. إنها تستخدم أبناء المسيحية وأبناء الإسلام في خدمتها ولا شك، وتعمل على تجريدهما من ديانتيْهما، ليسير كل منهما خالصًا في خدماته وجهاده لمصالح الماسونية، التي هي بالتالي صالح أو مصالح الصهيونية العالمية، وفي النهاية تصبُّ كلها في بوتقة المصلحة اليهودية العالمية.

موقف الماسونية من الأديان عموماً

بذلك نكون قد عرفنا فكرة موجزة عن تأسيس التنظيم الماسوني، عن طبقات التنظيم الماسوني، عن درجات التنظيم الماسوني، عن الرموز المستعملة في المحافل الماسونيَّة، عن أهمية الدرجة (٣٣) التي يمنح الطالبُ بعدها لقب: "الأستاذ الأعظم"، وهو يُساوي ما يمكن أن يطلق عليه: الداعية للمذهب، أو الداعية للفكر الماسوني، الذي هو آخِر نظام الطبقة الأولى من الماسونية الرمزية.

هذا بشيء من الإيجاز الجانب التاريخي لهذا التنظيم اليهودي المحيِّر، الذي هو أشبه بالإخطبوط أو خيط العنكبوت، الذي لا تَعرف أين أوّله وأين آخره؟ أين مبتداه وأين منتهاه؟ وأنتقل بعد ذلك إلى المبادئ والشعارات والمصادر والمواقف لهذا التنظيم اليهودي الماسوني

إن الاجتماع الأوّل الذي تأسّس في سنة ٤٣ ميلادية -كما يُجمِع على ذلك كثيرٌ من المؤرِّخين- يُنبئ ويوضّح في أسباب نشأة هذا التنظيم: أنه نشأ مناهضًا للديانة

المسيحية الجديدة، عدوًّا لها، محاولًا القضاء عليها؛ لأنه أخَذ في اعتباره أنّ هذا الدِّين الجديد اليسوعي إنما جاء ليقضي على أمجاد اليهود، ويقضي على الهيكل. ولذلك يتردَّد في جميع الاجتماعات، على ألْسنة الأعضاء الذين ينضمّون إلى المحافل الماسونية القَسَمُ بالهيكل، ومناصرة الهيكل، والعمل على إعادة الهيكل، والعداء الصريح لليسوعية، وبالتالي العداء الصريح للإسلام وللقرآن. وهذا يتطلب منّا أن نأخذ بعض المواقف للماسونية العالمية لنبيِّن موقفها من العالم ككلّ، من الأديان، من الحضارة، من الإنسان.

ولنبدأ بموقفها من الأديان عمومًا.

إنها بدأت بالعداء للدِّين المسيحي، لكنها على فترات من التاريخ استطاعت أن تستقطب بعض أتباع الديانة المسيحية ليكونوا أعضاء فيها ومناصرين لمهمّتها في الانتصار للقضايا اليهودية والصهيونية على حساب ما سواها من الأديان الأخرى. وفي العصر الحديث وجدْنا أن المحافل الماسونية، وإن شئت فقل: المحافل الصهيونية؛ لأننا لا نجد فارقًا كبيرًا بين أهداف الصهيونية في هذا الموقف وأهداف الماسونية، أعني: الموقف من الأديان، نجد أن المحافل، خاصة محفل المشرق الأعظم الذي تأسّس في فرنسا، أخَذ على عاتقه أن يُلهم ويوجّه المحافل الأخرى وجهة خاصة بموقف معيّن من الأديان عمومًا، ومن الإسلام بصفة خاصة.

ولذلك وجدنا أن محفل المشرق الأعظم خرج على دستور ربّما كان قد اتّفقت عليه المحافل الماسونية فيما مضى، وهو: ألاّ يبدؤوا مواجهتهم للأعضاء الجدد بالحديث عن مناهضة الأديان أو محاربة الأديان. وأيضًا السياسة، يعنون: أنه لا شأن لنا لا بالأديان ولا بالسياسة، إلى أن يستوثقوا من العضو، يمكن أن يتحمّل

الأسرار الخفية المتعلِّقة برفض الأديان ومحاربة الأديان والسياسة أو لا. فإذا ما أمنوا جانبه بدؤوا يُبدون إليه موقفهم الحقيقي من الأديان؛ ولذلك وجدنا أنّ هذا المحفل الذي هو محفل المشرق الأعظم بدؤوا يصرّحون على لسان بعضهم: بأنّ البنائين الأحرار أو الماسون هم أعداء للكنيسة، وأعداء للكثلكة، وأن كنيسة الماسون هي كنيسة الإلحاد، والرفض لكل دين. بل صرّحت مجلة "المشرق الأعظم" في سنة ١٨٨٥م بما يأتي. تلاحظون أنني في حديثي عن الماسونية وعن الصهيونية ألجأ إلى تلاوة المواثيق، لكي أؤكّد ما قلتُه حتى لا يكون كلامنا مرسلًا؛ لأنَّ هذا على جانب كبير من الأهمية.

جاء في مجلة "المشرق الأعظم" ما يلي: "نحن البنّاءون (البنَّائين) الأحرار، يجب أن نقصد إلى هدم الكثلكة هدمًا تامًّا". ولا يقتصر المشرق الأعظم على مناصبة الكثلكة العِداء، بل هاجم كلَّ المذاهب والنِّحل الدينية، وكلَّ ضروب الإيمان الروحي. وقد قرّر هذا المشرق الأعظم في سنة ٤٩ اعتناقَ فكرة المهندس الأعظم للكون، وخلود الروح؛ حيث صرّح بأن قاعدة البناء الحر هي: الاعتقاد في الله، وفي خلود الروح، وتضامن الإنسانية. هذا التحول في الموقف كان بمثابة الخديعة؛ حتى يلتقطوا أعضاء معيّنين كانوا يُشيرون إليها بالبنان. ولذلك لم يمض زمن طويل حتى حلَّ محلَّ هذا النص نصوص أخرى، وتخلَّصوا من هذه العبارة كلمة: "الله" و"خلود الروح"، وصرَّحوا بأن قاعدة البناء الحر هي: حرية الاعتقاد التامة، وتضامن الإنسانية. وصرّحوا بما يسمّى بالدِّين الطبيعي الذي ينبغي أن يحلّ فيه الإنسان محلّ الله. ووجدنا أن صحيفة "المشرق الأعظم" خطَت خطوة خطيرة جدًّا؛ حيث جاء فيها: أن المهندس الأعظم الذي هو الله -حسب

تعبيرهم- ليس إلاّ خيالًا وحديثَ خرافة خلقها الإنسان بعقله ليقنع نفسه بما لا يقتنع به. وصرَّحت المحافل الماسونية بإلقاء المطاعن الحادّة في الدين، أيَّ دين، ولا بد من نقضه وهدمه، والسخرية من مبادئه وشعائره ونظرياته.

وعلى سبيل المثال: وجدنا أنّ أحد الماسون في سنة ١٩٠٢م ألقى في أحد المحافل خطابًا حماسيًّا، شدّد فيه النكير على النصرانية عمومًا، وعلى الكثلكة بصفة خاصة.

وجاء في هذا الخطاب ما يلي: "لقد استمر الظفر الخليلي عشرين قرنًا، غير أنه أخذ يحتضر بدوْره. واليوم يعلن ذلك الصوت الخفيّ الذي أعلن ذات يوم موت بانٍ من البنائين الأحرار، يُعلن موت ذلك الإله الدّعيّ الذي وعَد المؤمنين بعهد عدالة وسلام. ولقد استمرت الخرافة -كلمة "الخرافة" هنا المقصود بها: الإيمان، أو الاعتقاد بالغيبيات- عهدًا طويلًا، ولكنّ الإله الكاذب يختفي بدوْره، ويذهب ليغيض في غبار القرون الخوالي إلى جانب آلهة الهند ومصر واليونان وروما.

هذا نصٌّ يُنبئ عن موقف الماسونية المعاصرة من الأديان عمومًا، ومن المذهب الكاثوليكي خصوصًا، وبالقطع أن موقفهم من الإسلام هو أشدُّ وأنكى من ذلك. لكنني فقط أردتُ أن أضع أمام حضراتكم: أن الماسونية ليس موقفها هو الرفض للإسلام فقط، وإنما هو الرفض للأديان عمومًا، غير أنه للأسف الشديد نجد أن كثيرًا من المسيحيين لم يتنبّهوا إلى هذا، وظنوا أن الموقف هو موقف يهوديّة وإسلام، أو ماسونية وإسلام، ونسُوا أن ينقِّبوا في النصوص التي تضطلع بها الدوريات التي تصدر عن المحافل الماسونية، وهي كلّها تفوح بالكراهية

والرفض المطلق للأديان عمومًا، وفي مقدّمتها الدين المسيحي؛ لأن أصل النشأة للماسونية هو محاربة الديانة المسيحية.

هذا فيما يخصّ موقف الماسونية من الأديان.

وهذه بعض النصوص أيضًا التي تؤكِّد أنّ كلامنا عن أنّ الماسونية هي في صميمها حرب معلنة ضد الأديان ما يلي:

جاء في كتاب "أسرار الماسونية" هذه النصوص: سوف نقوِّي حرية الضمير في الأفراد بكلّ ما أوتينا من قوّة، وسوف نُعلنها حرباً شعواء على العدو الحقيقي للبشرية الذي هو: الدِّين. وهكذا سوف ننتصر على جميع العقائد الباطلة: المسيحية، والإسلام، وعلى أنصارهما. ويجب ألا ننسى بأننا نحن الماسونيِّين أعداء الأديان، وعلينا ألاّ نألو جهدًا في القضاء على مظاهرها. إن ذُخْر البشرية الذي لا يُقدَّر بثمن هو: عدم الاعتراف بأيّ حقيقة مقدّسة، وأن الحقائق تنبثق من نظرة الإنسان ذاته إلى ذاته؛ فعليه لا بد من المحافظة على هذه الحقيقة، وأن جمال الإلحاد هو في هذا، في إنكار الأديان، وأنّ هذا لهو أساس إلحاد من الواجب علينا تنشئة أخلاقٍ تُضاهي الأخلاق الدينية في قوّتها، وأن نلقِّنها للناشئة. إننا لا نكتفي بالانتصار على المتديِّنين، ولا على معابدهم؛ وإنما غايتنا الأساسية هي: إبادتُهم من الوجود. إنّ النضال ضد الأديان لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدِّين عن الدَّولة؛ وسوف تحلُّ الماسونية محلّ الأديان، وإنّ محافل الماسونية سوف تقوم مقام الكنيسة، ومقام المسجد، ومقام المعبد".

المبادئ المشترَكة بين التنظيم الماسوني والصهيونية العالمية

مقدمة: ننتقل بعد هذا إلى علاقة الماسونية بالحركة الصهيونية العالمية؛ لوجود علاقة قويّة في الأفكار والمبادئ والخطوات بين الحركة الماسونية وبين الحركة الصهيونية العالمية. وربما كانت وحدة الأهداف أساسًا في هذا التنظيم وذاك، ومواقفهم من الأديان عمومًا نجدها واحدة هنا وهناك.

العلاقة التاريخية والضرورية بين التنظيم الماسوني والتنظيم الصهيوني العالمي:

أمّا عن علاقة الماسونية بالحركة الصهيونية: فليس بغريب علينا أن نكتشف هذه العلاقة بعد أن عرفْنا أنّ فكرة تأسيس هذا التنظيم -إذا سمّيناه تنظيمًا- هي فكرة يهودية، وأنّ الذين أسّسوا أو الجمعية الأولى لهذا التنظيم كان أعضاؤها جميعهم من اليهود، وأنّ أهداف هذه الجمعية عندما تأسّست كانت لخدمة اليهود، ولإعادة بناء الهيكل، وللقضاء على المسيحية. وأعتقد أنّ هذه الأهداف هي في صميمها نفس أهداف الحركة الصهيونية؛ ولذلك نجد أنّ علاقة الصهيونية بالماسونية إذا اختلفت الأسماء فإن الأهداف والوسائل والغايات لم تختلف.

وعلى سبيل المثال: نجد أنّ هناك دعوة تسمّى: "الدعوة الروحية"، وهذه الدعوة أخذت اسمًا جديدًا لتتسلّل من خلاله إلى بعض المنظمات وبعض المؤسسات، وهي تحمل معها نفس الفكر اليهودي الصهيوني ونفس الفكر الماسوني. وهذه الجمعية اتّضح أخيرًا أنها وليدة شرعية لجمعية "شهود يهوا" اليهودية، وأخذت تنشر أعضاءها في المحافل الماسونية وتتبنّى نفس الأفكار الماسونية وتُلقِّحها بأفكار صهيونية. وظهرت بعضُ النشرات التي توضِّح وتجلي هذه العلاقة التاريخية التي

يتبرّأ منها بعض اليهود أحيانًا، ويتبرّأ منها بعض الماسون أحيانًا أخرى. نجد أن بعض الماسونيين ينفُون عنهم تهمة الولاء للصهيونية؛ وهذا كذب وافتراء. ونجد أنّ بعض اليهود يَنفُون عنهم تهمة الولاء للماسونية؛ وهذا أيضًا كذب وافتراء. ولذلك ربما كان أكبر ردّ وأكبر توثيق للعلاقة بين الصهيونية العالمية والماسونية العالمية هي: العثور على الوثائق التي تفضح أسرارهم، والنشرات المتبادَلة بينهم. من هذه النشرات -على سبيل المثال-: نشرة عثرْنا عليها بعنوان: "أساس للاعتقاد بعالم جديد"، طُبعت بالإنجليزية سنة ١٩٥٣م، وبالعربية سنة ١٩٥٥م في نيويورك، ومعروف أنّ نيويورك هي أكبر مركز لليهود وللحركة الماسونية والصهيونية أيضًا.

وأوّل ما يطالعنا في هذه النشرة: كلمات طُبعت على الوجه الداخلي للغلاف جاء فيه: "هل قلبك مريض؟ هل هو مُثقَل بالويلات الغامرة لهذا العالم القديم؟ هل يستريح، هل تخفُّ آلامُه إذا علمْتَ أن نهاية القلق والخوف والشغب والحرب والمرض أمسَتْ قريبة عن الأبواب؟ هل عقلك حر؟ هل هو مستعدٌّ للاقتناع بالحق والصواب، أم أنه مغلق عليه بالتعصب الوطني أو الجنسي أو الدِّيني؟".

ثم جاء فيها: "وفي الواقع قام أحد دارسي التوراة، وحسب أن هناك ثلاثمائة واثنتيْن وثلاثين نبوّة خاصة في العهد القديم، قد تمَّت حرفيًّا في المسيح. وكما حدثت تلك التَّتمات المدهشة للنبوّة عن مجيء المسيح الأوّل منذ تسعة عشر قرناً، نرى نظيرها يَحدث الآن في وقت حضور المسيح الثاني. قام الناس في محاولة عقيمة لتوطيد السلام على الأرض، وألّفوا هيئتيْن دوليتيْن هما: عصبة الأمم، وهيئة الأمم المتحدة؛ ولكنهما فشلتا في عمل ما يستطيع ملكوت المسيح أن يعمله. تأمّل كيف تتمّ النبوة عن الأيام الأخيرة وحضور المسيح الثاني إتمامًا كاملًا

بأحوال العالم اليوم! نعم، في هذه الأيام الأخيرة من العالم القديم سبق يسوع فأنبأ. وسيقوم شهود يهوا ويبشِّرون وهم على أبواب عالم جديد بإنجيل الملكوت المؤسّس، ويخبرون كيف أن "هرمجدون" -وهي معركة يهودا- ستنظف الأرض من الشر والإثم، وتفتح الطريق للسلام والسعادة والحياة، تحت شعار: حرية، إخاء، مساواة".

هذه الشعارات الثلاثة هي شعارات الماسونية العالمية التي بشّرت بها الجمعية الأولى التي بدأت التأسيس للنشاط الماسوني العالمي. أظنُّ أن هذه الوثيقة كافية جدًّا لعلاقة الماسونية العالمية بالصهيونية العالمية.

ومن الدلائل على صلة جماعة "يهود يهوا" بالماسونية، والصهيونية بالماسونية: أننا نجد أنّ أعضاء المحافل الماسونية الكبار على مستوى العالم يهود، بل صهاينة، وبالمقابل أعضاء الحركات الصهيونية ابتداء من المؤسِّس الحقيقي للصهيونية المعاصرة الذي هو (تيودور هرتزل) عضو أعظم أو أستاذ أعظم في محفل المشرق الأعظم، يعني: من الدرجة الممتازة من درجات الماسون.

هذا كلّه دليلٌ على: أنّ العلاقة المتبادلة بين الحركة الماسونية والحركة الصهيونية العالمية واحدة. للدلالة أيضًا على أن الهدف والغاية واحدة عند المدرستين: إذا أضفنا إلى ذلك أنّ الحركة الصهيونية الحديثة التي بشَّر بها ودعا إليها وقاد أسلوب عملها (تيودور هرتزل)، أرسى الكثير من قواعدها المأخوذة من التنظيمات الماسونية قديمًا وحديثًا، باعتبار أنها ظاهرة عدوانية في التاريخ الحديث، كما كانت الماسونية القديمة ظاهرة عدوانية على المسيحية، وليس كما يدَّعي الفكر الصهيوني من أنها حركة تحرير للوجود اليهودي،. لم يكن لِيُتاح لها إمكانيَّة النفاذ إلى مقدّرات العالم فيما مضى. وممّا يجدر ذكْره أيضًا: أن الجهود الخفية

لليهودية العالمية كانت تُبذل على الدوام في دأب وجهد متواصل لتحقيق هدف إمكانية العمل اليهوديِّ المنظم، من أجْل التجمع اليهودي العالمي، وتشكيل عناصر قوّة في شكل عمل موحّد ومنظَّم للغاية، تحت شعارات: إخاء، حرية، مساواة.

كما نجد: أنَّ الحركات اليهودية المعاصرة مثل: "حركة المكابيين" هي محاولة للتجميع اليهودي العالمي كان من أهمّ أهدافها: العودة المنظّمة إلى أرض صهيون، لإعادة بناء الهيكل. وحركة (باركوخيا) كانت تحثّ اليهود على التجمع في فلسطين، والعودة لإعادة بناء الهيكل. وحركة (موزس الكريتي) كانت هي الأخرى حركة سياسية ذات هدف في تجميع اليهود في أرض فلسطين لإعادة بناء الهيكل. وحركة (دافيد روبين) كانت من السذاجة في الإعداد بحيث لم يهتم بها أحد، ولم تشغل بال العالم -يعني: يومًا ما-، إلا أنها قامت بجهد كبير لنشر المبادئ الثلاثة للماسونية ليجتمع حولها يهود شرق أوربا لإعادة بناء الهيكل. وحركة "منشئة بني إسرائيل" كانت ذات أهداف خاصة تختلف عن غيرها، لكنها تتّحد معها في أنّ هدفها الأساسي هو: إعادة بناء الهيكل.

ثم علينا أن نراجع -أيها الإخوة- الشعار الذي رفعتْه الماسونية، والذي رفعته إسرائيل أو الحركة الصهيونية العالمية، نجد أنّ رمز الحركة الماسونية العالمية هو: القَدوم، والبرجل، والمثلث، الذي هو شعار البنَّاء المحترم -إعادة بناء الهيكل-. نجد نفس الشعارات أخذت بها الحركة الصهيونية، وربما لو دقّقتم النظر في النجمة السداسية الموجودة على العَلم الإسرائيلي، ربما وجدتم أنها تشير إلى شيء من هذا القبيل.

ومن جملة المقارنات التي نجدها ونحن نبحث عن أوجه الشَّبه في العمل التنظيمي لكلٍّ من الماسون والصهيونية العالمية، يتّضح لنا: أنّ جوهر العقيدة الماسونية والصهيونية منطلقُها واحد؛ لأنها تستمدُّ تعاليمها من "بروتوكولات حكماء صهيون"، التي يأخذون منها أوامرهم ونواهيَهُم، بل هي تمثِّل ورقة العمل التي يطَّلعون بها على العالم بأفكارهم وتنظيماتهم. وهذا يدعونا إلى أن نأخذ بعضَ العناوين والأفكار الأساسيَّة التي يؤمن بها الفكرُ الصهيوني العالمي، وتؤمن بها الماسونية العالمية؛ بل تجعلها بمثابة ورقة عمل لتنظيماتها عمومًا.

- المبدأ الأول: أنّ ما لنا من مال وثروة في أنحاء العالم سوف نهدم به كلّ القوانين العالمية، وأننا سوف نحكم الدول كما تحكم الحكومات رعاياها. هذا واحد من المبادئ التي سوف أتلوها على حضراتكم التي تمثّل محلّ اتفاق بين الماسونية العالمية والصهيونية العالمية.

المبدأ الثاني: علينا أن نختار من بين أفراد الشعوب رجالًا للإدارة يتّصفون بما يلي: أن يكونوا على درجة واهية وضعيفة جدًّا من الخبرة في شؤون الحكم وشؤون الإدارة، ليكون من السَّهل علينا أن نجعلهم كقطع الشَّطرنج.

المبدأ الثالث: إن مصلحتنا تقضي بانحلال الشعوب أخلاقيًّا، وتهدف قوّتنا إلى إبقاء العامل في حالة تافهة وعجز دائميْن؛ لأننا بذلك نُخضعه لمشيئتنا وإرادتنا، وما نُريد أن نسرِّبه إليه من معلومات.

المبدأ الرابع: إن الشعب باعتناقه الإيمان سوف يخضع لرجال الدِّين ويعيش في سلام؛ ومن ثمَّ يتحتّم علينا أن نقوِّض أركان كلِّ دين، ونزعزع من عقل الخوارج الاعتقادَ بالله، ونستعيضَ عنه بالأرقام الحسابية في البنوك وبالمطالب المادية".

أرأيتم؟ هذا محل اتّفاق بين الفكر الصهيوني والفكر الماسوني العالمي: "ثم علينا أن نردّ على أي دولة تجرُؤ على اعتراض طريقنا بدفع الدولة المجاورة لها إلى إعلان الحرب عليها. ولكن إذا قرّرت الدولة المجاورة أن تتّخذ ضدّنا موقفًا، فيجب علينا الرّد بإشعال حرب عالمية".

المبدأ الخامس: لكي نظهر أنّ جميع الحكومات غير اليهودية في أوربا خاضعةٌ لنا، سوف نظهر سلطتنا لكلّ حكومة منها عن طريق الجرائم والعنف، أو الحركات الانقلابية، وعن طريق الفعل الإرهابيِّ الّذي لا يقع بأيدينا نحن.

المبدأ السادس: سوف تحلّ محلّ شعارنا الماسوني الذي يتّسم بالتحرر: الحرية، المساواة، الإخاء: كلمات تعبِّر ببساطة عن فكرة وعن تصوّر، فتقول: وحقّ الحرية، وواجب المساواة، وفكرة الإخاء؛ وبذلك نقضي على الثورة، أيّ ثورة تناهض قضيّتنا، وتقف ضدّ مصالحنا".

فكأنّ المصطلحات الثلاثة: حرية، إخاء، مساواة، هي الشعار الذي يقذفون به في وجْه أي حركة أو أي صوت يقف ضدّهم. "إن مطامعنا غيرُ محدودة، وجشعَنا وتعصّبنا لأهوائنا ومقاصدنا، وحقدنا عنيف؛ ولذلك نتوق إلى انتقام لا رحمة فيه ممّن يقف ضدّ مصالحنا".

إن الأمر الجوهري بالنسبة لنا: أن يدرك الشعب بمجرّد هذا الإعلان: أنه ما دام يتألّم من التغيّر المفاجئ مستسلمًا للذعر والتّردّد، أننا قد أصبحنا من القوة والمناعة لدرجة أننا لا نأبه بمصالحه، ولا نُعيرها اهتمامًا، ولا نلتفت إليها. وسنعمل على أن يقتنع هذا الشعب أو ذاك: أننا لا نتجاهل آراءه ولا رغباته

فحسب، بل إننا على استعداد في أي وقت وفي كل مكان لقمْع كل مظاهرة، وكلّ جنوح للمقاومة بشدّة، وسنفهم الشعب على أننا حصلنا على ما نريد، وأننا لا نسمح له بمشاركتنا السلطة؛ وحينئذ يدفعه الذعر إلى أن يغمض عينيه، وينتظر الأحداث في صبر وألم. ولا يهمنا في ذلك إلاّ أن نصل في النهاية إلى تحقيق ما نريد. ينبغي أن يفهم العالم أنّ غير اليهود كقطيع الأغنام، أمّا نحن فإننا الذئاب. وهل تعلمون ماذا تفعل الأغنام إذا اقتحم الذئاب حظيرتها؟ إنها من الأفضل أن تُغمض عينيْها".

ومن بين ما جاء في هذه الوثائق أو المبادئ التي يتّفق عليها الماسون والصهيونية العالمية: "إن الصحافة والأدب أهم دعامتيْن من دعائم التربية؛ ولهذا السبب سوف نشتري أكبر عدد ممكن من الصحف الدولية حتى نقضي بهذا الشكل على الأثر السيئ للصحافة المستقلة، ونسيطر سيطرة كاملة على الروح البشري والعقل البشري".

وفيه أيضًا: "عندما نصبح أسياد الأرض، لن نسمح بقيام دين غير ديننا؛ ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد. وإذا كانت النتيجة التي وصلنا إليها مؤقتًا قد أسفرت عن خلْق جيل من الملحدين هنا وهناك، فإنّ هدفنا لن يتأثر بذلك؛ بل يكون ذلك مثلًا للأجيال القادمة التي ستشيع هذه التعاليم بين معتنقيها، وستشبع، وتطلب المزيد من تعاليم موسى لترفض هاتيْن الديانتيْن التاليتيْن لموسى ~ وهي: ديانة عيسى ومحمد النابتتيْن بين اليهودية في بعض أقطار الأرض.

هذه نماذج ممّا اتفقت عليه الصهيونية العالمية والماسونية العالمية.

أكثر من هذا: سوف نجد أنّ من أهداف الماسونية العالمية: أن يحكم العالَمَ حكومة واحدة. وقد أشرنا في حديثنا عن الصهيونية العالمية: أن من أهداف الصهيونية: أن يحكم العالم حكومة واحدة. ولذلك سوف نجد أنّ هذيْن التنظيمين -ويمكن كلمة "تنظيم" ليست دقيقة في إطلاقها على الماسونية، ولكن أجد أن هذه الكلمة أقرب الألفاظ المعبِّرة عن هذا النشاط الماسوني- نجد أن المتتبّع لأحوال العالم تاريخيًّا، يشاهد أنّ الكثير من الحكومات الشرعية قد أسقطتها الحركات الصهيونية والحركات الماسونية بفعل تخطيط مُحكَم يبدأ التخطيط له في المحافل الماسونية أو المحافل الصهيونية، ويبدأ تنفيذه إمّا بأيدٍ صهيونية أو بأيدٍ ماسونية. وليس أدل على ذلك: أن معظم الانقلابات التي وقعت في أوربا تمّت بأيد صهيونية أو ماسونية، وربما كانت الثورة الفرنسية وما أحاطها من أثر للماسونية العالمية وتدبير الماسونية العالمية في هذه الثورة أكبر دليل على ذلك. فإن أصابع الماسونية العالمية، وخطَر الماسونية العالمية، وأيضًا الصهيونية، كانت وراء الثورة الفرنسية في القرن السابع عشر؛ وهذا لا يخفى على أحد.

وقد أظهرت السجلات التاريخية والوثائق التاريخية التي ظهرت إمّا بلسان (نابليون بونابرت) أحيانًا، أو بلسان أحد أصفيائه وإخوانه أحيانًا أخرى، كلّها تُنبئ عن أنّ الماسونية العالمية كان لها دوْرها الفعّال في إشعال نار الثورة الفرنسية. ولذلك إذا تتبّعنا أحوال العالم، نشاهد أن كثيرًا من الحكومات الشرعية قد سقطت فعلًا بأثر وبتدبير، إما الماسونية إذا كان الاسم مستترًا، أو الصهيونية إذا كان الاسم ظاهرًا، كما حدث في الثورة الفرنسية كما قلنا، وأيضًا نجد أن (نابليون بونابرت) قد سقط بعد أن استغلّه الماسون أبشع استغلال. وهو إن كان

هاجم الماسونية في أوّل عهده إلَّا أنه ساعدهم في كثير من الأمور، فانقلبوا عليه. وهم الذين أسقطوه ونصبوا له الشباك، مع أنه هو الذي أدخل الماسونية في مصر. أيضًا أدخل العلمانية في مصر، ولكنهم مع ذلك عملوا على إسقاطه والتخلص منه.

سقوط الحكومة الشرعية في إنجلترا كان بتدبير ماسوني صهيوني. سقوط الدولة القيصرية في روسيا كان بتدبير صهيوني ماسوني.

وفضلًا عن ذلك، هم الذين صنعوا (دارون) صاحب نظرية: البقاء للأقوى. وهم الذين صنعوا (ماركس) صاحب الفكر الشيوعي. وهم الذين صنعوا (نتشه) الذي أعلن أن الإله قد مات. وهم الذين خضعوا أتباعهم من الماسون على مستوى العالم برفع الشعار: الحرية، والمساواة، والإخاء، وبعد الكشف عن وثائقهم قد تأكّد تمامًا أنّ هذه الصيحة التي أعلنوها في وجه العُميان الذين كانوا يسمّونهم ليست إلاّ من باب المخادعة للانضمام إليهم؛ فكانت بمثابة المصيدة التي تصيّدوا بها عقول السُّذّج من الناس.

الماسونية (٢)

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول	:	الوثائق التي كتبها الماسوني "وايزهاويت"	٤٣٧
العنـــصر الثــــاني	:	نظام تأسيس المحفل الأورشليمي الأوّل	٤٤٢
العنـــصر الثالـــث	:	مصادر المعتقدات الماسونية	٤٥٢
العنـــصر الرابـــع	:	الماسونية حرب مُعلَنة على الإسلام قديمًا وحديثًا	٤٥٨

الوثـائق الـتي كتبهـا الماسـوني (وايزهاويـت)

هذه وثيقة من أخطر الوثائق التي تدلّ على التحالف الماسوني الصهيوني على أن يَحكم العالم حكومة واحدة، يصدر القرار منها من رأس واحدة وفكر واحد؛ بل ينتج عن ذلك سيادة العالم بفِكر سياسي واقتصادي وعقائدي، مَنبعه وأساسه التنظيم الماسوني والتنظيم الصهيوني العالمي.

هناك رجل يسمّى (وليم جاي كار) كتب وثيقة حدّثنا فيها عن مخطّط (وايزهاويت). هذا الرجل كان مسيحيًا وارتد عن المسيحية ليعتنق الماسونية، وفي عام ١٧٧٠م استأجره المرابون الذين قاموا فيما بعد بتنظيم مؤسسة (روتشلد) اليهودية التي مدّت الحركة الصهيونية العالمية بالمال لتأسيس دولة إسرائيل. انضمّ إلى هذه الأسرة ووضع مخططًا فاجأ العالم فيه بما كان مخفيًّا عن العالم من أهداف الحركة الصهيونية والحركة الماسونية معًا.

يقوم هذا المخطط على تدمير جميع الحكومات والأديان الموجودة، إمّا بأسلوب مباشر أو أسلوب غير مباشر. ويتم الوصول إلى هذا الهدف عن طريق تقسيم العالم -ويسميه في الوثيقة: "الجوييم"، والمصطلح موجود في اللغة العبرية في التوراة -كلمة "جوييم" يعني: غير اليهودي- إلى معسكرات متنابذة، تتصارع فيما بينها إلى الأبد. وهو جنّد جنودًا شيطانية للبحث عن وسائل إثارة الصراع بين هذه المعسكرات بحيث لا تهدأ أبدًا. هذه المشكلات التي عمل على إثارتها بعضها يتّصل بقضايا اقتصادية، أو سياسية، أو عنصرية، أو اجتماعية. ويقضي هذا المخطط بتسليح كلّ معسكر بما يستطيع من أسلحة ليقضي كلّ فريق على الآخر، ثم تخلو الساحة فيما بعد للتنظيمات الماسونية، لتنقضّ على هذه الحكومات بعد

أن يكون الأمر بالنسبة لها قد تدهور، وضاعت قوّتها، ووصلت إلى حالة من الضعف؛ بحيث يسهل الانقضاض عليها والاستيلاء على بلادها، إمّا بسلم وهو المطلوب، أو بحرب إذا اقتضى الأمر.

وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر نظّم هذا الرجل (وايزهاويت) جماعة تسمّى: "النورانيّين" للبدء في تنفيذ هذا المخطط. ولجأ إلى الكذب مدّعيًا أنّ هدفه الوصول إلى حكومة عالمية تتكوّن من ذوي المقدرات الفكرية الكبرى ممّن يتمّ البرهان على تفوّقهم علميًّا وفكريًّا. واستطاع بذلك أن يضمّ إليه ما يقرب من أعداد كثيرة جدًّا من الأتباع وذوي المهارات الخاصة. ووضع بعض التعليمات التي أقنع بها أتباعه. ومن أهمّ هذه التعليمات أو البنود ما يلي:

البند الأول: استعمال الرشوة بالمال والجنس للوصول إلى السيطرة على الأشخاص الذين يحكمون العالم، أو يتولّون المناصب القيادية سياسيًّا واقتصاديًّا وإعلاميًّا. استعمال الرشوة بالمال والجنس، وإذا لم يستطيعوا أن يخضعوهم لهذا الأسلوب، يرتقوا إلى أسلوب التصفية الجسدية.

البند الثاني: يجب على الأتباع -الذين هم النورانيون- الذين يعملون كأساتذة في الجامعات والمعاهد العلمية: أن يهتمّوا اهتمامًا كبيرًا بالطلبة المتفوّقين عقليًّا، والمنتمين إلى عائلات وأسَر محترمة، ليولِّدوا فيهم الاتّجاه نحو الأمميّة العالمية، كما يجري تدريبهم فيما بعد تدريبًا خاصًّا على أصول المذهب العالمي، ويعلِّمونهم تعاليمه. ويتمّ هذا التخصيص عن طريق تخصّص طلاب يصطفون بمنح دراسية، ويلقّنون هذه التعاليم في المعاهد والجامعات التي ينتمون إليها.

البند الثالث: أن تكون حكومة واحدة في العالم بأسره هي الطريق الوحيد للخلاص من الحروب، والخلاص من الكوارث المتوالية. ويجب إقناع العالم أولًا

بهـذه الفكـرة، ثـم يجري ترسيخ هـذه العقيـدة لـدى الأبنـاء الـذين نـربّيهم في الجامعات، وأن نبيّن لهم أنّ الأشخاص ذوي المواهب والمَلَكات العقلية الخاصة لهم الحق في السيطرة على مَن هم أقلّ كفاءة وأقلّ ذكاء؛ لأن "الجوييم" -وأيضًا كلمة "الجوييم" هم غير اليهود- يجهلون ما هو صالح لهم جديًّا وعقليًّا وروحيًّا. يعني معنى هذا: أن الحكومة الواحدة لن يكون فيها شخص واحد من غير اليهود. لماذا؟ لأن غير اليهود يجهلون مصالحهم.

البند الرابع: إنّ المهمّة التي يجب أن تتعهد بها الشخصيات ذات النفوذ القوي، والتي تسقط في شِبَاك النورانيين والطلاب الذين تلقّوا التدريب الخاص هي: استخدامهم كعيون لنا وكعملاء لنا، وإحلالهم المراكز الحسّاسة خلف الستار لدى الحكومات المعنيّة، كخبراء أو استشاريّين؛ بحيث يكون الواحد في إمكانيته أن يقدّم النصح والنصح الذي يراه وحيدًا إلى كبار الدولة وإلى المسؤولين، وتوجيههم بطريق غير مباشر إلى سياسات يكونُ من شأنها بعد أمَدٍ طويل أن تَخدم المخطّط الذي نقصده لنحكم العالم من خلاله عن طريق التوصّل إلى التدمير النهائي لجميع الأديان، وجميع الحكومات التي عُهِد إليهم بمهامِّها في هذه البلاد.

البند الخامس والأخير: فيقتضي بأن يقوم النورانيّون بالوصول إلى السيطرة على الصحافة وأجهزة الإعلام، ثم على الأخبار، وتنوير أقلام جماهير "الجوييم"، بحيث ينتهي الأمر إلى حملْهم على الاعتقاد بأن تكوين حكومة واحدة هو الطريق الوحيد لحلّ مشاكل العالم.

هذه هي البنود التي اكتُشفت أخيرًا من مخطّط هذا الرجل الذي هو (وايزهاويت) الذي بدأ بتشكيل "جماعة النورانيِّين"، وبث بينهم هذه التعاليم. وحين اكتُشفت

هذه البنود واكتشف هذا المخطط، حاول كثير من المنتمين إلى الفكر الماسوني والفكر الصهيوني التبرؤ منه. ولكن إذا عدنا إلى "بروتوكولات حكماء صهيون" سوف نجد أنّ هذا المخطط مستقًى من بنود حكماء صهيون بندًا بندًا. وعليكم أن تراجعوا هذه "البروتوكولات"، وراجعوا العقائد التي نبّهنا إليها في المحاضرة، وهي أيضًا مستلّة من "بروتوكولات حكماء صهيون" لنثق أو لنعلم أنّ أهداف ومضامين وغايات التنظيم الصهيوني العالمي هي نفس أهداف الماسونية العالمية.

وفي عام ١٨٧٤م أرسلت نسخة من هذا المخطط إلى "جماعة النورانيِّين" الذين أوفدهم (وايزهاويت) إلى فرنسا لتدبير الثورة الفرنسية. وهذا أيضًا يؤكّد لنا دور النورانيّين أو الماسون في الثورة الفرنسية. ولما اكتشف هذا المخطط، ودرستْه الحكومة البلغارية بعناية وثيقة، أصدرت أمرًا لقوات الأمن لاحتلال محفل الشرق الأكبر الذي أسّسه (وايزهاويت) هذا، وأغلقته الحكومة إغلاقًا كاملًا، واعتبرت جامعة النورانيين جامعة خارجة عن القانون؛ وذلك في عام ١٧٨٥م. وأرسلت سلطات بافاريا إلى الدول والكنيسة بتفاصيل هذه المؤامرة. وبعدها أرسل (وايزهاويت) إلى أتباعه تعليمات بالتسلل إلى صفوف الجمعيات السرية الموجودة في فرنسا. وعندما شرعوا في التمهيد للتسلل إلى هذه الجمعيات السرية في إنجلترا وفرنسا، اكتُشف أمرهم، وبدأت الحكومات تضع أيديها عليهم فردًا فردًا.

ثم وجّهوا الدعوة إلى (جون ربسون)، هذا أحد كبار الماسونية في إسكتلندا، وكان يعمل أستاذًا للفلسفة في إحدى جامعاتها. وجّه (وايزهاويت) الدعوة إليه لزيارة الدولة الأوربية، ولكن هذا الرجل لم تَنْطَلِ عليه خدعة (وايزهاويت) هذا؛ لأنه -كما قلت- كان يعمل أستاذًا للفلسفة، وألّف كتابًا أسماه: "المؤامرة لتدمير كافة الأديان"، ونشره عام ١٧٩٨م، ولكن هذا الكتاب لم يَجد آذانًا

صاغية. وكان النورانيون الذين انتشروا في الجمعيات السرية في فرنسا وفي إنجلترا، والذين أمَرهم (وايزهاويت) بهذا، كانت هذه الجماعة عند التأمل وراء حركة (كارل ماركس) و(إنجلز) في نشر الشيوعية وموقفها ضد الأديان، خاصة عندما كتب (ماركس) كتابه: "رأس المال والبيان الشيوعي". وفي نفس الوقت، كانت هذه الجماعة -الذين هم النورانيون- كان نشاطهم وراء إظهار رجل معروف اسمه (نيتشه) ووراء فلسفته. هذا الفيلسوف الألماني الذي كان مذهبه الأساسي الذي تفرّع عنه فيما بعد المبدأ الفاشستي، ثم المبدأ النازي، وهو الذي أعلن موت الإله.

وهذه المذاهب الثلاثة التي أذنت للنورانيين عن طريق عملائهم بإشعال نيران الحربيْن العالميتيْن الأولى والثانية، التي هي: المذهب الشيوعي، والمذهب النتشوي، و المذهب الرأسمالي، في عام ١٨٣٤م. اختار النورانيون أيضًا الزعيم الثوري الإيطالي الذي هو: (مازيني) ليكون منفذاً لبرنامجهم لإثارة الاضطرابات في العالم الأوربي. واستمر هذا المنصب في يد (مازيني) حتى مات سنة ١٨٧٢م. وتلاحظون حضراتكم أن النصف الأخير من القرن الثامن العشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كان عصر الانقلابات في أوربا والثورات في أوربا، كان هذا كلّه بسبب إثارة الفتن والثورات التي كان وراءها أصابع الماسون وأصابع الحركة الصهيونية العالمية. والمذهب الشيوعي، والحركة النازية في أوربا، والحركة الرأسمالية، هذه الحركات الثلاث عند التأمل في أصول نشأتها الفكرية نجد أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالفكر الماسوني والفكر الصهيوني، إمّا بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر.

ومن المهم جدًّا أن تلاحظوا: أن الحركة الشيوعية أولّ ما قامت أرادت أن تسيطر على العالم لتنفذ الفكرة الماسونية التي هي: فكرة الحكومة الواحدة، قاومتْها الرأسمالية التي أرادت هي الأخرى أن تسيطر على العالم بفكْر واحد وحكومة واحدة. ولعلّ القرن العشرين قد مضى كاملًا في صراع بين هذيْن الاتِّجاهيْن: الاتِّجاه الشُّيوعيِّ، والاتجاه الرَّأسمالي، كل منهما يريد أن يسيطر على العالم تنفيذًا لهذا المبدإ: مبدإ الحكومة الواحدة، الذي كان وراءه الماسونية العالمية.

نظام تأسيس المحفل الأورشليمي الأول

أخي الطالب سوف نتناولُ بالحديث بعض التَّنظيمات الإدارية التي اتَّفق عليها المؤسِّسون للجمعيَّة الأولى، حين كانت تُسمى الماسونيَّة بـ"القوة الخفية".

أشرنا إلى: أنّ لفظ "الماسونية" لم يظهر على السطح إلاّ في القرن الثامن عشر، وجاء هذا اللفظ بديلًا عن أو وريثًا للفظ: "القوة الخفية"، هذا المصطلح الذي اتفق عليه المؤسِّسون للجمعية الأولى للقوّة الخفية. كما أشرنا أنّ هذا النوع من التنظيم عثر عليه عوض الخوري في كتاب "القوة الخفية" باللغة العبرية كما أشرنا، وقلنا إنه ترجمها للّغة العربية من الفرنسية بمعاونة رئيس جمهورية البرازيل. وفي الحقيقة لا نجد بين أيدينا وثيقةً أقوى ولا أفضل، ولا أكثر دلالة على تاريخ الماسونية، وتحقيق أهداف الماسونية، وأغراضها، وسلوكها، والأيمان، والمواثيق، والتنظيمات السرية التي كانت تتواصى بها، أدلَّ من هذه الوثيقة التاريخية المهمّة جدًّا، وهي: كتاب "القوة الخفيَّة" الذي ترجمه عوض الخوري من الفرنسية إلى اللغة العربية.

واستكمالًا لما بدأناه أريد أن أضع أمامكم تصوّرًا للهياكل التنظيمية للمحافل الماسونية، كيف تؤسّس؟ ما هي الوظائف والأدوار المنوطة بكل عضو في هذا التنظيم؟ وهل هناك علاقة تاريخية أو وصايا تاريخية متداوَلة تنساب أو تنتقل من المؤسِّسين الأوائل أو من الاجتماع الأول الذي تمّ على يد المؤسِّسين التسعة الذين أشرنا إليهم؟ هل هناك وثائق أو وصايا يتناقلها الماسون جيلًا بعد جيل إلى أصحاب المحافل الأخرى والمحافل الجديدة التي يريدون تنظيمها؟ هذا ما سوف نُلقي الضوء عليه في هذا اللقاء -إن شاء الله تعالى-. ونبدأ الطريق من أوّله:

قلنا: إن المؤسِّسين التسعة للجمعية الخفية اتّفقوا فيما بينهم على: أن يجتمعوا برئاسة الملِك (هيردوث)، وأن يتّفقوا على تنظيم معيّن، على طبيعة العمل، خطوات النشاط، الأيمان والمواثيق التي يتبادلونها فيما بينهم، اسم الجمعية، مكان الجمعية، والأماكن المختارة لتأسيس محافل أو جمعيات أخرى، ووظيفة الرئيس، وظيفة النائب، وما إلى ذلك... فاجتمع هؤلاء التسعة الاجتماع الأوّل الذي يُعتبر الاجتماع التأسيسي لهذا التنظيم الذي ما زال يَحوطه الغموض إلى الآن. حضر المؤسِّسون التسعة...

وهذه المعلومات حكاها (لوران) أحد الأحفاد أو الحفيد رقم (٩) من هؤلاء الذين اجتمعوا الاجتماع الأوّل لتأسيس القوة الخفية. وهذا (اللوران) -الذي هو الحفيد التاسع- هو الذي نقل إلينا هذه المعلومات من خلال -كما قلت- الكتاب المخطوط بالعبرية الذي ترجمه عوض الخوري. فكأنَّ معظم هذه المعلومات -خاصة الوثائق التي نشير إليها- مأخوذة من هذا الكتاب العبري الذي عثر عليه عوض الخوري بواسطة رئيس جمهورية البرازيل في حوزة (لوران) الحفيد رقم (٩) للجمعية التأسيسية الأولى للتنظيم الماسوني.

يحكي هذا المخطوط أو هذه الوثيقة: أن المؤسِّسين التسعة اجتمعوا بحضرة الملِك، وافتتح الجلسة الرئيس الذي هو الملِك، وبدأ يطلب من جميع الحاضرين الأيمان والمواثيق على أن يتكتّموا ما يسمعونه منه، فلم يعارض واحد منهم، وإنما قبِل الجميع أن يَحلف اليمين على ما يريده الملِك وما يطلبه منه، وصار تسجيل هذا اليمين أحد الخطوات الأساسية في الجلسة الأولى التنظيمية لهذا العمل الماسوني. وفي هذه الجلسة تقرّر باتفاق الجميع: أنّ الرئيس هو الذي يبدأ الحلف باليمين. وتنفيذًا لهذا الاتفاق، وقف الملِك وأخذ التوراة ووضعها على طاولةٍ أمامه، وقال للحاضرين التسعة: "اعملوا مثْل ما أعمل. مثلي تعملون تمامًا". وبدأ فوضع يده اليمنى على التوراة، فصنع البقية مثْلما صنع الملك، من الأوّل إلى التاسع. ثم أمسك كلّ منهم ورقة بيده، هذه الورقة فيها نص اليمين المقدّس المطلوب أن يؤدِّيَه كلّ واحد من الأعضاء التسعة أمام الملِك، الذي هو رئيس أوّل جمعية تأسيسية لهذه القوة الخفية. فأدى اليمين كلّ الحاضرين ومنهم الملِك. وبعد تأدية اليمين، عاد الكلّ إلى مكانه. ثم بدأ الملك بعد أن استوثق من أنّ الجميع حلف اليمين. وأهمّ ما في هذه العهود: المحافظة على الأسرار وكتمانها.

بدأ الملك يخطب فيهم خطبة تبيِّن الهدف من تأسيس هذه الجمعية، وأنّ أهمّ أهدافها: محاربة المسيحية، وأنها لا بد أن تُحاط بالكتمان. ثم بدأ يقول: "الآن - أيها الإخوان- قد تأسست جمعيّتنا: "القوة الخفية" لتبقى قوّتها، وتبقى أعمالها، وتبقى مبادئها، وغاياتها، وأهدافها، خفيّة إلى الأبد؛ حتى نكون قد قضيْنا على التدجيلات اليسوعية وناشريها". يقصد بالتدجيلات اليسوعية: الدِّين الذي نزل به السيد المسيح ~ ، سمّاه: التدجيلات.

ثم يقول: "ها نحن قد صِرنا إخْوة؛ فينبغي علينا أن نجعل من إخائنا هذا إخاءً حقيقيًّا، وليس كالإخاء الذي نادى به الدجال يسوع: إخاء رياء وخزعبلات. إن إخاءنا هو الإخاء الصحيح، وهو الأساس لجمعيّتنا، وهو دعامتها الوطيدة. وكل من ينضمّ إلينا أو إلى أحفادنا أو إلى خلفائنا المؤسّسين لمثْل هذه الجمعية، يكتسب سرّ الإخاء ويوسَم به. الآن أصبحنا مقيّدين بتلك المواثيق. الآن ينبغي أن يستعدّ كلّ منّا للعمل، وما هو العمل يا إخواني الأعزاء؟".

هكذا يخاطبهم الملك. "ما هو إلاّ محاولة قتْل ناشري تعاليم يسوع، وقتل كلِّ مبشّر بها كيفما استطعنا. ذلك هو مبدأنا النبيل، وتلك هي غايتنا الشريفة الدينية، وغايتنا السياسية. فلنوقنِ الآن أننا وجدنا الرابطة القوية التي تربط قلوبنا بعضها ببعض، وتعزّز مركزنا اليهودي. بهذه الرابطة وحدها نقهر أولئك الأعداء، ونسحق قوّتهم التي يزعمون أنَّهم يقومون بها للقضاء على ديانتنا، والاحتفاظ بتلك التعاليم المُضلّة اليسوعية التي أورثتهم إيَّاها رئاسة الدجال.

أما أنا فأقول لكم: ليكنْ أساسُ عملِنا الكتمان، والجرأة الدموية التي نمحوهم بها من على وجْه الأرض. ولْنورِّث هذه المبادئ لأحفادنا، ولنورِّث هذه الغايات وهذه الأهداف أحفادنا الذين سنسلِّم إليهم هذه الأسرار. وعليهم أن يورِّثوها لأبنائهم، حتى تستمرَّ مبادئنا وأسرارنا متوارثة على هذه الصورة من جيل إلى جيل. وأيّ إنسان منا صدق الخدمة لهذا المبدإ الشريف، فليكن هو نعْم الرجل؛ لأنه يخدم دِينه، ويخدم ربه؛ لأن هذه الأشياء الكريمة في عيوننا ينازعنا عليها أتباع المسيح. هل تعرفون شيئًا أكرم منهما، وأحق بغيْرتنا على ديننا من هذا؟ لقد قال الدجال: إنه صنع العجائب والمعجزات، قال: إنه ابن الله، وقال: إنه هو الله، فهل من جسارةٍ أقبح من هذه الجسارة؟! وكما نشر الأقوال التدجيلية التي

لا يصحّ أن نسكت عنها، كقوله: إنه مهلك اليهود، إنه قادر على الديانة اليهودية، ألاَ تروْن ما في هذا الزّعم المنكر من وقاحة وإهانة لنا لا يُشرحان بوصف في أقواله ولا في أفعاله؟! لقد ناهضوا ديننا، وحاولوا القضاء على ملّتنا؛ فهم الذين جرَّؤونا على إنشاء جمعيّتنا هذه -القوة الخفية- لنواصل الكفاح ضدّهم حتى نَقضي عليهم".

ثم بدأ الملك يطرح على الحاضرين بعض الأفكار، ليأخذ موافقتهم عليها. من هذه الأفكار: بدؤوا يتساءلون عن الاسم التاريخي لهذه الجمعية، وعن المكان الذي يختارونه لتأسيس هذه الجمعية. وطرَح عليهم هذه الأفكار في خطاب آخّر بعد الخطاب الأول، فقال لهم:

أيها الإخوان الأعزاء، إنّ شأن كلّ جمعية أن يكون لها مكان خاص يجتمعون فيه، وهذه القاعة التي عقدْنا فيها جلساتنا التأسيسية لا يوافق أحد أن تكون لنا ناديًا للاجتماعات السرية؛ لأنه يدخلها كثير من الناس علينا. ولما كان واجبًا أن يكون لذلك الاجتماع اسم خاص، فإنِّي أستحسن أن نؤسس ناديًا نسمّيه: "محفل أورشليم". وهذه هي المرة الأولى التي يُستخدم فيها هذا المصطلح، أوّل مرة في تاريخ المحافل الماسونية وتاريخ الماسونية العالمية يُستخدم فيها لفظ "محفل أورشليم"؛ ولذلك يُعرف هذا المحفل بأنه المحفل الأورشليمي الأوّل؛ وذلك تيمّنًا بذكْر وطننا المحبوب أورشليم، وطننا المحبوب هذا يذكِّرنا بالهدف والغرض والأساس الذي أُسِّست من أجْله هذه القوة الخفية. ولّما كان من الواجب أن تكون أعمالنا خفية عن جميع الأعين، لينطبق على جمعيّتنا اسم "القوة الخفية"، رأينا أن نختار لنا دهليزًا نجعل اجتماعاتنا فيه حتى لا يرانا أحد، ولا يسمعنا أحد، ولا يعرف بنا أحد. والدهليز الذي نختاره ينبغي أن نسمِّيه "المحفل".

هنا مصطلحان: مصطلح "المحفل"، ومضاف إلى المصطلح: الثاني أو الكلمة الثانية التي هي "أورشليم"، وأصبح المصطلحان أو الكلمتان مضافًا ومضافًا إليه من الألفاظ المتلازمة: "محفل أورشليم القدس".

في هذه الجلسة، حاول هذا الملك أو هذا الرئيس: أن يطرح أيضًا على بعض الحاضرين كثيرًا من الأفكار التي ينبغي أن تكون ورقة عمل تاريخية للتنظيمات والمحافل الآتية فيما بعد. فبدأ يقول لهم: إن أكبر واسطة نجعل بها جمعيّتنا عظيمة وخطيرة، ومشوِّقة للجميع هي: أن نكتم أسرارنا عن جميع الناس، فنخفي سرّ تأسيسها. هذا بند أوّل: أن نخفي سرّ تأسيسها".

ولعلّ هذا هو السبب الحقيقي في أنه لم تجتمع كلمة المؤرِّخين على رأي واحد حول تأسيس الماسونية، وحول الأسماء التي قامت بهذا التأسيس، إلى أن ظهر هذا المخطوط العبري الذي أحدِّثكم منه، وأحدِّثكم عنه الآن.

"ونكتم أيضًا أسماء مؤسِّسيها -أي أسماءنا نحن- على كلّ مَن ينخرط في سِلْكنا ويصير أخًا لنا. ولْيكُن هذا السِّر بيننا نحن التسعة فقط، لا يتجاوزنا إلى غيرنا كائنًا من كان. وكل منّا يورث هذا السر لأبنائه لأرْصَنِهم فكرًا، وأحدِّهم ذكاءً، وأكتمهم سرًا، وذلك بعد بلوغه سنّ الحادية العشرين، الذي هو السّنّ القانونية لمن يُسمح له بالدخول إلى التنظيم الماسوني. ولا يجوز لأحد من إخواننا أن يعرف شيئًا عن ذلك.

أما الطريقة الواجب اعتمادها فهي: أن نُفهم كلّ مَن يدخل معنا هذه الجمعية: أنّ هذه الجمعية قديمة جدًّا، ولا يعرف منّا شيء عن تاريخ إنشائها، ولا مَن هم

المؤسِّسون لها، وإن كانت منحلّة وميتة منذ عهد يسير، ربما جاء آخرون فأحيوْها. أمّا التاريخ فهذا مخفيّ عن الجميع.

هذه المعلومة الأساسية التي أخَذت من الرئيس وقتاً طويلاً في التأكيد عليها: أن تورث قضية الكتمان والسر للجميع وعن الجميع.

فبهذا الكتمان نُخفي الغاية التي من أجْلها أسّسنا هذه الجمعية، كما نُخفي تاريخ تأسيسها عن كلّ إنسان. وهذا هو صلاحنا الوحيد: نُخفي ذلك عن كل أخ ولو حصل على أعلى الدرجات؛ لأننا سنجعل لجمعيّتنا درجات، ونرتّبها أنا والإخوان: (مآب)، (وحيرام) -هؤلاء أحد الأعضاء التاسعة-. ونُطلعكم على نظامها لترَوْا فيها رأيكم. وبهذه الحيلة -أيها الإخوان- نوفِّر عدد الذين يشتركون معنا. لا نكتم سر تأسيسها على أنفسنا فقط، بل نكتم هذا السر عن كلّ ما يختص أو يتّصل بالجمعية، وكل ما نقرِّره نحن التسعة يظل مكتومًا بيننا نحن فقط".

هذا ملخّص ما دار في الاجتماع التأسيسي لهذه القوة الخفية، وملخّص للأهداف والغايات والوصايا التي تواصوا بها فيما بينهم. وتلاحظون: أنها تدور كلّها حول كتمان السر، عن تاريخ التأسيس وأسماء المؤسِّسين، ثم الهدف والغاية وهو: القضاء على اليسوع، والديانة اليسوعية، وأتباع الديانة اليسوعية، إما بالتصفية الجسدية، أو بتحويلهم إلى يهود.

ثم بعد ذلك انتقلوا -هؤلاء التسعة- إلى الممارسة العملية لهذا النشاط الماسوني. ويحكي المؤلّف في ١٠ أغسطس من نفس العام الذي عُقدت فيه هذه الجلسة الأولى التأسيسية: إنهم اجتمعوا مرة ثانية برئاسة الملِك ليتّفقوا على بداية

الممارسة للماسونية. فاجتمع هؤلاء التسعة، وخطب فيهم الملِك قائلًا: "إخواني الأعزاء، انتهينا نحن المؤسسين من مهمّتنا الأساسية، وعرفنا جيدًا أننا قد تقيّدنا بالأيمان الرهيبة وبالمواثيق المقدّسة؛ فينبغي الآن أن نسجِّل نص اليمين العمومية الواجب أن يَحلفها كلّ واحد منا، وكلّ من يريد أن يدخل إلى شركتنا، أيًّا كان نوعه. وها أنا أتلو صورة اليمين على مسامعكم، حتى إذا نالت استحسان الجميع نُقرُّها ونسجّلها لتكون وثيقة تاريخية يأخذ بها كلّ مَن ينتمي إلى الماسونية أو يريد الدخول إلى محافله".

ثم أوصاهم أن يكتبوا اليمين التالية، ويحتفظ كلّ واحد منهم بهذا النص المقدّس. جاء في هذا النص ما يلي: "أنا فلان بن فلان، أُقْسِم بالله، وأُقسِم بالتوراة، وأقسم بشرفي، بأنني بعد ما قبِلت ودخلت في جمعية "القوة الخفية"، وصرت عضوًا من أعضائها، لا أخون إخواني، لا أخون أعضاءها بشيء يضرّ بشخصيتهم، ولا بشيء من مقرّرات الجمعية، وبأنني أتّبع مبادئها، وأتّم جميع ما يقرّره أعضاؤها العاملون، وكلّ ما أؤمَر به من رؤسائي بكلّ دقة وطاعة وضبط، وبكل غيرة وأمانة، وبأنني أجتهد بتوفير عدد أعضائها، ولا أبوح بأيّ سر من أسرارها لأي من كان. وإن خنت بيميني هذه وثبَتَتْ خيانتي، فلْيُقطعْ عنقي، أو ينزل بي الموت بأيّ طريقة كانت". انتهى نص اليمين.

ثم بدأ الملِك يخاطبهم مرة ثانية عن بعض الأمور المتعلّقة بالتنظيمات التاريخية، فقال لهم: "أيها الإخوان، ينبغي في بادئ الأمر أن نبيِّن للداخلين معنا، ولا سيما إذا كانوا يهودًا: أنّ غاية الجمعية هي: الاتحاد اليهودي. وأمّا إذا كانوا غير يهود، فلا يلزم تفهيمهم شيئًا إلاّ بعد أن نكون قد درسناهم واختبرناهم، وتأكّدنا

صدقهم أنهم ليسوا جواسيس أو أنصاراً لأعدائنا اليسوعيين، وبعد أن يكونوا قد تدرّجوا في درجات الجمعية، وتبيّنا صدْق خدماتهم، وغيرتهم على اليهودية، وصدق محافظتهم على الدين اليهودي. بعد ذلك كلّه نقدّمهم رويدًا رويدًا في الوقوف على غايات الجمعية الأساسية، أي: قتل أتباع يسوع، وحفْظ الدين اليهودي. وعندئذ لا تبقى حاجة لإجبارهم بتنفيذ مقرّراتها، بل ينفذّونها من تلقاء أنفسهم.

فإذا سُئلنا عن تاريخ إنشاء هذه الجمعية، فلا نقول الحق، ولا حرج علينا في ذلك؛ لأنه لا حرج علينا في الكذب لأن مصلحة الجمعية ومصلحة الدِّين تضطرنا إلى الكذب. وينبغي أن نقتصر على هذا الجواب، وهو: وجدْت في خزائن الملك (هيرودث الكبير) أوراقاً تتضمّن قانونًا وعلامات وإشارات ورموزاً مصرية قديمة، وطلاسم وألفاظ غامضة تختص بهذه الجمعية. وتلك الأوراق مورّثة عن الأجداد الأقدمين الذين لا يُعرفون من أي جيل هم. أمِن عهد سليمان؟ أم من عهد داود؟ أم من أيام موسى؟ أم من القرون السابقة؟ لا ندري، لا ندري، لا ندري. وليكن هذا هو الجواب الذي نحاجج به الجميع. ويجب أن يُقرن بالكتمان. فهل تستحسنون ذلك أيها الأعضاء؟".

هكذا خطب الملِك، فقالوا جميعًا: نعم. هذه هي المبادئ الأساسية للقوة الخفيّة، وضعوها في الاجتماع الأول، واتّفقوا عليها، وأقسموا اليمين عليها، وأخذوا على أنفسهم العهود والمواثيق.

ثم يقدّم لنا الأستاذ (شاهين مكاريوس) أحد أقطاب الماسونية: النظام المتفق عليه في تأسيس المحافل الجديدة، وانضمام الأعضاء إلى هذه المحافل، في كتاب مختصر

وموجز جدًّا اسمه: "الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية". نشرَت هذا الكتاب دار مارون عبود في بيروت. ومن أهم التنظيمات التي أشار إليها عند تأسيس المحافل الجديدة: أنه ينقل عن المراجع التي اطلع عليها أن نظام التأسيس للمحافل يتمثّل في الآتي:

يتقدّم تسعة أعضاء بعريضة إلى المحفل الأكبر الذي ينتسبون إليه، ويطلبون فيه إنشاء محفل جديد بالاسم الذي يختارونه، والمكان الذي يرغبون تأسيس المحفل فيه، والزمان المتفق عليه للاجتماع. وبعد الترخيص لهم حسب الأصول الماسونية، يحضر الأستاذ الأعظم والمندوبون من قبل لتكريس المحفل الجديد رسميًا، وتثبيت موظّفيه. ويتلو الأستاذ الأعظم أو مندوبه الدعاء التالي: "اللهم يا عظيم، يا عليّ، يا مهندس الكون الأعظم. يا من وسِع كرسيّه السماوات والأرض. يا عليمًا بما نُخفي وبما نعلن. اهدنا الصراط المستقيم، وأعنّا بقوتك في جميع أعمالنا. وراعنا بعينك التي تفتح لنا الخير باسمك الأعظم، وتراعي بعين رعايتك، وتختم بالشكر منا لك على نِعمك التي لا تحصى". ثم يردّد الجميع لفظ: "آمين" بعد هذا الدعاء. ثم يتلو الأستاذ الأعظم الالتماس المقدّم من الأعضاء التسعة بتأسيس المحفل الجديد الذي يرغبون فيه.

هذا هو النظام المتّبع في تأسيس المحافل الجديدة. وتأسيس أو محاولة انضمام أفراد جُدد إلى المحافل لها أيضًا نظام جديد متعدّد الخطوات لا أريد أن أشغلكم به، لكنني سوف أشير في نهاية المحاضرات الخاصة بموضوع الماسونية عن أهمّ المراجع التي تناولت هذه الموضوعات بالتفصيل.

مصادر المعتقدات الماسونية

هذه التنظيمات لا بدّ أن يكون وراءها فكر عقائدي، وكتاب مقدّس، ونصوص يؤمن بها هؤلاء حتى يصدرون عنها؛ لأنّ هذه الأفكار التي نتحدّث عنها الآن أشبه بالعقيدة التي يموت الإنسان من أجْلها؛ فمن أين استمدَّ الماسون هذه الأفكار؟ ما هي المصادر الأساسيَّة التي أمْلت عليهم هذه التنظيمات؟ والغاية والهدف من وراء هذه التنظيمات؟ والخطوات المتّبعة، والأيمان التي يتحالفون بها فيما بينهم، من أين أخذوها؟

تكلّم العلماء كثيرًا في البحث عن المصادر الأساسية لهذا الفكر الماسوني، والذي اتّفق عليه العلماء فيما بينهم حول هذه القضية: أنّ أهمّ مصدريْن أساسيّيْن لهذا الفكر الماسوني يتمثل في: التوراة أولًا، والتلمود ثانيًا؛ التوراة باعتبارها الكتاب المقدس لليهودية، والتلمود باعتباره الشارح الوحيد للتوراة بقسميْها في العصور المتأخرة.

ويضيف البعض: أنّ هناك مصادر أخرى استقَتْ منها الماسونية بعض أفكارها؛ فيرى البعض: أن (هرمس) الهرامسة كان أحد المصادر التي استقى منها الماسون أفكارهم أو بعض أفكارهم. و(هرمس) هذا هو: إدريس النبي ~، وهو المذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧].

زعم بعض العلماء: أنّ معظم العلوم التي استقاها هؤلاء الماسون أخذوها من بعض تنظيمات في مصر القديمة، وخاصةً من (هرمس) هذا. والبعض يشير إلى (هرمس الثاني)، وهو أوّل مَن بَنَى مدينة بابل التي سُبي فيها اليهود فيما بعد في

عـصر الـسّبْي البـابلي. والـبعض يـشير إلى (هـرمس الثالـث)، وهـو مـصري، ويسمّى: "المثلث بالحكمة"؛ لأنه جاء ثالث الهرامسة الثلاثة الـذي هـو (هـرمس) الهرامـسة، و(هـرمس) البـابلي، و(هـرمس) المـصري القـديم. والـبعض يـشير إلى (أبذقليس) الذي هو حكيم من حكماء اليونان.

هـؤلاء جميعًا وضَعهم المؤرخون في مقدّمة المصادر التاريخية الـتي استقى منهـا الماسون عقائدهم.

لكـن التلمـود والتـوراة محـلّ اتّفـاق بـين جميـع المـؤرِّخين؛ لأنّ الـدارس لمـصادر العقيـدة الإسـرائيلية اليهوديـة، والمتتبِّع للفكـر الماسـوني والفكـر الـصهيوني عبْـر مراحل التاريخ، يَلْحظ بوضوح فكرًا واعتقـادًا دينيّـاً، وسلوكًا تطبيقيًّا في الحيـاة العامة، عند اليهـود وعنـد الـصهاينة وعنـد الماسـون، وهـذا الفكـر وهـذا الـسلوك يرتبط بمصدر دينيّ مكتوب ومقدّس عنـدهم، يُسمّى بالعهـد القـديم. وأيـضًا مـن المصادر المضافة إلى ذلك: مصدر التلمود.

وينبغي أن نأخذ فكرة عن هذيْن المصدريْن لأهميتهما في تـاريخ الحركـة الماسـونية والحركة الصهيونية العالمية؛ لأن التلمود أصبح عند الصهاينة وعنـد الماسـون أهـمّ مـن التـوراة، وأكثر قداسـة مـن التـوراة. وتعاظمـت التعـاليم المبثوثـة في التلمـود، وطغَتْ على تعاليم التوراة؛ بحيـث وجـدْنا أن كـلّ عبـارات التلمـود تتكـرّر كـثيرًا علـى ألْـسنة الحاخـامات ورؤسـاء المحافـل الماسـونية. ولّمـا تعـاظم شـأن التلمـود في نفوس الجماعات الإسرائيلية واليهودية على طول امتداد التاريخ، بحيث شملت كلّ تاريخ اليهود، وعقيـدة اليهـود، ومـستقبل الجماعـات الـصهيونية، قـرّر كبـار الحاخامات اليهود من رجال القعيدة اليهودية: أن يـسجِّلوا وصـاياهم وتعـاليمهم في سجلات يحتفظون بها. وبدأت عملية التسجيل والتـدوين لهـذه الوصـايا وهـذه

الخُطب التي كان يردِّدها الحاخامات في مواقع متعدّدة، وتركّزت عملية التسجيل والتدوين في مكان مهمّ جدًّا، في بابل أولًا، وفي فلسطين ثانيًا، وخاصة في أورشليم.

ووجدنا أنّ التعاليم التي سُجِّلت في أورشليم أَطلق عليها اليهود اسم: "المشناة"، وهي تمثل قسماً مهماً جدًّا من التوراة. وقام بها علماء من أحبار اليهود كانوا يسمّوْن: "التنائي". كان أوّلهم (شمعون) الصدّيق. وقد قام هؤلاء العلماء بعد رجال المجمع الأكبر ابتداء من سنة عشر إلى ٢٢٠ ميلادية، بدؤوا بتأسيس نصوص يُضفون عليها شيئًا من القداسة؛ ولذلك سُمِّيت بالتعاليم الشفوية. وأطلقوا عليها اسم: "المشناة" التي هي المصطلح الفني لجزء كبير من التوراة، وهي خلاصة عن تعاليم شفوية ومجموعة من قوانين اليهود السياسية والدينية، أقرّها العلماء اليهود الكبار، والتي بدأها الحبر (شمعون الأول)، نسّقها ورتّبها وعاونه في عملية التنسيق مجموعة من الأحبار اليهود. وظلّت عملية التدوين والإضافات التي بدأت من سنة ١٦٦م حتى جاء القرن السادس الميلادي، فاكتملت تعاليم "المشناة"، وأصبحت مقسّمة إلى عدّة أقسام وعدة بحوث، يختص كلّ بحث وكلّ قسم منها بفكرة معيّنة بالزراعة، والخروج، وسفر كذا، وسفر كذا... إلى آخره...

أما القسم الثاني أو الشّق الثاني من مجموعة القواعد والآداب والتعاليم والتفاسير: سمّوْها: "الجمارة". وهذا القسم من بين معانيه: إتمام الشيء، أو التكميل، أو الإكمال. وهي تقوم في مجموعها على جملة من الروايات والأحاديث الشفوية المسموعة من الحاخامات على مدى أجيال متعاقبة. وهي أيضًا عبارة عن توضيح وشرح وتفسير لأجزاء من "المشناة".

هـذان القسمان: "المشناة" و"الجمارة" يُمثّلان دائرة المعارف اليهوديَّة، أو دائرة المعارف المقدَّسة، أو الكتاب المقدس، أو العهـد القديم. ومن مجموع ما تحتويه "المشناة" وما تشتمل عليه "الجمارة" يتكوّن المصدر الديني المقدّس الرئيسي عند الماسون، وعند الصَّهاينة، وعند اليهود عمومًا، وهو المُسمى بالتّلمود، الذي أصبح بين أيدينا الآن بعدَ مراحل طويلة مرَّ بها، منذ ابتدأ تدوين الجزء الأول في أورشليم وفي بابل، الذي هو "المشناة"، ثم الجزء الثاني الذي هو "الجمارة"، ثم التعليقات التي أضيفت إليهما ليأخذ اسمه الحديث: التلمود.

وطُبع التلمود عدّة طبعات، وانتشر في بعض المؤسسات العلمية. وبدأ اليهود يتحفّظون عليه في كثير من الأوقات؛ لأنه يشتمل على تعاليم ومبادئ مُخزية، حتى إن بعض الأحبار سمَح لنفسه أن يمدّ يديه إلى تعاليم التلمود ويحذف منها ما يراه مُخلًا بالآداب العامة، وبالذوق العام، وبالأخلاق، وبالأديان الوضعية والسماوية، ممّا يتصل بالأنبياء وبذات الله ﷻ، وبالأخلاق العامة.

وينبغي أن نعلم: أن التلمود يُمثِّل عند اليهود وعند الماسون عمومًا: الكتاب المقدس، لا أقول الوحيد وإنما أقول الأهمّ؛ لأنه يفوق في أهمّيّته وقداسته والتعلق به: المصدر الديني الأمّ الذي هو التوراة. ذلك يبيِّن لنا أهمية التلمود بالنسبة للتوراة، مع أن التوراة هي الكتاب المقدس الذي نزل على موسى ~ يُعتبر في المرتبة التالية بعد التلمود الذي يُخفونه ويُخفون تعاليمه عن كثير من الناس، مع أن التوراة هي التي نزلت على موسى ~ . والذي يقرأ بعض نصوص التلمود، يُدرك مدى التحريف الذي نال العقيدة اليهودية على يد أحبارها، وصدَق الله العظيم حين يقول عن اليهود بأنهم يحرِّفون الكلِم عن

مواضعه، ويقول: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٧٩]؛ وهذا هو ديدن اليهود وطابَعهم العام.

وسوف أقرأ بعض النصوص العقائدية التي ورَدت في التلمود، والتي هي عبارة عن أمور مُخجلة، امتدّت يد بعض الحاخامات إلى بعض الطبعات للتّلمود فحذفتها منه؛ لكنها موجودة في بعض الطبعات؛ لأن التلمود قد طُبع أكثر من مرّة؛ فطبع في سنة ١٥٩٠م طبعة، وطبع ١٦٤٤م، و ١٧٩٩م. وعلى سبيل العلم، فإنه يوجد طبعة من هذا الكتاب في مكتبة جامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية.

مّما جاء في هذا الكتاب، توثيقًا لأهمية أقوال الحاخامات مّما يدل على أنها أكثر قداسة من التوراة نفسها ومن أقوال الأنبياء، ما يلي. وهذا النص موجود في الطبعة التي هي ١٥٩٠م الذي أشار إليه أكثر من باحث. فأشار إليه الدكتور هلال فارحي في كتابه: "أساس الدين"، وأشار إليه أسعد زروق في كتابه: "التلمود والصهيونية" صادر عن مركز الأبحاث التابع لمنظمة الأمم المتحدة، وأشارت إليه مطبوعات كثيرة صادرة عن المنظمة الفلسطينية.

جاء فيه ما يلي:

"اعلم: أنّ أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء". ومِن قبْله في طبعة حوالي ١٥٠٠م قال أحد الحاخامات: "إنّ من يقرأ التوراة بدون "المشناة" و"الجمارة"

فليس له إله". جاء ذلك في كتاب أسعد زروق وفي كتاب "الماسونية ذلك العالم المجهول" في صفحة ١٧٠.

ولقد بلغ الغباء الديني والتعصّب العنصري عند هؤلاء الماسون وهم يسجِّلون تفاسير دينهم ومعتقداتهم: أنهم اختاروا نماذج لنوع من الأساطير الخرافية، وحاولوا أن يدسّوها على هذا الكتاب. فمِن الأخبار التي احتواها التلمود عن قداسة وعظمة الحاخامات اليهود ما يلي:

"إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضُها، ولا تغييرها ولو بأمْر الله. وقد وقع الاختلاف يومًا بين الله وبين علماء اليهود في مسألةٍ ما، وبعد أن طال الجدل تقرّرت إحالة المشكلة إلى أحد الحاخامات الربِّيِّين، واضطر الله أن يعترف بخطئه بعد حُكم الحاخام المذكور لصالح زميله". أرأيتم هذا العبث؟!

وأكثر من هذا، يقول المناحم الربّي، وهو من كبار الحاخامات: "إنّ الله -تعالى عمّا يقولون علوًا كبيرًا- يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلّها في السماء، وإنه يجب الالتفات إلى أقوال الحاخامات أكثر من الالتفات إلى شريعة موسى".

وبقدر ما في تعاليم التلمود من حثٍّ على التعصب ودعوى العنصرية اليهودية، والقول بأفضلية الشعب اليهودي، فإنّ فكرة الخرافة والأسطورة تشعّ بين جنبات هذا الكتاب. فنرى فيه عن مذلّة اليهود وضياعهم، وتفتّتهم وتشعّبهم بين الأجناس والشعوب: أنّ الله يندم على ترْكه اليهود في حالة التّعاسة التي يعيشون فيها؛ حتى إنه يلطم ويبكي كلّ يوم، فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويّهما مِن بدء العالَم إلى نهايته، وتضطرب الأرض في أغلب الأوقات فتحصل

الزلازل والبراكين. هكذا يؤمن الماسون والصهاينة واليهود بنصوص موجودة في التلمود.

ثم ماذا؟ وأمّا عن نظرتهم لتعاليم الله ﷻ، ونظرة التلمود للحق سبحانه، ولصفاته وبما يجب له من صفات الكمال، وما ينزَّه عنه من صفات النقص، ففي التلمود: أنّ الله يخطئ ويصيب؛ لا بل إنه كثير الخطإ، وكثيرًا ما يطلب إلى القائمين على أمر التلمود أن يغفروا له أخطاءه. وليست أخطاء الله تقع بينه وبين الذين اصطفاهم فقط، وبيْنه وبين الذين جعلهم أكثر عصمةً من خلْقه كالأنبياء؛ بل إنّ أخطاء الله في التلمود قد وقعت منه في الكون الكبير حين خلقه. فهو مثلًا كما تقول آيات التلمود: قد أخطأ لكونه جعل القمر أصغر من الشمس. وعن هذه الخطيئة تسجّل آيات التلمود أنّ حوارًا حدث بين الله والقمر، وأنّ القمر قال لله: أخطأتَ حيث خلقْتني أصغرَ من الشمس، فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه، وقال: اذبحوا إليّ ذبيحة أكفِّر بها عن ذنبي؛ لأني خلقْتُ القمر أصغر من الشمس... إلى آخِرِ هذه الخرافات التي امتلأت بها نصوص التلمود!

الماسونية حرب معلنة على الإسلام قديمًا وحديثًا

لكن هناك قضية أُحبّ أيضًا أن أتلوها عليكم لأنها تفسِّر لنا ما يَحدث بين المذاهب الفلسفية المعاصرة الآن، وتُفسِّر لنا ما يفعله الصهاينة في أرض فلسطين. فمِن بيْن دعوى العنصرية التي تفيض بها آيات التلمود: أنّ الإسرائيلي أفضل عند الله من الملائكة. فإذا ضرب أُمَمِيّ أو اعتدى على إسرائيلي فكأنه اعتدى على العزّة الإلهية؛ ذلك لأنّ اليهودي حسبما يُملي عليه دينُه التلمودي هو جزء من الله؛ وبما أن الابن جزء من أبيه فإنه إذا ضَرب أمميّ إسرائيليًّا فالأمميّ يستحق

الموت؛ لأن اليهود لو لم يُخلقوا لانعدمت البركة من الأرض، ولما خُلقت الأمطار والشمس. بل تقول عقيدة التلمود: لما أمكن لباقي المخلوقات أن تعيش، ومن أجْل هذا الامتياز الاختياري والاصطفاء الإلهي لليهود وللصهاينة، يؤمنون بأنّ الفَرْق بين درجة الإنسان العادي غير اليهودي وبين الحيوان كالفَرْق تمامًا بين اليهودي وباقي الشعوب غير اليهودية.

ولعلكم تلاحظون: أنّ هذه الدعاوى العنصرية يَطفح بها الفكر الصهيوني، والفكر الماسوني، والفكر اليهودي عمومًا. أردت أن أقرأ على حضراتكم هذه النصوص لأنها تُمثّل عقيدة أساسية في الفكر الماسوني والفكر الصهيوني، وهي في نفس الوقت تمثِّل ورقة عمَل للسلوك الصهيوني على الأرض، وفي الواقع الآن، وفي علاقة الصهاينة بغيرهم من أمم الأرض.

هذه النصوص وغيرها كثير، يؤكّد لنا: أن مداخل الماسونية ومداخل اليهود، ومداخل الصهيونية إلى استقطاب الآخَرين وإلى محاربة الآخرين هي مداخل عقائدية بالدرجة الأولى؛ ولذلك تجدهم يركّزون على أتباع المسيح ~ بالتشكيك في عقيدة المسيح، وأحيانًا بالتشكيك في صحّة نسبه، ويدخلون على المسلمين كذلك بالتشكيك في عقيدتهم، وفي صحة قرآنهم.

وهناك نص أيضًا أودّ أن أضعه أمام حضراتكم لأنه يبيِّن لنا: أن هؤلاء الناس لا يَفتؤون يتتبّعون أتباع الأديان السماوية، سواء كانت مسيحية أو إسلامية ولا فَرْق بينهما، فإذا كانوا في الماضي يتتبّعون أتباع المسيح ~ فإنهم في العصور التالية وبعد ظهور النبوّة المحمدية بدؤوا يلفتون أنظارهم نحو الإسلام ونحو نبيّ الإسلام؛ ولذلك يشير واحد منهم، واسمه (لافي موسى لافي) في بعض الوثائق

الماسونية حين يقول: "لقد ظهر دجّال آخَر ادّعى التنبؤ بالوحي، وأخذ ينادي بالهداية مرشدًا للعرب الذين كانوا يعبدون الأصنام ليهديهم إلى الحق، ويسنّ لهم الشرائع، مخالفًا بذلك ديننا، فمال إليه أتباع كثيرون في مدّة قصيرة، فقمنا نناهض دعوته ونناهض سنَنه، ونصرخ بأصواتنا الخفيّة والمعلنة لنُفهم الناس أنه دجّال كيسوع السابق عليه. وبلغ تعبنا أقصى الدرجات، لكن لم يحالفنا النجاح. وكلّما ناهضنا تعاليمه وجدناها تنتشر في مكان آخَر، غير أن هناك فرقًا كبيرًا بين أتباع يسوع وأتباع محمد. فأتباع اليسوع يتناسوْن دينهم بسرعة، أمّا أتباع محمد فهم يَكثرون ويتمسّكون بهدي محمد؛ ولذلك قد مكّنوا لأنفسهم في آفاقٍ كثيرة من الأرض".

إلى أن يقول: "وأنه ينبغي أن يَعلم الجميع: أنّنا آليْنا على أنفسنا ألاّ ننفكّ عن ملاحقتهم كما لاحقنا أتباعَ يسوع، وجعلنا النّكير والتشديد عليهم من شروط ديانتنا شرطًا يلِي شرطًا. فكما حاربْنا أتباعَ يسوع، لا بد أن نحارب أتباع الدجال الجديد؛ ولذلك كنا نُصدر الأوامر متتابعةً إلى جميع الهياكل والمحافل الماسونية، مصرِّحين فيها بأنه من أشدّ الأشياء تحريمًا علينا: اعتبار هاتيْن الديانتيْن ديانتيْن صحيحتيْن؛ لأنه لا دين إلاّ الدِّين اليهودي، وكلّ ما سواه من الأديان المزعومة فاسد ومرذول. أمّا كفَتْنا البلابل التي أحْدَثها الدّجال يسوع حتى جاءنا الدجال الآخَر يريد بلْبَلَتنا وإثارة الشغب علينا؟! إذاً لنجْعَلْ مقاومتَنا واحدة. ذلك صلبناه -يشير إلى عيسى عليه السلام-، أمّا هذا فلم نحتَجْ إلى صلْبه لأننا أمتْناه مسمومًا".

"أمتْناه": الضمير هنا يعود إلى النبي -محمد ﷺ-. يصرّح هذا الماسوني بقوله: "أننا أمتْناه مسمومًا"، يشير بذلك إلى السّمّ الذي وضَعه اليهود للرسول في المدينة، حين قدّموا له كتف شاة مسمومة ليأكل منها ﷺ. والقصّة معروفة في السِّيرة النبوية لا داعي إلى تكرارها. هذا يبيِّن لكم الخطّ التاريخي الموصول الذي لا ينقطع للكيد اليهودي للإسلام وللمسلمين وللمسيحية عمومًا.

نقطة مهمّة ألفت النظر إليها:

هذا التنظيم الماسوني، ألاحظ في بعض الفِرق التي ظهرت في التاريخ الإسلامي نوعًا ولونًا من التقارب بين الفكر الماسوني والفِكر الذي ظهر على أيدي كثير من الفِرَق التي غالت في التأويل، كالباطنية مثلًا، أجد عندهم بعض الأفكار الماسونية، "الإسماعيلية"، "الكيسانية"، "الديصانية"، بعض غلاة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود، أرى عندهم بعضاً من الأفكار الماسونية. فهل تسللت هذه الأفكار الماسونية عبر منافذ تاريخية تحتاج إلى بحْث إلى بعض الفِرَق الإسلامية؟ هذا فرض يحتاج إلى تثبّت، وأتركه للباحثين ليبحثوا فيه. في الفرقة "الإسماعيلية"، عند "إخوان الصفاء"، عند "الباطنية"، عند "القرامطة"، عند غلاة "الصوفية"، نجد هذا اللون من الأفكار.

قائمة المراجع العامة

١. (أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها)
عبد الرحمن حسن الميداني. دار القلم، ١٩٩٠م.

٢. (أسس الحضارة الإسلامية ورسائلها)
عبد الرحمن حسن الميداني. دار القلم، ١٩٨٠م.

٣. (أصول التنصير في الخليج العربي : دراسة وثائقية)
كونوي زيقلر، مازن صلاح مطبقاني، مكتبة ابن القيم، ١٩٩٠م.

٤. (الاتجاهات الفكرية المعاصرة)
علي جريشة، دار الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.

٥. (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)
محمد محمد حسين. دار الرسالة، ١٩٩٣م.

٦. (الاستشراق رسالة استعمار)
محمد إبراهيم الفيومي. دار الفكر العربي، ١٩٩٣م.

٧. (الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم)
مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي، ١٩٧٩م.

٨. (الإسلام والاستشراق)
محمود حمدي زقزوق. دار القلم العربي ١٩٩٤م.

٩. (الإسلام والمستشرقون)
عبد الجليل شلبي. دار الشعب ١٩٧٧م.

١٠. (التبشير والاستشراق)
محمد عزت الطهطاوي ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٩١م..

١١. (التبشير والاستعمار في البلاد العربية)
مصطفى خالدي ، وعمر فروخ ، المكتبة العصرية ، ١٩٨٦م.

١٢. (التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي)
عبد العزيز العسكر ، مكتبة العبيكان ، ١٩٩٣م.

١٣. (الغزو الفكري والتيارات المحاربة للإسلام)
علي عبد الحليم محمود ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المجلس العلمي ، ١٤٠٤هـ.

١٤. (الغزو الفكري)
أحمد عبد الرحيم السايح ، سلسلة كتب الأمة ، الدوحة ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٤١٤ هـ.

١٥. (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار)
محمد البهي ، دار الفكر ، ١٩٧٠م.

١٦. (الماسونية في العراء)
محمد علي الزعبي ، مؤسسة مطابع معتوق ، ١٩٧٥م.

١٧. (الماسونية)
أحمد عبد الغفور عطا ، رابطة العالم الإسلامي ، ١٩٧٨م.

١٨. (الماسونية)
محمد صفوت السقا ، رابطة العالم الإسلامي ، ١٩٨٢م.

١٩.(المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في ا لمجتمعات، وموقف المسلم منها)
غالب بن علي العواجي، المكتبة العصرية الذهبية، ٢٠٠٦م.

٢٠.(الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة)
إصدار الندوة العالمية للشباب، ١٩٨٩م.

٢١.(أهداف الصهيونية)
فريدرتك رزيق، مكتبة منير القادري، ١٩٦٠م.

٢٢. (تاريخ الفكر الفلسفيِّ في الإسلام)
محمد علي أبي ريان، دار النهضة العربية، ١٩٧٦م.

٢٣. (تحصين ا لمجتمع المسلم)
حمود بن أحمد الرحيلي، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٨م.

٢٤.(حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة)
جميل عبد الله المصري، دار أم القرى، ١٩٩٦م.

٢٥. (في الغزو الفكري)
نذير حمدان، مكتبة الصديق، ١٩٨٠م.

٢٦. (مستشرقون سياسيون، جامعيون، مجمعيون)
نذير حمدان، مكتبة الصديق، ١٩٨٨م.

٢٧. (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)
إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥م.

٢٨. (**منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري**)
محمد حسني الزين، المكتب الإسلامي، ١٩٧٩م.

٢٩. (**أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي**)
صابر طعيمة، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.

٣٠. (**فضائح الباطنية**)
أبو حامد الغزالي، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، ٢٠٠١م.

المراجع الإلكترونية:

1. www.islamadvice.com/akida/akida22.htm
2. www.islamhouse.com/p/58390
3. www.islamweb.net/ShowPic.php
4. www.islamweb.net/ver2/archive/readArt.php
5. www.islamweb.net/ver2/archive/readArt.php?id=67939
6. www.iu.edu.sa/Magazine/2/16.htm
7. www.kalemat.org/sections.php?so=va&aid=82

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2008